الماويّة : نظريّة و ممارسة

عدد 31 / جوان 2018

شادي الشماوي

العلم و الثورة الشيوعيّة

فصول و مقالات من كتابات أرديا سكايبراك

مقدّمة الكتاب 31 :

ما من شكّ في أنّ الغالبيّة الغالبة من القرّاء سيثيرون بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة ، عاجلا أم آجلا ، سؤال من هي أرديا سكايبراك التي ترجم لها شادي الشماوي هذه الفصول و المقالات و يقدّمها إلى القرّاء باللغة العربيّة ، لهذا لتكوين فكرة عن هذه المنظّرة الشيوعية ، أوّلا و قبل كلّ شيء ، نعيد إلى الأذهان ما صغناه بإقتضاب كتقديم لها في سبتمبر 2016 ضمن كتابنا عدد 25 المتوفّر بمكتبة الحوار المتمدّن و الحامل لعنوان **" عن بوب أفاكيان و أهمّية الخلاصة الجديدة للشيوعية تحدّث قادة من الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية "** : " أرديا سكايبراك من القيادات النسائيّة لهذا الحزب منذ عقود ... هي ذات خلفيّة علميّة بمعنى أنّ تكوينها و دراستها الأكاديميين مجال إختصاصهما هو البيولوجيا كما تخبرنا بنفسها فى حوارها الصحفي المطوّل لسنة 2015 فى جريدة **" الثورة "** . و قد ألّفت عديد المقالات و الكتب الهامة و منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب **" عن الخطوات الأولى و القفزات المستقبليّة : بحث فى ظهور الإنسان و منبع إضطهاد النساء و طريق التحرّر "** (و قد ترجمنا و نشرنا فصلين منه هما الفصل الثالث و الفصل الرابع) و كتاب **" علم التطوّر و أسطوريّة فكر الخلق : معرفة ما هو واقعي و لماذا يهمّنا "** و كتاب **" العلم و الثورة عن أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة و قيادة بوب أفاكيان- حوار صحفي مع أرديا سكايبراك "** هو مضمون الحوار الصحفي المشار إليه أعلاه ."

و إلى ذلك نضيف تعريفا نوعا ما رسميّا بالكاتبة ورد فى مؤلّفها ، **" علم التطوّر و أسطوريّة فكر الخلق : معرفة ما هو واقعي و لماذا يهمّنا "** المنشور سنة 2015 :

" كانت أرديا سكايبراك تتدرّب رسميّا لتصبح بيولوجيّة مختصّة فى البيولوجيا التطوّرية والبنية الإجتماعية. و قد كانت ألزمت نفسها بنشر العلم و المنهج العلمي على أوسع نطاق ممكن إذ كانت ينتابها شعور قويّ بأنّه عندما يُحرم الناس من المقاربة العلمية للواقع ، يُسلبون كلاًّ من التقدير التام لجمال العالم الطبيعي و ثرائه و وسائل الفهم الحقيقي لديناميكيّة التغيّر فى الطبيعة و المجتمع .

و تنحدر سكابراك من خلفيّة عالميّة فقد سافرت كثيرا و تفاعلت مع أناس من ثقافات عديدة . و منذ أن كانت طفلة تلقّت تشجيعا على أن تصبح مفكّرة نقديّة و دُرّبت منهجيّا كمثقفة حسب التقاليد الأوروبيّة . و قد شمل هذا مروحة واسعة ومتنوّعة من الإهتمامات و الهوايات فى الكثير من المجالات المتنوّعة ، لكلّ من الفنون و العلوم .

و قد تأثّرت سكايبراك تأثّرا عميقا ، أثناء دراستها فى المعاهد و الكلّيات ، بالهزّات الكبرى لستّينات القرن العشرين و كيف أنّ " الثورة كانت فى الجوّ ". و تأثّرت كبير التأثّر بحرب الفتنام و مالكولم أكس و الفهود السود و الحركة الراديكالية لتحرير النساء و الصين و الثورة الثقافيّة و ماو – بالنسبة لها كما بالنسبة لآخرين كثر .

و متابعة لشغفها بالبيولوجيا ، فى بدايات سعينات القرن العشرين و أواسطه ، راكمت سكايبراك تجربة هامة فى البحث فى المخابر و على أرض الميدان . و كمكتشفة حقيقيّة ، كانت فى غاية السرور لمّا كانت تستطيع المزج بين نقاش آخر المفاهيم النظريّة مع زملائها البيولوجيّين و التوغّل فى الغابات الإستوائيّة الرطبة أثناء بعثات بحث على أرض ميدان ما . وقد درّست العلوم على مستوى المعاهد و نشرت مقالات فى مجلاّت مختصّة ، و تحصّلت على شهادة الماجستير ، و كانت فى سبيلها نحو الحصول على دكتوراه بيولوجيا .

و كعاملة شابة بمجال العلم ، كانت سكايبراك تعيش بالضبط الحياة التى أرادت عيشها ، لكن فى نفس الوقت ، ظلّت تشعر بفظاعة الظلم الإجتماعي و شعرت بالحاجة الماسة إلى التغيير الثوري للعالم . و قبل مناقشة أطروحة دكتراها ، إتّخذت القرار الصعب بترك برنامج الدكتوراه لتكرّس نفسها كلّيا للإلتزامات الإجتماعية و السياسيّة الأوسع . و مع ذلك ، لم تفقد أبدا شغفها بالبحث العلمي و عشقها للمغامرة و حماسها لتطبيق المناهج العلميّة و نشرها فى صفوف الشعب إذ شعرت أنّه دون ذلك لا يمكن أنيوجد فم سليم للواقع أو لكيفيّة تغييره .

و شملت تجارب حياة أرديا وعملها كلاّ من المناطق الدينيّة الكبرى عبر العالم و الأماكن البرّية الغربية ، كلاّ من التدريس الأكاديمي و العمل فى المصانع مقابل أجر أدنى . وهي مرتاحة كذلك فى النقاش مع الفنّانين و المثقّفين أو الجلوس مع سكّان حيّ حول طاولة المطبخ للحديث عن الحياة و الفلسفة .

و ككاتبة ذات أفق شيوعي ثوري ، بحثت جملة من المواضيع الإجتماعية و السياسيّة و العلميّة و الفلسفيّة – و تشمل كتاباتها " **عن الخطوات الأولى و القفزات المستقبليّة : بحث فى ظهور الإنسان و مصدر إضطهاد النساء و طريق التحرّر** " ؛ و" **بعض الأفكار حول الدور الإجتماعي للفنّ** "؛ و" **ليس فى جيناتنا وخوض الهجوم المضاد الإيديولوجي** "؛ و " **تذكّر ستفان جاي غولد** " ؛ و " **الإشتغال على الأفكار و البحث عن الحقيقة : تأمّل فى القيادة الثوريّة و السيرورة الفكرية** " .

و كقارئة نهمة تلتهم الكتب إلتهاما و كمتابعة للثقافة الشعبيّة ، تعتمد على التاريخ و الفلسفة و الأنتروبولوجيا و العلوم السياسيّة و الفنّ و الموسيقى و الأفلام – مثلما تعتمد العلوم الطبيعيّة – لتجعل من الموضوع التى تتطرّق إليه موضوعا ينبض حيويّة . و فى موقع الجوهر فى ما تكتبه ، و ما يُبلغه كتابها الأخير بصفة قويّة ، أهمّية " معرفة ما هو حقيقي – و لماذا يهمّنا ".

و نحن إذ بذلنا ما بذلنا من الكدح لتعريب المادة التي بين أيدى القرّاء و نسخها و إخراجها في شكل كتاب لا نقوم بالواجب الشيوعي الثورى فحسب بل ننهض بمسؤوليّة نراها راهنا واحدة من أوكد المهام العديدة الملقاة على كاهل الشيوعيين الثوريين و الشيوعيات الثوريات ألا وهي التعريف بالمنظّرات الشيوعيّات الثوريّات اللاتى شعرنا ، لا سيما عربيّا ، أنّهنّ مغمورات ولا يوفيها المهتمّون بالشيوعية عامة حقّها في الدراسة و التمحيص و النقد و التفاعل الإيجابي كأنّها دون المنظّرين الذكور مستوى أو تمكّنا من مواضيع النقاش و البحث عن الحقيقة و المسك بها و الدفاع المستميت عنها . و من هنا يأتي هذا الكتاب لبنة أخرى في ما قد يعتبر كسرا للطوق المضروب عن وعي او عن غير وعي على المنظّرات الشيوعيات الثوريّات و قد أنف لنا التعريف بجملة من أعمال نظريّة ماركسيّة في كتابنا السابق ، الكتاب عدد 30 الذى إخترنا له من العناوين " **الماركسيّة و النسويّة** " – تجميع و نشر شهرزاد موجاب . و بالمناسبة ندعو الشيوعيات الثوريّات و الشيوعيين الثوريين إلى إيلاء العناية اللازمة شيوعيّا لنشر مقالات و كتب منظّرات البروليتاريا العلمية جنبا إلى جنب مع نشر كتب و مقالات منظّرى البروليتاريا العالميّة .

و تقع المواضيع التي تناولتها أرديا سكايبراك في كتبها و مقالاتها موقع القلب من محاور الصراع العلمي و الإيديولوجي و الطبقي عبر العالم قاطبة فبحوثها العلميّة فى ظهور الإنسان و مصدر إضطهاد النساء و طريق التحرّر ، و في البيولوجيا و الوراثة و الجينات و الثقافة ، و في علم التطوّر و أسطوريّة فكر الخلق ، و في الدور الاجتماعي للفنّ و الإشتغال على الأفكار و البحث عن الحقيقة إلخ من صميم مواضيع السجالات بين الفكر العلمي و الفكر الخرافي ، بين القوى الرجعيّة و القوى الثوريّة عبر العالم بأسره و عليه ففائدتها بلا أدنى ظلّ للشكّ عظيمة بالنسبة للشيوعيين و الشيوعيّات الحقيقيين و الباحثين و الباحثات عن الحقيقة في البلدان العربيّة . فمن أمريكا و نظام ترامب / بانس الفاشي إلى أقطارنا العربية مرورا بعدّة بلدان أوروبية و آسيويّة خاصة ما فتأ المسحيون الفاشيّون و الإسلاميون الفاشيّون داخل الحكم أو خارجه إلى جانب قوى رجعيّة أخرى كثيرة يتلاعبون بثقافة الجماهير و يبثّون فيها سموما معادية للعلم و مشوّهة له و حتّى مطالبة بالحطّ من منزلته و تسويته بالخرافات المبتدعة و الأساطير الدينيّة التي تجعل الجماهير مغتربة عن الواقع المادي الموضوعي في المجتمع و الطبيعة و كيفيّة التعاطى معهما . هذا من ناحية ، و من الناحية الثانية ، يصمّ أذاننا دعاة القوى الدينيّة الإسلاميّة بشتّى ألوانها بإدعاء أنّ رجال الدين علماء فلا يكفوّا عن نعتهم بالعلماء على مدار الساعة في حين أنّهم أعداء العلم الحقيقي و منابع الفكر الخرافي و ما يروّجون له منهجا و مضمونا غريب في غربته عن العلم الحقيقي بمنهج بحثه الدقيق و بما هو بحث عن حقائق مادية موضوعية قائمة على الدلائل الملموسة من الواقع الملموس . و هذه بالتأكيد نقطة على كافة الشيوعيين و الشيوعيات الحقيقيين أن يبرزوها ضمن الصراع المحتدم لبثّ الفكر العلمي حقّا و محاربة الفكر الخرافي بما أوتوا من قوّة و طاقة . و إنّنا لمن المقرّين بحقيقة وجوب خوض المعركة ضد الأفكار الرجعيّة المعرقلة لإستيعاب أوسع الجماهير للعلم و للشيوعية كعلم سلاحا لتفسير العالم و تغييره شيوعيا ثوريّا . أمّا المتهرّبون بشكل أو آخر من ضرورة خوض هذه المعركة المصيرية فيحرّفون الماركسيّة و يطمسون الحاجة إلى النظريّة الثوريّة لبناء حركات ثوريّة الشعوب في حاجة ماسة لها من أجل القيام بالثورة و تحرير الإنسانيّة من الإستغلال و الإضطهاد سواء منهما الجندريين أو الطبقيين أو القوميين . بلا لفّ و دوران نقولها صراحة ، ثمّة مهادنة و

حتّى تذيّل للقوى الدينيّة من طرف قوى تدّعى التقدّميّة و حتّى الثوريّة بتعلاّت و تبريرات متنوّعة تبلغ التلاعب بالماركسية و بالماديّة الجدليّة . و هذا الوجه من إدارة الظهر للعلم و للشيوعية كعلم يقابله وجه آخر هو الإنحراف الدغمائي الذى يجعل من علم الثورة البروليتارية العالميّة دوغما دينيّة تحنّط الماركسية و تقطعها عن حبل التطوّر ككلّ علم و هذا مرض مستشرى في صفوف الحركة الشيوعية العربيّة و العالمية ... و ليس إنتصارأرديا سكايبراك إلى الشيوعية الثوريّة نظريّة و ممارسة و الإستماتة في الدفاع عنها و تطبيقها و تطويرها إلاّ الوجه الآخر المكمّل لقائدة شيوعيّة تعلى راية العلم نظريّا و عمليّا لذا يجب أن تتبوّأ المكانة التي تستحقّ عن جدارة .

و قد بوّبنا ما إصطفينا من فصول و مقالات من كتابات قائدتنا الشيوعية الثوريّة في خمسة أبواب هي على التوالي :

I- الباب الأوّل : العلم و الثورة - مقتطف من " عن أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة و قيادة بوب أفاكيان - حوار صحفى مع أرديا سكايبراك "

- مقاربة علمية للمجتمع و تغيير العالم

- نظرة علميّة و فضول لا حدود له بشأن العالم

- تقييم علمي : العالم اليوم فظيع بالنسبة لغالبيّة الإنسانيّة – و يمكن تغييره تغييرا راديكاليّا

- التجربة والتطوّر الخاصين : التدريب الفكري و متعة السؤال العلمي

II- الباب الثاني: بعض الأفكار حول الدورالإجتماعي للفنّ والإشتغال على الأفكار و البحث عن الحقيقة : تأمّل فى القيادة الثوريّة و السيرورة الفكرية

1- بعض الأفكار حول الدورالإجتماعي للفنّ

الجزء الأوّل : " الفنّ و تاريخ الإنسان "

توطئة الناشر :

حكايات شعب الكنغ سان !

" العمل الدائم و عدم اللعب يجعل جاك طفلا غبيّا " :

الفنّ كتعبير عن النظرة إلى العالم :

دور الفنّ فى المجتمع الإنساني :

الجزء الثاني : الفنّ و العلم

مقترح منحرف :

صياغة الجديد :

الجزء الثالث : الفنّ و السياسة و الدور الخاص للفنّ الثوري

الفنّ الثوري :

الجزء الرابع : الفنّ كتنبّئ بالمستقبل

هل يكون الفنّ أقوى عندما " يخفى الفنّانون آراءهم "؟

- القفزتان الكبيرتان فى تطوّر الهومينيد :

- سلسلة مراحل إنتقاليّة من الملامح الأشبه بالقردة إلى ملامح أشبه بالإنسان :

- هل كان الهومينيد الأوائل" مجرّد قردة " دلالة تطوّر التنقّل على قدمين على طريق التحوّل إلى إنسان:

- لذا ، هل نحن مجرّد حادث ؟

- تلخيص و نظرة عامة :

- صلة بيئيّة ممكنة :

- نوع واحد – عبر العالم بأسره :

نوع يغيّر العالم تغييرا جذريّا

إضافات إلى الفصل السابع

الإنسان و الديناصورات ؟! فكرة عبثيّة أخرى لأنصار فكر الخلق .

الحمض النووي لدى الشنبنزي ولدى الإنسان : إلى أي مدى نتقارب ؟

هل كان توماي أحد أسلافنا ؟

ميف ليكي تمسك بآخر إكتشافاتها للأحافير

هل أن الهومو أركتوس أوّل أنواع الإنسان التى غادرت أفريقيا ؟

جميعنا أتينا من أفريقيا

ماذا يقول لنا علم التطوّر عن " الأعراق " الإنسانيّة ؟

ألا يزال الإنسان يتطوّر ؟

V- الباب الخامس: إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية - مقتطفات من:

" العلم و الثورة - حول أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة للشيوعية و قيادة بوب أفاكيان "

إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

ما الجديد فى الخلاصة الجديدة ؟

الإختراقات النظريّة و التطبيق العملي للخلاصة الجديد

دستور الجمهورية الإشتراكية الجديدة – تطبيق ملموس لرؤية ثاقبة للخلاصة الجديدة

الخلاصة الجديدة : المضي صراحة صوب الحقيقة – و نبذ مفهوم " الحقيقة الطبقية "

بوب أفاكيان : مزيج نادر جدّا من – النظريّة العالية التطوّر و المشاعر و الصلات العميقة مع الذين يحتاجون بأكبر يأس إلى هذه الثورة

تهمة " عبادة الفرد " – جاهلة وسخيفة و فوق كلّ شيء تتجاوز المعقول

القيادة : هل تخنق المبادرة أم تطلق لها العنان ؟

لماذا من المهمّ جدّا التوغّ فى مؤلّفات بوب أفاكيان و ما يعنيه ذلك

رؤية آملة – على أساس علمي

التفاعل الجدّى مع الخلاصة الجديدة – و الفرق الذى يمكن أن تحدثه

هبّات كبرى فى العالم و الحاجة الكبيرة للمقاربة العلمية للخلاصة الجديدة

ملحق : فهارس كتب شادى الشماوى

الباب الأوّل :

العلم و الثورة

عن أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة و قيادة بوب أفاكيان

حوار صحفي مع أرديا سكايبراك

Revolution Newspaper | revcom.us

http://revcom.us/a/378/Ardea-Skybreak-2015-Interview-en.pdf

فى الفترة الأولى من هذه السنة (2015) ، أجرت جريدة " **الثورة** " حوارا شاملا مع أرديا سكايبراك و قد إستغرق إنجاز الحوار عدّة أيّام. وأرديا سكابراك عاملة بالمجال العلمي و متدرّبة محترفة مختصّة فى البيئة و البيولوجيا التطوّريّة و مدافعة عن الخلاصة الجديدة للشيوعية التى تقدّم بها بوب أفا كيان . و قد ألّفت سكايبراك ، ضمن أعمال أخرى ، " **علم التطوّر و أسطورية فكر الخلق : معرفة ما هو واقعي و لماذا يهمّنا** " و " **حول الخطوات الأولى و القفزات المستقبلية : بحث فى ظهور الإنسان و مصدر إضطهاد النساء و طريق التحرّر** ".

و فيما يلى مقتطف فقط - الصفحات 1 إلى 19 - من ذلك الحوار الطويل الواقع فى 173 صفحة و الأكيد أنّ كامل محتويات الحوار الآتى ذكرها تستحقّ الدراسة العميقة :

مقاربة علمية للمجتمع و تغيير العالم

نظرة علميّة و فضول لا حدود له بشأن العالم

تقييم علمي : العالم اليوم فظيع بالنسبة لغالبيّة الإنسانيّة – و يمكن تغييره تغييرا راديكاليّا

التجربة والتطوّر الخاصين : التدريب الفكري و متعة السؤال العلمي

التوصّل إلى رؤية الرأسمالية – الإمبريالية كمشكل و الإنجذاب إلى الشيوعية

مزيد الوضوح بخصوص الحاجة إلى الثورة – القطيعة مع الأفكار الخاطئة الأوهام

عن حضور الحوار بين بوب افاكيان وكورنال واست

بوب أفاكيان ذو رؤية علمية ثاقبة حقيقة .

الخلاصة الجديدة و اللبّ الصلب و المرونة

رجل دولة شيوعي وتشكيل قيادة شيوعية

دحض حيوي للقوالب الجاهزة والأفكار الخاطئة

إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

ما الجديد فى الخلاصة الجديدة ؟

الإختراقات النظريّة و التطبيق العملي للخلاصة الجديد

دستور الجمهورية الإشتراكية الجديدة – تطبيق ملموس لرؤية ثاقبة للخلاصة الجديدة

الخلاصة الجديدة : المضي صراحة صوب الحقيقة – و نبذ مفهوم " الحقيقة الطبقية "

بوب أفاكيان : زيج نادر جدّا من – النظريّة العالية التطوّر و المشاعر و الصلات العميقة مع الذين يحتاجون بأكبر يأس إلى هذه الثورة

تهمة " عبادة الفرد " – جاهلة وسخيفة و فوق كلّ شيء تتجاوز المعقول

القيادة : هل تخنق المبادرة أم تطلق لها العنان ؟

لماذا من المهمّ جدّا التوغّ فى مؤلّفات بوب أفاكيان و ما يعنيه ذلك

رؤية آملة – على أساس علمي

التفاعل الجدّى مع الخلاصة الجديدة – و الفرق الذى يمكن أن تحدثه

هبّات كبرى فى العالم و الحاجة الكبيرة للمقاربة العلمية للخلاصة الجديدة

لنتفزعنا مفردات مثل دكتاتوريّة البروليتاريا ... نحن نعيش الآن فى ظلّ دكتاتورية البرجوازيّة

ماذا يعنى أن يوجد حزب منظّم على أساس الخلاصة الجديدة و ما الفرق الذى يمكن أن يحدثه ذلك ؟

بعض الشكر الذى يجب أن يقال بصوت عالى

لماذا يوجد قدر كبير من السخرية و الهجمات الخبيثة وكيف يمكن تغيير ذلك ؟

فهم مادي – أساس مادي للماذا تعتّم الضبابيّة رؤية بعض الناس لأفق ثورة فعلية

خدمة الذات أم خدمة قضيّة تحرير الإنسانية ؟

هناك حاجة لنقاش إجتماعي كبير : إصلاح أم ثورة ؟

مواقع مختلفة فى المجتمع ، نظرات مختلفة للثورة و للقيادة الثوريّة

أوهام الحرّية و المساواة و واقع الدكتاتوريّة – و تجاوز الإنقسامات الإضطهاديّة

مشكل جوهريّ فى عالم اليوم : النقص المفجع فى المناهج العلمية و المادية العلمية

إلى جانب من تقفون ؟

تقدّموا ، هناك مكان و دور لكم

القيادة الشيوعية ليست منقذا مبعوثا من السماء

منهج و مقاربة علميين صراحة

مكتشفة و مفكّرة ناقدة و مناصرة لبوب أفاكيان : فهم العالم و تغييره إلى الأفضل ، فى مصلحة الإنسانية).

++

مقاربة علمية للمجتمع و تغيير العالم :

سؤال :

أعتقد أنّنا سننطلق فى هذا الحوار بطرح مقتضب لبعض الأسئلة عن العلم و المنهج العلمي . و عمليّا أودّ الإنطلاق مع نوع من السؤال الإستفزازي : ما علاقة العلم بفهم العالم وتغييره ؟ و بسرعة لتوفير بعض الخلفيّة ، أقول إنّ معظم الناس و منهم غالبيّة علماء الطبيعة ، لا يعتقدون فى أنّه بمستطاعنا و أنّنا نحتاج إلى أو ينبغى أن نتّخذ مقاربة علميّة لتحليل المجتمع أو تحليل " العالم الإجتماعي" فما بالك بتغييره . لهذا أسألك : لماذا يُعدّ هذا الفهم خاطئا و ما علاقة العلم و المنهج العلمي بفهم المجتمع و العالم و تغييرهما ؟

جواب :

أظنّ أنّ هذا سؤال هام للغاية فكما تقول ، حتّى عديد الناس العاملين بمجال العلم فى العلوم الطبيعيّة و الذين يطبّقون مناهجا علميّة صارمة جدّا ، عندما يحاولون التعاي مع العالم الطبيعي (البيولوجيا و علم الفلك و الفيزياء و ما إلى ذلك) ، عندما تتحدّث معهم عن **المجتمع** – عنمشاكل المجتمع و طرق تنظيم المجتمعات – يبدون فجأة كما لو أنّإستيعابهم للمنهج العلمي يفرّ تماما من النافذة **!** و يشرع عديد علماء الطبيعة فعليّا فى التحوّل حينها إلى ضرب من **الشعبوية** التامة ، إلى مجرّد ضرب من الحديث الضبابي عن " إرادة الناس " أو عن الإنتخابات أو بعض الأشياء الأخرى التى لها فعلا صلة صغيرة أو لا علاقة لها بالتحليل بطريقة علميّة للمظاهر الأساسيّة لمجتمع معى – كيف يتشكّل و كيف يسير – أو بالتحليل بطريقة علمية لما هو خاطئ فى مجتمع ، و كيف يمكن معالجة المشاكل الإجتماعية بطريقة علمية . و الأكيد أنّ الجميع ليسوا هكذا و لكن الظاهرة مذهلة – الدرجة التى يبدو عديد المثقّفين التقدّميين فى علوم الطبيعة و كأنّهم ينسون أو يمحون بجرّة قلم كلّ ما يعرفونه عن المناهج العلمة كلّما حاولوا التفكير فى مشاكل المجتمع **!**

أعتقد أنّه من الهام و الهام جدّا فهم أنّ العلم كمنهج لم يوجد لفترة طويلة جدّا فى تاريخ الإنسان . و من ثمّة عموما ببساطة ليس الناس معتادين على السعي إلى فهم الواقع و تغييره بريقة علميّة . خلال معظم التاريخ البشري على هذا الكوكب ، كان فهم كلّ العالم الطبيعي و الإجتماعي ينبع أكثر من نوع من الماربة الأساسية للمحاولة – الخطأ ، سعيا إستيعاب الأشياء قدر الإمكان و سعيا لمعالجة المشاكل على هذا النحو – عادة مقدّمين كافة أصناف التفاسير الصوفيّة و الماوراء الطبيعة لردم الهوّة فى فهم الناس . و هكذا إعتاد الناس عل التفكير فى أنّ البرق تعبير عن غضب الإلاه أو شيئا من هذا القبيل لأنّه لفترة طويلة ما كان لديهم فهم علمي لما كان عمليّا يتسبّب فى البرق .

لذا أعتقد أنّه يجدر بنا الحديث عن **ما هو العلم** كي ننزع عنه قليلا من الغموض الذى يلفّه . أنى أنّ العلم يعالج الواقع المادي و يمكن أن تقولوا إنّ كلّ الطبيعة و كلّ المجتمع الإنساني مجال للعلم و بوسع العلم أن يتعاطى مع **كلّ** هذا . إنّ العلم أداة و أداة قويّة جدّا . إنّه **منهج و مقاربة القدرة على قول ما هي الحقيقة ، ما الذى يتناسب مع الواقع مثلما هو حقّا .** بهذا المعى ، العلم مختلف جدّا عن الدين أو الصوفيّة أو ما شابه كأشياء تحاول تفسير الواقع باللجوء إلى قوى متخيّلة ، وهي لا تقدّم أيّة أدلّة عمليّة لأي من تحاليلها . و بالعكس ، يتطلّب العلم إثباتا . إنّه يتطلّب أدلّة . إنّهسيرورة قائمة على الأدلّة . و هذا غاية فى الأهمّية . **العلم سيرورة قائمة على الأدلّة .** لذا سواء كنتم تحاولون مجرّد المحاولة فهم شيء فى العالم أو تحاولون إستيعاب كيفيّة تغيير الواقع – مثلا ، قد تكونون بصدد محاولة معالجة مرض أو قد تكونون بصدد محاولة فهم ديناميكيّة غابة ممطرة أو نظام بيئي للأرصفة المرجانيّة ، أو قد تكونون بصدد محاولة القيام بثورة لتحرير الإنسانيّة و هذه كما تعلم مروحة كاملة من التجربة الماديّة – يسمح لك العلم بإستيعاب ما يحدث فعلا و كيف يمكن أن يتغيّر .

قرأت فى مكان ما أنّ نايل ديغراس تيزون فى نشره على نطاق شعبي أهمّية العلم ، قال شيئا يشبه – أنا أعيد الفكرة العامة هنا لما قاله : العلم يخوّل لك مواجهة المشاكل و تشخيصها و التعرّف على المشاكل و إدراك كيفيّة معالجتها ، **بدلا من الهروب منها** . و أظنّ أنّ هذه نقطة هامة أيضا . العلم يسمح لك عمليّا بالتعاطى مع الواقع المادي كما هو حقّا . سواء كنّا نتحدّث عن واقع مادي لمرض ، أو لنظام بيئي طبيعي أو لنظام إجتماعي يعيش البشسر فى ظلّه ، يخوّل لك العلم تحليل مكوّناته ، تاريخه و كيف أصبح على ما هو عليه ، و من ماذا يتكوّن و ما هي مظاهره المميّزة و تناقضاته الكامنة (و سأعود إلى الموضوع لاحقا) ومن هنا أيضا ما هو أساسي تغيّره أو تغييره ، إن كنت تعمل على تغييره . سواء أردت معالجة مرض أو جعل مجتمع أفضل ، فإنّك تحتاج إلى هذه السيرورة العلميّة القائمة على الأدلّة .

و من ميزات العلم أنّه **يطرح الكثير من الأسئلة** حول كيف أنّ الأشياء تصبح على النحو الذى هي عليه ، و حول كيف تغيّرت الأشياء عبر الزمن . لقد كنت دائما مهتمّا جدّا بما يسمّى بالعلومالتاريخيّة – مثلا البيولوجيا التطوّريّة ، لكن هناك أيضا علوم تاريخيّة أخرى ، بما فيها علم الإجتماع البشري – الذى يتعاطى مع كيف تتغيّر الأشياء عبر الزمن . و ثمّ طبعا ، إن كنت تدرس كيفيّة تغيّر الأشياء عبر الزمن، يمكن أن تدرس كيف يمكن للأشياء أن تتغيّر أكثر بعض الشيء بما فى ذلك فى إتّجاهات قد ينزع البشر إلى الدفع نحوها . لقد توّر الواقع برمّته و تغيّر عبر الزمن وهو لا يكفّ عن التغيّر وال الوقت ، سواء كنّا نتحدّث عن العالم الطبيعي أم عن العالم الإجتماعي . إن كنت تريد تغيير الحياة ، إن كنت تريد تغيير كيفيّة تنظيم المجتمع ، إن كنت تريد تغيير العالم ، إن كنت تريد تغيير أي شيء فى الطبيعة أو مجتمع ، تحتاج إلى منهج علمي لأنّه هو الطريقة الوحيدة للكشف العميق و المنهجي لكيف هو الواقع ، على قاعدة الملاحظات و التفاعلات و المعالجات البارعة المنهجيّة و تغيّرات الواقع . على هذا النحو تتعلّمون كيف هي الأشياء فعلا ، كيف صارت هكذا و كيف يمكن تغييرها . و مجدّدا إنّه سيرورة قائمة على الأدلّة ، و ليس مجرّد " ما تعتقد " أو " ما أعتقد " . تحتاجون إلى أدلّة تراكم عبر الزمن . هذا ما يكشف ممّا يتكّون الواقع ، وكيف صار على نحو معيّن ، و كيف يمكن أن يتغبيّر الآن بالذات ، أو كيف يمكن للبشر أن يغيّروه حتّى أكثر .

و إليكم نقطة هامة : دون علم يمكنك أن تقول ما تعتقد كشخص أنّه الواقع أو ربّما يمكنك قول ما يعتقد قسم من الناس أنّه الواقع أو ربّما يمكنك قول ما قد تنطق به حكومة أو سلة دينيّة أو سلطة أخرى ، أنّه الواقع لكن ذلك لا يجعل القول صحيحا . **دون علم أنت عُرضة للتضليل ، لتعرّض تفكيرك للتضليل و عدم القدرة على قول ما هو صحيح و ما هو خاطئ ، ما هو حقيقة و ما هو وهم** . إذا كنت تريد حقّا التعرّف على الأشياء ، ما هو حقيقي و ما الذى يجب القيام به ، **تحتاج إلى العلم** – ليس الأوهام أو التفكير الحالم ، بل الأدلّة الملموسة و سيرورة منهجيّة و منهج صارم للتحليل و التلخيص . و يفكّك التحليل التجربة و المعرفة عبر الزمن ؛ فى حين يجمّع التلخيص الأفكار فى مستوى أرقى على نحو أكثر منهجيّة مستخلصا دروسا أكبر ، دروسا جوهرية من التجربة المراكمة .

لذا هذا سبب من أسباب لماذا تحتاج إلى النظريّة الثوريّة العلميّة إذا ما أردت حقّا تغيير المجتمع من الجذور . و كما تعلم ، نقصد بالحديث التغيير الراديكالي للمجتمع . و كلمة " راديكالي " يعود معناها إلى اللاتينيّة و تفيد " الجذور " ما يعنى الذهاب إلى جذور المشكل . لا تبق على سطح المشكل كما يبدو ، على المستوى السحي أو فقط كما يبدو فى لحظة زمنيّة معيّنة . أمض إلى ما تحت السر ، إلى ما هوأعمق ، على النحو الذى يقوم به العالم الجيّد ، لفهم ما هي القوانين الأعمق للنظام ، ما هي الطرق الأعمق للتناقضات صلب النظام التى تجعله يسير بأشكال معيّنة تفرز المشاكل أو التى يمكن أن تفرز إمكانيّات .

سؤال :

حسنا ، إن كنت تستطيعين للحظة إقحام تلك الفكرة ، فهذا أذهلنى كشيء هام و نقدي حقّا بمعنى ما هو العلم و ما تعنيه المقاربة العلميّة للواقع ؛ ما تقولينه عن أهمّية العلم على أنّه قائم على الأدلّة و النقاط المختلفة التى أثرتموها حوله ، أعتقد أنّها فى غاية الأهمّية . و شيء أردت لو أقحمته هو نوع صفر هذه المسألة : أعتقد أنّ الكثير من الناس سيعترفون و منهم العديد من علماء الطبيعة – و طبعا أنت نفسك تدرّبت كعالمة طبيعة و ربّكا لك بعض الرؤى الثاقبة بهذا الشأن – لكن الكثير من حتّى علماء الطبيعة سينظرون على الأرجح إلى ما كنت تقولينه و يجيبون بأرى أنّ هذه السيرورة يمكن أن تطبّق على العالم الطبيعي ، على علوم الطبيعة – الأنمت و البحث عن الأدلّة و التلخيص – إلاّ أنهم نوعا ما يتراجعون أمام فكرة أنّه يمكن تطبيق ذلك عمليّا على البشر و المجتمع البشري . أو ربّما طريقة أخرى للتطرّق للمسألة هي أنّ بعض

الناس يقولون لكن البشر و المجتمعات البشريّة معقّدة جدّا لبخثها علميّا أو لتطبيق العلم عليها . لذا ربّما تستطيعون التركيزقليلا على ما يعنيه خاصة إتّخاذ مقاربة علميّة للبشر و المجتمع البشري و تطوّرهما ، و لماذا ذلك صحيح ؟

جواب :

يعود ذلك لأمر واحد هو أنّه فى كلّ نظام ، سواء كان عالم طبيعي أم عالم إنساني ، هناك معا تعقيد و تبسيط . و فكرة أنّ البشر أو المجتمعات البشريّة هي ببساطة معقّدة جدّا إلى درجة أنّه لا يمكن تحليلها تحليلا علميّا باتت فكرة سخيفة . و العكس هو الصحيح . كيف يمكنك التعاطى مع تعقيد تنظيمات المجتمع الإنساني وتفاعلاتها طوال فترات تاريخية متنوّعة إلى اليوم ، و كافة التناقضات الكامنة فيه ، و كافة المظاهر و الأشياء المعقّدة و مختلف القوى و ما إلى ذلك ، و مختلف الأهداف لدى مختلف الناس و مختلف فترات التاريخ – كيف يمكنك التعاطى مع كلّ هذا دون علم ؟ و من غير الصحيح أنّ الأنظمة الإجتماعية هي نوعا ما أبسط . لو رغبت فى فهم ديناميكيّة الأنظمة البيئيّة المعقّدة - و على سبيل المثال، غابات ممطرة ذات عدّة طبقات من الأشجار و الشجيرات المتباينة تحت الأرض و ما إلى ذلك ، و التى تتميّز بديناميكيّة معقّدة للغاية بمعنى عديد مختلف أنواع و مستويات التفاعل ضمن و بين التنوّع الذى لا يصدّق فى أنواع النباتات و الحيوانات – أقصد قد تمضى كامل حياتك ،وهو ما يفعله الكثيرون ، لمحاولة فقط الحصول على بداية فهم للكثير من هذه الديناميكيّة المعقّدة . أو إن أردت الحصول على فهم أفضل للأنظمة البيئيّة للأرصفة المرجانيّة أو الأنظمة البيئيّة الصحراويّة ، أو الإختلافات بين الأنظمة البيئيّة المتباينة و أيّها يمكن أن يكومعُرضة أكثر للتفكّك و أيّها يمكن أن يكون أكثر إستقرارا نسبيّا ، أو تقييم التنوّع النسبي أو كيفيّة الحفاظ على التنوّع ... هذه مسائل عدّة تستحقّ مزيد الإكتشاف ... لست أسعى للتوغّل فى كلّ هذا الآ بالذات لأنّنى أعلم أنّكم تريدون الحديث بالأساس عن الأنظمة الإجتماعية الإنسانيّة ، لكن ما أقوله هو إنّ فى كلّ من العالم الطبيعي و العالم الإجتماعي ، الواقع المادي معقّد جدّا و بينما نحن البشر لدينا على الدوام نقائص فى فهمنا (أشياء لا ندركها ببساطة بعدُ فى أي زمن معطى) لنا **أيضا** قدرات ضخم و كمّ كبير من المعرفة المراكمة . عقولنا قادرة على البحث و الإكتشاف العمليين لكافة أنواع المسائل ومن عدّة زوايا مختلفة ، و نحن قادرون عمليّا على تلخيص الأشياء طوال فترة من الزمن ، مراكمين هكذا تجربة و معرفة تاريخيتين . و هذا منالأشياء المميّزة جدّا للبشر :قدرتنا الكبيرة على مراكمة الفهم عبر الأجيال و عبر القرون و عبر آلاف السنين و على فهم بعض مظاهر تنظيم المجتمعات أو الأنظمة الطبيعيّة أو كلّ ما نوجّه إليه عقولنا .

و كبشر نحن قادرون أيضا على القيام بتوقّعات هامة جدّا بشأن المستقبل و ليس فقط بالنسبة للغد أو بالنسبة للشهر التالى لكن أيضا لفهم ما يمكن أن يحدث لهذا الكوكب مثلا – كامل الكوكب – من وجهة نظر بيئيّة ، ناظرين إلى أجيال قادمة و ليس إلى الغد فحسب . و كذلك بشأن الأنظمة الإجتماعية ، لنا عمليّا القدرة على تحليل مختلف مظاهر التنظيم الإجتماعي عبر التاريخ الإنساني من الماضي إلى يومنا هذا ، و يمكننا أيضا أن نتوقّع كيف ستكون الأشياء فى المستقبل و يمكننا بالتالى أن نتّخذ كذلك بعض القرارات حول ما نريد أن نعمل عليه الآن . فى أي إتّجاه نريد أن نحاول دفع الأشياء لأنّه لدينا مبادرة واعية للقيام بذلك . و هكذا مثلا ، عندما نتحدّث عن مجتمع غنساني ، عن التنظيم الإجتماعي الإنساني ، يمكن أن نرى أنّ المجتمع هو فى الأساس طريقة تجمّع الناس مع بعضهم البعض – وعملهم مع بعض أو معارضة بعضهم البعض و هكذا – لكن يتمّ هذا التجمّع فى الأساس للعمل من أجل تلبية متطلّبات حياة الناس فى وقت معيّن . يمكن أن يتمّ ذلك على نحو جيّد أو سيّئ لكن هكذا هو المجتمع الإنساني ، إنّه شكل من التنظيم . أليس كذلك ؟ و كما تعلم ، عضنا جميعنا فى هذا العالم الرأسمالي – الإمبريالي لمدّة طويلة بحيث أنّه بالنسبة للذين لا يزالون اليوم على قيد الحياة ، أحيانا يكون من العسير عليهم تذكّر أو التفكير فى واقع أنّ المجتمعات الإنسانيّة لم تكن دائما منظّمة على هذا النحو و لا ينبغى عليها أن تكون منظّمة على هذا النحو . **الرأسماليّة – الإمبرياليّة ليست الطريقة الوحيدة لتنظيم مجتمع إنساني ،** و سأحاجج بشدّة بأنّه من اليقيني أنّها ليست أفضل الطرق . لكن على كلّ حال ، ليست الطريقة الوحيدة و هذا يستحقّ الفهم و التفكير فيه . و فى الواقع بإمكاننا تطبي العلم لمحاولة فهم بعض هذه الأنظمة الإجتماعيّة الأسبق. و على سبيل المثال ، كانت عدّة مجتمعات فى تاريخ البشر منظّمة على أساس **العبوديّة** ، إستغلال العبيد و السيطرة على العبيد الذين كانوا تماما ملكيّة أسياد العبيد الذين بنوا إقتصادا على ذلك النحو . و لن أتوغّل فى تفاصيل ذلك و إنّما هو نوع مجتمع مختلف جدّا عنالمجتمعات السائدة أساسا اليوم ، على نطاق واسع على الأقلّ . إذ لا تزال هناك عبوديّة فى العالم ، و بالمناسبة حتّآ العبوديّة الجنسيّة وهي تمثّل مشكلا كبيرا . بيد أنّ الأشكال الجوهريّة و المهيمنة لتنظيم المجتمعات فى عالم اليوم هي ليست فى ألساس منظّمة على قاعدة العبوديّة . لكن لفترة طويلة من الزمن فى تاريخ البشر ، كان ذلك شكلا مهيمنا من التنظيم الإجتماعي .

و شكل هام آخر من التنظيم الإجتماعي كان النظام **الإقطاعي** و لا تزال بالتأكيد ثمّة بقايا للإقطاعية فى أنحاء عدّة من عالم اليوم ونراها فى كلّ مكان . لكن فى الأنظمة الإقطاعية وُجد ساد كانوا نبلاء و كانت هناك أرستقراطيّات و كان هناك أيضا أناس مضطهَدون و مسيطر عليهم مثل الأقنان و الفلاّحين الذين تقليديّا يعتنون بالمحاصيل و يعطون الكثير منها إلى سادة منطقة أوما شابه ،و كان عليهم دفع آداءات و إتاوات للسادة و كانوا بالكاد أعلى درجة من أن يكون عبيدا تماما . و كان حتّى من الشائع جدّا لقنّ أن يقدّم إبنته إلى سيّد المنطقة المحلّية ، بالأساس ليتعاطى معها الجنس و يفعل بها ما يحلو له و لم يكن بوسع الأقنان القيام بأي شيء حيال ذلك فى ظلّ قوانين النظام الإقاعي القائم . و بدورها الإقطاعيّة نظام مختلف جدّا عنما يسمّى **بالديمقراطيّة البرجوازية** كنوع مميو أكثر **للنظام الرأسمالي – الإمبريالي** للتنظيم الإجتماعي المهيمن على عالم اليوم . لن أسعى إلى تفصيل أي من هذا الآن وإنّما سأقول إنّ ما يستحقّ التفكير هو واقع أنّ المناهج العلمية بالإمكان – و قد تمّ – تبيقها على تحليل مظاهر التنظيم الإجتماعي لكافة و مختلف الأنظمة الإجتماعية الماضية ؛ و لئن إستطعنا القيام بذلك فى ما يخص الماضي فبمستطاعنا القيام به كذلك فى ما يخصّ المستقبل .

سيقول البعض حسنا ، الأنظمة مثل العبودية والإقطاعية و ربّما حتّى النظام الرأسمالي ليست طرقا جيّدة لتنظيم المجتمع لكن ما يجب أن نفعله حقّا هو اودة إلى النظام المشاعي البدائي . و يحاجج مثل هؤلاء الناس بأنّنا نحتاج فقط إلى التنظيم على نطاق ضيّق و إتخاذ كافة القرارات معا ن و يمكن أن نخلق " ديمقراية حقيقيّة " ونتّخذ قرارات جماعيّة حول كيفيّة تلبية حاجيات الناس و التشجيع على الفلاحة المحلّية و الإنتاج المحلّي و ما إلى ذلك . و المشكل مع هذه النظرات هو أنّها ببساطة ليست متجذّرة فى الواقع الفعلي لعالم اليوم ! كنت سأتّفق مع أنّه لا يزال هناك الكثير يمكننا تعلّمه من مجتمعات الصيد – القطف التى سادت لمعظم تاريخ الإنسانيّة و أنّه لا يزال هناك الكثير نتعلّمه من الناس اليوم الذين يملكون كافة أنواع الأفكار عن كيفيّة تنظيم الأشياء تنظيما أفضل بطريقة أكثر عقلانيّة ، على نطاق محلّى و صغير نسبيّا و هكذا . إذن اجل هناك أشياء يمكن أن نتعلّمها من بعض التجارب الإجتمعية التى يقوم بها الناس ، محاولين إدراك كيفيّة التخلّص من بعض مشاكل المجتمع المعاصر التى تتسبّب فى الإضرابات الطبيعيّة و الإجتماعيّة وتدمّر التربة وهلمّجرّا . **لكن علينا أن نكون واقعيين ! نحتاج إلى الحديث عن مدى ونطاق إنتشار النوع البشري على الكوكب بأكمله . مليارات البشر . لن نعالج مشاكل المجتمع بالعودة إلى الخلف ، إلى نوع من المشاعيّة البدائيّة المنظور إليها نظرة مثاليّة و رومنطيقيّة !** و بالتالى إن لم يكن هذا ليحسم المسألة ، إن لم قادرا على مواجهةالمشاكل الحيويّة المفاتيح اليوم ، و بالتأكيد ليس بالمدى و على النطاق الكافى ، ماذا يحصل عندئذ ؟ لننظر إلى النظام القائم على العبودية و النظام الإقاعي و النظام الرأسمالي – الإمبريالي ، هذه جميعها أشكال ماديّة لتنظيم المجتمعات الإنسانية و يمكن تحليلها جميعا بواسطة العلم و تقييمها تقييما نقديّا . و لكن بوسعك أيضا أن تطبّق نفس المناهج العلميّة لإدراك كيف يمكن بناء تماما مجتمعات جديدة و مختلفة لن تكون فقط أفضل و إنّما كذلك ستتمكّن من أن **تشمل الكوكب برمّته** . و هنا لست مهتمّة حقّا بالحديث عن الفلسفة والمناهج التى ليس بوسعها فى نهاية المطاف أن تشمل و تفيد الإنسانيّة **بأكملها** .

و من الأشياء التى تحصل عليها من بوب أفاكيان و التى أقدّرها حقّ التقدير هي أنّه روّج لهذا المفهوم القائل بأنّنا نحتاج أن نكون " محرّري الإنسانيّة " و أنّنا نحتاج التحرّك بإتّجاه جعل هذا العالم ن الكوكب برمّته ، مكانا جيّدا للعيش فيه و السير فى مصلحة الإنسانيّة برمّتها ، إلى حيث يمكننا التخلّص من فكرة أنّ بعض المجموعات من الناس و بعض الأصناف أو بعض الدول برمّتها ، يسودون على الاخرين ويستغلّونهم و يهيمنون عليهم و يضطهدونهم . هذه هي كامل فكرة الشيوعية الثوريّة و من الأشياء التى تحصلون عليها فعلا من بوبأفاكيان ن الحاجة إلى التفكير و الإنطلاق دائما من الحاجة إلى تحرير الإنسانيّة بأسرها . و إلاّ ، يمكن أن نسقط فى أشياء تخرجنا عن السكّة . لقد تحدّث بوب أفاكيان عن كيف أنّ **الهدف ليس أنّ الأخير يصبح الأوّل و الأوّل يصبح الأخير** فالمسألة ليست مسألة إنتقام ، ليست مسألة إنتقام المضطهَدين ممّن إضطهدوهم . و أنا أشاطر الرأي القائل بأنّ هذا ليس نوع العالم الذلى يجب أن نناضل بكلّ قوانا من أجله . والنقطة هنا هي أنّه دون علم ستضيع لأنّه دون منهج علمي لتحليل الأنماط ن للفهم الحقيقي **للماذا** الأشياء كما هي و **كيف** يمكن أن تكون مختلفة ، و **على أيّ أساس** يمكن أن تكون مختلفة ، ستخرج عن السكّة طوال الوقت .

و من بصمات العلم الجيّد – ذلك أنّه ثمّة علم سيّئ أيضا – هي الإمتلاك الفعلي للروح النقديّة و الترويج للفكر النقدي – الذى هو بالمناسبة ميزة أخرى من ميزات أعمال بوب أفاكيان . فهو يشدّد حقّا على الحاجة إلى أن يتوغّل كلّ شخص فى هذا – لا يهمّ مستواك التعليمي ... فالعلم ليس شيئا تنجزه فق فئة أو أناس تحصّلوا على شهادات دراسيّة أو دكتوراه أو ما شابه . أعتقد بصلابة – و يمكن أن أقدّم دلائلا على ذلك – أنّ **الناس الذين لم يتدرّبوا حتّى على أساسيّات التعليم يمكن أن يتصرّفوا كعلماء** . يمكن أن يتدرّب الناس على المناهج العلميّة خلال حتّى مجرّد نهاية الأسبوع ، يمكن الشروع فى

القيام بذلك . إن أردت جعل الناس يطبّقون العلم فى العالم الطبيعي يمكن أن تمضي نهاية أسبوع فى إنجاز العلم الجيّد فى غابة ممطرة أو فى صحراء و أضمن أنّ ذلك سيكون عملا علميّا **حقيقيّا** ، بحثا علميّا **حقيقيّا** . و لا يهمّ إن تكن لديك شهادة تعليم إبتدائي فحسب . إن كنت بشرا فى صحّة جيّدة ، بوسعك تبنّى المناهج العلمية و تطبيقها ، سواء على مشاكل الطبيعة أو المجتمع الإنساني. و من الأشياء التى تشغلنى أن نروّج للفهم العلمي و المناهج العلميّة على نطاق واسع و واسع جدّا **لكي يستطيع كلّ شخص أن يستعمل هذه المناهج** فهي ليست حكرا على قلّة من المتخصّصين أو حكرا على فئة معيّنة .

نظرة علميّة و فضول لا حدود له بشأن العالم :

سؤال :

لقد تطرّقت لشيء أردت أن أسألك عنه . غالبا ما يُصوّر العلم و يُنظر إليه – و أعتقد أنّ هذا مرتبط بنقطة كلامك عن جعل العلم يصوّر على أنّه حكر على فئة – و يصوّر كذلك عادة على أنّه بارد و مملّ و دون حياة و جاف و ربّما حتّى يعتبره البعض دغمائيّا أو متصلّبا أو شيئا يمارسه عدد قليل من الناس ، نوعا من الشيء المنقطع عن العالم . لذا أوزدّ أن تردّى على هذه النظرة و الصورة التى يقدّم بها العلم .

جواب :

لا تستفزّني ! [ضحك] أقصد ، مخاطرة بأن أبدو سخيفة ، بعض أكثر الناس حماسا و حيويّة من الذين عرفتهم أبدا كانوا علماء و منهم عاملين فى حقل العلوم الطبيعيّة . العلم فى حدّ ذاته ليس ... و كيف يمكن لأي شخص أن يفكّر فيه على أنّه جاف أو دون حياة أو أشياء من هذا القبيل ، فى حين أنّه يقوم برمّته على الفضول الذى لا حدود له بشأن العالم ، بشأن كلّ شيء ، بشأن نشوء الأشياء . من أين أتينا ؟ من أين أتت الحياة على الأرض ؟ كيف حدث ما حدث ؟ لماذا بنى العصفور عشّه على هذا النحو فى هذه الشجرة و ما تأثير ذلك ؟ و ما الذى تفعله هذه القطّة التى تجرى قاطعة الطريق ؟ لا أسعى إلى التزّق إلى الكثير من المسائل الآن ، إلاّ أنّ المسألة هي أنّ عالما جيّدا لا يكفّ عن رح الأسئلة حول الأشياء و من الأشياء التى تعجبنا لدى الأطفال الصغار كيف يرغبون فى معرفة كلّ شيء عن كلّ شيء. لماذا ذلك كذلك ، كيفأصبحكذلك،ما هذا ؟ إلخ. و لسوء الحظّ ذلك الفضول العلمي الطبيعي الذى نجده لدى الأطفال عادة ما يقع نوعا ما خنق الكثير منه – إن لم يكن مباشرة فبواسطة النظام التعليمي السفيه و بواسطة واقع المجتمع و ما يشجّع عليه و ما يحبطه .

لماذا يفكّر الكثير من الناس فى أنّ العلم شيء مخيف أو جاف أو فاقد للحياة ؟ صراحة ، مردّ هذا أسباب عديدة . و منها أنّهم لم يتعلّموا عادة بصورة صحيحة فى المعاهد ما **هو** العلم . العلم شيء يُدرّس أحيانا كما لو أنّهمجرّد فرع من التعاليم و الصيغ الجافة – مجرّد فرع إستنتاجات نهائيّة يُفترض أنّ يتذكّرها الناس – لكن هذا ليس العلم . **العلم سيرورة** ؛ إنّه **طريقة** بحث حيويّة . فكّر فى العلم كطريقة تسمح لك بطرح سلسلة كاملة من الأسئلة عن كلّ شيء و أيّ شيء ، و يُوفّر لك منهجا و مقاربة تخوّل لك بصفة منظّمة و منهجيّة بحث الأشياء ، العمل مثل نوع من المتحرّى فى العالم ، للبحث بعمق فى الواقع الطبيعي أو الواقع الإجتماعي . لا وجود لشيء جامد بشأن العلم ! غنّه يحاول فهم الأشيء بما فيها إنطلاقا من المبدأ الأساسي القائل بأنّه إن أردت تغيير أي شيء يحسن بك أوّلا فهمه ،و ليس فهمه فهما سطحيّا – تحتاج إلى أدلّة ، إلى مراكمة عبر الزمن ، و ليس مجرّد جزيئات صغيرة أو قطع متناثرة . تحتاج إلى إكتشاف **الأنماط و منها أنماط كيفيّة إرتباط الأشياء بعضها ببعض** : إن أردت فهم التفاعلات، لنقل ، بين شجر البلّوط و السماجب التى تنثر جوزه ؛ أو بين بعض النباتات المزهرة والنحل أو الفراشات أو العصافير أو حتّى القردة التى قد تعمل كلقّح لها ؛ أو بين القرش وفريسته، فقط لذكر بعض الأمثلة – إن كنت تريد فهم أيّا من هذا ، تحتاج إلى كشف الأدلّة على الأنماط الكامنة و الديناميكيّة الكامنة وتحتاج العلم للقيام بكلّ هذا . الحياة تزخر بالتفاعلات الديناميكيّة – و ليس فقط فى ذلك العالم الطبيعي الأوسع ، لكن فى العالم الإجتماعي الإنساني ايضا . لذا إن أردت تغيير أي شيء ، عليك أوّلا و حقّا أن تفهم لماذا الأشياء كما هي ، و كيف أصبحت على ما هي عليه ، و فى أي مسار تتوّر . و إذا لم تعجبك الطريقة التى تسير عليها ، وهي متّصلة بالمجتمع الإنساني ، **عندئذ إفعل شيئا** ، مستعملا التأثير الواعي للإنسان للسعي إلى تغيير مسار الأشياء أو توجّهها . هذا ما يحدث كلّما إكتشف العلماء علاجا لمرض أو أدركوا شيئا مثل كيف أنّ تدمير نظام بيئي لنهر يمكن أن يعاد إحياؤه بصرف المياه بصفة متكرّرة بين الفينة و الفينة من السدّ الذى تسبّب فى كلّ هذا الدمار .

حسنا ، هذه بعض الأمثلة العلمية المطبّقة على العالم الطبيعي و بوسعى تقديم عشرات الأمثلة المشابهة . يهتمّ العلم تماما بفهم طبيعة الأشياء و فهم الأنماط و **فهم التغيير** – وكيفيّة تغيّر الأشياء حتّى لوحدها و كيف تتحرّك ، بفضل ديناميكيّتها الداخليّة و تأثيرات خارجيّة ... ترى كلّ شيء دائم الحركة ، الواقع المادي دائم الحركة . سواء كان المقصود هو الكون عامة أو اغلكواكب و المجرّات أم نطاق أضيق ، النمل فى كثيب النمل أو الخلايا فى أجسامنا أو الجزيئات المتفرّعة عن النواة ، **كلّ شيء فى الواقع المادي دائم الحركة و التبدّل ، و لا شيء أبدا يظلّ بلا حركة .** و عندما يتعلّق الأمر بالحياة الإجتماعيّة ، يجب على البشر أن يستعملوا ذات المناهج العلميّة لفهم كيف أنّ المجتمعات يجب أن تكون على ما هي عليه ، و للتحليل العلمي لما هو خاطئ فيها ؛و للتحليل العلمي لكيف يجب أن تكون أفضل ؛ و لتحديد ما سيكون إستراتيجيّا التحرّك فى الإتّجاه الصحيح – مرّة أخرى ، على أساس علمي .

و سبب آخر لكون الناس أحيانا يتجنّبون العلم هو أنّه وُجد علم **سيّء** . سيوجد على الدوام "علم " يُساء إستخدامه أو تطبيقه وهو علم سيئ . و على سبيل المثال ، لنأخذ أمثلة كيف أنّه أحيانا تاريخيّا وقع إستخدام العلم للترويج لفكرة أنّ بعض الأجناس البشريّة أدنى من أجناس أخرى ، أدنى منها عقليّا ، أو أشياء من هذا القبيل . حسنا ، هذا علم تافه . و فى الواقع ، يمكنك أن تستعمل مناهجا علميّة صارمة لإثبات أنّ كلّ ذلك كان علما سيّئا . وهو ليس سيّئا " أخلاقيّا " فحسب و إنّما هو سيّئ أيضا علميّا فهو خاطئ تماما و **يمكن إستخدام العلم الجيّد للتدليل على ذلك .**

تقييم علمي : عالم اليوم فظيع بالنسبة لغالبيّة الإنسانيّة و يمكن تغييره تغييرا راديكاليّا :

سؤال :

حسنا ، لنستمرّ فى هذه النقطة المتّصلة بتطبيق العلم على فهم لماذا العالم كما هو عليه وكيف يمكن أن يكون مختلفا و ما الذى يمكن فعله بشأنه . ناظرين إلى حال العالم الآن ، بمعنيين – بالمعنى اشمل ، بخصوص الظروف التى تجد فيها الغالبيّة الغالبة للإنسانيّة نفسها فيها الآن ، ما هو حال العالم بالمعنى الأعمّ لكن ثمّ نوع التصفير فى بعد خاص لهذا ، بديهيّا كان جدّ مبهج للقلب فى هذه الأشهر القليلة الأخيرة التى شاهدنا أثناءها أشياء لم نراها فى هذا المتمع فى الولايات المتحدة لفترة زمنيّة طويلة ، بمعنى المقاومة الجماهيريّة لهذه الآفة من القتل و العنف على أيدى الشرطة ، مكثّفة فى قتل مايكل براون و إيريك غارنار و قرارات المحاكم العليا بعدم إدانة قتلتهم ، مع شعرات و عشرات آلاف الناس مباشرة فى الشوارع بسبب ذلك قاطعين السير العادي للأشياء ، و ثمّ ملايين الناس هنا و عبر العالم يواجهون هذا – ما أشير إليه هو كيف نطبّق العلم على كلّ من خصوصيّة هذه اللحظة و فهم ذلك .وكذلك النظر فى معنى الصورة الأكبر كما قلت ، لماذا العالم على ما هو عليه و كيف يمكن أن يكون مختلفا ؟

جواب :

سأنطلق بالحديث عن تطبيق العلم قبل كلّ شيء على ين توجد البشريّة ، ما هو حال العالم ،ما هو حال هذا المجتمع الذى نعيش فيه . و قد قيل عدّة مرّات ، بما فى ذلك عن طريق بوب أفاكيان ، أنّ العالم ، كما هو ، فظيع . أليس كذلك ؟ لقد قال هذا أناس منهم بوب أفاكيان كانوا عموما يقدّرون كثيرا الجمال فى العالم . و متحدّثة عن نفسى ، كمتدرّبة على البيولوجيا، كعالمة طبيعة ، أرى الجمال فى كلّ مكان من العالم الطبيعي و فى صفوف الناس ، فى التنوّع و الثراء الكبيرين للتجربة الإنسانيّة و كافة التعبيرات الثقافيّة العديدة و المختلفة و التنوّع الكبير للحياة ومن ذلك الحياة الإجتماعيّة. هناك جمال كبير. لكن فى نفس الوقت ، و ما لا يمكن إنكاره هو أنّ العالم فظيع بالنسبة لغالبيّة الإنسانيّة عند هذه النقطة من التاريخ .

و الآن لنتطرّق لنقة عذاب الإنسانيّة . سيكون من غير العلمي التفكير فى أنّه يمكن القضاء على عذاب الإنسانيّة قضاءا مبرما . ستوجد دوما خسائر و سيوجد دوما الموت وسيوجد دوما الحزب و ستوجد دوما بعض أشكال الأمراض أو بعض أشكال الكوارث التى تأثّر سلبا على البشر . لا أظنّ أنّه بإمكاننا أبدا قول إنّنا سنبلغ نقطة لن يوجد فيها أبدا أي عذاب إنساني؛ سيكون ذلك عالما خاطئا مثاليّا و خياليّا كلّيا . لكن ما نستطيع قوله هو إنّه من الممكن بلوغ عام لا يتميّز بالكثير من العذاب **غير الضروري** .

و واقع عالم اليوم – أقصد أنظر إلى هذا المجتمع ، ما كنت تتحدّث عنه للتوّ ، كلّ جرائم الشرطة هذه . لا يمكننى مزيد تحمّل ذلك – و لن أتحمّل أكثر ذلك ! عمليّا كلّ يوم ، تنتهى إلى مسامعك أنّ شخصا آخر عادة أسود أو لاتيني ، ذكر ، لا يحمل سلاحا قتل برصاص الشرطة فى الشوارع و **ما من شيء يحدث بهذا الصدد !** فى الأساس تقبل السلطات بذلك

مرارا و تكرارا لأنّه جزء لا يتجزّأ من نظامها الذى **يحتاج** إلى حدوث مثل هذه الأشياء للحفاظ على نوع النظام القائم ، وهذا اللون من القمع هو الذى يحتاجه نظامهم للحفاظ على سير لطيف نسبيّا . أيّ نظام هذا !

و هناك الكثير من الأشياء الخائة فى العالم . كامل مكاة النساء فى هذه البلاد و عبر العالم قاطبة – لا يزال يتمّ التعامل مع النساء ليس كبشر تماما و بإستمرار تتمّ إهانتهنّ و تشيئتهنّ ، و تعاملن كلعب و ك**أمتعة** جنس ، كأقلّ من البشر تماما ، و بإستمرار يتمّ إغتصابهنّ و ضربهنّ . و قد قلت آنفا : لا يهمّ إن لم يحصل لكهذا كفرد – فى أي زمن و مهما كانت المرأة و فى أي مكان فى العالم تغتصب و تضرب و تصوّر فى أفلام البرنوغرافيا أو بطرق أخرى تشيّئها و تهينها ، فذلك يطال و يُهين و يشيّئ **كافة** النساء أينما كنّ .

و من جديد ، أودّ أن أقول إنّى حقّ أشعر بذلك ... مثلما تحدّث بوب أفاكيان فى الحوار الأخير مع كورنال واست فى كنيسة ريفرسايد ... الشباب الذين أطلقت الشرطة عليهم النار – هؤلاء شباب**نا** ! أشعر بذلك ، و أشعر به بقوّة كبيرة . و ليس فق من غير الممكن القبول بهذه الخسائر فى حياة البشر ، بل هذه الخسائر للطاقات البشريّة تهدر ببساطة بفعل سير هذا النظام . و كذلك من غير الممكن القبول بوضع حيث هناك حروب لا تنتهى . لن نستطيع أبدا تجاوز هذا الوضع فى ظلّ هذا النظام : إنّها حروب الإمبريالية ، إنّها جيوش إحتلال تتسبّب للناس بعذابات رهيبة و ذلك خدمة لمصالح الطبقة الرأسماليّة التى تمثّل حفنة من البشر المستفيدين من هذا .

وماذا عن النطاق العام للكوكب ؟ الأزمة البيئيّة **حقيقيّة!** يجب فهمها على أنّها حالة إستعجاليّة شاملة كلّيا. الأرض نفسها شيء يمكن أن يستمرّ دوننا و ستتقلّص **قدرة البشر على الحياة على الكوكب** تقلّصا شديدا وسريعا جدّا إن لم نوقف تماما إهدار هذا الكوكب وتدميره بإستمرار . و السبب الرئيسي وراء عدم قدرتنا على التعاى مع أي من هذا ، بسرعة كافية أو على نطاق واسع كافى هو هيمنة النظام القائم ، الشكل المهيمن من التنظيم الإجتماعي القائم . نحتاج ثورة فعليّة كي نفكّك تماما تنظيم المجتمع كما هو متشكّل راهنا و تعويضه بشكل جديد كلّيا من التنظيم ينسجم مع المضيّ فى التخلّص من هذه المشاكل .

أنظر كذلك ما يسمّى بمشكل الهجرة . لماذا لدينا أصلا بلدان مختلفة ؟ فكّروا فى الأمر. لماذا لدينا رايات و أناشيد وطنيّة ، و لماذا لدينا حدود ؟ لماذا لدينا سكّان كثرٌ يدفعون بعيدا و يمنعون الحصول على حياة لائقة فى حين أنّكلّ ما يريدونه هوالعمل و أن يكونوا أعضاء منتجين فى المجتمع ؟ فكّروا فى جميع المهاجرين إلى هذه البلاد الذين يدفعون بعيدا و يعنّفون وتمزّق عائلاتهم بعنف و يسجنون و يطردون بالقوّة ليعودوا إلى بلدانهم أو حتّى يلق عليهم الرصاص على الحدود . هل تجدون هذا مقبولا ؟ أنا لا أجد بالمرّة ذلك مقبولا ! و بالمناسبة ما الذى يجعل الأمريكيين أفضل من غيرهم ؟ شخصيّا ، لا أحترم الراية الأمريكيّة أو النشيد الوطني و لا أعلن الولاء لأيّ من أنواع هذه الرموز التى تدعى أنّ بلدا أو سكّانا فى جزء من العالم أفضل نوعا ما من غيرهم . هذا ما يسمّى ب " التفاهة " أو " الشوفينيّة القوميّة " – هذه الطريقة فى التفكير معتوهة أصلا و يجب أن نسمّيها بإسمها و نرفض المضيّ فيها ! علينا جميعا أن نفكّر أكثر كمواطنين من العالم و ليس كأمريكيين . و تشاهدون الناس يقفون فى المعاهد و أثناء الحداث الرياضيّة – يقفون لتحيّة الراية و النشيد الوطني و يضعون أيديهم على قلوبهم و ربّما حتّى ينشدون النشيد الوطنى و عادة ما يقوم بهذا أناس هم أنفسهم مضطهَدون و مهانون يوميّا من رف ذات النظام الذى يحيّونه !

حان وقت وضع نهاية لهذا النوع من الركام . فكّروا فى ما تفعلونه ، ما الذى تحيّونه ! يحتاج الناس إلى التفكير فى أكثر منهذا و إلى تعلّم حقيقة هذا النظام و طبيعته . و جرائم الشرة هذه مثلا، **لم تقع صدفة**. لقد وقعت و لا تزال تقع منذ وقت مديد . وهي تحدث لى مستوى رهيب . و يستمرّ حدوثها لأنّ جذور هذا المشكل يمكن أن توجد فى ذات أسس هذا النظام .

الشيء الجديد الوحيد فى هذه الفترة الأخيرة هو ما تسمّونه هذه " اللحظة " ، هو أنّ هناك شيء جديد جميل ظهر ألا وهو أنّ الناس ينهضون و يقاومون برق لمنعهدها فى هذه البلاد لوقت ويل . ذا شيء جميل – جميل أنينهض الشباب و غيرهم فى فرغوسون بجرأة كبيرة و يقولوا : **لا !** لمنعد نقبل بهذا . و كذلك جميل هو عمل من تجمّعوا كردّ فعل على قتل الشرطةرلآريك غارنار . و قد شمل هذا عددا أوسع من الناس إضافة إلى الناس الأكثر إضطهادا الذين يقعون مباشرة أكثر تحت سوة الشرطة . و ثمّة أيضا أناس من الطبقة الوسى حيث هذا النوع من الركام لا يتوانى عن الحدوث . لذا هذا شيء جيّد رغم أنّنا نحتاج إلى المزيد و المزيد من هذا اللون من المقاومة . وهذا اللون من المقاومة هام و هام جدّا و يحتاج إلى أن يكبّر و أن يتّسع نطاقه . و من الأشياء التى يمكن للفهم و التحليل العلميين أن يخبرك بها هو أنّ

الإحتجاجات شيء جيّد جدّا و هام جدّا . ما نسمّيه " مقاومة السلة " هام جدّا. إنّه يبنى قوّة الناس . وهو يخدم كإنذار للذين يسيّرون المجتمع بأنّ جرائمهم ببساطة لن يتمّ التغاضى عنها و التسامح معها بعد الآن . و هذا جزء هام من ممّا يحتاج أن يحصل . لكن يجب أن يمضي ذلك إلى أبعد من هذا . لماذا ؟ لأنّ التحليل العلمي سيبيّن لك أيضا أدلّة واضحة لطريقة هيكلة النظام برمّته و صميمه و أساسه ذاته اللذان سيظلاّن يفرزان هذه الأصناف من المشاكل وهذه الأصناف من الإنتهاكات و من الفظائع و الظلم، المرّة تلو المرّة ، طالما يُسمح للنظام الرأسمالي نفسه بالبقاء .

أحيانا نتحدّث عن **تناقضات الرأسماليّة التى لا يمكن حلّها** . متى إستخدمتم العلم لتحليل هذا الركام ، ستدركون على نحو متصاعد أنّ هذا النظام ليس بوسعه معالجة نفسه و أنّه ليس جوهريّا قادرا على تصحيح هذه الأنواع من الإنتهاكات . ليس بوسع التخلّص فى نهاية المطاف من جرائم الشرطة تجاه السود و اللاتينيين فى هذا المجتمع . ليس بوسعه التخلّص من حكم فارضيه ، ن عنف فارضيه الضين يبقون قسما كاملا من الناس مسحوقين .

و لكلّ هذا صلة بما يشدّد عليه بوب أفاكيان وال الوقت من أنّه عليكم أنتفهموا أنّ فى هذه البلاد ، هذا النظام **قد بُني على العبوديّة** . لا يتعلّق الأمر فقط بما يحدث الآن ، إنّه يعود إلى البدايات الأولى لهذه البلاد . لقد إنطلقت الولايات المتحدة و بُنيت على ، لحظة تأسيسها ذاتها ، على **أساس** العبودية (و المجازر الجماعية ضد السكّان الأصليين) ، و كل ما وُلد من تلك البداية العنيفة تواصل إلى اليوم وهو سبب متجذّر فى لماذا اليوم لدينا شرطة تفرض النظام الرأسمالي وتدافع عنه، وهي بصفة روتينيّة تطلق النار على الشبابالذى لا يحمل سلاحا فى الشوارع . هنا ثمّة رابطمباشر . و العلم سيبيّن لك أنّ هذا الرابط حقيقي و موضوعي و ليس مجرّد رأي ذاتي لفرد أو مضاربة فارغة . و لتقديم هكذا دعوة تحتاجون إلى إثباتات ملموسة – و الدلائل موجودة هنا .

و الشيء نفسه يسحب على مسألة إضطهاد النساء . إنّه تناقض آخر من تلك التناقضات غير الممكنة الحلّ بعمق فى ظلّ هذا النظام القائم . ليس بوسع هذا النظام فى نهاية المطاف أن يعالج المشكل الذى يمكن أن يبيّن العلم أنّه مبنيّ بعمق فى جذور الهياكل التأسيسيّة لهذا النظام الرأسمالي و كذلك فى الأنظمة الإضهادية والإستغلاليّة السابقة عليه ، و جذورها ضاربة فى القدم . أجل ، هناك بعض النساء – هناك بعض الفئات من النساء اللاتى بإمكانهنّ صعود السلّم ، إن صحّ القول ، فى ظلّ الرأسمالية . و الشيء نفسه يمكن قوله عن السود – يمكن السماح للبعض بالصعود ن بالإلتحاق بالطبقة الوسطى الحرفيّة أو حتّى بأن يصبحوا **برجوازيين** تماما ، و يمكن إنتخاب بعض الموظّفين السود إلى الوظائف السامية وحتّى أن يكون هناك رئيس أسود فى هذه الأيّام . لكن لا شيء من هذا يغيّر أي شيء جوهري بصدد الإضهاد العميق و الذى لا يتوقّف الذى يواجهه الغالبيّة العظمى من السود فى هذه البلاد ، و كذلك أناس ملوّنون آخرون . و الشيء عينه ينطبق على النساء . نصف البشريّة – النساء – يتمّ إخضاعه بشتّى الطرق فى الولايات المتّحدة و عبر العالم قاطبة و لا شيء من يتغيّر فق لأنّه بالإمكان الآن أن توجد بعض النساء ضمن الرءساء التنفيذيين للشركات أو ممثّلات حكوميّة أو عدد قليل جدّا من النساء **البرجوازيّات** الثريّات. لا شيء من هذا يغيّر المكان السائدة جوهريّا المهينة و المشيّئة و تجربة الغالبيّة العظمى من النساء هنا و عبر العالم .

حروب الإمبرياطوريّة – هذا تناقض آخر من تناقضات النظام غير القابلة للحلّ . فى نهاية المطاف ، لا يهمّ ، بين الفترة و الخرى ، أن حتّى بعض السياسيين كأفراد أو غيرهم من الطبقة الحاكمة ينوون التحدّث – حتّى بصراحة - ضد حرب أو أخرى من الحروب العدوانيّة الإمبريالية ، فالطبقة الحاكمة **ستواصل** خوض حروب الإمبراطوريّة و التوسّع و الدفاع عن نظامها الإمبريالي و عن تعزيزه . و ستقوم بذلك بلا توقّف المرّة تو المرّة . لماذا ؟ لأنّ الديناميكيّة الكامنة لنظامها **تحرّك** هذه السيرورة ، سواء أراد ذلك أم لم يرد هذا السياسي الفرد أو غيره من وجوه الطبقة الحاكمة . ألا ترون ذلك ؟ آلة هذا النظام الغول **تتطلّب** و بصفة متكرّرة مثل هذه الحروب – للحفاظ على النظام و توسيعه و تعزيزه .

لذا علينا أننواجه واقع ما نسمّيه الإضطهاد القومي ، إضطهاد الأقلّيات القوميّة و إضطهاد النساء ، و حروب الإمبراطوريّة و جيوش الإحتلال – لا تناقض من هذه التناقضات يمكن فى النهاية حلّه فى ظلّ هذا النظام . و بإمكان العلم تحليل **لماذا** لا شيء من هذا يستطيع جوهريّا أن يحلّ فى ظلّ هياكل الرأسمالية – الإمبريالية . و هذا شيء قام به بوب أفاكيان كثيرا فى عمله التحليلي وال عقود مسلّطا الضوء حقيقة و بعمق على لماذا **لا يمكن إصلاح هذا النظام** ، لماذا لا يمكن ببساطة إصلاحه ببعض الإجراءات السريعة ، لماذا علينا أن نقوم بـ**ثورة فعليّة** ، عوض مجرّد العمل من أجل بعض الفتات هنا و هناك .

و الحال نفسه بالذات فى ما يتعلّق بمسألة البيئة و البيئة العالميةّ. حتّى و إن كانت لديك مجموعة من الرأسماليين و الوجوه الأخرى من الطبقة الحاكمة – ممثّليها الحكوميين فى هذه البلاد و فى بلدان أخرى – الذين يصبحون شخصيّا مقتنعين حقّا بأنّ هناك وضع بيئي إستعجالي بالنسبة للكوكب ، و أنّ هذه الخوات قد إتّخذت حقّا لمحاولة إنقاذ بيئة الكوكب و الحيلولة دون كلّ هذا الدمار الذى يتسبّب فى مشاكل خطيرة عبر العالم – إنّ صار بعض الأفراد (أو حتّى عديد الأفراد) منالطبقة الحاكمة شخصيّا مقتنعين بذلك ، وحتّى و إن حاولوا أن يُدخلوا بعض الإصلاحات هنا و هناك ، فإنّهم سرعان ما سيواجهون حدود و عراقيل نظامهم الخاص ! النظام الرأسمالي – الإمبريالي ليس ببساطة قائما و مهيكلا على نحو يسمح لنوع من التغييرات الراديكاليّة التى نحتاجها فعلا لمعالجة الأزمة البيئيّة للكوكب . و بسبب الهياكل الكاملة و " قوانين سير " نظامهم التنافسي بعدوانية و الذى يحرّكه الربح ، ليس الرأسماليّون ببساطة قادرين . و **ليست لديهم القاعدة المادية للمعالجة الفعليّة لهذا المشكل البيئي للكوكب ، بمدى و على نطاق كافيين فى ظلّ النظام الراهن .**

و كلّ هذا من الهام جدّا فهمه ، و مرّة أخرى ، ثمّة حاجة إلى العلم من أجل الفهم العميق بأنّه ليس بوسعك مجرّد " إقناع " الحكّام بالتغيّر لأنّهم هم ذاتهم أسرى تماما لقوانين و أليّات نظامهم الخاص ، أرادوا ذلك أو أبوا . لآليّة النظام الرأسمالي – الإمبريالي قوانين أساسيّة للسير ، " قوانين " لا يمكن فى النهاية تغييرها دون تغيير نوع النظام الذى نعيش فى ظلّه . إذا لم تفهموا هذا ...إذا إعتقدم مثلا أنّ ريقة منع الشرطة من قتل الشباب السود الذين لا يحملون سلاحا هي مجرّد إدخال بعض " الإصلاحات " مثل وضع كاميرا تراقب الشرطة أو مجرّد تقديم تربية و تدريب أفضل للشرة ،ستستفيقون على واقع قاسي لأنّ نظامهم سيظلّ يولّد هذا المشكل من الإرهاب و الإضطهاد . **ليس** بوسع النظام عدم القيام بذلك . و الشيء نفسه ينسحب على كافة الأوضاع الأخرى . إذا إعتقدت أنّ مجرّد تمكين بعض النساء او الفتيات فى بعض الأمثلة هنا و هناك سيخلصم من عبء الإضطهاد المنهجي للنساء فى هذه البلاد و عبر العالم ، فإنّك تغالط نفسك. إذا إعتقدت أنّ مجرّد التعبير عن إرادة الناس فى عدم الذهاب إلى الحرب هو عمليّا كافى لوضع نهاية فى آخر المطاف لكافة حروب الإمبراطوريّة هذه ، فإنّك كذلك تغالط نفك . إذا إعتقدت بأنّ إقناع الرأسماليين بأنّه من الأفضل لخطّهم الأدنى أن لا يدمّروا البيئة كثيرا و إلاّ سيعانى أطفالهم و أبناء أبنائهم إن لم يتمّ عمليّا إنقاذ هذا الكوكب ... إذا إعتقدت أن هذا سيكون كافيا لمعالجة الأزمة البيئيّة للكوكب ، فإنّك كذلك تغالط نفسك .

الإحتجاج ؟ أجل . نهائيّا . الإحتجاجات هامة جدّا . إنّها هامة جدّا بالنسبة للجماهير ، هنا و عبر العالم ، لتوضيح أنّها لن تسمح و لن تشارك فى و لن تقبل بعدُ بأي منهذه الإنتهاكات و هذا الظلم الصارخين . من المهمّ قول : **لا** ، لننقبل بهذا بعد الآن . و مثلما قلت آنفا ، إنّه جزء من بناء قوّة الناس . لكن عليك المضيّ أبعد من ذلك و فهم أنّ هناك تناقضات قائمة صلب بناء الإقتصاديّات و السياسات فى ظلّ بعض الأنظمة و أنّ هذه التناقضات الكامنة – كتل منها تؤدّى إلى ظلم و إنتهاكات فظيعين - ليست ببساطة قابلة للحلّ على أيدى الرأسماليين ، فى ظلّ نظام رأسمالي . نحتاج إلى إقتصاد مختلف، نحتاج إلى إيديولوجيا مختلفة ، نحتاج إلى عالم مختلف ، نحتاج إلى سلطة دولة جديدة .

على الناس أن ينظّموا أنفسهم من أجل ثورة فعليّة . و فى سياق مجرّد حوار صحفي ، ليس بوسعى حتّى التعرّض لكلّ الأنمط التى تثبت أنّ هذه التناقضات الكامنة لهذا النظام يمكن أن يحلّها هذا النظام ، بل هناك أدلّة متراكمة بما فيها تلك التى تمّ الحديث عنها كثيرا فى مجمل أعمال بوب افاكيان التى تطوّرت عبر العقود ، عبر أكثر من أربعين سنة . العمل قد أنجز وهو عميق و علمي ومنهجي . يترتّب على الناس أن يتفحّصوه تفحّصا نقديّا ، عليهم أن يتفاعلوا معه و أن يدرسوه . لا ينبغى أن يستبعده أحد إستبعادا سطحيّا ذلك أنّه يمضى إلى المشاكل الكامنة الأعمق و الحلول المناسبة .

سأقول فقط التالى ثمّ أتوقّف للحظة بشأن هذه النقطة [ضحك] ، لكن من الأشياء الأكثر تشجيعا حول العالم أيضا هو كونه يبيّن لك إمكانيّة التغيير الإيجابي ، كيف يمكننا تغيير الأشياء ببعض الطرق الجيّدة حقّا . إذا لم يكن لديك علم ، أنت تقومبنوع من الرقص حول حياة الذين يقعون فى المشاكل ، و ربّما تعالج بعض المشاكل الصغرى هنا و هناك بيّ المزيد من المشاكل تظلّ تتراكم و لا تدرى ما الذى تفعله، فى الأساس . لكن بفضل العلم يمكن أنتدرك منهجيّا ليس منبع المشاكل فحسب بل أيضا ما هي قاعدة التغيير الإيجابي . و إحدى الأشياء التى لا يفهمها الناس غالبا هي أنّ **أساس التغيير الثوري لمجتمع ، لنظام إجتماعي ، أين يقع هذا الأساس ؟ - إنّه يكمن بالذات صلب تناقضات النظام** . وفى الواقع ، بالضب صلب هذه التناقضات التى تحدّثت عنها – التناقضات الكبرى حقّا التى لا يمكن لهذا النظام نفسه معالجتها التى لا يمكنه فى النهاية معالجتها . و واقع أنّه ليس بإمكانه معالجة هذه المشاكل الكبرى و أنّه يظلّ يدفع الناس إلى الأرض بطرق شتّى ، يخلق عمليّا الظروف التى تتحرّك فى الإتجاه ... وعمليّا تخلق **أساس** قدرة الناس على الإشتغال على هذه

التناقضات، ليدفعوا الناس بالآلاف و بالملايين نحو إمكانيّة تنظيم ثورة فعليّة و بناء مجتمع جديد على أساس مختلف تماما. و لن يعالج هذا كلّ المشاكل بين ليلة و ضحاها ، بديهيّا . لكن العديد و العديد من المشاكل الكبرى يمكن معالجتها إلى درجة كبيرة بفضل العلم و بفضل المبادرة الواعية للناس و تنظيم أنفسهم جماعيّا من أجل ثورة فعليّة .

التجربة و التطوّر الشخصيّين : التدريب الفكري و متعة السؤال العلمي :

سؤال :

كنت أرغب فى الإنتقال إلى الحديث عن تجربتك و خلفيّتك و تطوّرك الخاصين ، لأنّى أعتقد صراحة أنّ الأمر مذهل و أعتقد أنّه سيكون حقّا من المهمّ و مليئ بالدروس للكثير من الناس و قد تصوّرت أنّه سيكون من الممتع ولوج هذا الموضوع . و عليه ، للبدء فى ذلك ، خلفيّتك هي عالمة طبيعة مدرّبة و أعتقد أنّ ما يمكن أن يجلب إهتمام الكثير من الناس هو كيف أنّ عالمة طبيعة مدرّبة أصبحت شيوعية ثوريّة ؟ ربّما حدّثتينا عن مسيرتك و سيرورة تطوّرك .

جواب :

لست متأكّدة من كلّ ما سأتطرّق إليه لكن بمعنى خلفيّتى ، كنت قبل كلّ شيء متدرّبة كمثقّفة . تمتّعت بإمتياز الحصول على تعليم أدبي ليبرالي واسع جدّا و قد تدرّبت خاصة كعالمة بيولوجيّة محترفة فى حقل البيئة و البيولوجيا التطوّريّة . و كانت من أهمّ متع حياتي الرة على العمل فى مجال العلوم البيعية ، فى عالم الطبيعة . فمنذ سنوات صبايا الأولى ، كنت منغمسة فى معنى التساؤل و الفضوليّة بشأن الكثير من الأشياء [ضحك] و خاصة فى العالم الطبيعي . لذا تمتّعت حقّا بالعمل كعالمة وتطبيق مناهج علميّة للخروج و الإكتشاف و البحث فى مساعى للتعرّف أكثر على الواقع ، ولتحصيل معرفة أكبر بديناميكية الأنظمة البيئيّة الطبيعيّة المختلفة ، سواء تعلّق الأمر بالغابات الممطرة أو بالأنظمة البيئيّة الصحراويّة أو الأرصفة المرجانيّة أو الغابات الإستوائيّة . و بوسعى المضي فى ذلك بلا توقّف [ضحك] و الحديث عن كلّ الديناميكيّات والتفاعلات المذهلة بين الأنواع النباتيّة و الحيوانيّة التى كانت لى فرصة إكتشافها فى هذا السياق . و كان من الممكن أن تسير حياتى على هذا النحو ، بكلّ سهولة إنطلاقا من تلك النقطة .

لكنّى أيضا نشأت فى ستّينات القرن الماضي . و إجتماعيّا ، شكّلتنى أشياء مثل حركات معارضة الحرب الإمبريالية التى خاضتها الولايات المتحدة فى الفيتنام . و فى تلك الفترة ، طوّرت كذلك الوعي بلا تكافئ العالم حيث كانت مستويات حياة عالية نسبيّا فى بلد كالولايات المتحدة فى تناقض حاد مع مستويات الحياة فى معظم بلدان ما يسمّى بالعالم الثالث التى عاينتها أوّل ما عاينتها فى خضمّ شغلي . و توصّلت إلى فهم أنّ ذلك التناقض كان فيه مستوى الحياة العالى فى الولايات المتّحدة مبنيّ على حساب الشعوب فى العالم الثالث و أنّ ذلك كان جزءا من تطوّر وعيى الإجتماعي . ثمّ ، داخل الولايات المتّحدة ، أصبحت واعية بحدّة باليعة المنهجيّة و الأساسيّة لإضهاد السود بوجه خاص وهو شيء أفزعنى ؛ و خلال كامل تلك الفترة ، ألهمتنى نضالات الحقوق المدنيّة و حركات تحرير السود . و لمّا كنت البة ، ساهمت فى ذلك النضال و شاركت فى المسيرات ضد حرب الفيتنام. و طبعا ، كانت قضيّة المرأة كذلك، فى تلك الفترة من الزمن موضوعا حارقابمعنى شروع الناس فعلا فى الحفر فى مكانة النساء فى الولايات المتّحدة و حول العالم ، و لماذا توجد مثل هذه الظروف من الإضهاد المنهجي . و كانت هناك مسألة حقّ الإنجاب و حقّ الإجهاض . و صارت لديّ فكرة واضحة جدّا بصدد مسألة إذا لم يكن للمرأة حقّ التحكّم بنفسها فى الإنجاب لتحدّد متى تنجب أفالا ، او إذا كانت تريد أم لا الإنجاب ...متى لا يكون للمرأة حقّ إتّخاذ هذا النوع من القرارات ، يكون ذلك نوعا من الإستعباد . و صرت واعية جدّا بذلك حينها . فكانت تلك التجارب جزءا من تكوني .

و حتّى حينها ، خاصة لأنّى كنت متدرّبة كبيولوجيّة ، كانت مسائل التدهور البيئي و خسارة التنوّع و قع أشجار الغابات الممطرة حول الكوكب و مشاكل مشابهة ، أمسيت واعية بحدّة بكلّ هذا و واعية بحدّة بما كان سيؤدّى إليه بمعنى إمكانيّة جعل الكوكب فى نهاية المطاف غير ممكن السكن بالنسبة للبشر ، و فى كلّ الأحوال بالتأكيد سيؤدّى إلى فقدان كبير للجمال و الموارد الطبيعيّة حول العالم قاطبة ، و هذا كلّه جرّاء النهب الرأسمالي . فى ستّينات القرن العشرين ، كان هذا شيء توصّل إلى فهمه ديد الناس و إن على مستوى أوّلى نوعا ما . أحيانا سمّاه الناس " المركّب الصناعي – العسكري " أو " المؤسسة " و ما إلى ذلك ، لكن على ألقلّ عرف الكثيرون أن الأمر يتعلّق بـ**نظام** و فهموا بصفة متصاعدة و ناقشوا

المفاهيم الأساسيّة كالرأسماليّة و الإمبريالية ؛ و كان الناس بأعداد متكاثرة يتوصّلون إلى فهم على الأقلّ بريقة بسية أنّ هذه هي طبيعة المشكل الكامن فى كافة هذه المشاكل الإجتماعية .

و هكذا كانت هذه بعض تجاربى السياسيّة و الإجتماعية المكوّنة و فى نفس الوقت كنت منغمسة إلى حدّ كبير فى العمل فى المجال العلمي . و أعتقد أنّ بفعل مشاركتى و تدريبي فى المجال العلمي ، لم أنجذب أبدا بوجه خاص إلى التحاليل السطحيّة ، أو تحليل الأشياء المعتمدة ببساة على ما كان الناس يعتقدونه . **لم أكن أبدا مهتمّة جدّا بما يعتقده الناس بمعنى أنّى لا أقبل شيئا لمجرّد أنّ الناس يعتقدون أنّه صحيح ؛ و لا أعتقد أنّ الشيء خاطئ بالضرورة لمجرّد أنّ شخصا واحدا أو شخصان يعتقدان فى صحّته .** أعوّل عوضا عن ذلك على المناهج العلمية و الأدلّة المراكمة . لا أقيّم الأشياء بالإعتمد على ما يتّفق عليه الناس (" فكرة غالبيّة الناس") وهو غالبا خاطئ و خارج نطاق الواقع الفعلي . مناهجى العلمية تجعلنى أفكّر تفكيرا نقديّا إلى حدّ طبير – لقد تدرّبت على الفكر النقدي منذ طفولتى وهو جزء هام جدّا من من أكون ، مفكّرة ناقدة . و فى نفس الوقت ، بطرق علميّة ، أبخث عن الأدلّة ، أبحث عن الأدلّة الماديّة . إذا كنت أحاول فهم شيء فى العالم الطبيعي لا أحتاج إلى رأي شخص . يمكن أن يكون ذلك منطلقا : يمكن أن تكون لدى شخص فكرة ، سؤال محيّر ، رأي . و يمكن أن ينخرط فى المضاربة المبدعة لكنبعد ذلك يجب أن يمضي بها إلىمكان ما ، أن يحوّلها إلى نوع من المشروع و التجريب و التوجّه إلى العالم الحقيقي و إجراء بحث بهذا الشأن . من غير الكافي أن تأكّد " رأيك " أو حتّى " راي" الكثير و الكثير من الناس . و الرأي الذى لا تسنده أدلّة يمكن أن يكشف الكثير **عنك** ، لكن سوى ذلك ، يظلّ دون جدوى **!** [ضحك].

لذا أمضى **و إبحث العالم الواقعي تماما و منهجيّا و وفّر الأدلّة لتحاليلك و إستنتاجاتك** . أنظر فى الأنما لا سيما الأنماط المتكرّرة . و فتّش عن الأدلّة النابعة من إتجاهات مختلفة . و أبقى على ذهنك منفتحا و إعمل بنزاهة كي تحدّد على أساس الأدلّة ، ما إذا صار شيئا (فى الطبيعة او المجتمع) كما توقّعت فى البداية أو ربّما تحوّل إلى شيء مغاير كلّيا .

أثناء ستّينات القرن العشرين ، وُجدت عدّة تيّارات و حركات و تنظيمات سياسيّة متباينة ، و غالبيّتها صراحة لم تلهمنى قط . بدت و كأنّها نوعا ما ضيّقة الأفق و ميكانيكيّة ، و عادة إقتصادويّة فى غاية الضيق ، حيث كانت تحاول فقط الحصول على ظروف حياة أفضل ، أو ظروف عمل أفضل لبعض الناس غير أنّها لم تمض حقّا إلى جذور المشاكل الكبرى . أو كانت بعض أصناف الحركات الأخرى غارقة فى القوميّة أو الحركة النسائيّة أو ما شابه – كما تعلم كانت تلك بداية سياسة الهويّة . وحتّى حينها لم أكن مهتمّة بالفلسفات و الحركات السياسيّة التى لم تكن لتشمل **مروحة كاملة** من المشاكل المفاتيح للرأسماليّة و الإمبريالية . لقد توصّلت إلى إستنتاج أنّ العدوّ هو الإمبريالية و أردت معرفة من يستطيع التعاى مع **ذلك** .

و عندما كنت فى المعهد ، قرأت لماو تسى تونغ وألهمتنى الثورة فى الصين و سعيت إلى مزيد معرفتها. و كان ذلك جدّ مكوّن لى أيضا . و لاحقا ، و فى الأيّام الأولى من تعرّفى على أناس فى المنظّمة التى ستأسّس أواسط سبعينات القرن العشرين الحزب الشيوعي الثوري ، و أقصد الإتحاد الثوري ، تعرّفت على قيادة بوب أفاكيان عبر بعض أعماله ، لا سيما عبر بعض التحاليل ذات النظرة الثاقبة ، مثلا بصدد المسألة القوميّة لدى السود فى الولايات المتحدة و الحجج المعتمد فى تقديم التوجّه الذى ينبغى أن تمضي فيه الأشياء . و وجدت أخاء فى بعض المجالات المختلفة إذ كانت الأمور لا تزال بدائيّة جدّا حينما . بيد أنّه بعدُ قد بدا لى كإنسان يُجرى تحاليلا ملموسة و مهمّة و يُطبّق المناهج العليّة الأكثر صرامة و يُجرى تحاليلا أعمق لمسشاكل المجتمع من أناس كانوا بالنسبة لى يشتغلون على الظواهر السطحيّة لا غير . كان يمضى عميقا و يقوم بحفريّات للحصول على الأدلّة و بدت لى مقاربته الأكثر علميّة لمشاكل المجتمع بعدُ متباينة مع الطرق التى كان يقارب بها معظم الناس فى " حركات " يومذاك المسائل ، و قد جلب هذا حقّا إنتباهي إعتبارا لخلفيّتى العلمية . و كما قلت آنفا ، لم أتأثّر بالشعبويّة بمفهوم أنّ ما هوشعبي أو ما يفكّر فيه معظم الناس هو ما يجب أن تعتمد عليه الأمور . ما كان لذلك أي وزن بالنسبة لى . أريد أن أشخّص منهجيّا سبب المشاكل العميقة فى المجتمع و أريد أن أحاول العمل مع الناس لمعالجة هذه المشاكل .

لذا أظنّ أنّى قاربت كلّ هذا عندها بالطريقة التى كنت أقارب بها مشاريع العلوم الطبيعية . و شملت بعض تجاربى المفضّلة فى العلوم الطبيعيّة العمل الجماعي مع العلماء الآخرين للخوض فى المسائل – طرح الكثير من الأسئلة عن شء ما لم يقع فهمه بعدُ ثمّ الإبحار فى كف يمكن التطرّق للمشكل ، كيف يمكن مزيد معرفته و الحفر عميقا . هل أنّنا نحصل على أدلّة مقنعة عن العوامل المميّزة لظاهرة ؟ هل هناك تجارب يمكن أن نقوم بها ، طرق تمّننا من العمل على الواقع ،

يمكن أن تلقى ضوءا على بعض الأنماط الكامنة و التى يمكن سواء أن تعزّز أو تتحدّى فهمنا الراهن و تطوّره أكثر ؟ وهذا سيكشف الأساس المادي الكامن لكيف تغيّرت بعض الأشياء فى الماضي ، و كيف تتغيّر الآن أو يمكن أن تتغيّر فى المستقبل ؟

فى ستّينات القرن الماضي ، تعرّضت لمفهوم المادية الجدليّة و أدركت أنّ تحليل التناقضات الماديّة الكامنة يمكن أن ينسحب على أيّة ظاهرة من العالم المادي ، وهو فى الواقع منهج مفتاح فى تعميق فهمنا لكلّ من المظاهر المحدّدة و ميزات شيء أو ظاهرة و أنماط حركته و تطوّره . ويشمل هذا كلاّ من الطبيعة و المجتمع . و إلى يومنا هذا ، أتجوّل فى شتّى ألوان البيئات الطبيعيّة المختلفة و ما الذى أراه ؟ أرى تناقضات . أرى تناقضات فى كلّ مكان ! [ضحك] . هكذا أرى العالم الطبيعي . إن شاهدت طائر الطنّان يلقّح زهرة ، أراه تناقضا ، أفكّر فى التناقضات . و لمّا أقول " تناقضا " هنا لست بصدد الحديث عن نزاع أو عدائيّة. كلّ شيء متشكّل من تناقضات و لكن ليست كلّ التناقضات تناقضات عدائيّة. بهذا المعنى ، أستعمل ذلك هنا ، التناقض مجرّد " علاقة " ، علاقة و تفاعل ديناميكيين مثلا بين طائر الطنّان الملقّح و النبتة المزهرة التى يلقّحها . و هذا التناقض الديناميكي الخاص هو فى حدّ ذاته قائم و ينهض بدوره فى إطار أوسع ، و فى تفاعل ديناميكي مع نظام بيئي أوسع بكثير (لعلّه غابة ممطرة أو لعلّه نجرّد حديقة خلفيّة) متكوّن هو ذاته من عدد كبير من التناقضات الديناميكيّة الخاصة داخل و بين عديد مختلف العناصر التى تكوّن ذلك النظام البيئي الأوسع . و ثمّ طبعا ، هناك دائما الكثير من التناقضات الديناميكيّة التى تأتى و تؤثّر على ألشياء من خارج نظام خاص ، عادة دافعة التغيير فى بعض الإتجاهات الجديدة كلّيا . لذا ، إذا كنت حقّا تحاول فهم سيرورة ، أيّة سيرورة ، هناك أسئلة تأخذ بعين الإعتبار كلاّ من التناقضات الداخليّة صلب سيرورة أو صلب شيء يحدّد مظاهره المميّزة الرئيسيّة و كذلك بعض طُرق التغيير ؛ ثمّ هناك أيضا تلك التناقضات الخارجية التى يمكن أن تأتـى و تؤثّر على كامل السيرورة و تدفع الأشياء بإتجاهات جديدة ، و إن كان دائما على أساس هذه التناقضات النظاميّة الكامنة . لست أسعى إلى التوغّل فى كلّ هذا كثيرا الآن ، لكن هذا النوع من التفكير و المقاربة الماديين الجدليين حيوي لتطبيق علم جيّد ، فى كلّ من المجالات الطبيعيّة و الإجتماعيّة . و بالتالى ، أجل ، هكذا أسعى إلى التفكير فى ألشياء كلّما أكون فى نظام بيئي طبيعي . أرح أسئلة فى ذهني و أستكشف هذه الأشياء و أفكّر فيها : ما هي الأسباب الكامنة ، كيف توفّر التناقضات الكامنة صلب نظام أو كيان عمليّا الأساس المادي لذلك الشيء ، لذلك الكيان الخاص أو ذلك النظام الخاص ، للتغير عبر الزمن ؟ أفهم أنّ الأساسي الجوهري لتغيّر شيء متضمّن صلبه ، فى تداخل مع البيئة الخارجيّة . و أنا مهتمّة بأشياء تحصل على حواف الأشياء و حدودها . لو كنت أسير فى غابة و بلغت ارضا عارية من الأشجار فى الغابة ، أشرع فى الحال فى التفكير فى هذا – خصوصيّات تفاعلات الأنواع فى الحواف مجموعة الأنواع النباتيّة أو الخيوانيّة الخاصّة فى هذه البيئة الخاصّة ، و الديناميكيّات التى تجدّ على خطوط الحدود بين الغابات و الأرض العارية من الأشجار .

لكن لا تفكّر أنّه بوسعنا التعمّق فى كلّ هذا الآن [ضحك]. أريد فقط شرح نقطة أنّ هذه سيرورة المادة فى حركة فى العالم المادي لما نسميه العالم المادي و أي مظهر من العالم المادي ، و كيف أنظر إلى العالم المادي للواقع الإجتماعي ، الطرق التى تتشكّل بها المجتمعات ، المجتمعات الإنسانية . لديّ بعض التدريب كذلك على الأنتروبولوجيا الثقافيّة و قد كنت مهتمّة على الدوام بتاريخ الأنظمة الإجتماعيّة الإنسانيّة ، من مجتمعات الصيد و القطف إلى الأنواع الأخرى من المجتمعات – المجتمعات الفلاحيّة و المجتمعات الصناعيّة المتقدّمة – المنظّمة على أسس ماديّة مختلفة و أسس إقتصاديّة مختلفة و تأثير هذه الأشكال الكامنة للتنظيم الإقتصادي على رق حياة الناس ، و تقاليدهم و ثقافاتهم و ما كان يعتبر قوانينا و ما كان يعتبر صحيحا و خاطئا و ما إلى ذلك ، و كيف يمكن لهذا أن يتغيّر عبر الزمن فى إرتباط بالنظام الإجتماعي الذى يقوم عليه .

لذا هناك تواصل بين هذه المجالات المتباينة من الإهتمام فى حياتى كمثقّفة . و أعتقد أنّه ليس صدفة أنّ ما إكتشفت أنّى منجذبة إليه حتّى عند نقطة مبكّرة كان المقاربةالموجّهة الأكثر علميّة للتغيير ، للتغيير الراديكالي للمجتمع . لقد أضحيت مقتنعة فى وقت مبكّر ، أيّام كنت فى المعهد ، بأنّ المشكل هو الإمبريالية و أنّ الحلّ هو الثورة و التحرّك نحو نوع من المجتمع الإشتراكي بإتجاه نوع من العالم الشيوعي . حسنا ، لم أكن بالضرورة أمتلك فهما عميقا جدّا لكيفيّة بلوغ ذلك أو لما قد يعنيه ، لكن إستطعت أن أرى بالمعنى الجوهري أن إلى ذلك ينبغى أن تمضي الأشياء . و لم أنحرف أبدا عن هذا الفهم الأساسي مذّاك . إلاّ أنّ ما حدث هو أنّى تمكّنت من التعلّم – بما فى ذلك بفضل الأعمال التى ألّفها بوب أفاكيان ، و أشعر أنّى طوّرت فهما أعمق لهذه الديناميكيّات الإجتماعيّة الكامنة حيث يكمن الأساس المادي لتغيير راديكالي إيجابي .

==

الباب الثانى :

بعض الأفكار حول الدورالإجتماعي للفنّ والإشتغال على الأفكار و البحث عن الحقيقة : تأمّل فى القيادة الثوريّة و السيرورة الفكرية

1- بعض الأفكار حول الدورالإجتماعي للفنّ

أرديا سكايبراك

" العامل الثوري " عدد 1114 ، 12 أوت 2001

الجزء الأوّل :

" الفنّ و تاريخ الإنسان "

توطئة الناشر :

فى بدايات ثمانينات القرن العشرين ، تقدّم خطّ داخل الحزب الشيوعي الثوري يقول إنّ الدور الإجتماعي للفنّ يتعيّن أن يكون مميّزا على النحو التالي " الفنّ ترفيه " .و أدّى هذا إلى نقاش و جدال فى صفوف الحزب ، و من خلال هذه السيرورة وقع نقد خطّ " الفنّ ترفيه " و وقع لفظه . و مُذّاك ، تواصل نقاش ضمن أناس ، فى كلّ من داخل الحزب و خارجه ، حول الدور الإجتماعي للفنّ . و التعليقات التالية التى كُتبت قبل سنوات من الآن من طرف أرديا سكايبراك مؤلّفة كتاب " **الخطوات الأولى و القفزات المستقبليّة** ..." كانت مساهمة فى تلك السيرورة .

فى هذه التعاليق تتحدّث سكايبراك عن ما هو خاطئ فى مفهوم " الفنّ ترفيه " و تثير عددا من المسائل الهامّة المرتبطة بذلك و بصورة أعمّ ، بالدور الإجتماعي للفنّ . لم تكتب هذه التعاليق للنشر ، و بالفعل ، كانت أكثر فى شكل بعض الأفكار و التأمّلات الأوّليّة إلخ و نوعا ما غير الرسميّة . لكنّنا نشعر ، فى سياق التوزيع و النقاش الواسعين لمشروع البرنامج الجديد للحزب الشيوعي الثوري ، و كذلك بالمعنى الشامل و الجاري ، تظلّ النقاط المثارة فى هذه التعليقات صالحة جدّا و يمكن أن تساعدعلى حفز مزيد الصراع داخل الحزب و فى صفوف آخرينخارجه ، حول هذه المسائل و غيرها من المسائل الهامّة . لهذا و بهذا الهدف طلبنا إذن الكاتبة لنشر التعليقات و حصلنا عليه . و نأمل أن يحفز فعلا نشرها و بالمعنى الأفضل ، يدفع إلى مزيد الخوض فيها و مزيد النقاش و تبادل الآراء بشأن المسائل المتطرّق إليها و نرحّب بالمراسلات التى تبحث بنفس الروح عن المساهمة فى السيرورة القائمة و نشجّع عليها.

" و بالرغم من أنّ الحياة الإجتماعيّة للبشريّة هي المنبع الوحيد للأدب و الفنّ ، وأنّها ذات حيويّة وغنى لا يضاهيها الأدب و الفنّ من حيث المضمون ، إلاّ أنّ الشعب لا يقنع بهذه الحياة بل يريد الأدب و الفنّ . فلماذا ؟ لأنّه ، رغم أنّ كلتيهما جميلة ، إلاّ أنّ الحياة التى تنعكس فى الأعمال الأدبيّة و الفنّية ، يمكن بل يجب أن تكون على مستوى أرقى من الحياة اليوميّة الواقعيّة و أكبر قوّة و أكثر تركيزا و أروع نموذجيّة و أقرب إلى المثل الأعلى ، و بالتالى فهي أكثر شمولا منها ."

ماو تسى تونغ ، **أحاديث فى ندوة الأدب و الفنّ بيانآن** ، **مؤلّفات ماو تسى تونغ المختارة** ، المجلّد الثالث ، الصفحة 108-109 (الطبعة العربية ، دار النشر باللغات الأجنبيّة ؛ بيكين 1970).

يظلّ موقف ماو هذا أحد أفضل الصياغات المبرزة لميزات الفنّ . قبل بضعة سنوات ، و فى إطار الصراع الضروري جدّا من طرف الحزب الشيوعي الثوري ضد نزعة مزج الفنّ بالتحريض و الدعاية السياسيين ، جرت محاولات لمزيد

الخوض فى مسألة الدورالإجتماعي للفنّ . و قد توفّرت لى فرصة مراجعة بعض الوثائق التى تمّ تداولها فى صفوف الحزب كجزء من هذه السيرورة والتفكير فيها ، أودّ أن أصوغ بعض أفكاري الأوّليّة الخاصة بهذا المضمار ، آملة المساهمة فى مزيد دفع النقاش و الجدال بشأن المسائل الهامّة المعنيّة .

ظهرت نظرة داخل الحزب – لفظت فى النهاية – تقول صياغتها إنّ " دور الثقافة فى المجتمع فى ظلّ الظروف الحاليّة و المنظورة بما فيها المرحلة الإنتقاليّة إلى الشيوعية ، يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة . إنّه ترفيه " .

هذا التوصيف للدور الإجتماعي للفنّ – " الفنّ ترفيه " – قُدّم على أنّه فى الأساس يحافظ على نظرة ماو للفنّ ، و مجرّد تعبير أعمق و تطوير لفهمنا للدور الإجتماعي للنّ ، وفق ذات الخطوط . مثلا ، فى الدفاع عن صيغة " الفنّ ترفيه " ، قيل إنّ ذات مقولة ماو (المذكورة أعلاه) " تعنى أنّ الناس يتمنّون **الهروب** من الحياة اليوميّة (حتّى أحيانا لمّا تكون الحياة اليوميّة تمرّدا ثوريّا " حفلا للمضطهَدين ") و أنّ الفنّ وسيلة للقيام بذلك . هذا هو الخطّ القاعدي " . كان هذا أساس محاولة التوفيق بين صيغة ماو وصيغة " الفنّ ترفيه " . لكن فى نقد هذه الصيغة " الفنّ ترفيه " ، أُشير على نحو صحيح إلى أنّه " لبلوغ فهم صحيح لعلاقة الفنّ بالسياسة ، من الضروري إمتلاك فهم صحيح للدور الإجتماعي للفنّ " وأنّ مصطلح " ترفيه "، حتى و إن جرى تحديده بصفة واسعة " لا يعبّر عن مجمل الدور الإجتماعي للفنّ : لا يكفى كشرح لذلك الدور الإجتماعي ، و إن كان ذلك كلّ ما نقوله عن الدور الإجتماعي للفنّ _ إنّه ترفيه – سنسقط فى بعض الأخطاء ذات الدلالة (بصفة واسعة فى القطب المناقض لخطإ التعاطي مع الفنّ كتحريض و دعاية) ".

أعتقد أنّ هذا فعلا صحيح جدّا . و ما سأسعى إلى القيام به فى ما يلى هو تطوير وجهة النظر هذه و وصف بعض إستكشافي الخاص لمسألة الدور الإجتماعي للفنّ – سيرورة قادتنى إلى إستخلاص حتى أقوى بأنّ محاولة القبض على الميزات الأساسيّة للدور الإجتماعي للفنّ فى صيغة " الفنّ ترفيه " حقّا خاطئة تماما ، و أنّ هذه الصيغة فى الواقع تقف فى تعارض حقيقي جدّا مع الذهن الواسع و النظرة الشاملة للفنّ مثلما كثّفها ماو فى الصيغة المذكورة أعلاه .

من المفيد أن نعود خطوة إلى الوراء لدقيقة ونفكّر فى التاريخ . ما هو الدور الذى لعبه الفنّ فى شتّى المجتمعاتعبر العصور ؟

لقد كان الفنّ على الدوام نشاطا إجتماعيّا تنخرط فيه الكائنات الإجتماعيّة ، فى إطار إجتماعي . و بالتالي قد تشبّع بالمعنى الإجتماعي عبر تاريخنا . لكن الإطارات الإجتماعيّة (أنماط الإنتاج المهيمنة والأشكال المناسبة للتنظيم الإجتماعي) قد شهدت تغيرات عميقة فى مسار التاريخ الإنساني و قد إنعكست هذه التغيرات بلا شكّ (و أثّرت فى) التغيرات فى الدور الإجتماعي و المعنى الإجتماعي للفنّ كنشاط إجتماعي. و دراسة هذه التغيّرات و مظاهر السيرورة الفنّية التى **لم** تغيّر ، ستغنى إلى حدّ كبير أيّة محاولة للمسك بالدور الإجتماعي للفنّ فى عالم اليوم . و فى حين أنّ إستكشافا واسع النطاق لهذا الموضوع بداهة ليس هنا مجاله ، فإنّ بعض الأشياء يمكن أن تقترح حتى إنطلاقا من نظرة سطحيّة عودة إلى الوراء فى الزمن .

هل إنخرط البشر دائما فى النشاط الفنّي ؟ أعتقد أنّنا فعلنا . أعتقد أنّ **الفنّانين** المحترفين – الذين يحتلّون أدوارا إجتماعيّة جدّ مختصّة – ظهروا فقط مع ظهور التراتبيّة الصارمة والإنقسامات الطبقيّة فى المجتمعات ، لكن **الفنّ** – كنشاط إجتماعي – يعودإلى زمن سابق بكثير . و من الهام الإشارة إلى أنّ الإشتراكي الروسي بليخانوف قد نقد بوتشر لإقتراحه أن " اللعب أقدم من العمل " و أن" الفنّ أقدم من إنتاج الأشياء المفيدة ". لقد عارض بليخانوف ذلك بأنّه على المرء أن يعترف فى النهاية " بإرتباط الفنّ بالإقتصاد " عوض " إرتباط الإقتصاد بالفنّ " (+) و فى حين أنّه من الصحيح أن نشير إلى أنّ كافة النشاطات الإنسانيّة فى مجال البنية الفوقيّة تقوم فى آخر المطاف على القاعدة الإجتماعيّة للنشاط **الإنتاجي** الإنساني ، و لن تكون حتى **ممكنة** فى غياب مثل هذا النشاط ، فإنّ الإجابة التى وُجّهت لبوتشر تبدو مطبوعة بأكثر من القليل من الماديّة الميكانيكيّة . و هذا عمليّا يسدل مناطق ظلام على فهمنا للدور الإجتماعي للفنّ منذ بداياته كنشاط إجتماعي إنساني .

أفترض أنّ الإنسان قد إنخرط فى أشكال من التعبير الفنّي منذ بداية المجتمع الإنساني ، مرّة أخرى ، مدّة طويلة قبل ظهور الطبقات أو حتى التراتبيّة الأولى فى المجتمع . وينهض إعتقادى هذا على واقع أنّه ، مع بروز أساس مراكمة الإنسان لنوع من الفائض المادي (لعلّه عبر مجرّد **تخزين** المواد الغذائيّة المجمّعة) ، وُجدت القاعدة الماديّة لظهور النشاطات الإنسانيّة غير المرتبطةمباشرة ، بالمعنى الأكثر مباشرة ، بالنشاطات الهادفة لتوفير المتطلّبات الأساسيّة للبقاء

على قيد الحياة و التوالد . إنّ مراكمة أدنى فائض مادي أكثر من الحاجة للإستهلاك المباشر قد يكون وفّر على الأقلّ **أساسا** للتجارب الأوّليّة لتقسيم للعمل فى صفوف البشر ، و وفّر أساسا جديدا نوعيّا لإستكشاف العالم الخارجي و تغييره .

و كان لهذا تأثيرا بارزا على تطوّر التنظيم و الوعي الإجتماعيين أيضا **!** الآن توفّر أساس مادي لينخرط البشر فى نشاطات إنتاجيّة غير مرتبطة بالبقاء على قيد الحياة بالمعنى الأكثر مباشرة – تنوّع كبير الرحلات و البحوث التجريبيّة التى لم تكن نتائجها الملموسة مضمونة و يتمّ الإنحراط فيها (مثل الخروج فى رحلات صيد طويلة قد تكون منتجة و قد لا تكون فى طريقة صيد حيوانات أو تجربة بعض الأدوات الجديدة إلخ) .

و مع الإبتعاد المتزايد لأجداد أجدادنا عن حدود وجود من اليد إلى الفم ، توفّرت لهم أيضا قاعدة لتجربة طرق جديدة لتأويل و تحليل المعلومات المعقّدة المتنامية التى تتأتّى من العالم الخارجي (و من المجتمع الإنساني ذاته) بالإنخراط فى أشكال من التعامل مع العالم الخارجي ، و مرّة أخرى ليس مرتبطا جدّا بالبقاء المباشر على قيد الحياة . وُجد إذن أساس **للفنّ** بشكل أو آخر .

ليس بوسعنا أن نجزم بأنّ الفنّ كنشاط إجتماعي قد ظهر مع ظهور قاعدة مثل هذا النشاط ذاتها ، لكن هل يعتقد أي شخص إعتقادا جدّيا أنّه وجد لفترة طويلة الخطاب و وجدت اللغة قبل وجود حكايات و أغاني ، مثلا ؟ الحياة الإجتماعيّة لا تتحجّر مباشرة (على الأقلّ ليس بالمعنى الأركيولوجي المتعارف عليه **!**) ، لذا لن يكون من الممكن أبدا أننعيد خلق بالضبط النشاطات الفنّية الأوّلية لأجداد أجدادنا خاصة بإعتبار أنّ عديد إنتاجات مثل هذا النشاط (المصنوعة من مواد قابلة للتلاشي) لن تحفظ كثيرا عامة للمستقبل .

يمكننا مع ذلك أن نكسب بعض الرؤى الثاقبة بشأن النشاط الفنّي و دوره الإجتماعي فى المجتمعات ما قبل تركيز الطبقات بتفحّص مثل هذه النشاطات لدى أناس معاصرين يعيشون فى مجتمعات تتميّز بالتطوّر القليل جدّا فى قوى الإنتاج و بغياب التراتبيّة الإجتماعيّة الصارمة أو الإنقسامات الطبقيّة ، مثلما هو الحال لدى بعض مجتمعات الصيد الباقية (مجتمعات تقوم على جمع النباتات و الغلال و الصيد) التى تعيش فى أنحاء مختلفة من العالم . عموما ، مثل هذه المجتمعات ليس لديها أيّ " فنّانين" متخصّصين ، و كذلك ليس لديها " قادة " سياسيّون أو عسكريّون أو "قساوسة " دينيّون إلخ . مثل هذه الوظائف الإجتماعيّة المتخصّصة ظهرت تاريخيّا عندما تطلّب مزيد التطوّر و نموّ النشاطات الإنتاجيّة المعقّدة مزيدا من تقسيم العمل المعقّد و المقنّن ، كما هو بديهي فى كافة مجتمعات الرعاة و الفلاحة و الصناعة . لكن لا أعتقد أنّ هذا يعنى أنّه لم يوجد " فنّ " لدى مجتمعات التجميع و الصيد .

سيحتجّ البعض بأنّه ليس بوسع المرء حقّا أن يتحدّث عن " فنّ " فى مثل هذه المجتمعات ، مثلما يُبيّنه واقع أنّه شائع تماما فى مثل هذه المجتمعات أن لا توجد حتى **كلمة** فنّ فى مفرداتها . و ماذا فى ذلك ؟ شعب الإينويت ، بآلاسكا وغيرها من الأماكن ، لا يملك كلمة واحدة ل " الثلج " ، على حدّ علمي ، لكن لا أحد يقترح أنّه غير معتاد على هذا الشيء **!** فى الواقع ، لدى هذا الشعب **عدّة كلمات مختلفة** فى لغته تحيل على عديد **الأنواع** المتنوّعة من الثلج التى يميّزها ، و التى لها إنعكاسات إجتماعيّة متباينة جدّا فى علاقة بمختلف نشاطاته .

لعلّ المقارنة ضيّقة نوعا ما ، إلاّ أنّى أظنّ ، فى عديد الحالات أنّ مجتمعات التجميع و الصيد ليس لديها كلمة واحدة ل " الفنّ " (بإعتباره نشاطا إجتماعيّا عالي التخصّص و التقيّد) و بالتأكيد لا كلمة ل" الفنّان " (كشخص منخرط فى المقام الأوّل فى الفنّ) ،و مع ذلك بصفة متكرّرة ينخرطون فى نشاطات فنّية عدّة ولديهم عدّة كلمات متنوّعة لنتائج هذا النشاط . عند إتباع هذا النتوء (و لعلّ كلّ هذا يعلمه و يفهمه جيّدا الكثير من الناس إلاّ أنّه كان بالنسبة لى إكتشاف جديد) ، عدت إلى تقارير حول حياة شعب الكنغ سان **!** و مجتمعاته التقليديّة (و إن هي ليست الآن بصدد الإضمحلال) القائمة على التجميع و الصيد قد وقعت دراستها ووقع وصفها على نطاق واسع .

حكايات شعب الكنغ سان !

حرفيّا ممتلكات و أدوات الإنتاج التقليديّة لمجتمع الكنغ للتجميع و الصيد بالكاد تتجاوز أشياء مثل عصيّ حفر للبحث عن جذور النباتات إلخ و ليست لديهم تراتبيّة أو قيادات صارمة فهم يعيشون ضمن مجموعات متنقّلة صغيرة يمكن فيها التوصّل إلى إتخاذ قرارات إجتماعيّة عبر الصراع والتوافق غير الرسميين نسبيّا . و مع ذلك ، لديهم تاريخ شفوي ثلريّ – مجموعة حكايات و أساطير تمرّر من جيل إلى جيل وهي بوضوح تنهض بدور إجتماعي هام .

بشكل ما جميع الكنغ**!** يروون الحكايات ، بما أنّ الجميع ، فى مناسبات ينخرطون فى رواية حكايات . هذا من جهة ، لكن من جهة أخرى ، فى لغتهم كلمات مختلفة لأنواع مختلفة من الحكايات ، لها على ما يبدو أهمّية إجتماعيّة متباينة . مثلا ، كلمة **ن=واسي** تحيل على " الحكايات العاديّة " (كتلك المتّصلة بالصيد و الحكايات التاريخيّة العامة مثلا) و هذه

الحكايات يرويها أناس مختلفون . لكن كلمة **ن = واسي أ ن ! أوسيماسى** تحيل على "حكايات الشيوخ " وهي مجموعة من الحكايات و الأساطير الأهمّ يتوارثوها جيلا بعد جيل و إن كانت معروفة على نطاق واسع ، يرويها و يعد روايتها تقريبا حصريّا الشيوخ . و عادة ما يؤكّد الشباب أنّهم ببساطة يفتقدون إلى التجربة الضروريّة لتناوب هذه الحكايات .

فى الواقع، هناك عديد الكلمات المختلفة ل"حكايات الشيوخ" هذه بما فيها " حكايات الماضى السحيق"،" حكايات البداية " إلخ . و مجدّدا ، بينما هناك كثير من الناس فى مجتمع الكنغ ! التقليدي " يروون الحكايات " بمهارة ، ينحو الشباب إلى إرجاء رواية هذه الحكايات الخاصّة للكبار فى السنّ ، بينما من جهة أخرى ن " إفتراضيّا **كلّ** شيخ قادر و عادة راغب فى رواية " هذه الحكايات . و منثمّة ، " رغم أنّه لا وجود لكهنوت خاص أو مجموعة متميّزة أخرى منوطة بها الحكايات فى ثقافة السان ، فإنّ الشيوخ لديهم فعلا نوعا من الإحتكار " فى هذا المجال . (المصدر : ميغان بيسل ، " جوانب من فلكلور الكنغ !" ضمن "مجمّعو و صيّادو كالا هاري " ، نشر رتشارد ب. لى وإرفان دي فولار ، صحافة جامعة هرفار 1976 ، خاصّة الصفحات 306 و 308).

ليس من الجلي تماما لماذا هذه الحكايات إلى حدّ كبير حكر على الشيوخ لكن يبدو أنّ لذلك علاقة وطيدة بكونهم يعتبروا قد جمّعوا ما يكفى من التجربة الإجتماعيّة عبر السنين ليعرفوا هذه الأشياء و لينقلوا بصفة مناسبة (أو ربّما فى مناسبات يحوّروا ؟) هذه الحكايات التى يبدو أنّها تنهض بدور هام فى الحفاظ على معنى **الإستمرار الإجتماعي** ضمن الكنغ ! و مثلما قالت إمرأة طاعنة فى السنّ : " الشخص الطاعن فى السنّ و الذى لا يروى حكايات ببساطة ليس له وجود .أجداد أجدادنا نقلوا لنا أعمال الناس قبل زمن بعيد و كلّ من لا يعرفونها لا يملكون رؤوسا مستقيمة. و كلّ من يملك رأسا مستقيما يعرفها!".

" العمل الدائم و عدم اللعب يجعل جاك طفلا غبيّا " :

كلّ هذا يقترح عليّ أنّ التعبير الفنّي **لم** يكن على الدوام **فقط** وسيلة ترفيه (ونعم الحكايات التقليدية للكنغ! على ما يبدو ترفيهيّة للغاية وهي تروى و تعاد روايتها بقدر كبير من الإستمتاع لكنّها وسيلة للمسك ببعض المظاهر الحيويّة للتجربة الإجتماعيّة و تكثيفها و نقلها و من ذلك أشياء مثل الإنذهال أمام ما هو غير معروف و الحفاظ على ما هو معروف و التنبّئ بالمستقبل . و لا يحدث هذا فى الحكايات وحسب . فكّروا فى كافة الأغاني و الموسيقى و رسم الأجساد و الزخرف و تلوين الحاويات و الأدوات و المآوي إلخ ... فكّروا فى كافة الرقصات التى تنتجها المجتمعات ذات القوى الإنتاجيّة المحدودة التطوّر . هل يمكن حقّا تقليص كلّ هذا إلى " ترفيه " ؟

مجدّدا ، حتى و إن بحث المرء عن " إستعادة " كلمة ترفيه ومحو دلالاتها الشائعة لتسلية الذهن المنذهل والمتعة التافهة (التشديد الوحيد الجانب الذى يشجّع عليه المولعون بالبراغماتيّة فى كلّ مكان ، و خاصة الذى تبثّه و تروّج له برجوازيّة الولايات المتحدة الأمريكية). ، يظلّ المشكل مع صيغة " الفنّ ترفيه " قائما . فالمصطلح ذاته يحمل دلالة مزدوجة من التسلية أو المتعة و الحصول على الإلهاء (أي مثلما هوالحال بالنسبة للمصطلح الفرنسي بمعنى " الترفيه ") عن الشؤون العادية .

لكن حتى هذا المظهر الأخير كان ينزع تاريخيّا نحو أن تكون له دلالة تسلية إنتباه الناس ليس عن الشؤون اليوميّة فحسب (لعلّه من الأفضل كسر الإندفاع العفويّ و كبحه و رفع أنظارهم !) لكن أيضا عن المسائل **الأساسية** (المحوريّة) التى **ينبغى** أن يعتنوا بها ! كان يقال إنّ الفيلسوف بسكال من القرن السابع عشر كان قد لاحظ أنّ " " الترفيه " يسلّينا و يجعلنا نصل إلى الموت دون أن شنعر بذلك " . و بينما سيكون بالتأكيد من الخطأ تبنّى موقف دغمائي و تشفّى إزاء الترفيه (وهو فعلا ينهض بوظيفة إجتماعيّة هامة) ، ليس بوسعنا ببساطة أن نستبعد جانب المصطلح الذى يحمل دلالة الإلهاء عن المسائل الأكثر أساسية فى الحياة .

فقط لنكون واضحين ، المسألة ليست أنّه هناك شيء خاطئ فى ما يتّصل بالترفيه . يحتاجالناس ،وهو يعنى أنّنا نحتاج من فترة إلى أخرى ، مؤقّتا ، إلى الإلهاء عن الشؤون اليوميّة ، سواء كانت ذات طبيعة تافهة أم نبيلة . كلّنا فى حاجة إلى اللعب ، إلى الإسترخاء ، إلى الإنخراط ، فى أشكال مختلفة عديدة من الإستجمام ، بالضبط لأجل القدرة على الإبداع مجدّدا ، إلى العودة إلى أيّة أشياء نحتاج القيامبها بأكثر راحة ، و لعلّ ذلك بآفاق نضرة أكثر . السخرية القديمة " العمل الدائم و عدم اللعب يجعل جاك طفلا غبيّا " بالتأكيد صحيحة وهذا شيء يجب أن يأخذه حتى الثوريّون الذين يبدون طاقة و تصميما لا حدّلهما بعين النظر ،عادة فى زمن الصراعات والنشاطات الأشدّ .

و على عكس نظرات الدغمائيين ، الحاجة إلى الترفيه ليست مؤثّرا كامنا على الإنحطاط الإجتماعي و لا هي تضعف الإضطلاع بالمسؤوليّات الإجتماعية ! كما هو الحال مع كلّ نشاط إجتماعي آخر ، أي شكل خاص من الترفيه يتمّ فى إطار

إجتماعي و له إنعكاسات إجتماعية . و بالتالي كلّ من مضمون و شكل أيّة وسائل ترفيه فى أيّ زمن معطى تزخر بالمعنى الإجتماعي ، يمكن تقييمه على أنّه نسبيّا إيجابي أو سلبي (أو ربّما لا قيمة له نسبيّا) فى علاقة بالمصالح و الأهداف الإجتماعية الخاصّة . و نفس التقييم يمكن أن ينسحب على أي عمل فنّي خاص .

لكن فى حين يمكن للفنّ أن يكون شكلا هاما من الترفيه(لكلّ من الفنّان و " للجمهور" بالمعنى الواسع)، الفنّ و الترفيه ليسا الشيء نفسه . فإبداع عمل فنّي و تقييمه يمكن أن يكونا بالتأكيد شكلا مرحّبا به من " التسلية " عن الأفكار و النشاطات اليوميّة ، حتى حينما تكون المادة أو الموضوع غير ممتعين أو مسليين بوجه خاص . العمل الفنّي الذى ينجح فى أن يكون مثيرا للمشاعر ، متحدّيا إلخ يجب بالتأكيد أن يعتبر " ترفيها " بالمعنى الأوسع ، تحديدا نتيجة لهذه الميزات بالذات . و فى آخر التحليل ، سواء العمل الفنّي **خاص** يعتبر ترفيها أم لا (بالمعنى الأوسع) هو مدى " نجاحه " وهو فى المقام الأوّل مسألة **معايير** – لكلّ من الفنّان و لل" جمهور " فى تداخلهما . و ستكون للعمل الفنّي قيمة صغيرة كترفيه إن كان الفنّان / الفنّانون قد إستجابوا للمعايير الأساسيّة للفنّ التى عرضتها مقولة ماو المذكورة سابقا (معيار التكثيف و النمذجة ، و رفع جوانب من الحياة إلى مستوى أرقى إلخ) و لن يعتبر العمل الفنّي أيضا كترفيه (لا يعمّ إلى أي مدى إستجاب موضوعيّا إلى تلك المعيير) إن كان مستوى الجمهور خارج مستوى العمل (أو العكس بالعكس) و لم توجد أيّة وسائل لجعل الإثنين يلتقيان معا .

على أي حال ، " قيمة ترفيه " العمل الفنّي (أو سيرورة إبداعية) بعيدة عن أن تشمل ميزاتها الأساسيّة كفنّ ، و خاصة بمعنى الوظيفة الإجتماعية .

لا أستطيع التفكير فى مجتمع واحد فى أي زمن فى التاريخ أين صيغة " الفنّ ترفيه " تنطبق عليه بأي نوع من المعنى الأساسي . كان الدور الإجتماعي للتعبيرات الفنّية المختلفة على الدوام معقدا ، و الفنّ قد إستُعمل كمساعدة مباشرة للإنتاج ؛ و كطريقة لتصوير العالم الخارجي ، و كوسيلة لتسجيل التاريخ الإجتماعي و نقله ؛ و كوسيلة للتنبّئ – و عادة " الإعداد " – بالمستقبل (و كمثال واحد فقط ، تذكّروا كافة الرقصات " إعادة بعث الحياة " الشائعة لدى العديد من الثقافات).

فى كلّ الأحوال ، يبدو أنّ الفنّ كنشاط إجتماعي فى علاقة وطيدة المسك بالتناقضات الإجتماعيّة المرتآة فى الطبيعة و المجتمع و **التأثير فيها** .كيف يمكن لهذا أن يعتبر أساسا " ترفيها " ؟ كيف يمكن لل" ترفيه " أن يشرح القصص و الرسوم و الأغاني و الرقصات التى لا تحصى و التى تبحث عن تأويل جذور الناس و التعريف بها ووضعها فى العالم، و جذور النباتات والحيوانات و تواريخها ؛ أو جذور " عوالم روحيّة " متنوّعة أو العلاقات الإجتماعيّة القائمة ؟ كيف يمكن لهذا أن يشمل إستخدام الفنّ فى حين أنّ الفنّ ، مع تنامى التراتبيّة الإجتماعيّة ، يُستخدم كذلك للتحقّق من " مكانة " الفرد فى المجتمع ،و لإعلان الهويّة الإجتماعيّة ، و لتمييز صفوف و مكانة مختلف المجموعات الإجتماعيّة (مثلا ، بعض الأمثلة الأوّلية لهذا كانت على الأرجح " الأساليب " المتباينة لتزيين الجسد و الأدوات و الأسلحة إلخ) ، لإعلان الغرض الإجتماعي (على غرار رسوم الحرب و رموز السلام) ، و لتسجيل تفرّع العائلة و المكانة (مثلا ، أعمدة الطوطم إلخ) . أليست كافة هذه الإبداعات فنّية – و هل يمكن لأيّ منها حقّا أن يقلّص إلى ترفيه ؟

طبعا ، بالنسبة لغالبيّة الناس عبر التاريخ (وهو أمر مستمرّ اليوم، رغم تقدّم النظرة الماديّة **!**) الخطوط بين **الخيال** و **الواقع المادي** ضبابيّة عامة . و هذا يشرح العلاقة الحميميّة غالبا بين الفنّ و العادات و الدين بشكل أو آخر . الأغاني و الرقصات و إلقاء الشعر إلخ قد إستُعملت على نحو شائع للدعوة إلى و لإطلاق العنان أو التهدئة ، أو البحث عن رؤية ثاقبة ، من العالم الروحي المتصوّر سواء كانت تسكنه النباتات و الحيوانات أو يسكنه شيوخ ملتحون و ملائكة بدينون **!** الكثير من الفنّ العظيم المتبقّى عبر العصور يشهد بمحاولات الناس الدفاع عن أنفسهم ضد ، أو بحثهم عن التأثير فى بعض هذه القوى الروحيّة المفترضة ، فى عديد الحالات بنفس الطريقة التى يستعملها أيضا الفنّ للخوض فى و التأثير فى القوى الماديّة **الحقيقيّة** ، بما فى ذلك العلاقات الإجتماعية .

الفنّ كتعبير عن النظرة إلى العالم :

لم ينبع كلّ عمل فنّي (أو لا ينبع) من نظرة إلى العالم متطوّرة تماما أو يبحث عن الترويج لمثل هذه النظرة . لكن كلّ عمل فنّإي قد ساهم فى القيام بذلك تحديدا .

و هذا صحيح حتّى حيث علاقة الفنّ بمجال الإنتاج علاقة وطيدة جدّا ، مثلما لنق فى تزيين جرّة لخزن الحبوب . كيف يمكن للمرء أن يشرح بشكل آخر الرسوم الجميلة المعقّدة لأواني الخزف المرسومة لشعوب الآناسازي (شعوب قديمة) و لأحفادهم اليوم ؟ أو لسلال منسوجة لهنود البوموتو التى تشمل الكثير من الزخرفة الخرزيّة المفصّلة ، و من النسيج المندفع بألوان مواد طبيعيّة أخرى ، و الرسوم المعقّدة . مثل هذه السلّة التى تمعّنت فيها بفضل صورة شمسيّة تنطوى على

عديد النكرارات لرسم أفقي معقّد ، إنقطع فقط فى بقعة واحدة "حتى لا يصبح صانعه أعمى مضروب " ! و مع ذلك تحتوى سلّة أخرى على 10 آلاف عقدة فرديّة و مظاهر وجوخ إنسانيّة منمنمة . عنوانها " نجتمع لنقاش الحياة السعيدة لأجدادنا السابقين " . هل انّ " الترفيه " بدأ حتى ولوج قلب هذا كلّه ؟! ما يتمّ تسجيله و تركيزه ونقله جزء من نمط عيش، جزء من **نظرة إلى العالم** .

أو أنظروا إلى الرسوم الشهيرة لكهوف اللاسكو . أحيانا ، قد إقتُرح أنّ رسوم الكهوف هذه قد تكون أساسا أجهزة حافظة كالكتب : تسجّل الحيوانات المقتولة أو التى يجب قتلها أثناء عمليّة الصيد . و ما ينجم عن ذلك هو أنّها لا يجب فى آخر المطاف أنتعتبر " فنّا " . لقد أذهلنى هذا دائما لسخافته . ليس الجمال البارز (الذى تقرّ به عينايا المعاصرة) لرسوم كهوف اللاسكو هي التى تجعلنى أبدى هذا الشعور ، و لا هي حتى ملاحظة أن النمذجة الدقيقة لناس و الحيوانات ، و المزج المعقّد للأصباغ من أجل ألوان متنوّعة ، يبدو إضطرابا كبيرا مروّعا للبحث فيه لتجميع مجرّد قائمة الأنواع . و هناك أكثر من ذلك .

هذه الرسوم القديمة للبشر و للحيوانات ، بشكل ما نفهمه فهما تاما ، تُعبّر عن شيء بصدد كيفيّة النظر إلى الأشياء ، و بصدد النظرة إلى العالم ، لدى هذه الشعوب قبل عهود طويلة و محاولتها إيصال هذه النظرة إلى آخرين ، سواء كانوا أناسا أم أرواحا أو أي شيء . و سيكون هذا هو الحال سواء كانت رسوم لاسكو فعلا تشمل قائمة من الألعاب ، رواية لصيد خاص ، فكرة فرد مسلّية نوعا ما عن يوم ممطر ، إبتهال للمستقبل ، تسجيل لنوع من الأسطورة المفصّلة ، أو أيّ مزج من مثل هذه العناصر . بطريقة ما تكثّف هذه الرسوم جزءا من النظرة إلى العالم لتلك الأزمان ، جزءا من طريقة تأويل هذه الشعوب القديمة للعالم من حولها و تأثيرها فيه . و هذا – كلّ ما تبقّى من ذلك المجهود ، و ما ضاع للأبد – هو الذى لا يزال يحرّكنا .

<u>دور الفنّ فى المجتمع الإنساني :</u>

لكن ماذا عن الفنّ اليوم ؟ هذا فى الواقع هو ما نحتاج إلى الخوض فيه بعمق أكبر . لكننأمل أن بعض التأملات فى ماضي الفنّ (حتى و إن كانت مقتضبة و سطحيّة مثلما عرضناها هنا) يمكن أن تساعدنا فى هذه المهمّة بإزاحة بعض طرق التفكير المتخشّبة بشأن الفنّ و التى هي شائعة جدّا وكثيرا ما يشجّع عليها المجتمع البرجوازي .

الكثير من الفنّانين المعاصرين (الذين لسوء الحظّ يبدون عادة إهتماما قليلا بالتاريخ ، حتى إن كان متّصلا بالفنّ !) قد أضاعوا نظرة واقع أنّ الفنّ ظاهرة إجتماعية تتمّ فى إطار إجتماعي به يتحدّد الفنّ و فيه يؤثّر هو بدوره . و يعبّر الكثير من الفنّانين عن نظرة تقريبا صوفيّة و فرديّة جدّا للسيرورة الفنّية ، وينزعون نحو تقديس العفويّة و يبحثون عن تبرير لنشاطهم الفنّي فقط بنتائج عملهم ذاته و علاقتهم به . ويُعزى هذا فى جزء كبير منه إلى المشكل الذى أثاره إنجلز . ردّا على المقاومة العنيدة لعديد معاصريه لنظريّة أنّ " العمل الإنساني " فى المقام الأوّل هو الشرط الأساسي لوجود الإنسان برمّته " ، حاجج إنجلز بأنّ عديد الناس قد فقدوا النظر للصلة الوثقى بين الفنّ و العلم و التنظيم الإجتماعي المعقّد و القوانين و الدين إلخ **بقاعدتهم الماديّة فى مجال النشاط الإنساني المنتج** . و حاجج كذلك بأنّ هذا يعود فى جزء كبير منه إلى كون التعقيد المتزايد للتقسيم الإجتماعي للعمل ذاته عادة ما **يحجب** هذه الصلة :

" إزاء جميع هذه الإبداعات التى بدا فى المقام الأوّل أنّها إنتاج للذهن ، و التى بدا أنّها تسيطر على المجتمع الإنساني ، بقدر ما تراجعت أكثر إنتاجات العمل اليدوي تواضعا إلى الخلفيّة ، بقدر ما ما كان الذهن الذى خطّط بعدُ لسيرورة العمل فى المراحل الأولية من تطوّر المجتمع (أي بعدُ فى العائلة البسيطة) قادرا على إمتلاك عمل قد وقع التخطيط له قد أنجزته أيادى أخرى قبل ذلك . كلّ ميزة التقدّم السريع للحضارة كان يعزى إلى الذهن ، إلى تطوّر الدماغ و نشاطه . لقد صار الناس معتادين على شرح أنشطتهم إنطلاقا من أفكارهم ، عوض إنطلاقا من حاجياتهم – (التى هي على أي حال تنعكس و تتجه إلى الوعي فى الذهن) – و من هناك ظهرت مع تصرّم الزمن النظرة المثاليّة إلى العالم التى هيمنت على أذهان الناس منذ إنهيار العالم القديم . "

(إنجلز 1876 ، ص 289 / بالأنجليزية).

لسوء الحظّ أصيب تاريخ الحركة الشيوعية العالمية بالكثير من الماديّة الميكانيكيّة و من ذلك ما يتّصل بالعلاقة بين الفنّذ و المجالات الأخرى للنشاط الإجتماعي . و كان هذا بديهيّا خاصة فى المحاولات المتواترة للبحث عن تطابق واحد لواحد بين الفنّ و الإنتاج ، أو الفنّ و السياسة ،و فى الحالتين مخفقة تماما فى المسك بخصوصيّات الفنّ كفنّ أي كنشاط إجتماعي لد دور إجتماعي مغاير فى حدّ ذاته . و لعلّه من سخرية الأقدار أنّ صيغة " الفنّ ترفيه " تحمل فى طيّاتها الكثير مما هو

مشترك مع النزعة الماديّة الميكانيكيّة لأنّها تبحث عن فهم الفنّ كنشاط إجتماعي بإفراغه من كلّ ثرائه وتعقيده و تقليصه إلى ما يمكن أن يسمّى بوجه الخصوص ب " القاسم المشترك الأدنى " لجميع التعبير الفنّي – قدرته على الترفيه .

و من المهمّ ، بينما يعلن المدافعون عن " الفنّ من أجل الفنّ " بسفور **الأهمّية** الكبرى للفنّ (و إن كان أحيانا لأنفسهم هم فقط **!**) و يمضون قدما فى تقديم مفهوم مثالي يرى الفنّ و الفنّانين يسبحون فى فراغ إجتماعي – و لهم صلة صغيرة أو منعدمة ، أو يسائلون مساءلة بسيطة أو منعدمة لبقيّة العالم – فإنّ " الفنّ ترفيه " نظرة تضع الفنّ و الفنّانين إلى حدّ بعيد فى الإطار الإجتماعي ، لكن بشكل صارخ **تستخفّ** بالأهمّية و التأثير الإجتماعيين للفنّ كفنّ – و فى النهاية المساءلة الإجتماعية للفنّانين كفنّانين – بسبب النظرة الميكانيكيّة للدور الإجتماعي للفنّ ، **المقلّصة** هنا فى المقام الأوّل و أساسا إلى ترفيه . و ينتهى هذا إلى تشجيع النظر إلى أنّ الفنّ إجتماعي للغاية – و فى نهاية المطاف ليس جدّ مهمّ **!**

موقف أنّ " الفنّ ترفيه " يمكن أن ينتهي حتى إلى تغذية خطّ " الفنّ من أجل الفن " . و مردّ هذا جزئيّا إلى أنّ " الفنّ ترفيه " بعيد عن أن يقدّر المدى التام للأهميّة الموضوعيّة للفنّ ، و أنّه يترك الباب مفتوحا على مصراعيه للذين (بصفة صحيحة) يشعرون بأنّ الفنّ بقدر كبير **أكبر** من الترفيه ، غير أنّهم فى نفس الوقت ، مستعدّون لإنكار التبعات الإجتماعية / السياسيّة للفنّ كنشاط فنّي و إنكار النهوض بالمسؤوليّة الإجتماعيّة للفنّانين كفنّانين . و إضافة إلى ذلك ، نظرة " الفنّ ترفيه " تشجّع على نظرة أنّه حسنا إن كان المعنى الإجتماعي للفنّ بالفعل جدّ متقلّص (الترفيه كهدف أوّلي) ، بالتالي من الصحيح تماما أن يضرب موقف أنّ " كلّ شيء يدخل " فى مجال الفنّ . و ينزع هذا إلى تغذية الفرديّة البرجوازية الصغيرة لعديد الفنّانين فى المجتمع البرجوازي ، بينما فى نفس الوقت يشدّون إلى الوراء محاولات جعل التجديدات الحقيقيّة و الإيجاد الحقيقي لأرضيّة جديدة فى حقل الفنّ . (+ +)

و مجدّدا ، ما توفّره حتى نظرة سريعة على التاريخ هو أنّ فهم واقع أنّ الدور الأساسي للفنّ كنشاط إجتماعي تمضى **أبعد** من البحث المؤقّت عن التسلية ، أبعد من مجرّد الإستجمام ، أو حتّى " المقاصة فى خيط العنكبوت " الصحّية من طريقة المرء الروتينيّة فى التفكير الذى يمكن أن يحفز الفكر و النشاط فى المجالات الأخرى كذلك ، رغم أنّ هذا بالتأكيد جزء من تأثير الفنّ فى المجتمع (المزيد بهذا الصدد لاحقا) .

(+) بليخانوف ، " مختارات من رسائل بلا عنوان " أعيد نشرها ضمن " الماركسيّة و الفنّ " ، صدر مع تعليق تاريخي و نقدي لمينار سلومون ، صحافة جامعة ولاية ويني 1979 ، ص 142 . و قد نشره قبل ذلك ألفراد كنوبف سنة 1973 . كان بليخانوف معاصرا للينين و " ضوء قياديّا " فى الماركسية فى روسيا ، بالرغم من أنّه إنتهى إلى التحندق مع الإشتراكيين الإصلاحيين (المناشفة) .

(++) من المهمّ أن نشير إلى أنّه عند نقدالطريقة التى تمّت بها إدارة النقاش فى المجال الفنّي تاريخيّا بمعنى " الفنّ من أجل الفنّ مقابل الأداتيّة " فى صفوف الحركة الشيوعية العالمية ، إقتُرح انّه كان على " بليخانوف أن يمضي نحو التساؤل : إن كان من الصحيح أنّ الفنّ من أجل الفنّ شيء مستحيل ، عندئذ لماذا هذه المصطلحات المناسبة للنقاش ، لماذا هي المسألة المحوريّة فى النقاش ؟ " و الجواب طبعا هو أنّه بينما لا وجود لشيء يعتبر فنّا من أجل الفنّ ، فإنّ **الخطّ** الذى يروّج لهذه النظرة حقيقيّ جدّا و سائد و يمارس قوّة ماديّة فى المجتمع . لم يكن المشكل أنّ هذا كان يعتبر مسألة محوريّة، لكن أنّه غالبا جدّا ما كانت هذه النظرة تحارب بنوع من الماديّة الميكانيكيّة الضيّقة و الإقتصادويّة لقوى الإنتاج – " الأداتية " بالمعنى الأكثر ضيقا . لكن مثلما إقتُرح أعلاه ، مقاربة " الفنّ ترفيه " لا تمثّل بديلا صحيحا للماديّة الميكانيكيّة .

==

الجزء الثانى :

الفنّ و العلم

تظلّ النشاطات الإنتاجيّة هي النشاطات الإجتماعية الأكثر جوهريّة – عليها تقوم كلّ النشاطات الباقية – لكن نشاطات مجال البنية الفوقيّة جميعها لها تأثير هائل على ما إذا و كيف يحافظ على تقسيم إجتماعي خاص للعمل أو يُطاح به . بهذا المضمار ، المجال السياسي هو الأكثر تحديدا ، لكن مثل هذه المجالات كالعلم و الفنّ لها أيضا تأثير كبير على حركة و تطوّر القاعدة الإقتصادية لمجتمع (بما فيه العلاقات الإجتماعية) على حدّ سواء مباشرة و من خلال تأثيرها على المجال السياسي . كيف يمكن لهذا **ألاّ** يكون كذلك فى حين أنّه عبر الفنّ ، مثلا ، نسجّل الماضي ، ونتنبّؤ بالمستقبل ، و نكشف عن التناقضات الراهنة فى المجتمع و فى بقيّة العالم المادي و ننظّم نظراتنا و ننقلها فى نوع من الخلاصة ؟

سبب حاجتنا إلى الفنّ ليس فى المصاف الأوّل أنّنا نحتاج إلى أن نتسلّى عن شؤوننا و نشاطاتنا الأخرى و إنّما لأنّ السيرورة ذاتها حيويّة ليس فحسب فى تأويل عالمنا بل أيضا فى **تغييره** ، و لأنّه من الجوهري ليس لعكس نظرة إلى العالم فحسب و تصويرها و نقلها بل أيضا **لصياغة** مثل هذه النظرة . هذا ما يميّز الدور الإجتماعي الخاص للفنّ و أهمّيته الخاصة (و الكبيرة جدّا) .

يمكن للترفيه بالتأكيد أن يكون مظهرا (ثانويّا) للدور الإجتماعي للفنّ ، بيد أنّه بالتأكيد ليس بوسعنا وضعه فى ذات مستوى **الدور الإيديولوجي الشامل** . و كذلك يمكن لعديد النشاطات الإجتماعية الأخرى أن تكون ممتعة أو حتّى مسلّية بالمعنى الأوسع : أكل المثلّجات و النشاطات الرياضيّة ، و التمتّع بالمشاهد الطبيعيّة ، مثلا ، لجميعها مظهر ترفيه (رغم أنّه هنا أيضا الترفيه ليس دائما السبب الأوّلي لإنخراط الناس فى مثل هذه النشاطات و ليس كذلك لبّ المسألة)، و بالفعل، فى معظم النشاطات التى يقوم بها الناس معنى ما من الجماليّات أي تقييم لما هو و ما ليس " جميلا " و " مدهشا " إلخ ، وهو أمر بالطبع محدّد إلى درجة كبيرة إجتماعيّا و بالتالى متنوّع إلى أقصى درجات التنوّع فى ضفوف الأفراد و المجموعات ذات التجارب الإجتماعية المختلفة و المصالح الإجتماعيّة الموضوعيّة المختلفة .

و من الأكيد أنّ إتفاقا جماعيّا سيحصل حول معنى الجماليّات المتوفّر فى الإبداع و فى أي عمل فنّي ! لكن بإستثناء إن قال المرء إنّ **كلّ شيء** خارج مجال الإنتاج المباشر للمتطلّبات الأساسيّة للحياة هو" فنّ" علينا أن نمضي أبعد من مسائل " الترفيه " أو حتى " الجماليّات " لأجل إبراز الخصوصيات الحقيقية و الميزات الخاصة للفنّ كفنّ .

بهذا الصدد ، يمكن أن يكون من المفيد أننعرض و لو بإيجاز أوجه الشبه و الإختلاف بين العلم و الفنّ كسيرورتين إبداعيتين . يصوّر البرجوازي غير المستنير النمطي عادة العلماء على أنّهم تقنيّون يتميّزون بالبرودة و إنعدام الحماس يراكمون آليّا أكواما من " الوقائع " على أمل التوصّل إلى أفضل مصباح ، فى حين أنّ الفنانّين غالبا أكثر يصوّرون على أنّهم شاردين بلا أمل ، خارج نطاق الواقع ، و عادة غير متماسكين إلخ حتّى إن إستطاعوا أنيوفّروا ترفيها له قيمته . و بالطبع ، كلاهما يصوّران بصفة متواترة على أنّهما يتحرّكان فى فراغ إجتماعي ، و أنّه ينبغى تقييم عملهما وفقا لذلك . لكن لننظر فى السيرورات الفعليّة المعنيّة ب " إنجاز العلم " و " إنجاز الفنّ " . فى كلتا الحالتين هناك مسألة ملاحظة و إكتشاف و بحث فى العالم الخارجي و محاولة " إعطائه معنى ما " فى مستوى أو آخر ، بكشف الآليّات الكامنة للحركة و التطوّر و مظاهر تنظيم المادة . و تتطلّب هذه السيرورة دائما(بصفة مباشرة أو غير مباشرة) شكلا ما من المعالجة البارعة للعالم الخارجي إن كانت السيرورة لتقود إلى وجهات نظر ثاقبة جديدة : ينظر العالم فى الملاحظات عن المظاهر و يجرى معالجات بارعة لعمليّات إختباريّة ، باحثا عن العلاقات الماديّة الكانة ؛ ويقوم الراقص بالشيء نفسه بشكل الأجساد و حركتها ، النحّات يفعل الشيء نفسه مع المواد المتنوّعة القابلة للتطويع ، و الرسّام مع الألوان و الضوء ، مع الكلمات إلخ .

كلّ من العلماء و الفنّانين يعالجون ببراعة **المادة** ليظهروا بعض " الحقائق " الماديّة الكامنة و كلاهما يتخذان قرارات خاصة و محدّدة إجتماعيّا (و إن لم يكن التحديد صارما) بشأن مثل هذه الأشياء على غرار المظاهر التى ينبغى التشديد عليها ، و إلقاء الضوء و التركيز عليها و تصنيفها منهجيّا و ما إلى ذلك . فى كلتا الحالتين ، النشاط تنهض به كائنات إجتماعيّة فى إطار إجتماعي ، وهو محدّد بهذا الإطار: " ما هي الأسئلة التى ينبغى طرحها " ، إن أمكن القول ، فى كلّ من العلم و الفنّ ، و " كيف الإجابة عليها " ؛ لهذا صلة وثيقة بالعلاقات الإجتماعية السائدة و النظرات و المناهج المناسبة التى تستدعيها ، و بدرجة " إندماج " الفنّان أو العالم أو " قطيعته " مع هذه العلاقات و النظرات السائدة .

لكن إن كانت هذه أوجه الشبه ، ما هي الإختلافات بين السيرورتين ؟ بطرق ما من العسير موضوعيّا رسم خطّ تمايز واضح ، و أحيانا يمكن لنظام إجتماعي معطى أن يفرض إختلافات و حدود مفتعلة و مبالغ فيها بين هذين المجالين من النشاط (و أظنّ أنّ هذا الحال لم يكن أبدا أكثر ممّا هو عليه فى عصر البرجوازية !) . لكن من ناحية أخرى ، يبدو أنّ بعض الإختلافات الحقيقيّة جديرة بالتقييم .

أحيانا هناك إختلاف بديهي فى الهدف ، عندما يكون النشاط العلمي أكثر إرتباطا مباشرا بالإنتاج . غير أنّ الحال ليس هذا على الدوام و هذا أعتقد غير كافي للتمييز بين المجالين من النشاطات . و مع ذلك ، يبدو لى أنّ العلم يتحرّك تحت ظلّ القيود و الكوابح المفروضة ذاتيّا وهي **تختلف** عن تلك الموجودة فى حقل الفنّ : يبحث العلم فى المقام الأوّل عن إكتشاف العلاقات الماديّة الموجودة لأجل كسب فهم لمظهر أو لعديد مظاهر العالم المادي الذى يتناسب تناسبا أقرب ما أمكن مع الواقع القائم ، و لأجل تقديمه على ذلك النحو . الهدف العام هو المساهمة فى فهمنا للمادّة فى تطوّرها الماضي و وضعها الحالي و مسارها المستقبلي المرجّح ، و المساعدة على التغيير الواعي للعالم الخارجي إنطلاقا من هذا الواقع . بكلمات أخرى ، فى المجال العلمي ، التناسب الأقرب الممكن مع الواقع المادي القائم (على أمل أن يكون ذلك بمعنى تقليصي – ميكانيكي !) مستهدف وذو قيمة .

و الفنّ من ناحية أخرى يستقى قيمته الإجتماعيّة الخاصة من واقع أنّه بينما هو كذلك يتخذ نقطة إنطلاقه الواقع المادي الموضوعي الذى يبحث فيه و يعالجه ببراعة و بنشاط ، و بينما فى نهاية المطاف يردّ الفعل إزاء ذلك الواقع بطرق يجب أن تكون لها فى آخر المطاف صلة ما بالعلاقات الماديّة الكامنة **الحقيقية** ، فإنّ السيرورة التى من خلالها يقوم بذلك لا تحتاج إلى أن تبحث عن أن تعكس و تعبّر عن مثل هذا التناسب القريب مع الواقع المادي القائم ، الماضي منه و الحاضر أو المستقبلي . إلى درجة أكبر بكثير من العلم ، بوسع الفنّ أن يسمح لنفسه بأن ينخرط فى " رحلات طيران من الهوى " و بوسعه أن ينخرط (و غالبا يجب عليه إن كان يرغب فى أن يكون فعّالا كفنّ) بمعانى متنوّعة من الرؤية و التعبير الإنتقائيين بصفة عالية ، و التشويه المحسوب و حتى الحيلة الواعية ، و كلّ هذا تحديدا بغاية أن يستخرج منّا أفكارا و رؤى جديدة لا تنبع عفويّا من العالم المادي كما يشاهد عموما . سيرورة العلم (و فى كلّ من علاقتها ب " العلوم الطبيعيّة " و " العلوم الإجتماعيّة " ، بما فيها النظريّة الثورية) كذلك تستخرج أفكارا و رؤى جديدة و تستهدف القطيعة مع العفويّة ، و تساهم فى إفراز رؤى جديدة و فى النهاية ، فى إطلاق شكل أو آخر من النشاط الإجتماعي ، لكن **لأجل أن يقوم بذلك** ، يجب أن يتحدّد بشكل مختلف و بإختصار ، يجب أن يسائل **بأكثر صرامة** الواقع المادي الفعلي .

<u>مقترح منحرف :</u>

قيمة الفنّ الإجتماعية الكبرى **الخاصة** ، كما أراها ، تكمن فى كونه بالذات ليس **مجبورا** على أن يسائل عن كثب الواقع ليكون فعّالا ، و بالذات فى أنّ هذا بطريقة أو أخرى يفهم عموما على أنّه الحال فى المجتمع ، يمكنه أن يدعو إلى طرق جديدة كلّيا من التفكير و النظر إلى الأشياء ، و ينهض بإعادات تفحّص جريئة للضوابط المركّزة و أحيانا حتى " بتهوّر" أو " خياليّا " " يتصوّر المستحيل " و يضخّ فيه الحياة ! على هذا النحو يمكن عادة أن يساهم فى نظرات إجتماعية هامة و – مستندا كما هو إلى الواقع المادي، و لكن نسبيّا غير مقيّد بالنسق الفعلي لتطوّر ذلك الواقع – هو مذهل تماما عادة فى قدرته على **التنبّئ** بالتطوّرات و يعمل بمعنى ما ك " نذير المستقبل " . و بالطبع ليس بوسع هذا إلاّ أن يوفّر لنا " نافذة " تفتح على البدائل المستقبليّة – و يمكن كذلك أن يساهم فى التأسيس **لتحقيق** واحد أو آخر من هذه البدائل من خلال تأثيره على وعي الناس (المزيد بهذا الصدد لاحقا) .

لذا لا يطلب الناس من الفنّ نفس المساءلة التى يطلبونها من العلم . وهذا شيء كامن فى القيمة الإجتماعية و ليس شيئا ينبغى أن نحاول التخلّص منه ! لقد قيل إنّ فى مجتمع الكنغ! لا يملك الناس " تفسيرا للماذا نقل لهم أسلافهم مثل هذه السخافات " التى كما يعتبر (الكنغ! ذاتهم) أنّها تتركّز فى عديد الأساطير القديمة. و مع ذلك تتواصل رواية هذه القصص و يتواصل التعلّق بها ،و لا شكّ فى أنّها تساهم فى معنى الإستمرار الإجتماعي الذى هو مهمّ بالنسبة إلى الكنغ! . لكن لا شكّ فى أنّهم يساهمون كذلك (على الأرجح تماما بطرق غير متعمّدة فى الأصل) فى تطوير النظرات الراهنة إلى العالم، حتى و إن كانت المقدّمات الإجتماعيّة المتجسّدة فى ألصل فى أعمال خاصة لم تعد مقبولة ، أو لم تعد تمارس تأثيرها بتوفير " إحباط " للنظرات التحفيزية الظاهرة حديثا (" إسمعوا ، أفعال الأزمان القديمة كانت مجنونة ، أقول لكم ! " هكذا أنهى راوى عديد هذه القصص الفكاهيّة التى تتواصل روايتها و تتكرّر) . المسألة هي أنّ الفنّ سيفقد الكثير من **خصوصيته** الإجتماعية إذا تمّ التعامل معه " تعاملا حرفيا " – و هذا الواقع دليل مهمّ عن الدور الإجتماعي ككلّ .

و فى ما يتّصل بمسألة " المساءلة النسبيّة " للفنّ و العلم ، يجدر بنا التفكير فى النقطة التى أثارها عالم الآثار و البيولوجي التطوّري ستيفان ج غولد (الذى يعرف بعض الأشياء عن الفنّ مثلما تدلّل على ذلك قدراته الأدبيّة فى مجموعاته للبحوث

فى التاريخ الطبيعي الشعبي) فى مقدّمته لـ**رواية** (**رقصة النمر**) التى كتبها **عالم** آخر ، عالم الآثار السويدي الشهير عالميّا ، بجورنكرتان (أليس من العسير الإبقاء على التصنيف الدقيق فى هذه المجالات ؟) و الرواية المعنيّة إستكشاف خيالي حيوي و مستفزّ للفكر (نعم ، مسلّي) لما من الممكن أن تكون قد كانت عليه حياة النيندرثال و الكرو- مغنون و علاقاتهم الإجتماعية . يستحسن غولد الذى كان عليه أن ينفق الكثير من الجهد لقتال الكثير من الخيال و التكهّنات غير المسؤولة فى مجال البيولوجيا التطوّرية ، يستحسن بصورة خاصة كون كرتان (الذى يحترم جدّا علمه) قد إختار مع ذلك أن يقدّم تكهّناته الخياليّة فى شكل رواية – و بالتالى خيال - و بوضوح جرت الدعاية لها على أنّها رواية . كتب غولد:

" كعالم ، دعونى أقول شيئا قد يبدو فضوليّا . أعتقد أن كرتان إختار مكانا أكثر مناسبة من الأدب المحترف ذاته لنقاش العديد من المواضيع العلميّة حقّا المثارة دائما حول نقاشش النيندرثال – كرو- مغنوم . لقد كانت البيولوجيا التطوّريّة يعرقلها بشدّة أسلوب تكهّني بحجّة تسجيل تشريح الأجساد و الإيكولوجيا ثمّ محاولة بناء تفسيرات تاريخيّة و تأقلميّة للماذا يبدو هذا العظم على ذلك النحو أو للماذا عاش هذا المخلوق هنا . وهذه التكهّنات قد إعتُبرت بإحسان " سيناريوهات" ، وهي عادة أكثر إزدراءا و عن حقّ مسمّاة " قصصا " (أو ما يشبه القصص إذا كانت تعتمد على إفتراض خاطئ بأنّ كلّ شيء وجوده له هدف). يعرف العلماء أنّ هذه الحكايات قصص ؛ و لسوء الحظّ تقدّم ضمن الأدب المحترف أين تدرس بجدّية و أدبيّة مبالغ فيهما . ثمّ تصبح " وقائعا " و تدخل الأدب الشعبي ، عادة فى شكل إجتماعي مشكوك فى أمره مثل القرد القاتل من الأسلاف الذى يعقينا من مساءلة القبح الراهن ، أو مثل إعتبارالهيمنة الذكورية " الغريزية " لتبرير الميز الجنسي الثقافي على أنّه علامة طبيعيّة .

و مع ذلك ، لهذه القصص دور فى العالم . إنّها تفحص دور البدائل ؛ و توجّه التفكير نحو بناء فرضيّات قابلة للأختبار ؛ و تستخدم كأطر عمل تجريبي لتصنيف الملاحظات . لكنّها قصص. لذل لماذا لا تعامل كقصص فنحصل على جميع المنافع و المتع و نتجنّب المشاحنات التى تظهر من توصيفها العادي غير المناسب ؟ " (ستيفان غولد ، فى مقدّمته ل " رقصة النمر " لبجورن كورتان) .

و يتوفّر لنا المزيد من ما أسمّيه مسألة المساءلة فى بعض التعاليق التى تقدّمت بها أورسولا ك. ليغين (فنّانة لها أكثر من معرفة عابرة ببعض القضايا العلمية) فى مقدّمتها لقصّتها للخيال العلمي " اليد اليسرى للظلام " . كتبت تقول :

" كتّاب الخيال العلمي ، على الأقلّ فى لحظاتهم الأكثر شجاعة ، يرغبون فى الحقيقة : فى معرفتها ، فى الحديث عنها و فى خدمتها . لكنهم يتوجّهون إليها بطرق خاصّة و ملتوية تتمثّل فى خلق شخصيّات و أماكن و أحداث لم توجد قط و لن توجد أو تحدث قط و يتحدّثون عن هذه الروايات بالتفصيل و مطوّلا و بقدر كبير من الأحاسيس ، ثمّ عندما ينهون كتابة هذه الحزمة من الأكاذيب يقولون هناك**!** هذه هي الحقيقة **!** ... قبل قراءة أيّة قصّة ، علينا أن نعرف تمام المعرفة أنّ الأمر برمّته هراء ، ثمّ عند القراءة نؤمن بكلّ حرف فيها . و فى النهاية ، عندما نفرغ منها ، قد نجد – إن كانت قصّة جيّدة – أنّنا مختلفون نوعا ما عن ما كنّا عليه قبل قراءها ، أنّنا تغيّرنا قليلا ، كما لو أنّنا قابلنا وجها جديدا ، و عبرنا شارعا لم نعبره من قبل أبدا " (أرسولا ك. ليغين ، " مقدّمة " اليد اليسرى للظلام ").

المسألة إذن ليست أنّ الفنّ لا يحتاج إلى أن يكون له أساس فى الواقع أو أنّه لا يحتاج أن يعنى بالتعبير عن الحقيقة . المسألة هي أنّ الفنّ **إقتراح منحرف** . و بهذا أقصد شيئا هو " إنحراف عن القاعدة " : أعنى أنّ الفنّ يبرز حقيقة شيء ب " حرف الأشياء " ، ب " القفز إلى الجانب " ، وب " النظر إلى الواقع نظرة جانبية " إن أمكن القول - من زوايا و آفاق غير نمطيّة - و أنّه يقدّم الأشياء فى ضوء جديد، بطريقة ليست محاكاة تامة للتجربة اليومية ، و أنّه يمسك بالواقع على نحو يستدعى إجابات تشذّ عن " القاعدة " .

لا يمكن لسيرورة الفنّ إلاّ أن تنبع من الواقع المادي ، و لا يمكنها أن تتطوّر إلاّ فى تناغم مع قوانين حركة المادة و تطوّرها . (**+**) إلاّ أنّ إنتاج هذه السيرورة (العمل الفنّي فى حدّ ذاته) ليس أبدا مجرّد ، و لا هو تحديدا ، إنعكاس لهذا الواقع (و عادة لا ينبغى أن يحاول أن يكون كذلك) . إنّه تصوير منحرف للواقع يخلق شيئا **جديدا** فى مجمله – على الأقلّ ، " إنحراف " جديد للأشياء . سواء كانت هناك حقيقة أم لم تكن فى ما يعبّر عنه عمل خاص ، يتعلّق فى المصاف الأوّل بمسألة ما إذا كان الفنّان فى هذا الحرف للواقع و الفنّ فى نهاية المطاف قد ساهم فى رؤانا للعلاقات **الفعلية** فى الطبيعة أو المجتمع – مهما كان ذلك على نحو غير مباشر أو كان تأثير العمل هو مزيد تعمية فهمنا لهذه العلاقات . (طبعا ، الأدنى، أي عمل فنّي ينزع نحو كشف قدر بسيط من " الحقيقة " عن الفنّان الذى أبدعه، إن لم يكشف شيئا آخر**!**).

و بين قوسين ، ينبغى أنيقال إنّ مسألة " المساءلة هذه هي أيضا ما يجعل **النقد** الفنّي معقّدا جدّا أحيانا . فمن جهة ، لا وجود لشيء مثل الفنّ فى فراغ إجتماعي ،" فوق " العلاقات الإجتماعية الإنسانيّة و ليست له صلة أو تأثير على هذه العلاقات بشكل أو آخر . خصوصيّات السيرورة الفنّية لا تحرّر بأية طريقة الفنّانين من أن يكون لديهم دور إجتماعي و تكون لديهم مسؤوليّة ، سواء أقرّوا بذلك أم لم يقرّوا . لكن واقع أنّ بإمكان الفنّ و من واجبه أن يقدّم " مروحة واسعة من المبادرات " و الرؤى النضرة للحياة و أن بإمكانه المساهمة الصارمة بهذا المضمار ، يؤكّد فى نفس الوقت فائدته الإجتماعيّة الخاصّة و حدوده الإجتماعيّة و إمكانيّات خدمة المصالح المتخلّفة ، بغضّ النظر عن محاولة الفنّان الفرد (المزيد بهذا الصدد لاحقا) .

و كل ّ هذا لا يعنى أنّ مجال الفنّ " لاعقلاني " أو أنّه مجال ما من " المشاعر " المثاليّة الإطلاقية المنظور إليها على نحو مغاير نوعيّا من التفكير (فيما مجال العلم هو " العقلاني ") . و بالتأكيد أنّ إطار النقاش فى الحقل الفنّي ينبغى أن لا يكون إمّا تشجيع أو خنق هذا الفنّ المفترض أنّه " لاعقلاني " **!** (++)

صياغة الجديد :

المسألة هي أنّ الفنّ وسيلة حيويّة فى جعل الفهم الإنساني إجتماعيّا (منهجيّأ و نقلا) بطرق مختلفة لا تحصى و لا تعدّ ، بإختيار بعض الزوايا و الجوانب إلخ عليها تسلّط الأضواء ،و بإستعمال وسائل متنوّعة (كالرموز و الإستعارات) كي تشقّ نظرة جديدة ، أفق نضر ، نظرة جانبيّة طريقها بالقوّة . و عندما يفلح فى القيام بذلك ، عادة ما يعتبر الفنّ محرّكا للمشاعر و باعثا للقلق و ملهما و متحدّيا للفكر و ما إلى ذلك ، وهو فى كثير من الأحيان محلّ خلاف (إن لم يكن مباشرة على المستوى السياسي فإنّه عادة على مستوى إيديولوجي ما ، و بمعنى الإطار الفنّي ذاته – بطريقة أو أخرى ، سيتجادل الناس حول مثل هذه الأعمال **!**) إنّه الفنّ هو الذى يمكن أن يحدث صدمات موضوعيّة ،و يلهم التفكير الجامح و التجرأ على " إقتحام الخيال " ، و الذى يمكن أن يوفّر رؤى ثاقبة للعلاقات الفعليّة (الحقيقيّة) فى الطبيعة و المجتمع . و من جديد ، يمكن القيام بهذا بطرق هي ببساطة غير مفتوحة كقنوات للبحث و الصياغة العلمية المسؤولة ن بما أنّنا هنا سنطلب (عن حقّ) سيناريو أكثر إحكاما و تناسبا أقرب مع العلاقات التى يكون تشويهها عبر موشور الذاتيّة الإنسانيّة الذى يهدف من ورائه إلى المحاصرة الواعية أكثر منه إلى التعزيز .

و بالعكس ، بمستطاع الفنّان أن يطبخ عمليّات إلصاق جامحة بأجزاء منسجمة من التجربة الإجتماعيّة ، و عن وعي يسلّط الضوء على بعض المظاهر و يشوّه " المناسب " العادي لهذه الأجزاء إلى درجة أنّ الرابط أحيانا بالتصوّر الفعلي و الواقع القائم يصبح ضعيفا للغاية بالفعل (و هذا حال الفنّ " التجريدي " ، مثلا) . و مع ذلك ، بما أنّ فى الحقيقة الإرتباط بالواقع لا يمكن أبدا أن يكون مقطوعا تماما ، و بما أنّ هناك قبول ضمني للجميع عدا القطاعات الأكثر إنغلاقا فى المجتمع ب " عدم حَرفيّة " الفنّ ، فإنّ تشويهات الفنّانين يمكن أن توفّر " تشويها " أو " إنحرافا " جديدا للأشياء التى يمكن أن تعكس غالبا و تكشف بعض الحقائق العميقة جدّا حول تجربتنا ككائنات إجتماعيّة .

لكن إن كان ألأمر كذلك ، هل سيكون بعد كلّ شيء صحيحا النظر إلى الدور الإجتماعي للفنّ على أنّه " تعليمي " أكثر منه " ترفيهي " ؟ برأيى ثنائيّة تعليمي : ترفيهي فى ما يتّصل بالفنّ ثنائيّة خاطئة تخفق فى فهم أنّ الفنّ قبل كلّ شيء وسيلة للتعبير عن شيء **جديد** . إنّه بعد كلّ شيء سيرورة **إبداعية** ، أليس كذلك ؟ ولا يستطيع دوره الإجتماعي أن يُقلّص إلى الترفيه ، حتى بالمعنى الأوسع للكلمة إعتبارا لأهمّية دور الفنّ فى منهجة وتشجيع نظرة إجتماعية و نظرة إلى العالم ؛ و لا يمكن تقليصه إلى تعليم بالمعنى البيداغوجي ، ما يقترح منهجة الفهم و النظرات المطوّرة عبر النشاط فى مجالات **أخرى** (كالنضال السياسي ربّما أو النضال من أجل التجربة العلمية) و فى مجرّد حاجة إلى نقل معلومات .

وجدت نزعة تاريخيّة لا يمكن إنكارها فى صفوف الماركسيين نحو الخلط بين الفنّ و التعليم ، و خاصّة الخلط بين الفنّ و التحريض و الدعاية السياسيين (اللذان بدورهما وقع خلطهما مع التعليم بالمعنى البيداغوجي **!**) . لكن هذا لا يجعل من صيغة " الفنّ ترفيه " إجابة صحيحة على المشكل . نحتاج إلى القطيعة مع هذه الدائرة المغلقة بالتركيز على خصوصيّة الفنّ كفنّ . (و بينما لا يوجد فنّ من أجل الفنّ " هناك نهائيّا فنّ " فى حدّ ذاته **!**" . الفنّ قادر على كشف و منهجة و نقل مظاهر من التجربة الإجتماعية عبر وسائل غير مباشرة (لها ميزاتها الخاصّة ، على غرار المظهر " الأقلّ مساءلة صارمة ") و بالقيام بذلك يساهم فى تطوّر النظرات إلى العالم و النظرات الإجتماعيّة ،و أحيانا ينهض بدور حيوي فى توسّط القطائع الجذريّة و صياغة نظرات إلى العالم جديدة ماما .

الدور الإجتماعي للفنّ فى المقام الأوّل دور إيديولوجي ، لكن هذا لا يساوى أنّ هذا الدور يمكن أن يُقلّص فقط إلى المنافسة مع الإيديولوجيّات المعارضة . فبينما خوض الصراع الإيديولوجي من خلال الفنّ بالتأكيد جانب هام جدّا من الدور الإجتماعي للفنّ ، فإنّ نظرة " الفنّ كإحتجاج فى الأساس " مثلا ، مجدّدا ستسلب الفنّ دوره الحيوي فى **صياغة**

الجديد و ليس كمجرّد سلاح فى الصراع السياسي / الإيديولوجي فى حدّ ذاته و إنّما كمساعد مفتاح فى تلخيص تجارب الحياة و مساعدتنا على إدراك التناقضات و الفعل فيها ، فى تناغم مع مصالحنا الإجتماعية الموضوعية .

من خلال الفنّ بوسعنا تسلّق ما لا نعرفه و التنفّس بعمق و تكوين نظرة جيّدة لما يحيط بنا إنطلاقا من نظرة ذات أفضليّة جديدة .

و هنا أيضا ، مثلما فى مجال البحث العلمي ، بلوغ الحقيقة الموضوعيّة مهمّ ليس لمواجهة العدوّ فحسب، بل أيضا **للمساعدة على صياغة نظرتنا الخاصة إلى العالم** . و بطبيعة الحال ، فى مجتمع يتميّز بالإنقسام الطبقي و الصراع الطبقي **كلّ** هذا - البناء و التحطيم - يحمل مضمونا طبقيّا ، لكن ، من جديد ، لا ينبغى أن يقلّص دور الفنّ إلى واحد لواحد فى دوره فى قتال البرجوازية ، حتى على الصعيد الإيديولوجي . و من المهمّ فهم هذا بوجه خاص ليس لأجل دعم تطوّر الفنّ الثوري فحسب بل أيضا لدعم الثورة ذاتها **!** لأنّه بالفعل صحيح تماما أنّه :

" ليس من الممكن إنجاز الثورة الإشتراكية و الإنتقال إلى الشيوعية دون إنشاء ثقافة كاملة جديدة ، بما فيها الأدب و الفنّ ، تقدّم لأوّل مرّة فى التاريخ ، نظرة البروليتاريا و تذود عن مصالحها فى الإطاحة بكلّ ما هو رجعي و فى تثوير المجتمع برمّته " .

(بوب أفاكيان ، **" طلقات ..."** صفحة 224 ، باللغة النجليزية)

(+) بمعنى ما يمكن قول إنّ كلذ فنّان أو فنّانة مقيّد بتطوّره الخاص ككائن إجتماعي خاص فى إطار إجتماعي خاص ، و كذلك مقيّد بالحدود الجسديّة للجسم الإنساني ؛ و مواد الفنّان هي أيضا قيود ومحدّدة بالخصوصيّات المتنوّعة للمادة – و لا هم مرنون وقابلون للتغيّر إلى ما لا نهاية ، رغم أنّ كافة الفنّانين الجيّدين يختبرون بإستمرار حدودهم الخاصة و حدود موادهم . هنا أيضا تكمن الحرّية فى الإقرار بالضرورة و بالعمل وفق ذلك على تغيير الواقع .

(+ +) فى الواقع ، هذه الحجّة برمّتها ، المعتمدة على الثنائيّة المفترضة بين الأفكار و المشاعر أو العقل مقابل القلب تحافظ على المهجور من نوع النظرة إلى العالم المادية الميكانيكيّة التى روّجت لها الثنائيّة الرتزيانية (و للأسف لا يزال تأثيرها سائدا اليوم) التى لا تستطيع تماما أبدا أن توفّق كلّيا بين الماديّة و غياب الآلهة . إنّ الذين ينظرون إلى العالم المادي فقط بالمعنى الأكثر عقما ، التقليصي – الميكانيكي عادة ما يشعرون بالإضطرار إلى خلق نوع من المجال الصوفي يمكن أن يسموه بميزات كالجمال و الروعة إلخ علاقته الحميميّة بالعالم المادي لا يقدرون على ملاحظتها . و هكذا ، نجد بعض علماء فيزياء الجزيئات فى نهاية القرن العشرين لا زالوا يعتقدون فى إلاه و نجد السيرورة الإبداعيّة الفنّية موسومة بخصوصيّات صوفيّة إلخ إلخ .

==

الجزء الثالث :

الفنّ و السياسة و الدور الخاص للفنّ الثوري

إذا إتفقنا على أنّ دور الفنّ هام للغاية ، كفنّ ، على الصعيد الإيديولوجي ، يمكن لعلاقته بالمجال السياسي أن تكون مفهومة بأكثر وضوح . فالسياسة مجال من مجالات البنية الفوقيّة للمجتمع الذى يتميّز فى المصاف الأوّل بالنزاع بين قوى إجتماعية متباينة (أي طبقات) من أجل **السلطة** السياسية ، و فيه تتركّز مثل هذه الصراعات . و السياسة فى الواقع مجال حيوي من البنية الفوقيّة لأنّه فى مجتمع طبقي ، مسألة من هي القوى الطبقيّة التى تسيّر عمليّا المجتمع ، وفى مصلحة من و فى أيّ إتجاه تمضى ، تحدّد إطار كافة النشاطات الأخرى فى البنية الفوقيّة وهي المظهر الرئيسي المسؤول عن كلّ من الحفاظ على العلاقات الإجتماعية المميّزة لمجتمع خاص أو تثويرها .

و بالإقرار بواقع أنّه فى المجال السياسي يتركّز أكثرالصراع الطبقي وبأنّ هناك يتمّ التوصّل أساسا إلى حلّ النزاعات الطبقيّة (و فى نهاية المطاف عبر الصراع العسكري) ، لا يتنكّر بايّة حال بالدور الهائل للفنّ و لا يستخفّ به و بالمجال الإيديولوجي عامة ، فى علاقة بالتغييرات الإجتماعية ، بما فيها الثورات . لقد ساهم الفنّ على الدوام بأشكال غاية فى الأهمّية فى الحفاظ على **الإستمرار** الإجتماعي (من خلال الحفاظ على القيم و النظرات المركّزة و نقلها) ، لكنّه بالتأكيد قد ساهم على الأقلّ بنفس القدر فى تطوير **القطائع** الإجتماعية .

و بينما لا يمكن لتغييرات نوعيّة حقيقيّة فى العلاقات الإجتماعيّة أنتحدث دون ثورات **سياسية** (بما فى ذلك الإفتكاك الفعلي للسلطة من قبل القوى الثورية) ، من الصحيح أيضا أنّ مثل هذه القفزة النوعيّة على الصعيد السياسي لم يكن من الممكن أن تحصل دون التطوّر التنبّئي للفلسفات و الإيديولوجيّات المرشدة من النوع الجديد . و مثلما شدّدت على ذلك بصورة متكرّرة ، ينهض الفنّ بدور حيويّ على وجه الضبط فى هذا – صياغة نظرات جديدة . و هذا صحيح سواء كان موضوع الفنّ سياسيّا صراحة أم لم يكن كذلك .

ليس من العسير فهم لماذا وُجدت تاريخيّا نزعة فى صفوف الماركسيين نحو الخلط بين الفنّ والسياسة فى حدّ ذاتها ، و خاصة بين الفنّ و التحريض و الدعاية السياسيين . و يعود ذلك إلى كون الماركسيّة عينها ظهرت فى عصر البرجوازية (الذى لا يزال العالم بأسره أسيرا له) و فى هذا العصر الخاص ينزع الدور الإجتماعي للفنّ و الفنّانون إلى أن يطمسوا بدرجة كبيرة نظرا إلى درجة حجب إرتباط الفنّ (و مجالات أخرى من البنية الفوقيّة) فى نهاية المطاف بعلاقات الإنتاج الإجتماعية . و بالتالى ، الفنّانون وأعمالهم يبدون للكثير من الناس و كأنّهم يسبحون فى فراغ ، منفصلين عن النشاطات الأكثر جوهريّة لعلاقات الإنتاج و نوعا ما تماما " خارج " الشبكة المندمجة للعلاقات الإجتماعية التى تميّز المجتمع . هذا وهم إلاّ أنّه وهم ليس من اليسير التخلّص منه .

ليس ثمّة أدنى غرابة إذن فى أنّ معظم الفنّانين فى المجتمع البرجوازي ذاته لا يملكون تقديرا كبيرا لدورهم الإجتماعي و للأهمّية **الإجتماعية** العظيمة للإبداعات الفنّية . و عادة ما يشدّدون على أنّ فنّهم لا تأثير له إجتماعي شامل أبعد من التأثير الجمالي مفهوما بألحرى فهما ضيّقا ، و أنّه ليست لديهم مسؤوليّة إجتماعيةّ خاصّة ، على الأقلّ فى علاقة بفنّهم و إنعكاساته . و يجدون التبرير الوحيد لنشاطاتهم الفنّية فى تمظهرات هذا النشاط (الأعمال نفسها) و فى علاقاتهم الشخصيّة بها (أي إذا كانت أم لم تكن حقيقيّة نسبة لمبادئهم الجماليّة الخاصة إلخ).

و لا غرابة إذن كذلك فى أنّ الذين يقاتلون فى سبيل نظرة مادية جدليّة كانعليهم أن يخوضوا معركة صعود جبال كي يبرزا فى النهاية علاقة الفنّانين و أعمالهم بالعلاقات الإجتماعية عامة و فى آخر المطاف بعلاقات إنتاج المجتمع بأسره . لاّ إنكار لكون " العلاقة الوثيقة " كانت عادة تصوّر ميكانيكيّا ، لكن لا إنكار كذلك لوجودها و لواقع أنّ هناك حاجة كبرى لأبرازها ! سواء أردنا ذلك أم لم نرد ، كافة الفنّانين كائنات إجتماعيّة (لا يهمّ مدى فرديّة أعمالهم) و لأعمالهم إنعكاسات كبرى على تنظيم المجتمع – رئيسيّا ، كما قلنا ، من خلال تأثيرها الإيديولوجي . (+)

و هكذا ، من خلال تأثيره الإيديولوجي ، يمكن للفنّ بطرق هامةجدّا أن يترك بصماته على المسار المستقبلي للمجتمع الإنساني – بكلّ من المساعدة على تفكيك القديم و المساعدة على ولادة الجديد على الصعيد الإيديولوجي عموما (أي المساعدة على صياغة نظرات جديدة) و من خلال تأثيره (مجدّدا ، فى المقام الأوّل عبر الوسائل الإيديولوجية) على المجال السياسي عينه . كلّ هذا قد عرضه بقوّة و جدليّا بوب أفاكيان فى الفقرة التالية من " **طلقات** ... " (ص 218-219) :

" أعتقد أنّ الناس يعترفون أو يجب أن يعترفوا بأنّ للفنّ فعلا طابع سياسي ؛ فهو إمّا سيخدم نوعا من السياسة أو لآخر . بكلمات أخرى ، لا أعتقد أنّ هناك شيء إسمه الفنّ من أجل الفنّ ، فنّ نقيّ و فوق السياسة و لا يمثّل فى نهاية المطاف وجهة نظر طبقة أو أخرى و طريقة أو أخرى من النظر إلى كيف هو المجتمع و كيف يجب أن يكون . حتى الأشياء الأكثر إتقانا ،مثلا الأشياء التى يمكن أنتأثّر على السياسة مباشرة و تعبّر عن وجهة نظر بصفة غير مباشرة ، تفعل ذلك و أحيانا بقدر ما تقوم بذلك بإتقان أكبر بقدر ما تقوم به بأكبر قوّة تماما لأنّه غير صريح .

هذا من ناحية . و من ناحية ثانية ، الفنّ مغاير للسياسة فى حدّ ذاتها و هذا أمر جيّد . فالناس يحتاجون إلى السياسة – السياسة هي شريان حياة المجتمع ، إن تمّت بالطريقة الصحيحة رؤية أنّ السياسة هي الصراع حول التوجّه الذى ينبغى أن يتخذه المجتمع و تتخذه المؤسسات و يتخذه الناس فيه و كيفيّة تشكيل فكرهم فى علاقة بالعالم حولهم . لكن مع ذلك ، الفنّ مجال مغاير مختلف عن السياسة فى حدّ ذاتها . و حتى و إن لا يمكن فى نهاية الأمر أن يكون مستقلاّ أو أن ينجو من مجال السياسة ، بعدُ ليس يساوى السياسة فى حدّ ذاتها و حينما يكون كذلك لن يكون فنّا جيّدا عموما . لأنّ له قوانينه الخاصّة ، ثمّة جماليّات و يتعلّق الأمر بتلك القوانين و الطابع المميّز للفنّ .

لكن ، فى آخر التحليل يضطلع الفنّ بدور لصالح طبقة أو أخرى (فى مجتمع طبقي) ؛ إنّه ينهض على الدوام بدور إجتماعي " .

(بوب أفاكيان ، " **الفنّ و السياسة** " ، مقتطفات من الحوار الصحفي ، جانفي 1982 حول أطلنتا WRFG " ، جريدة " **العامل الثوري** " عدد 190 ، 28 جانفي 1983 ، ص 8).

<u>الفنّ الثوري :</u>

و هكذا الفنّ أوّليّا إيديولوجي رغم أنّ إنعكاساته الإجتماعيّة تلقى بضلالها على المجال السياسي . لكن إنإعترف المرء بالأهمّية الهائلة لدور الفنّ فى المجال الإيديولوجي الشامل (المؤثّر على الوعي الإجتماعي و خلق رأي عام) و فى تأثيره (الإيديولوجي) على الصراع السياسي ، تصبح المسألة كالتالى : ما هي الخصوصيّات المميّزة للفنّ **الثوري** بصفة خاصة ؟كيف يساهم عمليّا مثل هذا الفنّ فى الثورة ؟ و نظرا لأنّ للفنّ هويّته الإجتماعيّة المستقلّة الخاصّة ، ما معنى " وضع السياسة فى مصاف القيادة " فى مجال الفنّ و كيف يمكن لهذا أن يحصل دون تمزيق " القلب الإيديولوجي " لهذا النشاط و تحطيم نفعه للتقدّم الثوري ؟

و مرّة أخرى ، وفّر بوب أفاكيان ما أعتبر أنّه صيغة صائبة جدا و مكثّفة جدّا لما يجب ببساطة أن يعدّ " فنّا ثوريّا " :

" عندما أتحدّث عن الفنّ الثوري ، لا أعنى فقط الفنّ الذى ينشر شعبيّا بصفة مفتوحة و مباشرة الحاجة إلى الثورة . أعتقد أنّ الفنّ الذى يقوم بذلك و بشكل جيّد أي بشكل فنّي حقّا، غاية فى الأهمّية . بيد أنّ الفنّ الثوري بالتأكيد لا يقتصر على ذلك . فهناك أشكال أخرى من الفنّ تنقد النظام و تشرّح و تفضح مظاهره و جرائمه الأفظع و تدعو الناس إلى وضع النظام القائم موضع سؤال – كافة هذه الأنواع من الأشياء ، على عدّة مستويات مختلفة وبأشكال متباينة ، يمكن بالتأكيد أن تقدّم مساهمة هامة فى بناء الحركة الثوريّة . و من الأكيد أنّ الفنّانين الثوريين عن وعي يمثّلون شيئا تعتزّ به البروليتاريا و يعتزّ به الحزب الشيوعي الثوري و الشيوعيون الثوريّون عموما ، إلاّ أنه مع ذلك لا ينبغى أن يحصروا أعمالهم الفنّية فى تلك التى تشير مباشرة إلى الحاجة إلى الثورة ،و كذلك أكيد أنّه لا ينبغى لأي من أعمالهم مهما كان موضوعها ، أن تسقط فى أن تصبح مجرّد دعاية أو محاولة لأن تكون دعاية أو أن تعوّض السياسة فى حدّ ذاتها . و علينا أن نعترف بالدور و المساهمات المهمّة لعديد الناس الذين ليسوا شيوعيين ،و الذين لا يتفقون معنا إتفاقا كلّيا ، و ربّما ليسوا مقتنعين هم ذاتهم بالحاجة إلى الثورة أو ليس لديهم الوضوح الكافي لما تعنيه ، لكنهّم فى الواقع يتحدّون النظام القائم و ينادون الناس ليضعوه موضع السؤال و التمرّد عليه بشتّى الطرق ، عادة بصفة غير مباشرة و أحيانا بصفة مباشرة أكثر من خلال فنّهم . "

(بوب أفاكيان ، " **الفنّ و السياسة** " ، مقتطفات من الحوار الصحفي ، جانفي 1982 حول أطلنتا WRFG " ، جريدة " **العامل الثوري** " عدد 190 ، 28 جانفي 1983 ، ص 9).

هذه النظرة للفنّ الثوري تمثّل قطيعة مرحّب بها مع التحديدات الضيّقة الخانقة للفنّ الثوري التى تقدّم بها الذين يبحثون عن تناسب واحد لواحد بين السياسة و الفنّ و يعترفون بقيمة عمل فنّي **فقط** إلى مدى إرتباطه مباشرة بالصراع السياسي (" الفنّ من أجل المظاهرات " و ما شابه). إنّ النظرة التى يعرضها بوب أفاكيان فى المقتطف أعلاه تعترف من وجهة نظر ماديّة جدّا بأن الأعمال التى تساهم إيديولوجيّا فى تشكيل الوعي الإجتماعي على نحو يشجّع موضوعيّا على القطيعة مع العلاقات القديمة للمجتمع و إنشاء الجديد هي فى الواقع فنّ ثوريّ حتى و إن كان تأثيرها الإجتماعي يتمّ بصفة غير مباشرة تماما ،عوضا عن حصوله من خلال التعبير السياسي المباشر .

و مثلما وقعت الإشارة إليه فى وثيقة من وثائق الحزب بشأن الفنّ : " خلاصة القول ، كلّ الفنّ سياسي لأنّه و بمعنى أنّ له تأثير موضوعي على خلق رأي عام يخدم مصلحة قوّة إجتماعيّة أو أخرى (طبقة أو أخرى فى المجتمع الطبقي) . و هذا صحيح سواء كان موضوع العمل الفنّي الصراع السياسي أو كان العمل الفنّي رسما تجريديّا تأثيره الموضوعي فى خلق رأي عام يكمن فى خلق "مزاج " أو" شعور" ، من خلال إستعماله اللون ، شدّة ضربة الفرشاة إلخ – كلّ مثل هذه " الأمزجة " و " الأحاسيسإلخ ستوجد فى ظروف محدّدة إجتماعيّا و لها ، بشكل يناسبها ، تأثير إجتماعي موضوعي ، و من ثمّة يمكن رغم ذلك و إن كان جزئيّا أو بصفة غير مباشرة ، أن تساهم فى الثورة " .

هكذا مثلما أشارت تلك الوثيقة : " ... أعمال الفنّ التى تعالج تناقضات إجتماعية هامة على نحو يحفز الناس على وضع النظام الرجعي و علاقاته الإجتماعية و الأوضاع السائدة أو مظاهر هامّة منها ، تفرز غضبا تجاه هذه الأمور ، موضع السؤال و تلهم الناس أو تدفعهم إلى التمرّد ضدّه – أعمال فنّية تقوم بأيّ (أو كلّ) هذه الأشياء وليست جوهريّا معادية للبروليتاريا و حركها الثوريّة ، حتى إن لم تكن تقودها النظرة البروليتاريّة ، يمكن و فعلا تقدّم مساهمات أحيانا هامّة جدّا فى تحقيق الهدف الثوري للبروليتاريا . " إدراك هذا مفتاح فى عدم إصابتنا وغيرنا بالعمى إزاء قيمة مثل هذه الأعمال و نبذ النظرات الدغمائيّة ذات الخطّ المباشرللسيرورة الثوريّة .

لكن هذا لا يعنى أنّنا لا نحتاج إلى أعمال فنّية تجسّد على وجه أتمّ نظرة الفئات الأكثر ثوريّة فى المجتمع و طموحاتها . و كما جرى نقاشه فى تلك الوثيقة الحزبية ، فى عالم اليوم ، بينما هناك (و ستوجد) عدّة تعبيرات عن الفنّ التقدّمي

و الثوري ، فإنّ الأعمال الأكثر تقدّما فيها (بمعنى التأثير الإجتماعي بإتجاه الثورة) ستكون ذات طبيعة بروليتالية – أي أعمال تركّز على النظرة الأشمل و الطموحات الأسمى للطبقة الأولى فى التاريخ التى تكمن مصالحها **الموضوعية** فى إعادة الهيكلة الجذريّة التامة ل**كلّ** العلاقات على أساس القضاء على إستغلال و إضطهاد فئات من المجتمع لفائات أخرى ، و نمذجة تلك النظرة و الترويج لها . إنّ الفنّ البروليتاري فنّ يلبّى هذه المقاييس رغم أنّه سيتمظهر من خلال كافة أنواع المواضيع المتنوّعة المنتجة بأشكال متنوّعة .

" هل هناك شيء إسمه " الفنّ البروليتاري " ؟ برأيى هناك – و ليس هناك . لا وجود لمثل هذا الشيء بمعنى الشكل ، أي ، لا وجود لشكل واحد خاص لوحده يميّز مصالح البروليتاريا فى الحقل الفنّي و يعبّر عنها ، لا وجود لشكل جوهريّا بروليتاري و يجب أن يستخدم حصريّا فى تنافى مع الأشكال الأخرى ؛ و لن يفيدنا أن نسعى إلى إيجاد أو صنع مثل هذا الشكل البروليتاري . لكن هناك فنّ بروليتاري بمعنى المضمون : إنّه فنّ يعكس من خلال عديد الأشكال – كفنّ – نظرة البروليتاريا و مصالحها ، و بهذه الطريقة يساهم فى تحقيق هدفها الثوري . "

(بوب أفاكيان ، **" رصاصات ..."** ، صفحة 224-225)

و من جديد ، الأعمال العديدة و المتعدّدة الأشكال التى تتطرّق إلى الكثير من المواضيع المتباينة ، يمكن أن تكون ثورية فى طابعها إذا لبّت المعيار المناقش أعلاه . لكن هذا ليس بطبيعة الحال شيئا مستقرّا. " ثوريّة " عمل خاص محدّدة إلى درجة كبيرة إجتماعيّا و المعنى الإجتماعي (و التأثير الإجتماعي) لهذا العمل يمكن أن يتغيّر فى ظروف إجتماعيّة مختلفة . و أعتقد أنّ هذا ينسحب على كلّ من المضمون و الشكل : مثلا ، مضمون كان ثوريّا تماما فى لحظة زمنيّة معيّنة يمكن أن يكفّ تأثيره الإجتماعي إن كانت التحوّلات الإجتماعية " تسبق " التغيّرات التى كان العمل تبشيريّا ، إن أمكن القول . و هذا لا يعنى أنّ العمل الفنّي يصبح عندئذ " متخلّفا " إجتماعيّا – يجب النظر إليه كما تميّز فى زمنه ، و قد يغدو دون قيمة نسبيّا ، أو يظلّ ذو دلالة لكن بالمعنى الأكثر تحديدا تاريخيّا ،و تظلّ له دلالة كبرى (هذا هو حال " الأعمال الكلاسيكيّة " عادة) ، أو قد يغدو مصبوغا بمعنى إجتماعي **جديد** (مثلا ،من خلال التغيّرات فى **إستعماله** الإجتماعي ، وهو مفتاح فى تحقّقها كفنّ و فى إنعكاساتها الإجتماعية ككلّ). **كافة** السيرورة التاريخية المعنيّة ليس فى إبداع العمل الفنّي و حسب بل أيضا فى **تحقيق** دوره الإجتماعي فى أطر إجتماعية مختلفة يجب أن تأخذ بعين الإعتبار فى أيّة محاولات لتقييم هذا العمل و نقده بالمعنى السياسي .

(+) و بالفعل الفنّ ليس له عادة تأثير هائل مباشرة على الصراعات " السياسية " – و بالتأكيد على الصراعات الإيديولوجيّة الجارية . و هذا يجب فهمه من أجل التقييم الصحيح للتطوّرات فى الوضع الموضوعي و كذلك من أجل عدم تفويت الإنفتاحات الممكنة للقوى الطبقيّة الواعية لتنجز تقدّما مباشرا فى المجال الفنّي و عبره . و مع ذلك ، هناك أيضا مسألة ما هوأهمّ . و فى ما يتصل بالدور الإجتماعي للفنّ ، عامة هو التأثير التراكمي للفنّ فى خلق رأي عام فى المجال الإيديولوجي .

و يمكن لهذا " التأثير التراكمي " أن ينتشر طوال فترات مديدة أو أن يكثّف فى فترات زمنيّة قصيرة نسبيّا و يتمظهر بأكثر حدّة عبر عمل أو عدّة أعمال ن حتى و غن لم تكن بالضرورة مرتبطة بأيّة مؤسّسة خاصة لصراع السياسي أو الإيديولوجي . مثلا ، عندما كان فى أوج عطائه ، كان تأثير بوب ديلان كبيرا بوجه خاص لأنّ خياله المتحدّى عمل على المسك بقوّة و التعبير بقوّة عن بعض المشاعر و " الأمزجة " التى تركّز فيها ، إن أمكن القول ، " نور الزمن " حتى و إن كانت معظم أغانيه لا تتّصل بأحداث خاصّة جارية (و إن فعلت ذلك بعض أكثر أغانيه قوّة : " موت هاتى كارول وحيدا ") وحتى إن كانت غالبا كلمات أغانيه هي ذاتها تحتمل الكثير من التأويلات المتباينة الخاصة من قبل الجمهور .

(++) كيما يكون للفنّ الثوري التأثير الأتمّ الممكن نحتاج إلى أن تكون لدينا أعمال تعالج مواضيعا واسعة التنوّع ، و بأشكال واسعة التنوّع أيضا ، و جميعها تساهم بدرجة أو أخرى فى تطوير الوعي الثوري والترويجله . و بينما معظم (إن لم يكن كلّ) الأعمال الثوريّة والبروليتاريّة الثوريّة ستركّز على الناس ، فإنّ علاقاتهم وقيمهم الإجتماعيّة و ما إلى ذلك ، من المهمّ أن يتمّ التركيز فى مثل هذه الحالات على نمذجة **التناقضات الإجتماعية** (بما فيها تطوّر الشخصيّات) و أن تبذل جهود للتركيز على بعض جوانب الحياة الإجتماعية و تسليط الضوء عليها و ليس إفراغها منتعقيدها الحيوي و الثريّ (هذه أوليّا مسألة منهج إعادة التمييز بين التناقضات).

و أعتقد أنّ هذا ينطبق بوجه خاص على تطوير " شخصيّاتنموذجيّة " فى المسرحيّات أو المشاهد المسرحيّة أو الأفلام إلخ: بينما ربّما ليس لكلّ الفنّ الثوريّ الذى يعالج حاجة الناس" شخصيّات نموذجيّة " (و إن وجب أن تكون بعض

الشخصيّات أكثر " محوريّة " من غيرها حتّى يكون العمل فعّالا) يبدو أنّ الأعمال الثوريّة البروليتاريّة بوجه خاص فى الواقع تكشف التناقضات الإجتماعيّة من **خلال** بعض الشخصيّات المقدّمة ،و أنّ بهذا المعنى بعض الشخصيّات ستبرز خصوصيّات " تشير إلى المستقبل " و إن كان ذلك بصورة غير مباشرة ، و أحيانا حتى من خلال أمثلة سيّئة . لا أعتقد أنّ جميع الأعمال البروليتارية ينبغى بالضرورة دائما أنتتضمّن أفرادا ذوى وعي إجتماعي متقدّم (و إن كان بديهيّا أنّه ينبغى أن يكون البعض كذلك) لكن ينبغى أن تتضمّن بعضالشخصيّات التى هي " أقرب إلى المثل الأعلى " على الأقلّ بمعنى كونها " أرقى من الحياة " ، عادة **بتناقضاتها بالذات** .

بهذا المعنى يجب أن توجد شخصيّات " نموذجيّة " ، وجودها عينه و حركتها عينها عبر العمل الفنّي يمكن أن تقدّم وجهات نظر ثاقبة حادة لتناقضات الإجتماعيّة القائمة و سواء عبر المثال الإيجابي أو المثال السلبي ،تشرع فى التلميح إلى كيف يمكن أن يبدو مستقبل المستقبل .

و من هنا ، يجب أن نقدّم **مجموعة كاملة** من المميّزات المعقّدة و التناقضات الإجتماعية (على أن لا يكون كلّ شيء فى عمل واحد **!**) و حتى الشخصيّات المركزيّة أو المواضيع المركزيّة التى يعتمد عليها العمل الفنّي وتعطيه وحدته يجب أن لا تخلو من الطابع المتناقض . من جديد ، ثمّة حاجة إلى شخصيّات إجابيّة ، إلاّ أنّه لا يتعيّن على الدوام أن تكثّف الفهم الأكثر تقدّما إجتماعيّا حينها . يجب على الفنّ البروليتاري أن يبحث عن كشف الحركة الكامنة صلب الشخصيّات ، و على الأقلّ يلمّح إلى إمكانيّة القطيعة و التقدّم (فى إنسجام مع الواقع الموضوعي **!**) خشية أن يصبغ العمل بنظرة للحياة ساخرة و يائسة وحيدة الجانب .

===

الجزء الرابع :

الفنّ كتنبّئ بالمستقبل

على وجه العموم ، يتعيّن أن يساعدنا معنى أعمق منالتمييز بين السياسة و الإيديولوجيا فى ما يتعلّق بالفنّ على مزيد التقييم الصحيح للتأثير الإجتماعي لأي عمل معطى ، بما فى ذلك أعمال من الماضي و من طبقات أخرى ، و من ثقافات متنوّعة إلخ . **كافة** الأعمال الفنّية ، فى جميع الأوقات ، تتواصل بعض دلالتها الإجتماعيّة ذلك أنّها جزء من إرثنا التاريخي و لقطات تعكس مصالح القوى الإجتماعية المتنوّعة و تسجّل الإستمرار و القطيعة عبر الزمن فى حياتنا الإجتماعية . و بهذا المعنى ، ليس صحيحا أبدا أنّه ما منشيء نتعلّمه من عمل معيّن .

معظم الأعمال الفنّية (و معظم الأعمال العلميّة كذلك) لا تحافظ على تأثير إجتماعي كبير طوال فترات زمنيّة مديدة ، و فى النهاية تتلاشى فى الظلام . (و بطبيعة الحال ليس للبعض منها الكثير من التأثير منذ البداية **!**) و لا يعود هذا فى المقام الأوّل إلى أنّ المجتمع ليس بإمكانه أن يستوعب الكمّيات النامية و المتراكمة من الأعمال الفنّية بالمعنى الكمّي ، أو إلى أنّ الجديد ينفى القديم بالمعنى المطلق . نظرا للصلة الإجتماعيّة (لنستعيد جملة مفيدة من ستيّنات القرن العشرين) **سيتغيّر** عمل معيّن – بما فى ذلك تأثيره الجمالي – بفعل قوى إجتماعية مختلفة ، ضمن أطر إجتماعية مختلفة .

و الفنّ الطليعي الحالم الذى كان يُعتبر " راديكاليّا جدّا " و كان موضع جدال فظيع فى وقت سابق يمكن أن يصبح مقبولا على نطاق واسع ، أو حتى قد وقع إختياره من قبل النقّاد السابقين ، عندما تتغيّر الظروف الإجتماعيّة العامة . و إضافة إلى ذلك ، المجال الفنّي ،و المجالات الأخرى من النشاط الإنساني المتناثر و " تجارب أخفقت " (على الأقلّ فى نهاية المطاف) و مسارات قادت إلى نهايات مسدودة ، بغضّ النظر عن مدى " الأهمّية " أم " النجاح " الذى حققته فى زمنها . ثمّ ، مجدّدا ، أعمال فنّية تعنى بفترات تاريخيّة أخرى ، أو أنتجتها طبقات لم تعد بعدُ قوى إجتماعيّة طليعيّة ، يمكن أن تحافظ على " الصلة الإجتماعية " حتى و إن لم يعد مضمون تلك الصلة الإجتماعية بالضبط هو نفسه .

طبعا ، ليست مجرّد المميّزات الإجتماعية للفنّ هي التى تضمن بقاءه : بعد كلّ شيء ، مع منع بعض نماذج التحطيم الجائحة ، سيكون من العسير بالنسبة للأهرامات المذهلة لتيوتهوا كان أن " تضمحلّ من المشهد " ، بينما الزخارف القديمة أو رسومات النباح مثلا تكون مرجّحة أكثر أقلّ بكثير لأنّ تبقى قيد الحياة أمام تصرّم الزمن ، بقطع النظر عن ميزاتها الإجتماعيّة **!** لكن رغم مثل هذه الإختلافات البديهيّة الجانبيّة (و منها واقع أنّ القوى الإجتماعيّة المتنازعة قد إرتأت أيضا أن تقمع و تجتثّ الأعمال الفنّية التى تعتبر مكثّفة للإيديولوجيا المعارضة) يبدو أن بعض الأعمال تحافظ على الصلة الإجتماعية الكبرى فى جزء كبير منه بفضل المستوى العالي لمعاييرها الفنّية ، و " قوّتها " كفنّ ، و أقصد بذلك أوّليّا

قدرتها على أن تقبض بشدّة و تنمذج بشدّة بعض التناقضات فى الطبيعة أو المجتمع ، فتعود إلى المجتمع على مستوى أرقى ، أقرب إلى " المثل الأعلى " .

أعمال فنّية قويّة من هذا القبيل و التى يمكن طبعا أنتكون تقريبا منسجمة مع المصالح الإجتماعيّة المتباينة فى أي زمن معطى ، تصبح جزءا من تجربتنا الإجتماعية العالمية كبشر – المؤرخون و المروّجون لذلك الإرث التاريخي . و أظنّ أن سبب الإمكانيّة المسحوبة إيديولوجيّا و المحبوبة جماليّا (و إن كان ذلك عادة بطرق متباينة للغاية ولأسباب متباينة إلخ) من قبل حتى قوى طبقيّة معاصرة متعارضة . و كلّ هذا يعنى أنّه يمكننا أن نكسب الكثير من فنّ الأزمان الماضية أو من فنّ القوى الإجتماعيّة الأخرى ، و أنّه ليس بالضرورة خاطئا ، وعادة من الصحيح جدّا ، إعتبار مثل هذا الفنّ " جميلا " و ليس فقط بجفاف " تعليمي " .

لكن هذا لا يغيّر من واقع أنّنا نحتاج إلى أكثر من أفضل فنّ الأزمان الماضية و القوى الإجتماعية المعارضة . نحتاج إلى فنّ يتناسب مع آفاقنا و مصالحنا الإجتماعية الخاصة و يتناسب مع و يساعف فى تحقيق أهدافنا الإجتماعية الخاصة . نحتاج ، اليوم ، إلى فنّ المستقبل – أي الفنّ الذى ينادي المستقبل . و كما وضعت ذلك بقوّة وثيقة الحزب (المشار إليها أعلاه) ، إنّه لجزء من سحر الفنّ أن نستطيع أن نفعل فى هذا المجال ما ليس بعدُ ممكنا تحقيقه فى مجال العلاقات الإجتماعية الماديّة . سيساهم التعبير المادي عن أحلامنا فى شكل أعمال فنّية فى إرساء أسس هذه التغييرات الإجتماعية الجوهريّة التى نتطلّع إليها .

و اليوم كذلك ، تحتاج البرجوازيّة إلى الفنّ . إنّها تحتاج إلى فنّ يمكن أن يساهم فى **الحفاظ** على الوضع السائد إجتماعيّا (و خاصة سياسيّا و إيديولوجيّا) و يلقى صواريخا ضدّ أيّة مظاهر لشقّ الصفوف فى أي مجال كان . أمّا البروليتاريا فتحتاج بالضبط إلى عكس ذلك : تحتاج إلى فنّ يعكس و يصوّر و أكثر أهمّية ، يساعد على تشكيل نظرة إلى العالم ورؤية جديدتين تماما تتناسب مع مصالح ما هي موضوعيّا القوى الإجتماعيّة الطليعيّة ؛ فنّ يتنبّؤ بالمستقبل و يتنبّؤ بحياة إجتماعيّة جديدة تماما و ينادى بها – وبقيامه بذلك يساهم فى تحقيقها .

المشكل فى الماضي مع الكثير ممّا يسمى ب " الفنّ البروليتاري " ليس أنّه تمّت محاولات إنشاء أعمال و مواضيع وشخصيّات بروليتارية إلخ على وجه الخصوص و لا هو أنّه تمّ التصريح بأنّ بعض تلك الأعمال نموذجيّة : عادة ما كان المشكل أنّ مضمون (و شكل) هذه الأعمال لم يتناسب فى الواقع مع أرقى الطموحات التاريخية للطبقة البروليتارية .

لعلّ الفنّ يستمدّ الكثير من قوّته الإيديولوجيّة من واقع أنّه يجب عليه أن " يسائل الواقع " بالمعنى الأكثر دقّة و مباشرة لكن " إنحرافاته " عن الواقع يجب على الأقلّ أن تخدم إستخلاص تعقّد و ثراء الحياة الإجتماعية و أن تسلّط الضوء على مظاهر (تناقضات) شجّع على نظرة **واسعة وشاملة** تتحدّى الأفكار القديمة و ما شابهها و تنادي بإزاحتها .

ومن الأكيد أنّ الصور و التماثيل الضخمة الشبيهة بالأيقونات ل " عمّال " لهم عضلات منتفخة و رؤية متّسعة تحدّدها شموليّة مطارقهم ونحتها لا تحقّق شيئا من هذا ! و هذه ليست مجرّد مسألة بدائيّة (التقنية إلخ) و إنّما بوضوح كبير مسألة تأثير خطّ سياسي خاطئ ، أو نزعات سياسيّة خاطئة متصلة بطبيعة هذه الطموحات ، و وسائل إظهارها غلى النور وهكذا . المشكل ليس أن " السياسة فى مصاف قيادة " الفنّ فى مثل هذه الحالات (إنّها كذلك دائما – و المسألة هي أننكون أوعى تماما فى فهمنا و تطبيقنا لهذه الحقيقة الأساسيّة) ، و إنّما مسألة أنّ مثل هذه الحالات السياسيّة فى مصاف القيادة خاطئة ومتصدّعة .

من جهة ،لا ينبغى حقّا أننسقط فى النظرة التى تقول إن المصيبة هي نحن ، أنظروا إلى كلّ هذه القمامة المنتجة فى ظلّ تأثير السياسات الشيوعية فى مجال الفنّ . بهذا المضمار ، يجب أن يكون لدينا موقف أنّه " إن وجدت مشاكل فلنعالجها **!** " لكن أبعد من ذلك سيكون من الخاطئ تماما أن نخفق فى أن نأخذ رصيدا من التجربة الراديكاليّة الواسعة الإنتشار و ننجز بعض الإختراقات الحقيقيّة جدّا المحقّقة فى مسار تاريخ الحركة الشيوعية العالمية ن بما فيها بوجه خاص فى الصين الثورية .

أكيد أنّ تقدّما حيويّا فى مجال النظريّة (**ندوة يينآن**) مثّل نقطة تحوّل فى هذا الحقل و فى حقل الممارسة أيضا . نعم ، وُجدت بعض نقاط الضعف و الأخطاء النابعة من بعض التأثير القومي و بعض الماديّة الميكانيّة و الإقتصاديّة – اليسراويّة لكن مع ذلك بعض القطائع الراديكاليّة الحقيقيّة جدّا و إن كانت بدائيّة قد أنجزت و يجب التأسيس عليها و ليس إستبعادها برفق . أي شخص يفكّر فى أنّ باليه " كتيبة النساء الحمر " – الذى ، ضمن أشياء أخرى ، عرضه لنساء قويّات كشخصيّات قياديّة (فى **باليه** ليس أقلّ ، و فى **الصين** ، بعد ما يناهز الجيل من الأرجل المعصوبة **!**) و الحركات

الجديدة اللافتة للنظر و الملهمة التى بجرأتها أثّرت فى الباليه و الرقص المعاصر على النطاق العالمي فى ستّينات القرن العشرين- هي فنّ ثوري كفنّ ، وتحتاج إلى أن نمعن فيها النظر من جديد !

هل يكون الفنّ أقوى عندما " يخفى الفنّانون آراءهم "؟

ويثير هذا نقطة خلافيّة هامة أخرى . و كما أعربت عن ذلك سابقا ، ليس على الفنّ الثوري أن يكون مضمونه سياسيّا صراحة . لكن ما الذى يجب قوله مثلا بشأن موقف إنجلز أنّه " بقدر ما تظلّ آراء الكاتب مخفيّة ، بقدرما يكون العمل الفنّي أفضل " (" رسالة إلى مرغرات هاركناس " ، 1888 ، أعيدنشرها ضمن كتاب ماركس وإنجلز ، " **الأدب و الفنّ** " ، دار التقدّم للنشر 1978 ، ص 91 ، بالأنجليزية) .

كأي نوع من المبدأ العام أوالتوجّهي ، هذا ببساطة خاطئ . مع كلّ الإنصاف لإنجلز ، يترتّب علينا أننقول كذلك إنّه فى الإطار الذى صاغ فيه هذا الموقف كان مهتمّا بوجه خاص بالأشياء التى تبقى أكثر بقليل " نهايتها مفتوحة " بالنسبة للجمهور الأولى **البرجوازي** الذى كانت الروايات المناقشة موجهة إليه ، أكثر منها ربّما لجمهور ينطلق مندرجة أعلى من الفهم و الوحدة مع برنامج ثوري كامل .و فى فقرات أخرى ، كما هوالحال فى رسالة 1885 إلى مينا كاوتسكي (الصفحة 88 من المصدر السابق نفسه) ، نجد معنى أنّ إنجلز ينقد بشكل مبرّر أكثر مقاربة سلادغيهامر التعليمية لدمج الفنّ والسياسة و خلط الفنّ مع الأجندا السياسيّة . إنّه يشدّد على أنّ الهدف الإجتماعي الأوسع " يجب أن يكون بيّنا من الوضع و الحركات ذاتها دون الإشارة بصريح العبارة و ... ليس على الكاتب أن يقدّم للقارئ على طبق الحلّ التاريخي المستقبلي للنزاعات الإجتماعية التى يصفها ".

و فى حين أنّ هذا ليس مطوّرا تماما أعتقد أنّ إنجلز هنا يخوض فى الحاجة إلى الحفاظ على مميّزات الفنّ **كفنّ** وعدم خلطه مع التحريض و الدعاية السياسيين . و مع ذلك ، يبدو أنّه يمضى بعديا فى هذا : المسألة ليست أنّه لا ينبغى أبدا على الفنّانين أن يشيروا إلى الحلول النهائيّة إلخ و إنّما أنّ ذلك يجب أن يتمّ فى إنسجام مع مميّزات الفنّ التى هي مختلفة عن مميّزات السياسة . المسألة ليست " إخفاء الآراء " بل هي أنّ هذه الآراء يجب أن تقدّم **تقديما جيّدا** ، و من جديد ، محترمة مميّزات الفنّ **كفنّ** ، فى إختلافه عن السياسة . و جمهور الفنّ ، و الفنّ الثوري بوجه الخصوص ، لا يرغب لا فىمقاربة أدنى المستويات

و لا فى مقاربة سلادغيهامر ، بل فى فنّ ثريّ ، معقّد و مجدّد يمثّل الحياة " **على مستوى أرقى من الحياة اليوميّة الواقعيّة و أكبر قوّة و أكثر تركيزا و أروع نموذجيّة و أقرب إلى المثل الأعلى ، و بالتالى فهي أكثر شمولا منها ."**

مفهوم أنّه من أجل أن نكون فعّالين ، حتى بالمعنى السياسي ، ينبغى على الفنّ بالضرورة أن يجعل مبدأ له البقاء بعيدا عن المواضيع السياسيّة والأحداث السياسيّة الجارية بوجه خاص، مفهوم خاطئ هو الآخر. أن نقول إنّه من الصعب إنتاج مثل هذا الفنّ إنتاجا جيّدا أو بطريقة تجعل قيمته تمتدّ زمنيّا ، شيء . و هذا صحيح إلى حدّكبير – أساسا بالنظر إلى صعوبات التوصّل إلى نظرات و " أفق " عميقين حينما نكون قريبين نوعا ما من مسألة مثارة حديثا ، لكن هذا ليس بالتأكيد أمرا مستحيلا ! و من الصحيح أيضا أنّه حتى حيث لا يبلغ مثل هذا الفنّ المعايير **الأرقى** ، يمكن أن **يظلّ** جيّدا جدّا و ضروريّا جدّا ، و إن لم تكن له دلالة إجتماعية تدوم زمنيّا .

أعتقد أنّ هذا أمر هام و له صلة بمسألة المستويات . فهناك نزعة ، عند نقاش الفنّ ، و خاصّة الفنّ ذى التركيز الإجتماعي الخاص على غرار الفنّ الثوري ، بالنسبة إلى الناس ، نحو جعل الأمور إطلاقيّة و متشابهة إلى حدّ كبير . و حتّى ضمن ما يمكن عن حقّ إعتباره فنّا ثوريّا فى إطار إجتماعي معطى ، هناك **مستويات مختلفة** من الفنّ (و من الفنّانين) ، بكلّ من معنى المعايير (مسألة إختلافات فى القدرات على إنتاج أعمال " قويّة " تقريبا) و بمعنى المدى و المرتبة و المضمون الإجتماعي .

الفنّ بمستويات مختلفة :

هل نحتاج **فقط** إلى " أعمال عظيمة " من الفنّ الثوري تكثّف حقائقا عميقة بأقوى الطرق و أقدرها على أن تدوم ؟ أم هل نحتاج **فقط** إلى " مشاهد مسرحيّة سريعة " سريعة الزوال تتطرّق إلى الأحداث الموضعيّة المتطوّرة ؟ سأقول إنّنا نحتاج إلى **الإثنين** . و فى سعيه إلى المساهمة فى تطوير النظرة الثوريّة إلى العالم ، هل على الفنّ الثوري أن يجعل مبدأ من البقاء بعيدا عن الأحداث الموضعيّة ؟ أم بالعكس يجعل مبدأ من الإرتباط بالأحداث الموضعيّة وحسب ؟ لا ، نحتاج (و بوسعنا القيام ب) الإثنين. هل ينبغى أ ن يكون موضوعه على الدوام سياسيّا صراحة ؟ أو أن لا يكون قط صريحا سياسيّا؟ من جديد ، نحتاج إلى الإثنين . مسألة من يفعل ماذا و فى أي وقت ، و ما هي الأعمال التى يتمّ التشديد عليها

و الترويج لها ، هي أوّليّا مسألة تقسيم عمل و ما يمكن أن نحتاجه أكثر فى أي زمن معطى ، على حدّ تقييم كلّ من النظرة القصيرة المدى و البعيدة المدى للسيرورة الثوريّة .

مثلا ، كان الحزب الشيوعي الثوري يشدّد على القطع مع النظرة التى تخلط الفنّ الثوري (و خاصة البروليتاري) بالتحريض و الدعاية السياسيّة (منكرة خصوصيّات كلّ منهما و مقلّصة قوّة كلّ منهما) و برأيى ، من المهمّ مواصلة خوض حملة " تحطيم " هذا الأفق لأنّ جذوره تبدو ضاربة فى أرض الحركة الشيوعية العالمية . و ينبغى أن يساعد القيام بذلك على توضيح طريق إنتاج و نشر الأعمال الفنّية العظيمة فى حدّ ذاتها ، ما سيساهم بصفة أقوى بكثير فى التقدّم الثوري . أكيد أنّنا نحتاج إلى مثل هذه " الأعمال العظيمة " و الكثير من الناس متعطّشون إليها .

لكن هل يعنى هذا أنّه لا حاجة إلى فنّ ثوري يكون نوعا ما متواضع المدى و أقلّ تحديدا فى معاييره ؟ ألا ينبغى فى الواقع أننشجّع على إزدهار الفنّ المتعدّد الأنواع المختلفة و المتعدّد المستويات المختلفة ؟ تقليص و تحديد كافة الفنّ الثوريّ فى نوع " الملصقة – و – الشعار " و الحصول على فنّانين متطورين للغاية يغرقون فى أوليّا إنتاج " فنّ من أجل المسيرات " هو بالفعل جريمة ، لكن هل يعنى هذا أنّه ينبغى أن لا نبحث عن إنتاج ملصقات و شعارات قويّة فنّيا ؟

هل علينا أننوفّق بين مفهوم أنّ كلّ مثل هذه الأشكال (التى تبزغ فى علاقة بأحداث موضعيّة خاصة فى غالبيّة الأحيان و تتعلّق بها ، أي التى هي فى الشكل " تحريضيّة " أكثر) يجب بالضرورة أن تكون ضعيفة فنّيا و غير فعّالة بصفة مقابلة ، ببساطة لأنّ العمل الفنّي الخاص سيكون على الأرجح متواضعا نسبيّا فى المدى و لعلّ قيمته لن تكون كبيرة و تدوم عبر الزمن ؟ هل ينبغى أن نتبنّى موقف " لماذا نزعج أنفسنا " ؟ فى علاقة برفع معايير فى هذه المستويات (أو إعادة تحديد هذه الأعمال لكي لا تعتبر " فنّا حقيقيّا ")؟

أعتقد أنّ التجربة قد أثبتت أنّه من الجدير جدّا بنا أننرفع المعايير الفنّية للفنّ الذى يمكن أن يكون طابعه سريع الزوال أكثر و لعلّ له مدى محدود أكثر بكثير من " الأعمال العظيمة " الثورية – فكّروا فى الإختلاف بين التأثير الإجتماعي للملصقات و غلافات الكتب و الشعارات و أساليب الكتابة على الجدران و الصور الصحفيّة إلخ ذات المعايير العالميّة . نعرف هذا بعدُ فى المجال السياسي أين من الصحيح و الضروري أن نميّز بين مختلف المستويات من النشاط السياسي فى علاقة بالنظريّة و الدعاية و التحريض و نبحث عن بلوغ معايير عالية فى كلّ منها . ألا ينبغى أن نفرز مثل هذه الإختلافات المتشابهة فى **الفنّ** الثوري ، و نبذل جهودا من أجل رفع معايير عالية فى كلّ المستويات ، ونطوّر تبعا لذلك تقسيمنا للعمل ؟

بالطبع ، ليس من الصحيح أن نغلق الباب أمام البدائيّة فى المجال الفنّي و كذلك فى المجال السياسي . وعلى سبيل المثال ، إن وقع إنتاج مناشير لا غير تلبّى أعلى معايير التحريض السياسي ، سيتمّ إنتاج القليل جدّا و سنخفق فى التأثير على الرأي العام (و رفع المعايير فى هذه السيرورة !) فى العديد من المناسبات . والشيء نفسه ينطبق على الفنّ الثوري . لا تزال رسوم جداريّة و رايات و أغاني و قصائد و تمثيليّات أقلّ تطوّرا و دقّة ، لا تزال جيّدة إن ساهمت فى تطوير الرأي العام على نحو يقوّض الوضع القائم و يرسى أسس المستقبل .

إنّ المعايير ترفع فى سيرورة الممارسة ، و مع مزيد تطوير التقسيم الثوري للعمل ، لكن المعايير العالية فى الفنّ ستتواجد دوما إلى جانب تلك الأقلّ تطوّرا لأنّ هذه الأخيرة هي ما يميّز الكثير ممّا يكون حديث الظهور(بما فى ذلك ، و هذا هام ، عدّة مساهمات أوّليّة للجماهير فى هذا المجال) .

لنتوقّف لحظة عند مسألة رفع المعايير مقابل النشر شعبيّا : كلا المظهران هامان بوضوح و مرتبطان بمعنى أنّه على المرء أن يبحث دائما عن " رفع المعايير " غير أنّه من أجل القيام بذلك ، يجب عليه أن يعرف من أيّة قاعدة ، من أي مستوى يجب رفعها (لنستعمل كلمات ماو تسى تونغ و لرفع دلو يجب أن نعرف من أين يجب رفعه) . إلاّ أنّ هذا لا يعنى أنّه على المرء أن يغذّي و المستوى الفنّي المتدنّى لدى الجماهير القاعديّة التى عادة ما أُبقي عليها جاهلة جدّا و غير متعوّدة على التعاطي مع هذا المجال كما مع كافة المجالات الأخرى . و يُعزى ذلك لكون العديد من الذين " لم يُدرّبوا " نسبيّا ليسوا دون قدر كبير من التعقيد الإجتماعي و أساس للتقييم المعقّ> لأي و كافة الظواهر الإجتماعية ،بما فيها المجال الفنّي .

لكن من أجل رفع المستويات ، يجب أن يعي الفنّانون و يأخذوا بعيم الإعتبار مستوى الذين يريدون بلوغهم (مثلا ، فى يينآن الثوريّة ، كان على الفنّانين أن يتفاعلوا مع واقع أنّ غالبيّة الجماهير كانت أمّية) ؛ لكن إنطلاقا من هذا ، يظلّ الهدف هو التحدّي و إيقاظ (بمعنى ما جماعيّا ، إن لم يكن بالضرورة مباشرة سياسيّا) الجمهور بغاية تمزيق حجاب العادات و التقاليد و أنماط التفكير . و عند البحث عن فهم أفضل إنطلاقا من محاولة رفع المستويات ، سيحسن الفنّانون

صنعا إن درسوا و تعلّموا من الأشكال الشعبيّة للتعبير الجمالي التى هي عادة وثيقة الإرتباط جدّا بالتجارب الحياتيّة لجمهور هام ، و التى هي و إن كانت عادة بدائيّة فى شكلها و محدودة المدى ، يمكن أن تزوّد الفنّانين المحترفين بقرائن هامة فى ما يتّصل بالمسائل التى تحتاج إلى معالجتها ، و أشكال القيام بذلك ، و الإتجاهات التى يجب " توجيه الناظرين " إليها ، إن أمكن القول .

و كلّ هذا مفيد بصورة خاصة للفنّانين الثوريين الذين ينبغى أن يتجنّبوا السقوط فى فخّ مسك مرآة لإظهار ظهر الجماهير فى المجال الفنّي كذلك ، لكن الذين مع ذلك يجب أن يكسبوا فهما ماديّا للمستوى الذى ينطلقون منه ، فى محاولاتهم إنجاز قفزات فى الوعي و الفهم فى صفوف جمهورهم . بوسع الفنّانين ، ويجب عليهم ، أن يتوقّفوا عن جعل جمهورهم " يبلغ " و يعمل قليلا (" لأدراك ذلك " إلخ) لكنّهم – شأنهم شأن القوى المتقدّمة سياسيّا و إيديولوجيّا عامة – يجب أن يبحثوا عن طرق **لمساعدة** الجمهور فى هذه السيرورة .

و بالعكس ، يجب أن يكون الجمهور مستعدّا للعمل من أجل شيء جديد بالإهتمام و بذل كلّ جهد قبل كلّ شيء " لولوج العمل بإطاره الخاص " ، قبل تقرير قبوله أو رفضه بمعنى الشكل و المضمون أو كلاهما . يحتاج الجمهور إلى أن يُطوّر – و يحتاج إلى أن تُقدّم له قيادة ليطوّر – القدرة على نقد العمل الفنذي و نفسه كذلك بهذا الصدد. و مجدّدا ، كلّ هذا مفيد بوجه خاص فى علاقة بالفنّ الثوري فى عالم اليوم أين كلّ من الفنّانين و الجمهور يجب أن يفكّروا فى واقع أنّ **" الشكلانية المتصلّبة ومقاومة التجديد، و الإستعداد لنبذ إتباع السائد – كلّ هذا عائق لتدفّق الإبداع الفنّي . لكن أكثر من ذلك – هو عائق أمام تحقيق هدف الشيوعية "**. (بوب أفاكيان ، **" رصاصات ..."** ، صفحة 226).

و مؤكّد أنّ التمييز بين البدائية و المعايير العالية يجب ألاّ يقام على التناسب مع درجة صراحة المضمون السياسي لعمل ما ! و من القيام بعمل عظيم فى علاقة بالمادة السياسيّة الخاصّة و حتى بالأحداث السياسية الجارية. فكّروا مثلا ، فى الأعداد الضخمة من الصور التى وقع تصويرها خلال حرب الفتنام : إنّها جميعا جزء من شكل معيّن من الفنّ، الصور الصحفيّة ، و غالبيّتها أنجزت بمعايير متدنّية نسبيّا ، خادمة دور التأريخ بالمشاهد لأحداث و تطوّرات معيّنة و التأثير فى الرأي العام ، لكن ، فى حدّ ذاتها ، عبرت بعض الصور الصحفيّة إلى " الفنّ العظيم " بالضبط لقدرتها على تركيز و نمذجة و رفع قسم من التجربة الإجتماعية إلى مستوى أعلى ، على نحو يكون مؤثّرا بعمق و له بالتالى قيمة تدوم عبر الزمن .

بعد بضعة سنوات ، الكثير من (غالبيّة) الصورة الخاصة بالفتنام قد تلاشت من الذاكرة ن إلاّ قلّة منها إكتسحت الوعي الإجتماعي الجماعي (حتى على الصعيد العالمي) : من سينسى الصورة الشهيرة للطفلة الصغيرة التى كانت تركض عارية الجسد و تصرخ فى طريق قرية أحرقتها قنابل النابالم ؟ كانت تلك الصورة و تظلّ فنّا عظيما تحديدا بفضل ما تركّزه و تنمذجه و ترفعه إلى أعلى مستوى بشأن تجربة إجتماعية خاصة (حرب الفتنام) و حتى الحرب بصفة أعمّ (فى **إحدى** مظاهرها). و لتأثيرها الإجتماعي طبيعة دائمة و إن كانت إلى درجة كبيرة " فنّا موضعيّا " زمنها . (+)

لوحة بيكاسو ، " غرنيكا " (المرسومة مباشرة غداة مجزرة غرنيكا أثناء الحرب الأهليّة الإسبانيّة و التى هي إلى يومنا هذا عمل مبدع مثال آخر من هذا " الفنّ العظيم " الذى ظهر فى إرتباط بأحداث سياسيّة موضعيّة .

يغرينى أن أقول ببساطة إنّه إضافة إلى " الأعمال العظيمة " التى تساهم بعمق فى صياغة النظرة الثوريّة إلى العالم و لها قيمة إجتماعيّة تدوم ، يجب أن نعترف كذلك بأهمّية "الفنّ الذى يمكن أن يتلاشى" ذى الطابع الثوري و أعلى معايير ممكنة وهو عن وعي ذاتي " فنّ موضعي " و أساسا تحريضيّ فى طابعه ، و أنّ فهمنا لما يميّز الفنّ كفنّ (فى تعارض مع التحريض فى المجال السياسي) يجب أن ينطبق هنا أيضا .

أحمر و أخصّائي :

و يلامس هذا مسألة تقسيم العمل . فالحال سيكون ، مع تطوّر الحركة الثوريّة ، أنّ الفنّانين المحترفين الثوريين (محترفين أم لا) ينبغى أن يكرّسوا معظم جهودهم لإيجاد أعمال ثوريّة ذات المعايير العالية و لتطوير مضمون إجتماعي و آملين أن يكون له تأثير إجتماعي مناسب كبير (سواء كانت الأعمال أو لم تكن سياسيّة صراحة فى الموضوع و المحور و سواء كانت أملم تكن مرتبطة بأيّة " أحداث موضعيّة خاصة " . و فى نفس الوقت ، بعض الفنّ التحريضي فى شكله و دوره (بما فى ذلك ما أطلقت عليه " فنّ يمكن تلاشيه ") ، يبرز حرارة الأحداث الوضعيّة و فى علاقة بالحاجيات الأكثر مباشرة القريبة المدى للنضال الثوري ، يمكن أن ينهض به فنّانون غير محترفين . فنّ الغرافيتي و أغاني الراب إلخ المنجزة من طرف فنّانين غير محترفين أمثلة عن ذلك ، بينما فى نفس الوقت هناك غرافيتي و راب إلخ عالي الحرفيّة منجزة من طرف فنّانين محترفين- و مجدّدا ، لكليهما دور هو جزء من التقسيم العام للعمل الذى عنه أتحدّث .

هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى ، يجب أن نبحث لا عن تشييد أسوار لا يمكن إختراقها فى مسار تطوير هذا التقسيم للعمل – لا يجب تحديد الفنّانين الثوريين المحترفين فى " الفنّ من أجل المسيرات " و إنّما ينبغى أن يعتنوا بالتطوّرات على **كلّ** المستويات و المساعي الفنّية وينبغى أحيانا المساعدة على تطوير مستويات أخرى غير مستوياتهم هم (أي عبر الإسترشاد النظري و / أو العمليّ بآخرين) . و طبعا ، يجب أن يكونوا همأنفسهم منفتحين على النقد و القيادة من قبل غير المحترفين (و منهم القادة السياسيّون الثوريّون و الجماهير المتقدّمة كذلك). يتعيّن أن نكون يقظين لكي لا نطوّر نظرة أنّ " الأخصّائيين وحدهم يمكن أن يتحدّثوا " فى مسائل الفنّ ، أو قلب العلاقة العامة للفنّ بالسياسة رأسا على عقب ، متذكّرين أنذ السياسة عامة يجب أن تكون فى مصاف القيادة إن كان الهدف هو الثورة .

و علينا أيضا أن نقطع تماما مع نظرة أنّه ، من ناحية أخرى ، من واجب الفنّانين المحترفين (على الأقلّ إن لم يكونوا أيضا ثوريين محترفين فى المجال السياسي) أن يعرفوا مكانتهم و لا يسعوا إلى أن " يملوا أفكارهم على الناس " . هذه النظرة محض سمّ !

كلّ الفنّ يساهم بطريقة أو أخرى فى كيفيّة تفكير الناس . عادة ما يقول الفنّانون للناس ما يجب أن يفكّروه و ذلك من خلال فنّهم ، سواء كان جمهورهم واعيا بهذه السيرورة أو لم يكن واعيا بها . لذا أن نطلب منهم أن يقوموا بعملهم و التأكّد من القيام بذلك عن عمى . و هذا لا يعنى طبعا أنّ فنّانا ثوريّا واعيا لا يجب أن يبحث عن " الحديث " من خلال عمله الفنّي بإدراج خطابات سياسيّة فى الأغاني و المسرحيّات إلخ : لا يجب على الشيوعيين أن يخلطوا بين الفنّ و التحريض و الدعاية السياسيين و لا يجب كذلك أن يفعل ذلك الفنّانون الثوريّون غير الشيوعيين !

و علاوة على ذلك ، سيكون كذلك غالط جدّا أن نحاول غلق المجال السياسي أمام الفنّانين أو أي شخص آخر ! ليس الفنّانون آلات بل كائنات إجتماعيّة من جميع النواحي ، و الفنّانون الذين يريدون أن يكونوا ثوريين يجب بالفعل أن يجتهدوا بمشقّة كبيرة لولوج المجال السياسي – بينما كذلك يطوّرون فنّا ثوريّا – لأنّه المجال الذى فيه تتركّز النزاعات الإجتماعية و تبلغ حلاّ نوعيّا ، و هكذا هو المجال الحاسم الذى تقام فيه الثورة . و فوق كلّ شيء ، هذا هو " المكان الذى يتعيّن أن يوجد به المرء " إن كان يرغب فى القيام بالثورة بغضّ النظر عن المجالات الأخرى التى ينشط فيها (و حتى إن كان مجال المرء المحترف – و/ أو السياسي المحترف – مجال العمل الفنّي ، مثلا) .ومثلما تمّ التشديد على ذلك أثناء الثورة الثقافيّة فى الصين ، ينبغى على الفنّانين الثوريين أن يبذلوا جهودا ليصبحوا فى آن معا حمرا و أخصّائيين ، و ليصبحوا شيوعيين ثوريين بالمعنى الأتمّ للكلمة .

لكن حتّى الفنّانين ذوى الوعي الثوري الذين يظلّون خارج صفوف الحركة السياسيّة فى حدّ ذاتها ، ينبغى أنلا يتردّدوا فى محاولة " إملاء أفكارهم على الناس " ، حتّى فى المجال السياسي ! يمكن أن يملكوا بعض الرؤى الثاقبة الحقيقيّة للمساهمة بها ، فيما ربّما هم مرجّحون للقيام بهذا قياما جيّدا عبر فنّهم ، فإنّهم أحيانا يفعلون ذلك عبر التعبير السياسي المباشر . و فى كلّ الأحوال ، خاصّة إن كانت وجهة نظرهم تقدّميّة ، أو أفضل حتّى ، ثوريّة ، علينا الترحيب بكلّ هذا !

الوعي و العفويّة :

بالفعل ، فى نقطة مرتبطة بذلك ، علينا أن نجتهد للقطع مع تقديس العفويّة فى ما يتعلّق بالفنون . هناك دور لبعض الأشكال و الدرجات فى العفويّة (لا سيما فى ما يتعلّق بالتجريب) لكن أغلب الأعمال الفنية المطوّرة بالكاد هي أعمال عفويّة (ولا نقلّل من شأن المسألة !) . إنّها أسطورة تروّج لها القوى الإجتماعيّة التى سترضى تماما عن تقليص الفنّانين (أو العديد منهم) إلى أناس عصابيين منعزلين عن أي وعي أو تأثير إجتماعي مهما كان قليلا – أن " المزاج الإبداعي " للفنّانين يتحطّم بتصويره الواعي و النضال الواعي . يفكّر الفنّانون فى فنّهم و ككائنات إجتماعيّة ، فى الكثير من الأشياء الأخرى أيضا !

المسألة هي أنّه ليس الخطاب الإجتماعي و النضال فى حدّ ذاته هو الذى يمكن أن يخنق إبداع الفنّان ، إنّه مضمون خطابه و شكله و مضمون نضاله و شكله – مملّ ، جاف ، ميكانيكي ، دغمائي و عامة المناهج و وجهات النظر **المميتة** تماما هي التى يمكن أن تترك فنّانا (أو أي شخص آخر !) فى وضع الشلل المؤقّت . لكن ألن يكون فعلا من الإضل للفنّانين الثوريين أن يطوّروا مستواهم من الوعي و الفهم الإجتماعيين ، و إستيعابهم للمنهج العلمي ، بدلا من التعويل على مفاهيم تقريبا صوفيّة ل " الغرائز " فى إبداع الأعمال الفنّية ؟

أليست المسائل المنهجيّة المتّصلة بتشخيص التناقضات الرئيسيّة و المظاهر الرئيسيّة للتناقضات ، مثلا ، مفيدة للإبداع المسرحي أو لخلط الألوان ، لكلّ من المضمون و الشكل ؟ ألا يلعب الكثير من الفنّ على التضاد ؟ الإنسجام والتنافر ، الإستمرار و القطيعة ، و الضوء و اللون و النسيج و الخطّ و الحركة و الإيقاع و العرض و الرنين و المزاج و هكذا

...أليس هذا التضاد بالفعل **تناقضات** يكشتشفها الفنّانون (عن وعي أو عن غير وعي)، إليها (عن وعي أو عن غير وعي) يُنسب وزنا مختلفا و ما إلى ذلك ؟

حتّى " الكتابة الأوتوماتيكية " (أساسا كتابة " مسار الوعي ") لدي بعض الدادايين و السرياليين الأوائل الذتى كانت ، فى إعتقادى ، تجاربا إجتماعية صالحة ، تختبر حدودا " إجتماعيّة " و فرديّة الإنتاج و الرؤية الفنيين و الإضطلاع بدور مفيد فى تحطيم القديم و الشكلانيّة المتجهّمة ضمن أشياء أخرى – و حتّى أنّ هذه الكتابات تكشف كذلك حدودهم المنهجيّة الخاصة . و قد كشفوا واقع أنّ " النضارة " فى الفنّ هي فى آخر المطاف جوهريّاً مرتبطة ببعض المفهوم العفوي المصيّر مثاليّا ، لكن بالقدرة بالقدرة على " الحرف " الواعي للأشياء بطرق جديدة و مختلفة – " تغيير بؤرة التركيز " و تغيير و عطف الآفاق ، لتوفير نظرات نضرة ونظرات ثاقبة – و جميعها يمكن أن تلقى مساعدة من قبل التفكير و النضال الواعيين فحسب .

و حتّى " الرسوم المنقطة " لجاكسون بولوك كانت منقّطة بإنتباه و بتفكير واعي إشتغل على حجم القماش و شكله ، و إختيار الأوان إلخ . و فى تقرير أخبار خاص بالفنّان الفرنسي الذى أنتج " فنّا حلزونيّا " (إذ سمح لحلزونات حيّة غمسها فى أصباغ بأن ترسم مسارات ألوان تنفضها على القماش) عبّر الفنّأن عن إحباط لعدم قدرته على إغراء الحلزونات لتذهب فى إتجاهات معينة بتقديم الخس لها **!**

و هكذا ، أعتقد أنّ مسألة ط القطيعة الراديكاليّة " المعنيّة فى الفنّ البروليتاري تعنى التبنّى الواعي **للمنهج** و كذلك **للنظرة** العامة الخاصة بظهور قوّة طليعيّة فى المجتمع ، البروليتاريا الثورية .

و يخشى فنّأنون كُثر إلى حدّ كبير ما إذا عليهم أم لا أن ينتجوا " أعمالا يكلّفون بها " . و ما لا يدركونه هو أنّهم بعدُ **ينتجون** ذلك . لكن عليهم انتاج ذلك عن وعي – و من أجل الطبقة الثوريّة أي وفق مصالحها بالمعنى الأشمل .

(+) لاحقا حاولت البرجوازية محو أثار صورة فتنام الشهيرة بإطلاق سلسلة من القصص والصور التى تبيّن الطفلة الصغيرة و قد كبرت و أجرت عمليّة جراحيّة ترميميّة إلخ إلخ إلاّ أنّها لم تفلح فى أن تعكس الحكم فى المجال الفنّي و فى المجال السياسي أيضا **!**

==

2- <u>الإشتغال على الأفكار و البحث عن الحقيقة : تأمّل فى القيادة الثوريّة و السيرورة الفكرية</u>

<u>أرديا سكايبراك</u>

(جريدة " **العامل الثوري** " – التى غدت منذ سنوات تحمل عنوان " **الثورة** " - عدد 1144 ، 24 مارس 2002).

<u>ملاحظة للناشر :</u> من أرديا سكايبراك مؤلّفة كتاب " **حول الخطوات الأولى و القفزات المستقبليّة ...**" و " **بعض الأفكار عن الدور الإجتماعي للفنّ** " (" **العامل الثوري** " أعداد 1114 و 1115 و 1116 و 1117) ، بلغنا غذاء للفكر بشأن الإشتغال على الأفكار . نأمل أن يفرز هذا المقال مزيدا من الأفكار و نرحّب بأفكار القرّاء و آرائهم .

<u>ملاحظة للكاتبة :</u> فيما يلى بعض الأفكار التى صغتها مستلهمة إيّاها من قراءة مقتطفات من " **<u>الأهداف الكبرى و الإستراتيجيا الكبرى</u>** " لبوب أفاكيان وهو مقال نشرته حديثا جريدة " **العامل الثوري** " .

ثمّة خصوصيّة هامة للإشتغال على الأفكار (القيام بالعمل الفكري) لم تقدّر غالبا حقّ قدرها ألا وهي أنّ هذا العمل سيتقدّم حقا و يخلق أرضيّة جديدة و يقود إلى فهم جديد لما هو صحيح فقط إن أفلح القائمون به على الأقلّ مؤقّتا ، فى وضع الأفكار القديمة و الأحكام و الأفكار المسبّقة و الفرضيّات التى لم تختبر جانبا . ينبغى على المرء أن يرنو إلى إستكشاف الحقيقة و بحثها بذهن منفتح حقّا ، متبعا أثر الأدلّة إلى حيث يمكن أن يؤدّى ، بغضّ النظر عن مدى ما يمكن أنتكون عليه النتائج سواء كانت غير منتظرة أم مزعجة و غير مرغوب فيها .

و هذا يتباين مثلا مع سيرورة بناء شيء من الأجر و الإسمنت . بالطبع يمكن أن يوجد إبداع و تجديد فى بناء جدار مثلما غى جميع النشاطات الإنتاجيّة الأخرى . لكن على مدى أوسع و بمعنى عام ، إذا أردت أنتبني جدارا بناءا ناجحا ، من المنطقي أنتعتمد على صيغ مختبرة راسخة جدا (للحصول على الخليط الصحيح من الإسمنت و الرمل لبناء الأجر) و من المنطقي أن ترسم صورة أو ربّما ترسم مخطّطا **لكيف تريد بالضبط أن يكون الجدار عندما تنتهى من بنائه** . إذا إعترضك مشكل أو عائق غير متوقّع قد تأتى بجديد و بحلّ مبدع غير أنّ هدفك **الأساسي** (بناء نوع من الجدار بطريقة معيّنة) قد **حدّدته عادة بصفة مسبقا** .

إنّ سيرورة الإشتغال على الأفكار مغايرة جدّا عادة فدلو المواد الأوّلية التى يغوص فيها المثقّفون مليئة بالكثير و الكثير من الأكفار المتباينة : الأفكار القديمة والجديدة ،و الأفكار التقليدية و غير التقليديّة ، و الأفكار المختبرة و غير المختبرة ، و الأفكار التى إستثمرت و طُبعت بعدُ بأفكار أخرى (بما فيها وجهات نظر عديد الأشخاص المختلفين و فئة إجتماعيّة برمّتها) فى شبكة متتالية تقريبا لا نهاية لها ، و الأفكار التى توازى بعضها البعض فى صداقة تعزيز متبادل ، و الأفكار التى تتصادم و تتنازع بشراسة وهي متعارضة تماما ، و هلمجرّا .

بطبيعة الحال ، بعض الأفكار بوضوح " أصحّ " من الأفكار الأخرى (بمعنى أنّه يمكن تبيان أنّها تتناسب بشكل أقرب للواقع المادي الموضوعي الفعلي) و لهذه الأفكار الحقيقيّة أكثر نسبيّا قيمة خاصة فى أنّها تبنى ضمن مخازن مراكمة إنسانيّة للفهم . (و الأفكار الخاطئة تفعل ذلك أيضا إلاّ أنّها بعد أن يتبيّن بوضوح أنّها غير صحيحة – إلى ذلك الحين تستخدم عامة أكثر للتضليل و المغالطة).

المشكل فى مجمل العمل الفكري هو أنّك لا تعلم فى البداية ما هي الأفكار الأصحّ مقارنة بأخرى : لذا تشتغل مثل علم الآثار ، تدقّق فى الطبقة تلو الطبقة من الرواسب ، باحثا عن النبأ السار المميّز مناسباتيّا الذى يمسك به بالضبط لأنّه (على الأقلّ جزئيّا ، أو إلى مدى معيّن) قد تبيّن أنّه يتناسب مع الواقع المادي . لو إستطعت أن تجمّع ما يكفى من هذه الأنباء السارة المتمايزة حقيقة يمكنك أن تحصل على مزايا نظريّة – ليست بعد حقيقة نهائيّة فى حدّ ذاتها ، لكن نوعا من " الإطار " النظري الذى يمكن أن يوظّف فى إرشاد المزيد من التفكير و الإكتشاف و الذى يمكن بدوره أن يخضع للإختبار أكثر من خلال الملاحظة و الإختبار لتقييم الدرجة التى بها فى النهاية يتناسب أو لا يتناسب مع ، و يخدم تفسير جزء من الواقع . و طبعا ، هذا الجزء الأخير من السيرورة يمكن أحيانا أن يكون طويل الأمد ، بما أنّ أفكارا و نظريّات جديدة ينبغى إخراجها إلى العالم لفترة إذا أريد إختبارها بهكذا طريقة .

و واقع أنّ الخلاصات و النظريّات الجديدة تستغرق بعض الوقت فى إختبارها و التثبّت من صحّتها (و واقع أنّ العديدين سيقع فى النهاية إستبعادها على أنّها تؤدّى إلى نهايات مسدودة أو يقع الإشتغال عليها مجدّدا) لا يزعج عادة المثقّفين لأنّهم يقبلون هذا الوضع من عدم اليقين النسبيّ بشأن الفترات المديدة بإعتبارها جزءا ضروريّا و لا يمكن تجاوزه من سيرورة توسيع المعرفة و الفهم الإنسانيين . و الحلاصات الظاهرة و المتطوّرة حديثا ينبغى ألاّ تنشأ فى إطار بناء زجاجي و لا ينبغى كذلك أن تظلّ قريبة من الصدر على نحوبائس : إنّها بحاجة إلى الخروج إلى العالم . و يجب أنتبذل جهود معقولة لتجنّب الإرتباك المبالغ فيه ، و إعادة إبتلاع ذلك الذى قد تبيّن بعدُ أنّه خاطئ ، أو عدم إعارة الإنتباه الرافض لجهود الآخرين (أو أيّة آفاق مهما كانت) الذين كانوا يشتغلون على مسائل مشابهة.و كذلك يجب بذل الجهود بصورة مناسبة للتمييز (و التصنيف تبعا لذلك) بين ما هو معلوم و بين ذلك الذى ليس بعدُ معلوما ، و الإشارة بوضوح إلى ما يمكن ببساطة أن يكون تكهّنات مستنيرة .

لكن أبعد من ذلك ، إن كان الأمر يستحقّ التفكير مليّا و يستحقّ محاولة الإجابة عليه ، من المهمّ أن لا نكون متوتّرين جدّا بشأن السيرورة و عدم التأكيد بإسم الدقّة و المسؤوليّة على تشريح و تسيير عام لكلّ نقطة ثانويّة أو فرعيّة من العمل بصدد التقدّم . و الإخفاق فى الإعتراف بدرجة أهمّية أن " نترك المقاليد تمضى بعيدا قليلا " فى تسيير العمل الفكري ، سينجرّ عنه جوّ خانق و بيروقراطي و إنتاج قلّة قليلة ، تتشكّل ببطئ و بمشقّة (عمل إضافي و طاقة مكثّفة !) أعمال جيّ<ة . و لن تنجز العديد من الأعمال الأخرى أبدا (و بالفعل قليلون هم المثقّفون الذين سيرغبون أبدا فى العمل فى ظلّ مثل هذه الهياكل المحطّمة للطاقة و المعنويّات) و بعض الأعمال الجيّدة النادرة التى تنتج قد تنطوى على العديد من النقاط الجيّدة و أمور دقيقة فى عيارها ... بيد أنّها تُجرّد من الكثير من الحياة و الطرافة و الجوانب الفنّية وخاصة المفاجئات فى الطريق و التأمّلات المستفزّة للفكر وهي أشياء يجب أن تكون محور **المزيد** من التبادل و النقاش الفكريين .

لقد كتبت قبلا (حول موضوع الفنّ) أنّى أرى إختلافات هامّة فى سيرورة بلوغ الحقيقة و فى درجة " المسؤوليّة " الإجتماعيّة المطلوبة فى البحث الفنّي و فى البحث العلمي . إنّ العمل فى مجال العلوم الطبيعيّة و العلوم الإجتماعيّة يسعى عادة إلى كشف الحقيقة بتعرية العناصر و المظاهر و النزعات و ما إلى ذلك وتقديمها ليراها الجميع ، و التى يمكن تبيان

أنّها تتناسب – بالشكل المباشر و الأقرب الممكن – مع طريقة وجود الأشياء فعلا (أو وجودها مثلا) فى الواقع الموضوعي . و البحوث الفنّية تخدم كذلك بلوغ حقيقة الأشياء لكن بطابعها وهدفها المفهوم بشكل عام ، هي تعطى عامة أكثر فسحة لكشف الحقيقة و تقديمها بطرق أكثر إنحرافا و غرابة و من بعض الزوايا و الآفاق التى لا يجب (على نحو مناسب تماما و مقصود برأيى) أن تكون مقيّدة و مكبوحة بصرامة بإعتبارها إكتشافات علميّة لأجل أن تكون فعّالة ، و يمكن أن تبحث عن الحقيقة و تقدّمها بصفة مباشرة أكثر ، و ليس بالضرورة فى الإنسجام الأكثر صرامة) أو مباشرة مع الطرق التى " توجد " بها الأشياء عامة فى الطبيعة و / أو المجتمع .

و بعد قول هذا ، أعتقد أنّ **أفضل** الأعمال ، حتّى فى العلوم (و خاصّة الأعمال التى تقدّم رؤى جديدة و التى تبحث عن إختراق الأغشية المحدّدة للتقاليد المركّزة) تمزج بعض مظاهر العلم و الفنّ و مستويات مختلفة من المسؤوليّة سيربط بين الأجزاء المتباينة . و برأيى ، هذا أمر جيّد . و فعلا ، أعتقد أنّه أحيانا كثيرة (و ربّما دائما) من الضروري لهذا أن يحصل إن كان العمل سيُقام على أيّة حجارة يتمّ المشي عليها من أجل مزيد النقاش و التقدّم .

على أي حال ، الخوض فى مثل هذه المسائل جميعها جزء من طبيعة العمل الفكري . و فقط نادرا جدّا يمكن أن تقدّم مسألة نظريّة على أنّها " ثابتة فى الأساس " (فى مجال العلوم الطبيعيّة ، يتمّ الحديث عادة عن نظريّة التطوّر على أنّها من المواضيع النادرة نسبيّا " الثابتة فى الأساس " ما يجعل هذيان فكر الخلق أكثر سخرية تماما !) . و أعتقد أنّه فى أي عمل هام (بما فى ذلك المسائل الخلافيّة إجتماعيّا) من **المهمّ** محاولة إقرار معايير عالية المستوى من المسؤوليّة فى علاقة بجملة من النقاط و المواضيع الأساسيّة (بما فيها أن نكون واضحين بشأن ما هو معروف و ما ليس معروفا بعدُ و هكذا ، و تجنّب " المواقف " المفرطة لكونها عمليّا مجرّد فتات من " الإعتقاد " الذاتي) . لكن ضمن عمل معطى (و فى سيرورة العمل الفكري بصورة أعمّ) أعتقد أنّه من الممكن ، و حتّى غاية فى الأهمّية و الضرورة ، أن نفسح المجال لمزيد من النقاشات المفتوحة ، و حتّى إفتراضات صريحة . فالبعض منها قد " يستعاد " أو يتمّ إصلاحه أو تحويره فى إطار أعمال لاحقا لكن هذا جيّد أيضا . و أعتقد أنّ إدخال المزيد من " التأملات المفتوحة " جزء مطلق الأساسيّة من " الخميرة " الفكريّة الضروريّة لتطبيق الخطّ الجماهيري (فى صفوف حزب ثوري و خارجه) فى العمل الفكري .

و لا أؤمن بأنّ المثقّفون فحسب خارج حزب طليعي يجب أن يعملوا وفق هذه الطريقة (رغم أنّهم جميعا يقومون بذلك) . إنّ جوّا عاما يشجّع على إستكشاف و صراع واسعى النطاق فى مجموعة كبيرة و متنوّعة من المواضيع يجب أن يهيمنا معا فى كلّ من داخل مثل هذا الحزب وخارجه ، ومعا قبل إفتكاكالسلطة و بعده . و بينما أرى أنّ العمل المنجز والمنسوب لأشخاص (البحوث الممضاة مثلا) قد يسمح بالمزيد من المرونة فى هذا الصدد ، لست مستعدّة لقول إنّ هذا لا يجب أن ينطبق أيضا على الجهود الجماعيّة . ليس هذا دائما تناقض يسهل التعاطى معه على نحو جيّد لكنّه تناقض من الهام العمل على معالجته فى ما يتصل بالأعمال الخاصة و فى ما يتّصل بالمثقّفن القياديين و العمل الفكري بصفة أعمّ . وفى نهاية الأمر ، الجماعيّة (و ليس الأفراد و حسب) تحتاج **كذلك** لأن " تتنفّس " .

يبدو لى أنّ جانبا مهمّا جدّا آخر للسيرورة الفكريّة هو أحيانا الغربلة ضمن الدلو الكبير من الأفكار ، وهنا يأتى التحقيق المحبط بأنّه لا وجود لأنباء سارة مميّزة حقّا للحقيقة تبرز من الخليط فى ذلك الوقت بالذات. إمّا هي ليست موجودة تماما (بما يؤدّى بالمرء إلى " غربلة " أبعد أو هي موجودة لكنّها يُغطّيها الطين و بعدُ لا يمكن التعرّف عليها كما هي .

كلّ مفكّر حقيقي يحاول صراحة بلوغ الحقيقة يعلم أنّه ليست هناك طريقة أفضل لإظهار أنباء سارة من الحقيقة (أو حتى حقائق كبرى) إلى الضوء فى مثل هذه الأوضاع من هزّ الأشياء إلى أعلى و رجّها إلى أسفل ، إن أمكن القول ، ثمّ القيام بذلك تماما المرّة تلو المرّة : محاولة دفع هذه العناصر المختلفة ضد بعضها البعض،" رميها إلى أعلى ورؤية ما يلتصق"، و جعلها تصادم مع بعضها البعض و رؤية ما يفرزه ذلك . إرادة الوقوف عند الأكثر منطقيّة ، و مع ذلك إكتشاف ما يبدو أنّه بعيد الإحتمال و حتى أكثر شناعة مبدأ هام فى العمل الفكري .

أحيانا ما منشيء ينجم عن كلّ هذا الصدام و هذه المقارنة و القليل من الجديد يظلّ غير مكشوف . و أحيانا يثب الناس على ما يظهر أوّلا على أنّه لمعان معبّر من الحقيقة وهو بعد مزيد البحث ، يتبيّن أنّه كان لا أكثر من خيالات متداعية . لكنأحيانا ، فى حالات نادرة نسبيّا ، عبر ما يجب أن يكون مزيجا من المنهج الراسخ جيّدا و كذلك قدر ما من الحظّ و العمل الشاق و المثابرة و (خاصة) انفتاح الأذهان على غير المنتظر ، و غير المألوف لرؤية أشياء منزوايا نضرة متحرّرة من الأفكار المسبّقة أو المفاهيم المسبّقة لما يمكن أن نعثر عليه ، يحدث أن ذلك **فعلا** حقائقا جديدة : ما هي خيالات أوتشويهات الواقع وإنّما هي حقائق جديدة عمليّا ، لعلّها تظهر من الخيالات المجهولة أو المستخفت بها سابقا ، أو من الظواهر و الروابط غير المعترف بها سابقا .

هنا يكمن إبداع السيرورة الفكريّة . الجرأة و النضارة و الإنفتاح و تقديم الحياة لهذه السيرورة – البحث والخوض والصراع و نعم ، " اللعب " بالأفكار – هذا هو دم حياة المثقّفين الحقيقيين الذين ليس هدفهم مجرّد تعلّم ما هوبعدُ معروفا بل كشف النقاب عن حقائق مكتشفة حديثا وبالتالى المساهمة فى المخزون المعرفي الإنساني المراكم.

ينزع المثقّفون الماويّون إلى فهم أفضل من أغلبيّة المثقّفين بأنّه من الضروري أن نتفاعل بنشاط مع الواقع ونغيّره (بما فى ذلك عبر ضخّ الخطّ و المناهج الإيديولوجية الثوريّة فى الصراعات الفكريّة الكبرى ليومنا هذا) لمزيد كسب فهم حقيقي للواقع و بالقيام بذلك الحصول على قاعدة أفضل لتغيير الواقع . و يقرّ المثقّفون الثوريّون (أو على الأقلّ **ينبغى** أن يقرّوا ، رغم أنالتجربة التاريخيّة تبدو غير متكافئة فى هذا) بأنّ" الإشتغال على الأفكار " و سيرورة الصراع الفكري الواسع النطاق و إكتشاف الحقائق الجديدة ليس مجرّد نوع من المساعد المفيد للمسألة " الأساسيّة " للثورة : إنّه حيويّ وضروريّ و جزء لا يتجزّأ من السيرورة الثوريّة ذاتها .

لسوء الحظّ ، بينما يدّعى الكثير من الماركسيين – اللينينيين – الماويين أنّهم ينبذون البراغماتيّة السياسيّة والإيديولوجيّة ويعلون راية أنّه "لا حركة ثوريّة دون نظريّة ثوريّة "، يبدوأنّنزعة تاريخيّة متواصلة لرؤية ذلكرؤية ضيّقة صراحة – لعلّهم بالأساس " مقدرين " كيف أنّ التطوّرات فى النظريّة **السياسية** يمكن أنتؤدّى إلى تقدّم فى الخطّ السياسي والعسكري ، لكنّهم يخفقون فى أن يقدّروا أيضا أنّ نطاقا واسعا حقّا من العمل الفكري ، يقطع طريقه عبر عديد المجالات والمواد **المختلفة** و مؤدّيا إلى فهم جديد أو معمّق لل" حقائق " عبر كافة الطبيعة و المجتمع ، ستكون له أيضا إنعكاسات ذات دلالة على المسائل الجوهريّة للمجتمع (بما فى ذلك المساهمة فى أسس إشتداد صراع الخطّين **الإيديولوجي** حول العديد من المسائل المختلفة) و بالتالي من الحيويّ للثوريين أن يضطلعوا به ويشجّعوا عليه ويساندوه و**يقودونه** قيادة صحيحة ، فى آن معا داخل الحزب الثوري وخارجه .

==

3- رسالة من أرديا سكايبراك إلى ندوة ذكرى شولاميث فيرستون

" شجّعنى بصورة خاصة تقديركم لأهمّية النظريّة و تشديدكم على ذلك . وهذا أمر نادر جدّا فى عالم اليوم " .

جريدة " الثورة" ، 14 أكتوبر 2013 ،

Revcom.us

توطئة من الناشر :

فى 5 أكتوبر 2013 ، عقدت **ندوة ذكرى شولاميث فيرستون لتحرّر المرأة : ما العمل** ، و ذلك فى مدينة نيويورك . و قد نظّمها أعضاء راد ستوكنغس وهي مجموعة راديكاليّة لتحرير المرأة تأسّست فى 1969 . ومثلما شرح المنظّمون : " بحلول شهر أوت هذا ، تكون قد مرّت سنة على وفاة شولاميث فيرستون مؤسسة راد ستوكنغس العزيزة . و الغاية من إحياء رجّة فقدانها هي التذكير القويّ بكلّ ما قدّمته لنا و بعصر الحركة النسائيّة الثوريّة . كيف تحرّكت بسرعة إلى الأمام فى أواخر الستّينات ، و كيف نخسر نحن الآن بسرعة الأرضيّة هذه الأيّام فى العديد و العديد من المجالات الأساسيّة . لماذا ؟ أثناء إحياء ذكرى شولاميث فى سبتمبر الماضي ، قالت كايت ميلات إنّ الحركة قد فقدت عامودها الفقري . لكن كيف نسترجعه ؟ يبدو أنّ النظريّة الأعمق و الإستراتيجيا الأكثر إبداعا هي السبيل إلى التقدّم ؟

وُجّه إستدعاء إلى سكايبراك أرديا مؤلّفة كتاب " **علم التطوّر و أسطوريّة فكر الخلق : معرفة ما هو واقعي و لماذا يهمّنا** " و كتاب " **حول الخطوات الأولى و القفزات المستقبليّة : بحث فى ظهور الإنسان و مصدر إضطهاد النساء و طريق التحرّر** "(وهما متوفّران بمكتبات " الكتب الثورية "

Revolutionbooks. و

(Amazon.com

و أعمال هامة أخرى ، إلاّ أنّها إعتذرت عن حضور هذه الندوة و بإذن منها ننشر الرسالة التى بعثت بها إلى الندوة .

------------------------------------ ----

رسالة من أرديا سكايبراك إلى ندوة ذكرى شولاميث فيرستون

الصديقات العزيزات و الأصدقاء الأعزّاء ،

قبل كلّ شيء ، أودّ ببساطة أن أعبّر عن عميق شكرى لدعوتكم لى هذه السنة لحضور فعاليّات ندوة ذكرى شولاميث فيرشتون . و فى حين أنّى أعتذر للأسف عن الحضور جراء إلتزامات أخرى ، يشرّفنى نهائيّا أن يتمّ إستدعائي للمشاركة و أتطلّع كثيرا للسماع و القراءة عن طبيعة مدى ما أنا واثقة من أنّها ستكون نقاشات و توصيات غاية فى الأهمّية . شجّعنى بصورة خاصة تقديركم لأهمّية النظريّة و تشديدكم على ذلك . وهذا أمر نادر جدّا فى عالم اليوم . و لدي أمل كبير فى أنّ أعمال هذه الندوة ستساهم فى فتح آفاق أمام سُبل جديدة لإلتزامات مستقبليّة مثمرة أيضا تجاه بعضنا البعض و تجاه العالم !

و أستسمحكم أن أتقدّم بالنقاط التالية التى أشعر أنّها من الأهمّية بمكان إن كنّا نتطلّع حقّا إلى التقدّم بالنضال من أجل تحرير النساء (كافة النساء) كعنصر حيوي و حاسم فى النضال من أجل تحرير كافة الإنسانيّة عبر العالم .

1- اليوم على وجه الخصوص ،نحن فى حاجة إلى **العلم** – إلى مقاربة علميّة منهجّية و شاملة حقّا لتحليل كلّ من المشاكل و الحلول . التجربة الفرديّة لن تنفع . كإنسانة تدرّبت كمختصّة فى العلم ، فى العلوم الطبيعيّة ، قد أفزعنى على الدوام الجهل المستشري فى المجتمع بما يعنيه العلم عمليّا كمنهج و مقاربة و تردّد الكثيرين فى البحث بشكل منهجي عن تطبيق مناهج العلم على مشاكل المجتمع (بما فى ذلك إضطهاد النساء كنساء المؤسس تاؤريخيّا و المحافظ عليه منهجيّا ن فى الولايات المتحدة و عبر العالم قاطبة). نحتاج إلى التحاليل القائمة على الأدلّة بهدف تحديد أشمل و أصحّ لجذور إضطهاد النساء، و تطوّره التاريخي من خلال أشكال متنوّعة من التنظيم الإجتماعي ، و إستمراره و علاقه الوطيدة و العميقة بكيفيّة سير المجتمع إلى يومنا هذا ، و ما هي الأسس الماديّة الفعليّة التى يمكن أن تسمح لنا بالتخلّص من هذا مرّة و إلى الأبد و عبر العالم قاطبة . يدرك العلماء الجيّدون أنّ هناك واقع مادي (موجود عمليّا وهو فى حركة وتطوّر بإستقلاليّة عن ما يمكن أن يتصوّره بعض البشر فى إي ّ زمن معطى !) ، و من المممكن العمل للوصول إلى فهم أصحّ لهذا الواقع و لديناميكيّته ، بكلّ تناقضاته نو ذلك من خلال التطبيق المنهجي للطرق العلمية . و بالفعل يدرك العلماء الجيّدون أنّ الطابع المتناقض ذاته لأي شيء معطى فى الواقع المادي (" لاتكافئ داخلي " إنأمكن القول) يشير كذلك بالذات إلى أساس تغيير ذلك الواقع . و هذا بالتأكيد بديهي فى البحث الطبّي و كافة مجالات العلوم الطبيعيّة التى يبحث فيها الناس عن بلوغ ليس فقط تفسير العالم بل أيضا تغييره . وينسحب هذا الشيء نفسه على مشاكل المجتمع . لكنّنا سنخفق فى المسك بكلّ هذا إن إنطلقنا من تركيز ما نفهمه و ما نقوم به على وصف جزئي و غير منهجي لنواحي من الواقع ، أو على ما يمكن لأشخاص أ أو حتّى مجموعات كبيرة من الناس أن يعتقدوا أو يفضّلوا فى زمن معيّن . نحن فى حاجة إلى التعمّق فى النماذج الكبرى ، الطرق التى طوّرت تاريخيّا الظواهر السياسيّة / الإقتصادية و الثقافيّة لإضطهاد المساء و تواصل تشابكها العميق مع (و بالضرورة كجزء لا يتجزّأ من) سير الأنظمة الإجتماعيّة اليوم ، بما فيها النظام الرأسمالي – الإمبريالي المهيمن عالميّا . لكنّنا نحتاج إلى لا أقلّ من الماديّة العلمية الحقيقيّة لتفسير و تحليل كلّ هذا و إيجاد طرق الإجتثاث الحقيقي لإضطهاد النساء ليس فقط سطحيّا بل من الجذور ذاتها!

بفضل بوب أفاكيان و العمل الذى أنجزه طوال عقود عديدة من تلخيص التجربة الإيجابيّة منها و السلبيّة للثورة الشيوعيّة و الإستفادة من نطاق واسع من التجربة الإنسانيّة ، هناك خلاصة جديدة للشيوعية تقدّم بها – هناك حقّا نظرة و إستراتيجيا قابلين للتطبيق من أجل مجتمع و عالم جديدين و أفضل بكثير ، و هناك القيادة الحيويّة التى نحتاج للتقدّم بالنضال صوب ذلك الهدف .

2- و أن يتمّ قبل كلّ شيء إنكار (كما يحاجج عادة اليوم) وجود حتى شيء مثل الواقع الموضوعي (الذى يوجد بإستقلاليّة عن ما يمكن أن يفكّر فيه شخص فى أيّ زمن معطى) و أنّ هذا الواقع الموضوعي يمكن أن يُدرس و يدرك بعمق ، و ثمّ إدّعاء أنّه نوعا ما من الخطئ أن نتجرّأ حتى على السعي إلى **تغيير** كيفيّة تفكير الناس حاليّا و نشاطهم (أو إخفاقهم فى النشاط !) على أساس ما إستطاعالمرء أن يتعلّمه و يدركه بصدد النماذج الأوسع للواقع الإجتماعي ، و للمحاججة عوض ذلك بأنّه ليست هناك حقيقة أكبر أو أصلح من تلك التى تتأتّى من التجربة الشخصيّة الفرديّة أو الرواية الشخصيّة (التى يفترض أن لا يسمح لنا حتّى بالحكم عليها أو نقدها أبدأ) ليس أمرا عبثيّا و حسب – بل هو عبثيّة مسمومة .

أشعر بقوّة كبيرة بأنّه علينا أن لا نكون قط متردّدين فى المحاججة مع بعضنا البعض و مع الآخرين عبر المجتمع حول مواضيع حيويّة فلسفيّة و أبستيمولوجيّة من هذا القبيل لأنّه منالمهمّ حقّا إن كنّا سنستطيع أن نمضي قدما فى الصراع من أجل التحرير التام للنساء و الإنسانيّة جمعاء – أو لا . لقد أرهقتنى حدّ الموت الضوابط النسبيّة و الفرديّة المغالى فيها و التى تهمين فى الأكاديميّات و غيرها من الأماكن هذه الأيّام – إنّها ضوابط و لعلّ ذلك من سخرية الأقدار ،عادة ما يتمّ التشديد عليها بطغيان فى مساعى متكرّرة جدّا للقمع التام لأيّ إحتجاج فكري أصيل بشأن مشاكل المجتمع على المستوى الإجتماعي ، بما فيها المتّصلة بإضطهاد النساء كنساء هنا و عبر العالم والآراء " الإضطهادية " أي تحدّى صحّي و فرز للإختلافات حول كيف أنّ الناس يجب أو لا يجب أن يفكّروا و كذلك أن يعملوا فى علاقة بكلّ هذا .

و بينما يمكن للتجربة الفرديّة أن تكون مهمّة و يمكن كذلك أن تسلّط الضوء على الظواهر الإجتماعيّة الأوسع ، فإنّ مقاربتنا ينبغى ألاّ تنطلق أوّليّا من " الروايات الفرديّة " و مثل هذه التجارب الفرديّة الجزئيّة و إنّما أن نبحث عن و أن ننطلق من النماذج الأوسع و الأعمق و كذلك من التجربة المشتركة العامة للملايين و عمليّا لمليارات النساء . هدفنا لا يجب أن يُقلّص إلى" تعزيز القوّة الذاتيّة " للفرد بل يجب أ يكون البحث عن أن يشمل تحرير **كلّ** النساء فى كلّ الأماكن . و كجزء ضروري و مفتاح و حيوي لتحرّر الإنسانيّة ككلّ . إن لم يكن هذا هو ما مهدف إليه ، فإنّ الأمر لا يهمّنى شخصيّا .

3- ختاما ، أعتقد أنّه على كلّ إمرء أن يتعمّق فى ما أعتبره النظريّة الإجتماعيّة الشاملة الأكثر تقدّما و راديكاليّة فى زمننا – **الخلاصة الجديدة للشيوعية** التى طوّرها بوب أفاكيان و التى تطوّرت خلال أكثر من 40 سنة من الجهد الشاق . و هذه الخلاصة الجديدة التى تطوّرت و نمت خلال مثل هذه الفترة الزمنيّة الهامّة ، تعمّقت فى دروس ستينات القرن العشرين وسبعيناته ، و فى الموجة الأولى من الثورات الإشتراكيّة فى الإتحاد السوفياتي و الصين ، و إستخلص الأفضل من هذه الدروس ، ثمّ مضى بها كذلك إلى ما هو أبعد بكثير – فى كلّ مسألة إجتماعيّة مهمّة جدّا ، بما فى ذلك مسألة إضطهاد النساء و أفضل السبل للتحرير الفعلي لا تكون لا عملا رمزيّا و لا يسهل الإنقلاب عليها .

برأيى ، لا يمكن أن نكون جادين بشأن التغيّر الإجتماعي ، فى أي مجال ، عند هذه النقط من تاريخ الإنسانيّة و مع ذلك لا نتفاعل مع هذه المجموعة الملموسة من الأعمال و الفهم النظري الغنيّ التطوّر للتحرّر . تفاعلوا مع ذلك بروح نقديّة و بذهن مفتوح ، بالعلم و بالقلب. و يمكن البداية بالتعمّق فى أعمال بوبأفاكيان بشريط خطاب مطوّل ألقاه فى المدّة الأخيرة (" **بوب أفاكيان يتحدّث : الثورة – لا شيء أقلّ من ذلك !** بوب أفاكيان مباشرة) و " **الأساسي من خطابات بوب أفاكيان و كتاباته** " وهو كتاب يتضمّن مقتطفات و بحوثقصيرة مقتبسة من عديد الأعمال العديدة الأطول . و تأكّدوا من الإطلاع أيضا على " **دستور الجمهوريّة الإشتراكيّة الجديدة فى شمال أمريكا (مشروع مسودّة)** " ، وهو فى آن معا رؤية شاملة و ملموسة لما يمكن أن يكون تعبيرا عمليّا عن مجتمع جديد قائم على هذه الخلاصة الجديدة . توجّهوا إلى موقع الأنترنت

Revcom.us

من أجل المزيد من المعلومات عن هذه الخلاصة و غيرها كثير من أعمال بوب أفاكيان . أشعر أنّ هذا العمل يحتاج إلى أن يكون جزءا هاما جدّا من الخطاب الإجتماعي الأوسع عن التغيير و التحرير و أنّ التفاعل معه سيساعد على ترسيخ العديد من المسائل الأخرى الخاصّة بكيفيّة التقدّم اليوم .

و فى الأخير ، دعونى أشكركم مجدّدا على توجيه الدعوة لى للمشاركة فى ندوتكم . و آمل أن تكون بعض التعاليق أعلاه مفيدة لكم فى نواحى ما . و أتمنّى لكم فعلا الأفضل فى الندوة القادمة إحياء لذكرى شولاميث فيرستون و أتحرّق شوقا لسماع أخبارها !

هناك قدركبير من الصراع الجيّد جدّا و المبدئي و المثمر حول مسائل فى منتهى الأهمّية فى زمننا هذا و حول كيفيّة التقدّم بتحرير كلّ النساء ن فى كلّ الأماكن ! إنّه لأمر مهمّ .

مع تحيّاتي الحارّة إلى جميع المشاركين و المشاركات .

أرديا سكابراك

الباب الثالث :

عن الخطوات البدائية و القفزات المستقبلية

بحث فى ظهور الإنسان و منبع إضطهاد النساء و طريق التحرّر

(أرديا كسايبراك ، بانر براس ، شيكاغو 1984)

مقدّمة المترجم :

يكتسى هذا الكتاب أهمّية كبرى بإعتباره أوّلا بحثا علميّا قائما على المادية الجدلية و التاريخية أنجزته باحثة شيوعية ماوية منتمية إلى الحزب الشيوعي الثوري ،الولايات المتحدة الأمريكية ، و بإعتباره ثانيا يبنى على ما أسّسه إنجلز فى " **أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة** " و ينقد جوانبا تبيّن علميّا خطؤها ، وبإعتباره ثالثا سلاحا من الممكن أن يكون فعّالا إذا أحسنّا إستخدامه فى محاربة الأساطير و الأفكار الظلامية المعادية للعلم بشأن تاريخ الإنسان و إضطهاد النساء .

لذلك عندما إقتُرح علينا تعريبه ، رحّبنا بالمقترح مع إعرابنا عن عدم إلتزامنا بموعد محدّد أو بتعريب الكتاب برمّته. و لمّا توفّر لنا حيّز من الزمن ، قرأنا البحث بتمعّن . و نظرا لأنّه ليس لدينا متسع كافي من الوقت لترجمته برمّته ، و نظرا لأنّ الفصلين الأوّل و الثاني المخصّصين لنقد أطروحات كتابين معيّنين قد لا يعنيان بصفة خاصة سوى أهل الإختصاص العلمي و قد لا يشدّان إهتمام القرّاء باللغة العربية ، لم نشتغل إلاّ على المقدّمة و الفصلين الثالث و الرابع . و مع ذلك نعتذر سلفا لبعض الذين يتوقون إلى دراسة الفصلين الأوّل و الثاني و لا يتقنون اللغة الأنجليزية .

و عملنا هذا يندرج فى إطار نشر علم الثورة البروليتارية العالمية عامة و الثقافة العلمية خاصة ، هذه الثقافة التى يستهين بها الكثيرون فى حين أنّها ركيزة من ركائز النضال البروليتاري الثوري فى سبيل تفسير العالم تفسيرا صحيحا ، علميّا قصد تغييره ثوريّا و تحرير ليس فقط البروليتاريا و الطبقات الكادحة بل الإنسانية جمعاء . و لن نمضي إلى الأمام بخطوات راسخة إذا لم يستوعب الرفاق و الرفيقات الموقف الطبقي البروليتاري و المنهج العلمي المادي الجدلي ، أي علم الشيوعية ، ولم نخلق إنسانا جديدا يغيّر الواقع و يغيّر نفسه بإستمرار و يقود الجماهير الشعبية فى تغيير الواقع و تغيير فكرها و نفسها من أجل الثورة .

و قد يعترف حتى الرفيقات و الرفاق بمقولة لينين " **لا حركة ثورية دون نظرية ثورية** " و بمقولة ماو تسى تونغ بأن " **صحّة أو عدم صحّة الخطّ الإيديولوجي و السياسي هي المحدّدة فى كلّ شيء** " قولا و فى الواقع مع ذلك يلهثون وراء " **الحركة كلّ شيء و الهدف لا شيء** " ولا يولون التثقيف المنهجي بلا هوادة و نشر الثقافة العلمية العناية التى يستحقانها. إن كنّا نرغب حقّا فى أن نكون ثوريين و أن نوجد حركة ثورية ، يترتّب علينا أن نعطي النظرية الثورية و الثقافة العلمية حقّ قدرها ، بطبيعة الحال حسب الطاقات المتوفّرة والوضع الموضوعي و الذاتي و بالتأكيد مع عدم تجاهل العراقيل المادية و صعوبة مواجهة الفكر الخرافي . و أي تغييب لهذه الجبهة من النضال البروليتاري الشامل من أجل عالم شيوعي كهدف أسمى ، يعنى القبول بسيادة الإيديولوجيا و الثقافة الرجعيين حتى فى صفوف المناضلين و المناضلات كما يعنى القبول فى النهاية بالتذيّل للبرجوازية أو القوى الرجعية بشكل عام و الإنحراف عن النضال الشيوعي الثوري و تأجيل الثورة البروليتارية العالمية بتيّاريها إلى يوم غير معلوم.

Of Primeval Steps and Future Leaps

"An excellent critique of the aquatic theory of human evolution, and an equally cogent demolition of sociobiological views. An extra bonus is the long overdue acknowledgement of Frederick Engels's prescient views on the evolution of humanity."

Ashley Montagu

"Very important is the emphasis on the interaction of human culture and biology. Skybreak takes on the simplistic models of the sociobiologists and genetic determinationists and shows how human evolution and behavior are much more complicated and interesting. . . . She has optimistic observations on the future."

Dr. Marian Lowe
Boston University
Co-editor of Woman's Nature

"She makes an excellent exposition of the view that sexual differentiation of status, role, and power are built on small asymmetries in biology as, for example, the division of reproductive labor, in societies where the development of a surplus gives rise to a general class structure. No better theory has yet been advanced than this general view that we owe originally to Engels, and I found Ardea Skybreak's book a very thoughtful and persuasive exposition of that view."

R. C. Lewontin
Harvard University
Co-author of Not in Our Genes

ARDEA SKYBREAK, an award-winning student educated in a wide range of fields, obtained a master's degree in ecology and evolutionary biology in the early 1970s. She considers the struggle against the subjugation of women to be a crucial component of a broader revolutionary perspective. As Skybreak herself notes, at a time when we are literally having to confront the possibility of our own self-imposed annihilation, the debates currently raging over the *origin* of humanity are matters of vital importance, very much bound up with the struggle over the nature and direction of our future—and over whether this species is to have a future at all! Her contribution to this debate is marked by sweep and profundity and is sure to provoke discussion, controversy and rethinking.

ISBN 0-916650-19-7
Banner Press
Box 6469, Chicago IL 60680
$8.95

مقدّمة كتاب " الخطوات البدائية و القفزات المستقبلية ..."

نطلق على أنفسنا إسم البشر ، هوموسابيانس ، و نقطن كوكب الأرض . لكن من أين أتينا ؟ كيف كنّا فى بداية نشأة جنسنا البشري ؟ هل كنّا وحوشا تمتصّ الدماء ؟ هل كانت إناث جنسنا مخلوقات لا حول لها و لا قوّة مرتبطة بالذكور الجبّارين للبقاء قيد الحياة ؟ كيف عشنا ؟

إنّنا كبشر متميّزون جدّا بأنّنا أثرنا على الدوام مثل هذه الأسئلة و سعينا لمعرفة كلّ ما يمكن معرفته عن العالم و عن أنفسنا فيه ، منذ جذورنا الأولى إلى المستقبل الذى ينتظرنا . و قد كانت الأوقات التى توسم بإحتداد التناقضات الإجتماعية تنزع دائما إلى الدفع نحو نقاشات محتدمة حول جملة واسعة من المسائل الجوهرية ، فى جزء منها لأنّ وزر المصنع الإجتماعي يضع موضع السؤال صلوحية كافة الفكر و المؤسسات المركّزة سابقا ، و فى جزء آخر لأنّ الإجابة على هذه الأسئلة تبدو مهمّة أكثر بكثير من ذى قبل .

و اليوم ، بما أنّه علينا أن نواجه تماما إمكانية سحق أنفسنا بأنفسنا ، هناك من يديرون ظهرهم للمسائل العامة مهما كان صنفها و عمدا يضيقون من بعد مدى رؤيتهم مدافعين عن أنّهم لا يستطيعون التعاطي إلاّ مع جزيئات من الحركة فى وقت واحد و يتراجعون إلى ألوان متنوّعة من اللاأدرية و عموما عدم معرفة أي شيء . و رغم ذلك ، يزداد سؤال آخرين عن الأشياء أكثر من أي زمن مضى و ينغمسون فى شجار مع إستبعاد عدد من المفاهيم العلمية و الفلسفية التى سادت لزمن طويل و تفجّر إلى شظايا : كيف تتحرّك المادة فعلا ؟ هل أنّ العالم المعروف سيتمدّد بإستمرار ؟ هل سيتقلّص أم هل أنّه يراوح بين الإثنين ؟ هل هو إنفجار كبير واحد أم هي عدّة إنفجارات تفصل بينها فترات من " الإستقرار " النسبي؟ هل أنّ هذا جزء فعلا من سيرورة أوسع حتى ؟ هل أنّ الأشياء الجديدة تنبع فقط من المراكمة التدريجية للتغيّر أم هل أنّ هناك قطيعة و قفزات فجئية فى السيرورات المادية ؟ هل أنّ التغيير يتصاعد نحو مزيد التعقّد ، نحو نوع أرقى من الكمال أم هل ان هناك منعرجات و إلتواءات و عدد لا يحصى من المسالك الممكنة فى السيرورات المادية ، بعضها يقود إلى نهايات مسدودة بينما البعض الآخر ينشأ الجديد ؟

لا تمثّل النقاشات المحتدمة راهنا حول مثل هذه المسائل مجرّد عبث فكري بل هي مسائل أهمّيتها حيوية و حيث يظهر فهم جديد يتحدّى القديم ، يرفض الفكر التقليدي عادة أن يتنازل للمرحلة . و هذا لا يعبّر ببساطة عن الجهل المتحجّر أو الفهم المحدود و إنّما يعكس علاقات طبقية معيّنة تدعم هذه النظريات و بعض المصالح الطبقية التى تمليها رغم الغلط البديهي ، فالقديم يُحافظ عليه و يقنّن طالما أنّه ينهض بدور إيديولوجي و سياسي مفيد فى النظام الإجتماعي القائم .

لا يوجد مجال تتجلّى فيه أكثر صحّة من مجال نقاش جذور البشر والتطوّر البدائي والسلوك الإجتماعي للإنسان . و البحث التالي كان هدفه فى الأصل أن يعالج و يقيم نقديّا بعض " النماذج الجديدة " المتصلة بجذور جنسنا البشري ، التى نشرت فى السنوات الأخيرة . و على وجه الخصوص ، يبدو أنّه طالما أنّ هذه المحاولات الأخيرة كانت تنجز لتتحدى عددا من أساطير الجذور غير القائمة على أساس علمي و تدحضها و التى صارت متخندقة جيدا فى الوعي الشعبي و تدافع عن نظريّات الحتمية البيولوجية لما يسمّى الطبيعة الإنسانية . و ليس صدفة أنّ الغليان الإجتماعي و التمرّدات التى مثّلت تحديات جدّية للنظام القائم للأشياء فى عديد المجالات من العلاقات الإجتماعية وفى عديد أنحاء العالم خلال أواخر ستينات و سبعينات القرن العشرين قد كانت بمثابة حافز على وضع مثل هذه الفرضيات موضع السؤال .

و لأنّ أساطير التقليدية الواسعة الإنتشار عن جذورنا تبدو جميعها متميّزة بدرجة عالية من الشوفينية الذكورية و مركزية الرجل ، فإنّ مهمّة إعادة النظر فى جذورنا بالنسبة للناشطات فى الحركة النسوية و غيرهم من المعنيين بمكافحة إضطهاد النساء فى المجتمع المعاصر .

و جزء هام من هذا العمل سيكرّس بالتالي إلى معالجة و مقاربة نقدية لمحاولتين لدحض أسطورة -الجذور ، وهما " إنحدار المرأة " لآلان مورغان و " عن التحوّل إلى بشر " لنانسي مايكبيس تانر . كلا الكتابان وجدا جمهورا واسعا و حتى بارزا نوعا ما . و لئن كان كتاب مورغان قد كسب بعض الإحترام فى الأوساط العلمية ، فإنّه مع ذلك منتشر للغاية – و قلّة " إحترامه " علميّا بالكاد تعنى انّه لا يمكن أن يستخدم لتعرية الحقيقة ، ولا حتى أقلّ أنّه لا يجب أخذه مأخذ الجدّ . بمعنى معيّن ، تانر و مورغان يركّزان منهجين مختلفين و تقريبا متعارضين لدحض الأساطير والتشويهات المتنوّعة التى تسرّبت إلى إعادة بناء جذورنا لعقود . يبحث أحدهما عن دحض الأساطير عبر رفع راية المادية العلمية ويجيب الآخر بما هو جوهريّا أسطورة مضادة .

و نقاش إحدى المحاولتين ستبيّن أنّها تعلمنا كمثال سيء و تقدّم بعض الرؤية الثاقبة فى الفخاخ الممكنة التى تظهر عند محاولة دحض الفرضيّات و النظريات الخاطئة بمنهج خاطئ .

فى هذه الحال الأخطاء المنهجية الخاصة ، إرتقت إلى مستوى الكاريكاتور ، لكنها مع ذلك شائعة تماما بنوع من الشكل الأكثر غموضا فى غالبية الأدب العلمي الجاد فى البيولوجيا التطوّرية حيث أنّها لا تستعمل للدعاية " للعلم السيء " فحسب بل كذلك ، أحيانا ، لدعم نظرات إيديولوجية و سياسية رجعية . يأمّل أنّ يساهم هذا البحث فى الجدال الجاري حول بعض هذه المسائل .

و معالجة نقدية للمحاولة الثانية لدحض أسطورة – الجذور تكشف أنّها أفضل الأمثلة إلى يومنا هذا عن إعادة التفحّص الجدّي لجذور جنسنا البشري . إنّها نضرة ، متحدّية و مساهمة هامة لفهم سيرورة ظهورنا بحدّ ذاتها . و علاوة على ذلك

، توفّر الكثير من الغذاء لإعمال الفكر لأي باحث عن تحديد ما هي (إن كانت هناك) العلاقات الموجودة بين جذورنا كنوع و عدد من المشاكل المتنوّعة من العلاقات الإجتماعية و التنظيم المعاصرين . و بصورة خاصة ، بينما مداه محدود فى إعادة بناء فترة إنفصالنا الأولى عن القردة ، فإنّ تحاليله و إستنتاجاته رافعة قفز قيّمة لإكتشاف الجذور و الأسس الحالية لإخضاع الإناث و الهيمنة عليهين من قبل الذكور فى أغلب أصناف المجتمعات الإنسانية المعاصرة .

هذا البحث مثال ينطبق عليه ذلك . فى سياق تقييم المعطيات و التحاليل التى تأسس عليها نموذج تانر ، يبرز أن بوسع المرء المضي قدما و الشروع فى ملئ بعض الفراغات فى فهمنا لما مثّل الأسس الأولية للامساواة الإجتماعية بين الرجال و النساء . و الجزء الموالي من هذا العمل سيبحث فى إكتشاف هذا المجال منطلقا من كميّة كبيرة و واسعة النطاق من المعلومات الأنتروبولوجية المعاصرة حول مجتمعات الصيد و كذلك من محاولات إعادة بناء جذورنا الأولية . و كجزء من هذا سنشرع فى إعادة تأكيد المساهمة الشاملة المبادرة و الرؤية الثاقبة إلى أقصى حدّ لفهم أسباب إخضاع النساء التى يمكن أن نعثر عليها فى كتاب إنجلز " أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة ".

لقد حقّق علم الإجتماع قفزة تاريخية عملاقة فى أواسط إلى أواخر القرن التاسع عشر ، مع إدخال المنهج الماركسي المادي الجدلي و التاريخي الذى خدم ليس فقط التدليل على البناء التحتي المادي لأنظمة إجتماعية مختلفة عند نقاط مختلفة من التاريخ (فى تعارض مع تأويلات جدّ كثيرة دينية و مثلية) لكنّه أيضا و لأوّل مرّة وفّر إطارا نظريّا من خلاله صارت ممكنة معالجة الهياكل الإجتماعية فى حركتها و تطوّرها ، عوض إعتبارها شرائح متجمّدة زمنيّا . على عكس النظريات السابقة ، بات الآن من الممكن تشريح و تحليل العوامل التى تتوسّط الإنقطاعات و القفزات فى العلاقات و التنظيم الإجتماعيين الإنسانيين . و ساهم هذا العلم المستمر التطوّر منذ زمن ماركس ، مساهمة كبيرة فى فهمنا لمروحة عريضة من الأنظمة الإجتماعية المتنوّعة المتميّزة بالهياكل الطبقية (بما فى ذلك أساسا أنظمة عبودية و إقطاعية و رأسمالية و إشتراكية) و يستمرّ فى توفير رؤى متحدّية للمستقبل لوسائل التنظيم الإجتماعي ، بما فى ذلك أفق الإلغاء التام للإنقسامات الطبقية على نطاق الكوكب .

إنّ الفترة التى تسبق تاريخ ظهور الطبقات قد ظلّت أعسر على الإدراك . و مع ذلك ، مثلما كان ماركس سريعا فى الإشارة إلى ذلك ، الطبقات ظاهرة حديثة نسبيّا . لقد ولدت عند نقاط معيّنة من التاريخ فى علاقة بالتطوّرات المادية الممكن فهمها . و بينما إستمرّت الأنظمة الإجتماعية للبشر الخالية من الطبقات إلى هذا القرن ، فإنّها لمدّة طويلة كانت إستثناء نادرا أكثر منه القاعدة بحيث أنّه عادة من الصعب بالنسبة إلينا أن نرى الزمن الذى كان فيه العكس صحيحا . و مع ذلك ، نعلم أنّ ملايين السنوات مضت منذ أن إنفصل أجدادنا الأوّلون عن القردة ، و أنّ جنسنا فى حدّ ذاته يعود على الأقلّ إلى 100 ألف سنة و خلال هذا الزمن إنتشر عبر الكوكب منتجا وسائل متنوّعة من البقاء على قيد الحياة و التعبير الثقافي – رغم أنّ الطبقات لم توجد إلاّ بعد بضعة آلاف السنين من تلك السنوات .

بالتعاون الوثيق مع ماركس ، شرع إنجلز فى إكتشاف العوامل المادية التى تتوسّط الإنتقال من المجتمعات ما قبل الطبقي إلى الأنظمة المعتمدة على الطبقات ، منطلقا من أكبر قدر ممكن من المعطيات الأنتروبولوجية الأولية ، بما فى ذلك تلك التى تعارضت مع الرؤى الأرتودكسية ليومذاك. و بالقيام بذلك إستطاع إنجلز [كما سنرى] أن يبلغ رؤى ثاقبة قيّمة فى عدد من مظاهر التنظيم الإجتماعي البشري عبر التاريخ و من ذلك مسألة القاعدة المادية لإخضاع النساء تاريخيّا . و لا يزال هناك الكثير لتعلّمه من هذه الرؤى الثاقبة . هذا من جهة و من جهة أخرى ، كانت علوم الأنتروبولوجيا و الباليو أنتروبولوجيا و البيولوجيا التطوّرية فى طفولتها أيام إنجلز و تراكم كمّ كبير من المادة الأولى مذّاك يجب دراسته و تحليله من جديد . و فوق ذلك ، قوام المنهج العلمي الذى قدّمه لنا ماركس و إنجلز قد شهد هو نفسه تطوّرا له دلالته منذ زمنهما و وقع بإستمرار تطويره . و الذين سيستبعدون المساهمات الأولية بجرّة قلم هم علماء مساكين يسجنون أنفسهم بعيدا عن ثراء الرؤى الثاقبة التاريخية و المنهجية . بيد أنّ الذين يريدون البقاء ضمن الفهم الماضي و الذين لا يبحثون أبدا عن مزيد دفعه متحجرون فى تفكيرهم لا يدركون جيدا المنهج الماركسي .

ما هي العوامل التى كانت مسؤولية فى الأصل عن الأشكال الأولية للامساواة الإجتماعية بين الجنسين ؟ فى أية نقطة ظهرت ؟ هل هي سابقة للطبقات أم هل أنّ المجتمع ما قبل الطبقي متميّز بتناغم مثالي بين الجنسين ؟ و ما هي (إن وجدت) الأجوبة على هذه الأسئلة ، التى تخبرنا عن عوامل وجود القمع و الإخضاع للنساء فى العالم المعاصر ؟ إذا كان ما يتمّ إكتشافه و المحاججة من أجله فى هذا البحث يخدم توسيع النقاش و البحث بشأن هذه المسائل الحيوية ضمن أناس متنوّعين ، رجالا و نساء ، ذوى أفاق متنوّعة ، أعتبر أنّي نجحت .

الفصل الثالث

يجدر التذكير بأنّ الجذور المادية للمكانة الإجتماعية التبعية لنصف الجنس البشري عبر التاريخ المسجّل لم تُطرح كمسألة و كذلك بالتأكيد لم تحظى بالبحث الجدّي الذى تستحقّ إلى اواسط القرن التاسع عشر . فقد إخترق كارل ماركس و فريديريك إنجلز الأفكار الإجتماعية المسبّقة فى زمنهم ليشدّدوا على أنّ الوضع التبعي للنساء لا علاقة له لا بالنواقص الفطرية للطبيعة الأنثوية و لا بأية أوامر إلاهية (أو " مظاهر طبيعية ") مقدّسة لنظام الأشياء هذا. لقد دافعا عوض ذلك ، على أنّ إضطهاد النساء كان نتيجة و إفرازا للتنظيم الإجتماعي للبشر ، محدّدا بالأساس فى كلّ مجتمع معطى بالمستوى المعيّن من تطوّر قوى الإنتاج و مجموعة علاقات الإنتاج المتناسبة معه . و بطبيعة الحال قد أثار ربط المكانة الإجتماعية للنساء بتقسيم العمل و علاقات الملكية و توزيعها السائدة فى أي زمن أو مجتمع معطى بعض الأسئلة حول بالضبط مدى إمكانية إستمرار هذا الوضع . و من الأكيد أنّ هذه لم تكن الأفكار السائدة فى تلك الفترة .

لقد أشار إنجلز مثلا إلى أنّه قبل ستينات القرن التاسع عشر لم توجد أية مساعي لدراسة تاريخ العائلة إذ إعتُبر مسلّما به أنّ الشكل الأبوي للعائلة قد وجد على الدوام و بالفعل وُجد فى شكل العائلة البرجوازية الأوروبية المعاصرة – " و عليه لم يطرأ حقّا و فعلا ، حسب زعمهم ، أي تطور تاريخي على العائلة " (1884 ، ص 75). و كانت هناك نزعة لإستبعاد الأجزاء المتناثرة من المعلومات حول وجود تعدّد أزواج المرأة الواحدة فى الثقافات غير الأوروبية على أنّها غرائب شاذة مقارنة بما يفترض أنّه شكل أكثر طبيعية أي الزواج الإحادي . كتب إنجلز " إنّ علم التاريخ فى هذا الميدان كان لا يزال بعد بكليته خاضعا لتأثير أسفار موسى الخمسة (التوراة)." (1884، ص 74-75 بالأنجليزية ؛ صفحة 7 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو) . والمفهوم ذاته عن كونه فى الأزمان البدائية كانت العلاقات بين الجنسين أقلّ عرضة للضغوط و أنّ (كفر ، آه كفر) المرأة كان يمكن أن تدخل بشكل روتيني فى علاقات جنسية مع عدد من الرجال ، كان يحسب على أنّه فظيع للغاية إلى درجة أنّه وجدت محاولات متكرّرة لإبراز أن الزواج الإحادي هو النظام الطبيعي للأشياء و ليس فقط لدي الجنس البشري بل أيضا ضمن الفقريّات بصورة أعمّ . و على سبيل المثال ، حدثت جلبة كبيرة بشأن أنّ عديد أنواع العصافير تظهر تزاوجا بزوجة واحدة لمدّة طويلة . و كلّ هذا دفع إلى هذا الردّ الساخر من لدن إنجلز : " إن أمثلة على متانة إحادية الزواج عند الطيور لا تثبت شيئا فيما يتعلّق بالناس لأنّ الناس لا يتحدرون من الطيور. و إذا كانت إحادية الزواج الصرف ذروة كلّ فضيلة ، فإنّ قصب السبق فى هذا المجال يعود عن حقّ و إستحقاق إلى الدودة الشريطية التى يوجد فى كلّ من عقدها أو مفاصلها ال 50 إلى ال200 ، جهاز تناسلي كامل للذكر و الأنثى ، و التى تقضى حياتها كلّها فى مضاجعة نفسها بنفسها فى كلّ من عقدها هذه " (1884، ص 98 بالأنجليزية ؛ صفحة 38 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو).

بينما لم تكن تقريبا متوفّرة أية معلومات حول جذور تطوّر الأجناس البشرية أو حول أشكالها الأوّلية للتنظيم الإجتماعي ، أيام إنجلز ، فإنّه أقرّ بأنّ لا مؤسسات إجتماعية تنشأ فى فراغ ، لا تغضع للتفاعل مع السوابق التاريخية . و كان هكذا سريعا فى الإقرار بأهمّية عمل مجهول بصفة واسعة نشره فى 1861 جامعي ألماني باهوفن ، عنوانه " حقّ الأم ". بالتنقيب فى أدب الحضارتين الرومانية واليونانية (مثل أورسيتا آشيلوس) ، أخذ باهوفن يوثّق تغيّرا جذريّا فى التنظيم الإجتماعي لتلك المجتمعات . كان يبدو أنّها فى البداية نظّمت نفسها على أساس " حق الأم " أي أنّ الأشخاص يسجّلون نسبهم من خلال أمهاتهم أكثر من آبائهم و يرثون من هذا الجانب أيضا . و إستنتج باهوفن أنّ نساء تلك الفترة كنّ مأثّرات جدّا و بالفعل كنّ يحكمن المجتمعات. و فى نقطة معينة ، متناسبة مع قدوم العصر البطولة الكلاسيكي ، و قعت على ما يبدو الإطاحة بحق الأم و عُوّض بنظام فيه يرسم النسب من خلال الأب ، و المكانة الإجتماعية تورّث من خلال الذكور إلخ . و كان هذا التغيير يبدو منسجما مع الإدخال الظاهري للزواج الإحادي المفروض لمراقبة نشاط التوالد لدي النساء و إستبعاد الشكوك فى ما يتصل بأبوّة أي طفل معيّن.

وقد كان هذا إكتشافا غاية فى الأهمّية بيد أنّ باهوفن لم يتمكّن من تحديد أسباب مثل هذا التحوّل الجذري. فقد لاحظ أنّ هذه التغيرات تزامنت مع تغيرات هامة فى المعتقدات الدينية وقتذاك [بما أنّ الأدب سجّل أنّه وقعت " الإطاحة " ببعض الآلهة من قبل آلهة أخرى وقتذاك] و إعتقد أنّه فى ذلك يكمن سبب الإنقلاب الإجتماعي .

و فهم إنجلز من جهته أنّ هذه التغيرات فى الحقل الديني لم تكن إلاّ إنعكاسا لتغيرات فى الظروف المادية للحياة فى هذه المجتمعات و أنّ هذه هي الزاوية حيث يجب النظر لإكتشاف أسباب الإطاحة الظاهرة بحق الأم .

ثمّ فى 1871 ، راكم لويس هنرى مورغان وهو أنتروبولوجي إشتغل فى صفوف قبائل الهنود الحمر شمال أمريكا ، كمّية متنوّعة من المعلومات الميدانية عن نشاطات و أشكال التنيظم الإجتماعي لمختلف هؤلاء الناس . و ما طفح من هذه المعلومات هو إقتراح أنّ فى المجتمعات ذات وسائل الإنتاج القليلة نوعا ما ، الشكل الأساسي للتنظيم الإجتماعي هو ما أطلق عليه مورغان إسم العشيرة وهي مجموعة صغيرة نسبيّا من أناس يربط بينهم الإنحدار من الأمّ . و نموذجيّا ينطوى الإنتماء إلى عشيرة على إلتزامات بالتعاون و الدعم المتبادل مع الأعضاء الآخرين . و غالبا كانت النساء تبدو المأثّرة فى إتخاذ القرار و كان النسب يمثّل العماد الأكبر للتنظيم الإجتماعي . و كان الزواج غالبا يقع داخل القبيلة [المتكّونة من عدد من العشائر المختلفة] و نادرا ما يقع مع رجل فى الغالب يلتحق بعشيرة زوجته أكثر من العكس. (24)

و راقب مورغان عديد المجتمعات المتباينة (و حصل على أدلّة غير مباشرة بشأن المجتمعات البدائية فى عديد أنحاء العالم). و ضمّن عمله وصفا للمجتمعات التى إنتشر فيها شكل ليس فقط القبائل المتكوّنة من العشائر ذات الخطّ الأمي بل كذلك فى بعض الأحيان تجمعات أكبر تشمل عددا من القبائل ما تطلّب تركيز أشكال حكم أعقد مثل المجالس القبلية و مجالس القادة إلخ . و حيثما كان نظام النسب عن طريق الأم مهيمنا ، كان يبدو أنّ النساء كنّ يتمتّعن بمنزلة إجتماعية أعلى فى المجتمع ، و بصوت متساوي فى إتخاذ القرار المتعلّق بالقضايا الإجتماعية الكبرى و أحيانا حتى حقّ إنتخاب و / أو عزل زعماء ذكور أين وجدت هذه الهياكل . مثلا ، يسجّل مورغان الملاحظات التالية التى أبداها مبعوث ديني عاش بين الإيروكوا سنوكاس .

" و فيما يخصّ عائلاتهم ، عندما كانت لا تزال تعيش فى بيوت طويلة قديمة (وهي إقتصاديات بيتية شيوعية لبضع عائلات) "... كان يهيمن دائما فيها " كلان" ما (عشيرة) " بحيث أنّ النساء كنّ يتزوجن من رجال " كلانات " (عشائر) " أخرى " ، " ... و عادة كان النصف النسائي يهيمن فى البيت ؛ كانت الإختياطات مشتركة ؛ لكن الويل للزوج المنحوس أو العشيق المنحوس الفائق الكسل أو الفائق الخراقة ، فلا يسهم بقسطه فى الإحتياطي المشترك . فمهما كان عدد أولاده فى البيت و مهما كانت ملكيته الشخصية فى البيت ، فقد كان من الممكن أن يتلقى فى كل لحظة أمرا بربط صرّته و الرحيل . و لم يكن ليجرؤ حتى للقيام بمحاولة لمقاومة هذا الأمر ؛ فإن البيت كان يتحوّل بالنسبة له إلى جهنّم ؛ و لم يكن يبقى لديه غير العودة إلى " كلانه" (عشيرته) السابق ، أو غير عقد زواج جديد فى " كلان" آخر - الأمر الذى يحدث فى أغلب الأحيان . و كانت النساء قوة كبيرة فى" الكلانات " (العشائر)؛ " و كذلك فى كلّ مكان على العموم . و كنّ لا يترددن أحيانا فى عزل زعيم ما و إنزاله إلى مرتبة محارب بسيط " " [مورغان ، ذكره إنجلز 1884 ، ص 113 بالأنجليزية ؛ صفحة 60 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو ؛ و التعاليق بين المعقّفين لإنجلز] .

و بينما كان مورغان يعامل عموما على أنّه شخص منبوذ فى الأوساط الإنتروبولوجية ، رحّب ماركس و إنجلز بكمّياته المتنوّعة من المعلومات التى ساعدت على زعزعة ما دفع إنجلز لقول " إنّ الرأي الزاعم أنّ المرأة كانت عبدة الرجل فى بداية تطوّر المجتمع هو من أسخف الآراء التى تركها لنا عصر الأنوار فى القرن الثامن عشر "(ص 113 بالأنجليزية ؛ صفحة 59-60 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو).

و إضافة إلى المعلومات عن المنزلة العالية للنساء فى عديد المجتمعات التى درسها ، أورد مورغان فى تقرير له أنّ بعض هذه المجتمعات بدت و كأنّها تشهد تغيّرا مأساويّا متحوّلة من تحديد النسب من خلال خطّ الأم إلى القيام بذلك من خلال خطّ الأب و بالتالي تعويض " العشائر الأمية " القديمة مثلما سمّاها مورغان ، بعشائر " أبوية ". و قاد هذا التغيير الذي ورد فى تقرير مورغان و الذى لم يستطع هذا الأخير شرحه بوضوح ، قاد إنجلز إلى الإعراب عن إعجابه " إنّ هذا الإكتشاف الجديد للعشيرة الأولية ، المركزة على الحقّ الأمّي ، بوصفها مرحلة سبقت العشيرة المرتكزة على الحق الأبوي عند الشعوب المتحضرة ، يتسم بالنسبة للتاريخ البدائي بنفس القدر من الأهمية الذى تتسم به نظرية ماركس حول القيمة الزائدة بالنسبة للإقتصاد السياسي . " [1884، ص 83 بالأنجليزية ؛ صفحة 20 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو] . هنا إذن لدينا معلومات عن الشعوب الحيّة التى كانت تنحو نحو تأييد بعض إكتشافات باهوفن بفضل تنقيبه فى الأدب الكلاسيكي للرومان واليونانيين ! كانت إكتشافات مورغان جدّ هامة لأنّها قدّمت الخيوط المباشرة الأولى الموصلة إلى أنّ

العلاقات بين الجنسين [المنعكسة فى أشكال الزواج و التأثير الإجتماعي النسبي إلخ] لم تكن غير قابلة للتبدّل بل كانت تنزع إلى التنوّع ، و بطريقة كانت تبدو مرتبطة بتطوّر القاعدة الإنتاجية لمجتمع معيّن .

و مع سعي إنجلز لإستنباط المزيد الكميات الواسعة من المعطيات التى سجّلها مورغان ، عن الصورة التى بدأت تظهر فيها موقع النساء نسبة للرجال قد تغيّرت مأساويّا مع توسيع المجتمع مجاله للنشاطات الإنتاجية أكثر فأكثر بعيدا عن مجرّد الحصول على المنتوجات الطبيعية . و قد تبنّى إنجلز تمييز مورغان بين أنواع أساسية ثلاث من المجتمعات : تلك القائمة على مجرّد الحصول على الموارد من حالتها الطبيعية (ما نسميه اليوم مجتمعات التجميع – الصيد أو التجميع) ؛ و مجتمعات تنخرط فى مزيد توسيع الموارد الأساسية عبر تربية الماشية و / أو الزراعة ؛ و مجتمعات تنخرط فى الإنتاج الصناعي و إنتاج السلع التبادلية .

و شأنه شأن أية محاولة أولى للتصنيف العلمي (مثل نظام لينانيان لتصنيف الأجناس النباتية و الحيوانية مثلا) يمكن أن ننقد تحليل مورغان و إنجلز على أنّه صلب نوعا ما فالأصناف جميعها واضحة ومحدّدة للغاية بذاتها ، مع القليل من التداخل و الطابع الحقيقي المختلط وهو قوام الحياة . و يمكن للمرء أن يعترض أيضا على إفتراض أنّ كافة المجتمعات الإنسانية تتبع و تتقدم فى نفس الخطّ المستقيم عبر كلّ هذه المراحل فى تتابع حتمي .

و مع ذلك رغم هذه الحدود البديهية [بما فى ذلك كون مورغان أحيانا يقدّم وجهات نظر مشوّهة تماما للمجتمعات التى لم تتماشي بالضبط و نوع واحد واضح]، فإنّ المسألة تظلّ أنّ هذه المحاولة الأوّلية لربط أشكال التنظيم الإجتماعي بالإختلافات الكبرى فى **<u>النشاطات الإنتاجية</u>** لمختلف المجتمعات (الشبيهة كثيرا بنظام لينانيان) إطارا مرجعيّا ، وسيلة للمنهجية الأولية ، و أساسا لصقالة مزيد المعرفة يمكن مراكمتها و يمكن إدخال تعديلات عليها . فى الواقع ، على ضوء المعلومات المتوفّرة اليوم ، و وضع العمل فى إطاره التاريخي ، فإنّ معالجة إنجلز لهذه المسائل فى " أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة " يبدو ثاقبا بصورة مميّزة فى مظاهره الأساسية – لا سيما مقارنة بالعديد و العديد من المحاولات المثالية المتعنّتة للبحث عن أسس العلاقات الإجتماعية الإنسانية و المؤسسات و الإيديولوجيات فى نظريات نصف مطبوخة عن " الطبيعة الإنسانية " وكلّ مكان آخر ب**<u>إستثناء</u>** فى مجال النشاطات الإنتاجة التى هي قطب رحي أي مجتمع . (25)

و فى حين أنّه ليس بوسع هذا البحث أن يناقش أطروحات إنجلز حول تعاقب التغييرات فى التنظيم الإجتماعي للإنسانية مع الظهور الواضح للطبقات المختلفة و لجهاز الدولة [مثلما هو الحال فى المجتمعات المعتمدة على العبودية و الإقطاعية أو العلاقات السلعية الرأسمالية] فإنّ بعض تفكيره بشأن الأشكال الأولية للتنظيم الإجتماعي الإنساني تندرج ضمن نطاق هذا الكتاب . و مرّة أخرى ، معتمدا بصفة واسعة على عمل مورغان الذى حاول أن يستبطن منه بعض المبادئ التاريخية الأساسية إقترح إنجلز أنّ الأشكال الأوّلية للتنظيم الإجتماعي الإنساني تميّزت بتملّك الموارد فى حالتها الطبيعية مع تطوّر قليل لقوى الإنتاج أبعد من وسائل وأسلحة بسيطة . كانت المجموعات الصغيرة من الأشخاص المترابطين تعدّ نسبها المشترك من خلال الأم و بالتالي كانت النساء تتمتّع بمنزلة إجتماعية عالية ومأثرة جدّا فى إتخاذ القرار الذى يخصّ المجموعة بأسرها . و يفترض إنجلز أنّ العلاقات بين الرجال و النساء فى مثل هذا المجتمع تتخذ أوّلا شكل زواج الجماعات بمعنى أنّه بإمكان الرجل أن يدخل فى علاقات جنسية مع عدد كبير من النساء و بإمكان المرأة أن تدخل فى علاقات جنسية مع عدد كبير من الرجال . (26) فى مثل هذه الأنظمة كان النساء و الرجال قادرين على إختيار شركائهم أو تركهم بأدنى ضجّة و تدخّل إجتماعي .

لكن مع توسّع القاعدة الإنتاجية للمجتمع (مع بداية الزراعة و تربية الحيوانات) ، صارت العلاقات بين الرجال و النساء بوضوح أكثر حصرية و تنظيما . و بصورة متصاعدة أصبح الزواج مرتّبا من قبل الأقارب و همّهم هو توسيع شبكات الإلتزام المتبادل و التحالفات السياسية و ضمان المزيد من الثروة (كان الزواج عادة ما يعزّز بتبادل السلع مثل البقر بين العائلات المعنية) . فى البدء عادة ما كان " هذا الزواج الثنائي " لا زال سهلا نسبيّا للتحديد غير أنّ هذا أيضا سيتغيّر مع تحوّل العلاقات بين الشركاء بصورة متصاعدة فى تداخل مع علاقات الملكية الناشئة . و فكّر إنجلز أنّه قبل قدرة المجتمع على مراكمة فوائض الإنتاج ، كان الحصول على الموارد الغذائية ينجز جماعيّا رغم حدوث تقسيم للعمل حسب خطوط جنسية وإن كان فقط فى علاقة بإنتاج الأطفال . (و تجب الإشارة إلى أنّ إنجلز يتجاوز ذلك و يفترض، وهو مخطئ فى ذلك ، أنّ الرجال هم أوّل موفّر للغذاء فى مجتمعات التجميع) لكن إنجلز إفترض أن القدرة على توسيع قاعدة

المجتمع و تقسيم الملكية فى صفوف الأفراد – وهو أمر قد جرت مأسسته من أجل إستغلال فعّال أكثر لمصادر القطيع و الغلّة – إنجرّ عنهما أنّ الملكية و التوزيع قد سقطت ترجيحا بين أيدى الرجال. عند هذه النقطة مسألة وراثة الفوائض الحاصلة حديثا بدأت تطرح نفسها و توجد فى تناقض مع ممارسة تركيز خطوط النسب وشبكات الإلتزام و التعاون الإجتماعي من خلال النساء بما أنّ النساء كنّ بدأن بصفة متصاعدة فى طلاق مع النشاطات الرئيسية المعنية بإنتاج هذه الفوائض .

و من هذا التناقض ستبرز لاحقا الحاجة إلى تعويض أنظمة صلة القرابة القديمة المتمحورة حول المرأة بأنظمة جديدة متمحورة حول الرجال و طفقت النساء اللاتي لا تتحكّمن فى ملكية الموارد المراكمة حديثا وتوزيعها فى خسارة الكثير من المكانة الإجتماعية و سلطة إتخاذ القرار . و يقترح إنجلز انّ الرجال كانوا يريدون تمرير الثروة الجديدة إلى أطفالهم هم الخاصين ، جاعلين من دليل الأبوة قضية لأوّل مرّة فى التاريخ : و بشكل متصاعد سيقع تقنين النشاط الجنسي للنساء ليصبح من الأصعب عليهن إختيار رجل أو تركه بحرّية ، أو أن يكون لهنّ أكثر من شريك جنسي . و فى النهاية ، قد فرض الزواج الإحادي بشكل صارم (دائما " بالنسبة للمرأة و ليس بالنسبة للرجل " مثلما أشار إنجلز) لمزيد التحكّم التام فى نشاط التوالد لدي النساء و تجديد أبوّة الأطفال بأكثر تأكّد . و وسائل فرض الزواج الإحادي على النساء تتراوح بين الضغط البسيط للقبول بذلك إلى التجويع أو الإعدام بتهمة خرق القوانين . و إستعمال أحزمة العفّة و أدوات التعقيد والحفظ للتذكير بالزمن المحدّد للقاءات الجنسية و خصي الرجال لإستخدامهم كحرّاس خصيّ للحريم وسائل معوّل عليها ، والممارسة المنتشرة لقطع البظر (27) (قطع بظر الصبيّات المرفوق أحيانا بعملية أبعد من خياطة المهبل و سدّه) لحفظ أو إلغاء المتعة الجنسية لأجل الحيلولة دون " شرود " النساء مع رجال آخرين عدا أزواجهن المعينين : و كلّ هذه كانت وسائل لضمان أنّ الأبوّة لن تبدّد على أطفال الغير . (28)

و فى حين أنّه كان على إنجلز بالضرورة أن يلجأ إلى التأويل تماما فى ما يتصل بالأشكال الأساسية للتنظيم والعلاقات الإجتماعية بين الجنسين فى المجتمعات التى كانت خالية من الملكية و التراتبية الإجتماعية ، فإنّ المعطيات التاريخية العالمية منذ ذلك الزمن تتحدّث بنفسها . عبر كلّ إلتواءاته و منعرجاته ، كان تاريخ العائلة – الشكل المؤسساتي للعلاقات بين الجنسين ، متداخلا تداخلا وثيقا مع إضطهاد قطاعات كاملة من الإنسانية و إخضاعها .(29) و بالنسبة للنساء خاصة، مثلت العائلة منبع دموع حقيقي عبر التاريخ إلى يومنا هذا .

و بشكل مثير ، كانت مقاربة إنجلز المادية التاريخية لتاريخ التغير فى التنظيم الإجتماع للإنسانية تزداد حقيقتها بروزا على ضوء الدلائل العلمية المتراكمة . إنّ الدور المركزي للإناث فى تنظيم مجتمع عديد أنواع الحيوانات المتقدّمة النشوء و منها أقرب أقاربنا (مثلما يعكس ذلك مثلا كون الإناث هنّ المحور الإجتماعي لفرق الشنبانزي و غالبا هنّ اللاتى تشرعن فى العلاقات الجنسية إلخ)، نادرا ما ينهض بإقرار الجميع على التنظيم الإجتماعي البدائي لدي الهوموسابينس (الجنس البشري) الذين لهم قدرة سريعة على التعلّم و لا يكفّون عن إعادة هيكلة بيئتهم الإجتماعية و الطبيعية ما يجعل من الصعب تعيين ما هي ، إن وجدت ، مظاهر التنظيم الإجتماعي الموروثة من الأجداد و التى يمكن أن تكون وقعت صيانتها عبر خطّ " الهومينيد "[أسلاف الإنسان] صعودا إلى نوعنا الخاص الوحيد من أنواع " الهومينيد " (الذين سُجّل حضورهم الواضح فى معطيات مستحاثة [حيوانات ، نباتات متحجّرة من قديم الزمان].

لكن على الأقلّ دراسة علم الحيوان من الرتبة الأولى المقارن و محاولات رسم طريق تطوّر ممكنة منذ زمن إفتراق " الهومينيد " عن القرد يمكن أن يساعد على تحطيم مركزية الرجل و الحتمية البيولوجية بتوضيح نظرت أنّه على الأقلّ من الممكن تصوّر أنّ خطّ " الهومينيد " إنطلق مع شكل تنظيم إجتماعي متشكّل من مجموعات مرنة أكثر منه من مراتبية صلبة و فيه الإناث يمكن جيدا أن تكن المحّددات الأساسية للتنظيم الإجتماعي . ما حدث للتنظيم الإجتماعي لل" هومينيد " فى ملايين السنين منذ الإفتراق لا يزال بعد تقريبا مكفّن فى سرّ غامض و لن يكون على الأرجح أبدا مفهومة جيدا إلاّ أنّ مفاهيم أنّ الفترة برمّتها تميّزت بهيكل إجتماعي وحيد غير متغيّر تقريبا بالتأكيد خاطئة . الإختلافات فى أنماط الحصول على الغذاء التى إقترحت لمختلف " الأسترالوبيسين " يمكن جيدا أن تكون قد إنعكست فى إختلافات فى التنظيم الإجتماعي ، و بالتأكيد حتى أحدث التجديدات فى قدرات " الهومينيد " على تأويل العالم الخارجي و تغييره لم تكن لتوجد دون جلب صدمات و توتّر فى طريقة حياة " الهومينيد ". تصوّروا مثلا الإستقطاب الإجتماعي الذى يمكن أن يكون قد حصل فى هذه المجموعات الأولية حول مسألة إستعمال النار و لاحقا تصنيعها ! على الأغلب أنّ البعض قد عارضوا هذا التغيير و قد أرعبهم و قاوموه ، بينما مجموعات أخرى أكثر ريادة إستعملته موسعة القاعدة الإنتاجية للمجتمع و جاعلة من كميات

كبرى من اللحم و النباتات ذات الأسلاك اللينة أكثر قابلية للهضم و موسعة إستخدامه لإبعاد الحيوانات المفترسة و مسهلة المكوث فى مناطق باردة و مكتشفة إستعمالاتها التقليدية الممكنة إلخ.

و بينما لم تكن هذه " الميلانيا " [آلاف السنين] بالتأكيد قارة ، لا شكّ مع ذلك فى أنّ نسق التغيّر الإجتماعي سيبدو بطيئا ، فى منتهي البطء . و هذا متوقّع من مستوى أدنى من تطوّر قوى الإنتاج و القدرة حينذاك التى لا تزال محدودة من أجل التغيرات الراديكالية للعالم الخارجي . صراحة ، يجب أن تكون هذه " الميلانيا " قد تميّزت بالصراع المستمرّ لتجنّب الإنقراض الذى لم يكن على الدوام ناجحا على الصعيد المحلّي . و مع ذلك ، من كلّ هذا ظهر نوع واحد تمكّن من الإنتشار عبر جميع الكوكب و ركّز نفسه بنجاح فى ظلّ الظروف الأكثر تنوّعا. وإزدهر " الهوموسابينس " [الإنسان العاقل] المعاصر فى مختلف زوايا الكوكب منشأ تنوّعا مذهلا من الأشكال الثقافية و اللغات و الأشكال الفنية و المعتقدات الدينية المتباينة للغاية إلخ . بيد أنّ مكتشفات الأنتروبولوجية الحديثة و العلوم المرتبطة بها تكشف هياكلا معينة يبدو أنّها إخترقت الخطوط الثقافية و الجغرافية ، هياكل هي الأشكال الأساسية للتنظيم الإجتماعي الذى يبدو المرّة تلو المرّة متناسبا مع قاعدة إنتاج خاصّة .

فى حين أنّ كتاب " أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة " ليس صحيحا فى كلّ جزئيّاته ، فإنّ بعض فرضيّاته المفاتيح أكثر بخصوص التنظيم الإجتماعي الإنساني مبرّرة بصورة متزايدة :

- أنّ التنظيم الإجتماعي الأوّلي كان فى بدايته جماعيا بما أنّه عندئذ لم توجد قاعدة للمراكمة المادية و تجزئة وسائل الإنتاج فى شكل ملكية خاصّة و بالتالي لم توجد إختلافات إجتماعية قائمة على الإختلافات فى الملكية [مثل الطبقات الأولى فى روما التى حدّدت فى علاقة بعدد الأحمرة التى يملكها الأفراد] ، أو الأجهزة الخاصة للحكم القائمة خارج و فوق جماهير الشعب (المؤسسات السياسية و جهاز الدولة) خادمة تعديل الملكية و التوزيع و الدفاع و توسيع الملكية ؛

- أنّ المنزلة الإجتماعية للنساء لم تكن نموذجيّا أدنى من منزلة الرجال فى مثل هذه المجتمعات . و نظرا لمنهج على ما يبدو عالميّا لإرساء الحقوق و الواجبات الإجتماعية بناءا على درجات القرابة التى كانت بالتأكيد و طبيعيّا مركّزة عبر النساء وهو وضع كان على الأرجح يضمن للنساء صوتا مأثّرا فى كافة شؤون المجتمع ، لهنّ منزلة مساوية إن لم تكن أرقى من منزلة الرجال و على الأرجح أنّ ذلك قد تواصل فى غياب مراكمة الفوائض التى قد تصبح متمركزة بتباين بأيدي أحد الجنسين .

- أنّه حتى فى غياب الفوارق الإجتماعية [مثل المراتب و الطبقات] قد يكون تقسيم العمل بالضرورة قد وجد فى الأنظمة الإجتماعية الإنسانية الأولى و أنّها قد تكون إستندت على الخطوط الجنسية و إرتبطت بتكاثر الأطفال .

- أنّ فى حالات حيث توسّعت القاعدة الإنتاجية للمجتمع بما فيه الكفاية لتتطلّب تجزئة ملكية وسائل الإنتاج وحيث الملكية وتوزيع الممتلكات يقعان بين أيدي الرجال و الإنقسامات القائمة على التحكم و الملكية المتباينين ستظهر و ستقع سلطات إتخاذ القرار ترجيحا بين أيدى الذين لديهم أكبر تحكّم فى وسائل الإنتاج ، حيث كان للنساء تحكم صغير أو لم يكن لهنّ تحكّم فى وسائل الإنتاج الرئيسية (نتيجة تقسيم العمل السابق) ، ستستبعد من مجال إتخاذ القرار و توضع فى منزلة إجتماعية أدنى – الخطوط المعقّدة للحقوق والواجبات من المساعدة المتبادلة التى ترسم عبر خطوط أمية ستلغى أو تصبح غير ذات فعالية مع تجاوزها من قبل علاقات الملكية الجديدة .

نظرة إنجلز التى إستقاها من مورغان مفادها أنّ الأشكال الأوّلية للمجتمع كانت تتميّز بالعشائر الأمية (لاحقا ستعوّض بالعشائر الأبوية) قد ظلّت محلّ جدال ذلك أنّ مصطلحات الأمي و الأبوي تحمل مغالطة : لها دلالة سلطة سياسية ستكون غير ذات معنى فى غياب علاقات ملكية و أجهزة حكم مختلفة قائمة على معظم المجتمع . فى الأنظمة الجماعية البدائية يمكن للتجمعات الصغري من الناس نموذجيّا أن تتخذ كافة القرارات الإجتماعية الضرورية من خلال سيرورة نقاش و توافق عام بمشاركة كلّ نساء و رجال المجموعة . و بالتالي لم تكن المجتمعات الإنسانية الأولية عامة " أمية " بمعنى أنّ النساء كنّ " تتحكّمن " فيها .

و مع ذلك ، صحيح أن الأنظمة التى يرسم فيها الأشخاص نسبهم من خلال خطّ أمهم أو حيث النساء تمثّل محور المجموعة – كما هو الحال عندما يأتي الرجل للعيش مع مجموعة زوجته أكثر من حدوث العكس – قد بيّنت أنّها شائعة للغاية فى صفوف مجتمعات التجميع الأساسية . و أحيانا كان يبدو أنّه نظام متوازي حيث تحّدد القرابة عبر الوالدين و لو

أنّ الرجال يمكن أن يظلّ ينتظر منهم الإلتحاق بمجموعة الزوجة والواجبات الإجتماعية يمكن أن تظلّ بعدُ محدّدة عبر جانب المرأة . و هذا صحيح مثلا ضمن الكونغ أين يحال على القرابة من الجهتين و إن كان الرجل النموذجي يأتي إلى العيش مع زوجته و أقربائه على الأقلّ لسنوات معدودات و يُنتظر منه أن يوفّر اللحم لهم طوال هذا الوقت . و عليه كلمات " تركيز الأمية " و " الخطّ الأمي " تصف بصفة أصحّ أنظمة تركيز مكان إقامة أو عدّ النسب و الواجبات المرتبطة بذلك عبر النساء – وكلّ هذا حمّله مورغان و إنجلز لمصطلح الأمية .

و يجب كذلك أن نشير إلى أنّ النسب عبر الأم لا يعني بالضرورة الوراثة من خلال الأم بالمعنى الكلاسيكي بما أنّه فى غياب الملكية الفردية يمكن أن لا يوجد شيء لوراثته . ما يبدو أنّه قد سبق مفهوم و ممارسة وراثة الملكية الفردية هو " وراثة " مجموعات الحقوق الإجتماعية و الواجبات التى تحدّدها علاقات القرابة و غالبا هي مشتركة بين كلّ أعضاء المجموعة الخاصّة [مثل " حقّ " إستعمال النباتات و الحيوانات و الماء فى منطقة معيّنة ، أو واجبات التعاون المشترك مع الآخرين فى مجموعة قرابتك). و فى بعض مجتمعات التجميع هذا النوع من " الإرث " (إستعمال الأرض) أحيانا عادة ما يورّث عبر الأم و أحيانا عبر الأب . و من غير الواضح إن كان مثل هذا النظام السلس و المختلط قد مثّل شكلا موروثا من الأجداد مشترك من التنظيم أو إن كان ببساطة يعكس إنتقالا من الخطّ الأمي و لعلّ ذلك يعود فى جانب كبير منه مثلما لدي الكونغ ، إلى القطع مع الطرق القديمة من الحياة عبر العلاقات و التبادل مع تربية الماشية أو الفلاحين و تجاوز العلاقات السلعية المعاصرة . على المستوى العالمي ، يمكن أن يوجد قليل من الشكّ مع ذلك فى منتهى هيمنة أنظمة ذات الخطّ الأمي فى مجتمعات التجميع . و فوق ذلك ، ما كانت أم لا أنظمة الخطّ الأمي عالمية فى **جميع** المجتمعات البدائية فإنّ الواقع يظلّ أنّ **الإنتقال** من الخطّ الأمي إلى الخطّ الأبوي (و النظام الأبوي) قد وثّقت فى عديد المجتمعات مع ظهور وسائل الإنتاج المتسعة و بشكل مختلف يتحكّم فيها الرجال ، و مملوكة على أساس فردي .

قبل هذه النقطة مسألة الوراثة الفردية لوسائل الإنتاج لم تكن لتُطرح و من هناك لم يكن المجتمع يشغل نفسه بالتحديد الصحيح لأب أي طفل معيّن . تحديد الأم سيكون بديهيّا و سيكفى لضمان مكانة طفل فى عشيرة معيّنة . سيكون الأطفال أحرارا من طابع الملكية و لن يعاملوا على ذلك النحو و على الأقلّ سيتجاوزوا مرحلة الرعاية ، الإرضاع ، وعادة سينظر إليهم كأعضاء من ضمن المجموعة ويعاملون جماعيّا إلى حدّ كبير مثلما هو واقع الحال فى عديد مجتمعات التجميع فى عالم اليوم . بهذا المضمار ، من المهمّ أن نلاحظ التبادل بين يسوعيي القرن 17 و رجل من قبيلة نسكابي من التجميعيين – الصيّادين مثلما ورد فى تقرير لأليونور ليكوك فى مقدّمتها لكتاب إنجلز" أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة " [ص 38] :

"إنّ المبعوثين القسيسيين الذين كتبوا عن تجربتهم يؤكّدون أنّه " كانت للنساء قوّة كبرى هنا " و أنّ " إختيار المخطّطات و الأسفار و التنقلات الشتوية ، يقع تقريبا فى كلّ مأسسة بايدي ربّة البيت " . و أنّب قسيس رجلا لكونه لم يكن " السيّد" قائلا له " فى فرنسا النساء لا تتحكّم فى أزواجهنّ " . و صار جعل النساء تمتثل لأزواجهن الشغل الشاغل للمبعوثين ، لا سيما فى علاقة بالحرّية الجنسية التى لديهنّ . " قلت له إنّه من غير المشرّف لإمرأة أن تحبّ أي شخص آخر عدا زوجها وهذا الشيطان فى صفوفهن (حرّية النساء الجنسية) أنّه هو ذاته غير متأكد من أنّ إبنه الذى كان حاضرا هو إبنه . و كان ردّ النسكابي هو " ما تقوله لا معنى له . أنتم الشعب الفرنسي تحبّون فقط أبناءكم أنتم ، لكننا نحن نحبّ كافة أبناء قبيلتنا ".

بوضوح لم تكن لتوجد أية قاعدة لتقسيم المجتمعات الإنسانية إلى مضطهِدين و مضطهَدين دون مراكمة أوّلية لنوع من الفائض . حتى القتل المناسباتي للأفراد ضمن القردة الأجداد أو " الهومينيد " الإنتقالي من الممكن أن تكون له أو كانت له علاقة بالظهور اللاحق للقهر **الإجتماعي** من الأفراد الباقين على قيد الحياة ، وهو تطوّر صار فقط ممكنا بوجود فائض مادي . و فعلا كان توفّر نوع من الفائض حافزا كبيرا لتطوّر كلّ النشاط الإنساني غير المرتبط بالمعنى الأكثر مباشرة وضيقا بالوجود المباشر [مثل الفنّ و الدين و المؤسسات السياسية] وكذلك مزيد تطوّر القوى و النشاطات الإنتاجية .

عندما صار التجديد فى مجتمعات التجميع مرتكزا جيّدا ، أرسيت قاعدة مزيد التطوّر فى مناهج تحديد الغذاء و الحصول عليه . و بالفعل ، جعلت إعادة التنظيم البيولوجي الهيكلي ذى الدلالة أنّه عني ظهور وضع الوقوف على الرجلين تماما بما فى ذلك مظاهر مبتدعة أخرى مثل التغليف المتأخّر لعظام الجمجمة ما سمح بتوسّع الدماغ ما بعد الولادة و جعلت الفترات الممتدّة من حداثة السنّ ممكنة درجة غير مسبوقة بعد من التفاعل بين " الهومينيد " الأولين و البيئات الخارجية التى تمكنت بشكل متزايد من أن تأثّر و تتأثّر و تغيّر و تتغيّر بإستمرار حافزة مزيدا من الإندماج و التواصل والتعلم الذهنيين .

و بالنسبة إلى الأدوات الأوّلية – الأيادي و كذلك على الغالب أدوات التجميع كعصي الحفر و الحاويات الطبيعية ... فهي أدوات أضيفت فى النهاية نوعا ما إلى أخرى أوفر مهارة من الحجارة المعدّلة المناسبة لتقطيع الجثث و قتل الحيوانات و لاحقا إلى أوّل أدوات الصيد بالحجارة . و فى ما بعد ستمكّن قدرة إستعمال (و إنتاج) النار من طهي عديد الأغذية من النباتات الليّنة وكميات كبيرة من اللحم جاعلة إياها أكثر قابلية للهضم وهو تطوّر لا شكّ فى أنّ تبعاته بعيدة المدى و مباشرة على التنظيم الإجتماعي و مزيد تطوير القوى المنتجة (30). لكن حتى الصيد بالأسلحة لم يكن ليظهر دون قدرة سابقة على ضمان فائض من الغذاء أزيد مّما كان ضروريّا للإستهلاك الآني من طرف أفراد التجميع ؛ هذا فقط بإمكانه أن يجعل ممكنا لبعض الفئات من أفراد المجموعات الإنخراط فى نشاطات ليست منتجة مباشرة . و يعزى هذا بصورة كبيرة إلى أنّ الصيد ، على خلاف التجميع ، نشاط نتائجه غير متوقعة إلى درجة كبيرة وهو ما يعنى غالبا عديد الأيّام من البحث غير المثمر عن الفريسة و ما يتطلّب بذل طاقة هائلة من الصيادين بغضّ النظر عن الفشل أو النجاح فى الحصول على اللحم . و المراكمة من خلال تجميع التزويد بالغذاء على قاعدة خاصة و التقسيم النظامي لهذا الغذاء سيمكّنان بعض الأفراد من التفرّغ للصيد لأيّام متتالية دون خوف من عدم بقائهم أو بقاء أيّ أفراد آخرين على قيد الحياة لإرتباطهم مباشرة بنجاح أية مغامرة صيد خاصة .

و من أجل تقييم أفضل لمدى حيوية تموين الغذاء الأساسي لمجموعة من البشر دون قوى إنتاج متطوّرة متأتية من تجميع الغذاء ، من المفيد للحظة النظر فى التجميعيين- الصيادين فى وقتنا الحاضر على غرار الكونغ رغم أنّ لهؤلاء معرفة مذهلة بشأن تفاصيل البيئة التى يعيشون فيها و يستعملون فخاخا و أقواسا و سهاما مسمّمة لقتل صيدهم ، فإنّ معدّل صيد الصيادين لا يزال صيدا واحدا خلال أربعة أيّام من الصيد ؛ و خلال ما يناهز ال15 سنة من أفضل فترات صيدهم إنتاجية يقطع الرجال من الكونغ بين 1200 و 2100 ميل سنويّا لتتبع الفرائس . وغالبية الصيادين يراوحون بين فترات الصيد الشديدة و فترات طويلة من عدم النشاط النسبي ، ومن هنا المعاش الأساسي لكافة الأفراد فى المجتمع يضمنه التجميع اليومي للنباتات الغذائية الذى تنجزه أوّلا ، إن لم يكن حصريّا ، النساء . و تساهم نساء الكونغ ب 60 إلى 80 بالمائة من مجمل الغذاء المستهلك فى مجتمعاتهن ، و كميات اللحم التى يوفّرها الرجال غاية فى التغيّر لكن معدّلها يبلغ 20 إلى 40 بالمائة (أنظروا ، شوستاك 1981 ، ص 12 ؛ لي 1979 ، ص 40) من الغذاء و تقسيم العمل بين الجنسين قد ورد فى تقارير عن مجتمعات التجميع – الصيد فى عديد أنحاء الكوكب متراوحة بين صحراء كلاهاري بأفريقيا إلى غابات الأمازون الممطرة . و بينما لجميعها خصوصيّاتها الثقافية ، فإنّ مجتمعات التجميع – الصيد الأكثر تقليدية لها عدّة أوجه مشتركة : إنّها تعوّل أوليّا على تجميع النبات الغذائي الأساسي للعيش فى حين أنّ الصيد يوفّر موادا إضافية من اللحم أندر و أقلّ تعويلا عليها لكنّها ذات قيمة كبيرة ؛ لديها معرفة هائلة بالبيئات التى تعيش فيها و تقاليد ثقافية ثريّة بيد أنّ تدنّى تطوّر قوى الإنتاج نموذجيّ وهي تستعمل فحسب مجموعة محدودة من وسائل التجميع كعصي الحفر و أدوات الصيد مثل الأقواس والسهام و مجرّد الفخاخ و نباتات مسمومة ؛ لا تراكم أية ممتلكات ذات دلالة و نموذجيّا ، بصورة واسعة و بصفة روتينية، تتقاسم الموارد الغذائية و أي شيء آخر تحصل عليه مهما كان صغيرا ؛ و تنحو إلى العيش فى مجموعات صغيرة نسبيّا ذات تكوين غير قار و عامة بتنظيم إجتماعي سلس تماما و بعضها أظهر بداية مراتبية إجتماعية لكن بعضها الآخر لم يكن لديه قادة رسميون أو أجهزة حكم من أي نوع . و مع ذلك لجميعها ضرب من تقسيم العمل فى المجتمع حتى و إن لم يكن ربّما صارما تحديده جدّا ، و هذا التقسيم للعمل يتبع عامة بدائيّا الخطوط الجنسية . وبينما بعض هذه المجتمعات يمكن من النظرة الأولى أن تدهشنا بالدرجة الظاهرة من اللامساواة بين الرجال والنساء ، هناك عادة صلة بين تقسيم العمل الأساسي و نوع النشأة كما يظهر ، أشكال جنينية من اللامساواة الإجتماعية بين الجنسين .

و التجميعيون – الصيادون الكونغ الذين يدرسون كثيرا حالة لها دلالتها . ففى حين كانت مجتمعات الكونغ تشهد تغيرات فى منتهى السرعة فى السنوات الحديثة نظرا للتفاعل الأكثر إنتظاما مع أناس من مجتمعات رعوية و فلاحة بساتين و صناعية ، قد حافظت إلى فترة حديثة جدّا على الطريقة التقليدية لحياة التجميعيين – الصيادين . و لم يكن للكونغ التقليديين قادة رسميون و زعماء و مجالس قبلية أو أية أجهزة حكم أخرى ؛ كانوا نموذجيّا يعيشون فى مجموعات متنقّلة صغيرة و القرارات الكبرى الخاصّة بطريقة حياتهم يتوصلون إليها عبر النقاش العام بمشاركة البالغين من الجنسين إلى أن يتمّ الحصول على تسوية ؛ و قد يلعب البعض أدوارا قيادية أكبر من أفراد آخرين فى مثل هذه النقاشات لكن هذا كان يتمّ على أساس التجربة و الحكمة العامة الحاصلة (و عادة مرتبطة بسنّ أكبر) و ليس مرتبطا بعناوين أو مواقع . كان الكونغ التقليديون يملكون القليل فى ما يتعلّق بالممتلكات المادية التى تتكوّن أساسا من أشياء متصلة مباشرة بالنشاطات الحيوية مثل عصي الحفر و الأقواس و السهام وحاويات المياه و بعض الأشياء كالأنابيب و الحبوب و ألعاب الأطفال أو

الأدوات الموسقية الممرّرة بإستمرار ضمن " شبكات تقديم الهدايا " : " الوزن الجملي للملكية الخاصة للفرد أقلّ من 12 كلغ و يمكن بسهولة حملها من مكان إلى آخر. (لي 1979 ، ص 456). و كذلك لا يخزّن الكونغ الغذاء و لأية مدّة زمنية مهما كان طولها : " ... [إنّهم] لا يقيمون فرقا حادا بين موارد البيئة الطبيعية و الثروة الإجتماعية . الأرض غير المستصلحة نفسها هي وسيلة إنتاج و لأنّها غير مملوكة لأي كان بشكل حصري فهي متوفّرة لكلّ شخص يمكن أن يستعملها . و لا يراكمون فائضا لأنّهم يعتبرون البيئة ذاتها مخزنهم ...

بإعتبار أنّهم يعرفون ما يتوقعونه من البيئة ، لا يعيرون إهتماما كبيرا لجلب الغذاء و المواد الأولية إلى المخيم قبل الحاجة إليها . الغذاء الذى يجمّعه أعضاء المخيّم يقسّم و يستهلك دون تأخير ضمن حدود المخيّم أو من قبل الجيران المباشرين للمخيّم ." (لي 1979 ، ص 455).

و ذو دلالة إذن أنّ الملكية بالضرورة مفهوم بالكاد ظهر فى صفوف الكونغ محدّدا فى الإعتراف ببعض المناطق على أنّها " ملك " للمنحدرين الأحياء – رجالا و نساءا على حدّ سواء – ممن وجدوا هناك للفترة الأطول . يبدو أنّ لذلك تبعات إجتماعية محدودة ما يعنى ببساطة أنّ زائرى منطقة من المفترض أن يسألوا مالكيها الإذن لهم بتجميع النباتات و بالماء و بالفرائس فى المنطقة ؛ فى مجتمع الكونغ التقليدي هذا أمر شكلي إلى حدّ كبير بما أنّ الإذن قلّما يرفض ، أو لا يرفض أبدا ، لكن ذلك يضمن أنّ الزائرين سيعاملونهم بالمثل لمّا يحتاجونهم . وهكذا روابط متبادلة فى صفوف الكونغ هي القاعدة و ليست الإستثناء و بالفعل ، التقسيم النظامي للموارد يبدو عالميّا فى صفوف شعوب التجميع .

وصلب الكونغ أسوأ شتيمة ممكنة هي إتهام أحد الأفراد ب " الشحّ " و يتواصل الإتهام بإستمرار و إلحاح و إستفزاز إلى أن يمتثل أو تمتثل إلى القواعد الإجتماعية ، و تبعا لذلك بالفعل يمنعون أي مراكمة تخلق إختلاف ضمن المجتمع . و دفعت ملاحظة ذلك رتشارد لي إلى الإشارة إلى أنّه بالرغم من كون الإقتسام بديهيّا يجب أن يُعلّم و إلى أنّ أي طفل يولد لديه القدرة على كلّ من التقسيم و الأنانية :

الواقع هو أنّ التقسيم الإجتماعي للموارد الغذائية الذى شوهد مباشرة فى السنوات الحديثة ضمن الكونغ وعشرات مجموعات التجميع الأخرى إكتشاف لا ينبغى التغاضي عنه بخفّة . فعالميته تقدّم الدعم الكبير لنظرية ماركس و إنجلز عن أنّ المشاعية البدائية سادت قبل ظهور الدولة وإنقسام المجتمع إلى طبقات (إنجلز 1884) .

و يجب على المرء أن يضيف تنبيها مع ذلك إلى أنّ هذه المشاعية لا تتسع ، على حدّ علمنا ، لتشمل الحقوق الجنسية مثلما إعتقد ماركس و إنجلز فى البداية متبعين فى ذلك مورغان (1877) " (لي 1979، ص460).

و فى الحقيقة دور النساء فى مجتمعات التجميع – الصيد التقليدية على غرار الكونغ متناقض مثلما يكشفه ما يلي :

هل أنّ الدور السائد فى الإنتاج و القوّة الدقيقة فى الزواج و تقاسمهم لنواة عضوية المجموعة مع الرجال يفضى إلى السلطة فى المجال السياسي كذلك ؟ و الجواب بالمعنى العام نعم ! مشاركة نساء الكونغ فى النقاشات الجماعية و فى إتخاذ القرار على الغالب أكبر من مشاركة النساء فى معظم المجتمعات القبلية و الفلاحية و الصناعية ... لكن مستوى مشاركتهن ليس مساويا لمستوى مشاركة الرجال . فهؤلاء الأخيرين يتمتعون عادة بحوالي ثلثي الحديث فى النقاشات المشتركة لكلا الجنسين و الرجال يتحرّكون كناطقين بإسم المجموعة بصورة متكرّرة أكثر ممّا تقوم به النساء ..." (لي 1979).

و " منزلة النساء فى المجتمع عالية و تأثيرها معتبر . و هنّ عادة بارزات فى القرارات الهامة العائلية و الجماعية مثل أين ومتى يتمّ التحرّك و من سيتزوّجه أطفالهم . و العديدات أيضا تتقاسم النواة القيادية فى مجموعة و تتقاسم ملكية آبار المياه و مناطق التجميع . بالضبط ما هو مدي تأثيرهن الفعلي و مدي منزلتهن مقارنة بمنزلة الرجال مسألة معقّدة : فبالفعل يمكن للنساء أن تكون تقريبا مساوية للرجال ، لكن عادة الثقافة **تحدّدهن** على أنهن أقلّ سلطة . بكلمات أخرى ، يمكن لتأثيرهنّ أن يكون أكبر من أن يرغب الكونغ – أو كلا الجنسين – الإعتراف به " .(شوستاك 1981 ، ص 13)

فى الواقع تكشف دراسات مجتمعات التجميع – الصيد أنّه بالرغم من نمط إنتاجهم الجماعي البدائي ، فقد أفضى الإختلاف النسبي فى المنزلة الإجتماعية بصنف من البيولوجيا الإجتماعية إلى أن تدّعي بصوت عالي أنّ **ذلك** بالتأكيد يجب أن يكون دليلا على قاعدة بيولوجية فطرية للتناقض بين الجنسين . " مسألة المصلحة إذن هي إستمرار لما هي الصفات **الوراثية**

لوجود التجميعيين – الصيادين التى أثرت فى مسار التطوّر الثقافي التالي" كتب أ. أ ولسون فى " حول الطبيعة البشرية " (ص 88 ، التشديد من وضعنا) فى مزيج مثالي ميتافيزيقي مذهل بصورة مطلقة ، يواصل ولسون تطوير نظرياته : " أعتقد أنّ التأثير كان حقيقا . بديهي أنّ واقع ظهور الحضارة قد إتبع فى كلّ الأماكن رسما قابل للتحديد " (ص 91 ، التشديد مضاف من عندنا) .

و هكذا ، وفق ولسون ، مقارنة لتتابع أشكال التنظيم الإجتماعي فى مختلف أنحاء العالم (مثل الإنتقال من أنظمة التجميع – الصيد إلى القبائل الأكثر تراتبية و ذات الزعامات إلى المدن و الدول و ظهور الهياكل الطبقية) يصبح دليلا على أنّ تاريخ المجتمع الإنساني يجب أن يحدّده مخطّط بيولوجي مشترك دونه سيكون من المستحيل شرح تشابه من هذا القبيل ! لا وجود هناك و لو لإشارة خفيفة واحدة أنّ تشابه علاقات الإنتاج المعتمدة على مستويات متشابهة من تطوّر قوى الإنتاج يمكن أن تعلّل هذه المقارنات . (31)

بطبيعة الحال ، قد يرغب المرء فى طرح سؤال لماذا إذن لم تزعج هذه الهياكل الإجتماعية أبدا التطور وفق المخطّط و لم تشهد تغيرات كبرى بديهية . و إجابة ولسن فى الأساس هي أنّ الأشياء فى الطبيعة تنمو و أحيانا تذهب قليلا للخبط أي :

" برأيي مفتاح ظهور الحضارة هو تضخّم عضوي ، منتهي نموّ الهياكل الموجودة سابقا . مثل سنّ صغير الفيلة الذى ينمو بالطول ليصبح نابا و عظام الجمجمة لدي ذكر الأيّل التى تنمو لتصبح قرنا كبيرا مدهشا ، فإنّ الإجابات الإجتماعية الأساسية للتجميعيين – الصيّادين قد تحوّلت من التأقلم البيئي البسيط نسبيّا إلى أشكال مفصّلة و حتى فاحشة فى المجتمعات الأكثر تقدّما . و مع ذلك الإتجاهات التى يمكن أن يتخذها هذا التغيير و إفرازاته النهائية محدّدة بالإستعدادات الجينية المتأثّرة سلوكيّا و التى شكّلت التأقلم السابق و الأبسط للإنسان الأمّي "(ص 94-95).

و هكذا حسب ولسن ، الإختلافات الجينية الطفيفة بين الرجال و النساء نمت فأفضت إلى إخضاع على نطاق شامل للنساء و أسس بيولوجية سابقة الوجود شبيهة نمت لتولّد العنصرية و القومية و الحرب إلخ على نطاق شامل . بالطبع ، بينما يُقرّ بأنّنا لسنا مرتبطين حصرا ببرامجنا الجينية ، يشعر ولسن بأنّه مجبر على تذكيرنا بأنّه علينا أن نكون واقعيين إلى درجة و حدّ يمكّناننا من توقّع التخلص من بعض المشاكل . و فى نهاية الأمر ، يقول ولسن أساسا ليس بوسعك أن تغالط أمّنا الطبيعة !

لكن فحصا عن كثب لمجتمعات التجميع – الصيد و العلاقة الفعلية بين اللامساواة فى أوّل نشأتها فيها و لاحقا لامساواة و تناقضات إجتماعية تامة النموّ يكشف عمل سيرورة مختلفة بقوى محرّكة مختلفة ، مثلا ، معلومات أحدث عن التنظيم الإجتماعي لشعوب متباينة اليوم تعيش على إقتصاديات أساسا معاشية أي على التجميع والصيد – مع إستعمال لوسائل و أسلحة قليلة و بسيطة فقط و بالقليل من التطوّر أو بلا تطوّر لعلاقات الإنتاج – يوفّر لنا خيوطا قيمة بصدد ليس فحسب الأشكال الأوّلية المحتملة للتنظيم الإجتماعي الإنساني بل كذلك عواملا تتوسّط التغيرات الكبرى فى هذا التنظيم .

يمكن أن لا تكون للكونغ و تجميعيين – صياديين آخرين طبقات أو حتى تراتبية إجتماعية صارمة إلاّ أنه لديهم تقسيم للعمل . بإمكان كافة الرجال و النساء أن يقوموا بتجميع النباتات الغذائية غير أنّ هذا النشاط تنخرط فيه بالأساس نساء توفّر القدر الكبير من النباتات الغذائية للمعاش التى يستهلكها المجتمع . لكن **نموذجيّا** النساء فى مجتمعات التجميعيين – الصيادين لا يصطدن . و هذا لا يعزى إلى عدم قدرة الإناث على تحديد الفرائس أو إستعمال الأسلحة أو إلى إختلاف جوهري آخر له " أصل بيولوجي " مثلما إقترحه بسخف أ. أ. ولسون . (أنظروا المقتطف فى مفتتح هذا البحث) . و بالفعل من الممكن العثور على إستثناءات فى هذا الطراز العام فى تقريبا كلّ مجتمع من المجتمعات التجميعية . مثلا ، يذكر شوستاك (1981) حالة ضمن الكونغ أين صارت إمرأة فى منتصف العمر كان زوجها يعتبر " كسولا " فى الحصول على اللحم وهي تشتهي مثل هذا الغذاء المتأتى من الصيد متقنة لهذا النشاط رغم أنّ غالبية الناس إعتبروها نسبيّا غريبة الأطوار . و يذكر تانر (1981) أمثلة مشابهة (32) . و فعلا فى بعض مجتمعات التجميع ، بصورة روتينية كانت النساء تصطدن حيوانات صغيرة أو تحدّدن الجثث التى يمكن تفتيشها للإستفادة منها . و بصفة دالة يحدث هذا أثناء نشاطاتهنّ التجميعية و ضمن النطاق الجغرافي المغطّي عادة فى يوم تجميع . و وجدت كذلك أمثلة من الصيد الجماعي حيث يتشارك الرجال و النساء و الأطفال فى مثل هذه النشاطات كصيد الأرانب ، مجدّدا عادة على مقربة من المخيمات الأساسية . و خصوصيّات تقسيم العمل ضمن التجميعيين تتباين بداهة نسبيّا حسب أصناف الغذاء الموجودة و وفرتها و موسميّتها ، و تأخذ بعين الإعتبار أشياء مثل الحجم و التوفّر المحلّي و درجة تنقّل أنواع الفرائس ودرجة سرعة النسق

والهدوء إلخ . فالمسألة ليست أنّ النساء ليس بوسعهن الصيد أو أنّهن لا تصطدن أبدا مطلقا فى مجتمعات التجميع . المسألة هي أنّ أكبر تمييز عام بين نشاطات الرجال و النساء فى مثل هذه المجتمعات فى كافة أنحاء العالم هو بين التجميع (الذى تنجزه بالأساس النساء) و الصيد (الذى يقوم به تقريبا بصفة حصرية الرجال). يبدو أنّ الإختلاف ناجم عن تقسيم طبيعي للعمل وقعت مأسسته عفويّا و جرى إتفاق بشأنه من قبل الجنسين ببساطة لأنّه فى غالبية الحالات يكون غير معقول جدّا أن تنخرط نساء بالغات فى الصيد ، نساء تربى أطفالا لأشهر طويلة و نموذجيّا تعتنين بهم بالرضاعة لعدّة أسابيع أو أشهر بل لعدّة **سنوات** (ثلاث سنوات نموذجيّا لدي الكونغ) قبل أن يصبحوا قادرين على إعالة أنفسهم بما فيه الكفاية من الغذاء المجمّع ؛ و فطم الطفل يتمّ نموذجيّا مع بداية الحمل بطفل آخر . و النساء فى مثل هذه المجتمعات يمكن أن تنخرطن و تنخرطن فى التجميع المنتج كثيرا و تحملن أكداسا جدّ كبيرة و حتى تحملن الأطفال أو تعتنين بهم و تحملن أطفالا بالكاد يستطيعون المشي إلى جانب حمل الأكداس . لكن التجميع نشاط طويل المدى ذو طبيعة أكثر إستمرارية و إن كان أقلّ شدّة من الصيد الذى يعنى نموذجيّا فترات قصيرة من بذل مستمرّ لطاقة هائلة تتخلّله فترات نسبية من عدم النشاط: سواء يتبعون فرائسا كبرى فى السّهب الأفريقية أم عصافير و قردة فى غابات الآمازون الممطرة ، نموذجيّا على الصيادين أن يمشوا و يقطعوا جريا بهدوء أميالا ، تاركين المخيّمات الأساسية لأيّام و أسابيع فى النهاية . و من اليسير بالتالي رؤية لماذا سيعتبر الجنسان من المعقول أكثر أن يسافر الرجال لمسافات طويلة لتتبع الفرائس السريعة التحرّك ، عادة خلال فترات طويلة ، و هم أحرار من العبء المكبّل(و المزعج) : العناية بالأطفال الذين بالكاد أخذوا يمشون.

لكن لماذا سيكون هذا التقسيم الطبيعي للعمل الذى سيفيد كلا الجنسين بحدّ ذاته مصدرا للاّمساواة الناشئة. و الجواب هو أنّ المسألة تبدو كامنة فى واقع أنّه بينما يبدو أنّ الصيد قد تطوّر كنشاط ثانوي نسبة إلى التجميع ، فإنّ المجتمع بأسره يعتبر اللحم الذى يوفّره الصيّادون أعلى قيمة من الأغذية المجمّعة :

" على ضوء الأهمّية الأكبر للغذاء المجمّع فى الطعام ، ما يبعث على الإستغراب هو أنّ كلّ الكونغ رجالا و نساءا على حدّ السواء يعتبرون اللحم على أنّه أعلى قيمة من النباتات الغذائية . حين يكون اللحم نادرا فى المخيّم ، يعبّر الجميع عن إشتهائهم له و إن كانت الأغذية النباتية وافرة . و تتميّز المناسبات التى تقتل فيها حيوانات كبيرة عادة بالإحتفال و الرقص و تقديم الهدايا من اللحم . و بما أنّ الحيوانات الفرائس نادرة و غير متوقّعة مقارنة بالغذاء النباتي ، لعلّه من غير المفاجئ أن يحظى الصيد بأكبر دلالة رمزية من التجميع ؛ و لا يجب أن يفقد المرء من نطاق نظره كون الصيد يوفّر الأغذية الأساسية مثل الكمية الكبيرة من البروتينات التى ليست متوفّرة بسهولة فى الغذاء النباتي وحده ."(لي ، 1979 ، ص 458).

و يصف شوستاك مشهدا نموذجيّا حيث يتمّ جلب اللحم إلى المخيّم :

" صياح الأطفال المبتهجين يمكن أن يرحّب بالنساء عند عودتهن من التجميع ، لكن عندما يدخل الرجال القرية مدلين اللحم على العصي المرفوعة على الأكتاف ، يحتفل الجميع شيبا وشبابا على حدّ سواء . و يمكن حتى أن يدفع هذا إلى الذهول و الرقص . شيء وحيد يمكن للنساء أن تقدّمنه و يسبّب ردّ فعل مماثل هو العسل ، لكن إيجاد العسل حدث أندر بكثير وهو حدث عادة ما يحصل بمساعدة من الرجال . نساء الكونغ يمكن أن يتحكّموا فى توزيع الأشياء التى جمعوها ، لكن توزيع اللحم يخضع لقوانين شكلية وهو يعنى الرجال فى مجال تأثير أوسع "(شوستاك ، 1981، ص 243).

بينما يقع خارج نطاق هذا البحث أن نحاول عقد مقارنات تنظيم مختلف مجتمعات التجميع – الصيد ، يمكن أن نلاحظ أنّ ذات الطراز الأساسي يمكن أن يوجد مثلا ضمن هنود الإيتكوتاري الذين يعيشون عميقا فى غابات الآمازون الممطرة إذ تقوم النساء بمعظم التجميع (وصيد السمك بواسطة نباتات سامة توضع فى الأنهار القريبة وحصاد السمك الذى يطفح على السطح) و يقوم الرجال بمهام الصيد البرّي؛ و الفرائس نادرة و يخفق العديدون فى الصيد لكن اللحم يعدّ ذا قيمة عالية و الرجال هم الذين يوزّعونه " (دونار 1982).

ما من سبب يدعو إلى التفكير فى أنّ توزيع الرجال اللحم المرغوب فيه قد يكون مصدرا للنزاعات الإجتماعية فى تطوّر طريقة حياة التجميع – الصيد . و فى غياب زعماء و تراتبية أو أية أجهزة حكم ، فإنّ توزيع اللحم الذى تمّ الحصول عليه بفضل الصيد على الأرجح قد تكون قام بما يشبه توزيع النباتات الغذائية المجمعة : مهما كان من جلبه هو الذى يوزّعه . لكن نظرا لكون اللحم يبدو مرغوبا فيه إلى درجة عالية فى مجتمعات التجميع – الصيد ، فإنّه إعتبارا لأنّ الصيد على خلاف التجميع لا يستطيع أن ينخرط فى طلبه بصفة منتظمة الجنسان ، و إعتبارا لأنّ الأفراد فى مثل هذه المجتمعات

نموذجيّا يوزّعون على أنفسهم ما يجلبونه ، من اليسير فهم لماذا قد يضمن الرجال نوعا من الإجراء الخارق للعادة للتأثير الإجتماعي فى هكذا مجتمعات – الأوّل الأساس الجنيني لهيمنة الرجال على النساء . و كلّ هذا ينزع نحو التعويل القوي لنظرة أنّه لم يوجد **أبدا** أي أساس جيني ، أي إستعداد فطري ل " طبيعة الإنسان " لهيمنة الرجال على النساء و أنّ أصله – و نقطة نهايته – مرتبط وثيق الإرتباط بجذور و تطوّر الأشكال المتنوّعة من تقسيم العمل المؤسس بهدف توسيع القاعدة المادية لشتى المجتمعات . ومن هنا ليس بالشيء الموروث لدي أي من الجنسين و لا هو شيء حتمي أو غير قابل للتبدّل .

عند نقطة معيّنة فى ماضينا السحيق ، ينبغى أن يكون قد صار واضحا للبشر الأولين من الجنسين أنّه بإمكانهم جميعا الإستفادة من توزيع المهام التى ستسمح **لكافة** أعضاء المجتمع بتوسيع قاعدة معاشهم المادية . و على الأرجح أنّ هذا حدث بعد أن تمّ التركيز الجيّد لنمط التجميع للحصول على الغذاء ، و بعد إنتاج فائض مادي أولي ، بمعنى أنّه أمكن الحصول على المؤن الغذائية بقدر أزيد ممّا يمكن أن يستهلكه الفرد مرّة واحدة . و من ثمّة سيوفّر هذا القاعدة المادية لذلك التقسيم الأوّلي للعمل وخاصة لتفرّغ قطاعات من المجتمع من أجل نشاطات ستمثّل خطوة أبعد من الشكل الأكثر مباشرة من النشاط المعاشي و الذى بدوره سيفرز القاعدة المادية لمزيد توسيع القاعدة الإنتاجية للمجتمع و بصورة متصاعدة مزيد تطوير النشاطات التى ليست مرتبطة مباشرة بالإنتاج مثل الفنّ و العلم و الدين إلخ .

فى التطوّر الأولي لخطّ " الهومينيد " يبدو أنّ مجرّد تجميع الغذاء قد إمتدّ لمليوني سنة على الأقلّ قبل تطوّر أوّل وسائل حجرية خام مناسبة للقتل و لاحقا للصيد ، ما حصل قبل حوالي مليوني سنة . الواقع أنّ التقسيم الإجتماعي الأوّل المعروف (بين النشاطات التجميعية والصيد) نشأ على الأرجح عن الخطوط الجنسية نظرا لضرورة حمل النساء و رعايتهنّ للأطفال و حمل صبي مرتبط بأمّه إرتباطا كبيرا ليس إلاّ شيئا يبعث على الكرب . هذه الضرورات نفسها يمكن أن تدفع تطوّر نظام فوائض تجميع الغذاء فى المصاف الأوّل جاعلة أوّل تقسيم للعمل ممكنا. و دون تقسيم للعمل ، لم يستطع الإنسان تجاوز طرق مبلّدة للذهن لوجود " يد إلى فم " تام . لقد حثّ التقسيم الأوّلي للعمل على مزيد تطوّر القاعدة الإنتاجية للمجتمع بما وفّر ليس فقط غذاءا أكثر و أفضل و إنّما أيضا دافعا نحو مزيد تطوير وسائل الإنتاج و طرقه ، وقد مثّل الأساس الذى إنطلاقا منه إكتشف الإنسان العالم الخارجي و غيّره كما لم يفعل من قبل . و فى النهاية ، يجب أن نقول إنّ الضرورات البيولوجية لرعاية الأطفال ليست هي ذاتها غير قابلة للتبدّل أو ليست هي بالضرورة عواملا قارة و فى آخر المطاف ، الصياغة العميقة للمجتمع الإنساني لم تقم على المميزات البيولوجية و لم تساهم فى تقييد نشاطات نصف الجنس البشري .

24- هذا الزواج خارج العشيرة سيساعد موضوعيّا على الوقاية من مشاكل التزاوج المحصور بين الأقارب و لو أنّ هذا على ما يبدو لم يكن مفهوما بوعي فى الأزمنة القديمة و عادة التشجيع على الزواج خارج المجموعة الصغيرة من الأشخاص الأقارب يمكن ببساطة أن تكون نتيجة طبيعية لإرادة التوسيع المستمرّ لمجال العشيرة من العلاقات الإجتماعية بما فى ذلك إنشاء علاقات جديدة من التعاون المتبادل إلخ مع أشخاص من مجموعات أخرى . عندما سألت ذات مرّة مرغريت ميد رجلا آرابيش لماذا لا يوافق شعبه على العلاقات الجنسية مع الأخت ، أجاب : " ماذا دهاك ؟ النوم مع الأخت ؟ لكن ألا ترغبين فى نسيب ؟ معه ستقيمين الفلاحة و معه تصطادين و تتبادلين الزيارات ؟ " (ذكر فى ليكوك ، مقدمة لكتاب إنجلز 1884 ، ص 27) .

25- و حتى أولئك الذين يقاتلون عن صواب مفاهيم طبيعة إنسانية فطرية و محدّدة بيولوجيّا ، مثل العديد من الأنتروبولوجيين المختصين فى الثقافة لم يستطيعوا أن يتعلّموا قدرا كبيرا من مقاربة إنجلز و بصورة خاصة سيقومون بما هو جيّد للمسك الأفضل بالمادية التاريخية لأجل إبراز ليس فقط التنوّع الثقافي الكبير من أنظمة المجتمع الإنساني لكن أيضا أكثر الطراز العالمي للتطوّر و التغير بإزاحة القناع عن العلاقة الحميمة بين القاعدة المادية للمجتمع (كيفية الحصول على الموارد و تغييرها إلخ) و العلاقات الإجتماعية المميّزة للمجتمع ، فإنّ المقاربة المادية التاريخية لإنجلز تفتح الباب أمام فهم كلّ من جذور الأنظمة الإجتماعية المختلفة و العوامل التى تخدم كدافع لتغيير نظام إلى آخر.

26- وهنا يجب أن نلاحظ أنّ مفردات صلة القرابة فى بعض المجتمعات التى درسها مورغان و آخرون و التى توحى بأنّ كلّ رجل و إمرأة كان " متزوّجا " / " متزوجة " بعديد الشركاء تفضي إلى الخطإ المضلّل لأنّ على الأرجح ما يشار

إليه هو أنّ العلاقات **مسموح** بها مع مروحة واسعة من الشركاء ، و إن لم يكن ذلك بالضرورة مكرّسا عمليّا . و كذلك إستعملت مفردات صلة القرابة فى عديد الأنظمة التى لا تتناسب بالضرورة مع الدرجة الفعلية للروابط البيولوجية مثلما هو الحال عندما تعتبر كافة بنات الأخوات من الأم أخوات للشخص إلخ .

27- ممارسة قطع البظر لا تزال سائدة فى بعض أنحاء العالم : و بعض التقديرات الحديثة تقترح أن أكثر من 20 مليون إمرأة وصبيّة أحياء اليوم تعرّضن لهذه الممارسة (أنظروا ، هاردي 1981 ، الصفحات 178 ، 183- 184 و المراجع التى يتضمّنها) .

28- بطبيعة الحال لا وسيلة من وسائل الفرض القسري للزواج الإحادي على النساء موثوق بها و بالتالي ظلّ على أصحاب الملكية من العصر التنويري البرجوازي أن يعالجوا المسألة بذات الصيغة الثابتة البراغماتية النموذجية . إنّ الحفاظ الناعم على علاقات الملكية و تأبيدها كان بالإمكان ضمانهما بدرجة من المساحيق . قال لنا إنجلز إنّه ورد فى القانون الذى أعلنه نابليون ببساطة " يمنح الزوج هذا الحقّ بكلّ وضوح " (1884 ، ص 131 بالأنجليزية ؛ صفحة 77 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو) أب الطفل الذى تحمله المرأة أثناء الزواج هو الزوج ! و إنتهي الأمر !

29- فى الواقع جذر كلمة "عائلة " عينه يكشف هذا الترابط . كتب إنجلز :

"إنّ كلمة " فاميليا " لا تعنى ، فى الأصل ، المثال الأعلى للبرجوازي الصغير التافه المعاصر الذى يجمع فى ذاته بين العاطفية و المشاجرات البيتية ،بل إنّها لا تعنى بادئ ذى بدء عند الرومانيين الزوج و الزوجة و الأولاد ، بل تعنى العبيد فقط . إنّ كلمة " فاميليا " تعنى العبد البيتي ، و كلمة " فاميليا " تعني مجموعة العبيد الذين يخصون رجلا واحدا . و حتى فى زمن غايسون ، كانت " فاميليا بتريمونيوم " (أي الميراث) تورث بالوصية . و قد إستنبط الرومانيون هذا التعبير لأجل تعريف الهيئة الإجتماعية الجديدة التى كان رئيسها سيدا على المرأة و الأولاد و عدد معين من العبيد و كان يملك ، بحكم السلطة الأبوية الرومانية ، حق الحياة و الموت على جميع هؤلاء الأشخاص الخاضعين له ." (إنجلز 1884، ص 121 بالأنجليزية ؛ صفحة 71-72 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو).

30- التوقيت النسبي لظهور الصيد بالأسلحة و إستخدام النار ليس واضحا . و تظلّ تقارير تانير (ص 240) حول المستحاثة مؤشّرا على تواتر شكل فجّ من تقطيع الجثث الحيوانية بوسائل حجرية منذ حوالي 1.7 مليون سنة بيد أنّه يقترح أنّ هذا لا يمثّل بعدُ قدرة على الإجهاز على عدد كبير من الحيوانات بالأسلحة (رغم أنّه من الممكن أن تكون الحيوانات الكبيرة قد تعرّضت للصيد و قتلت بدفعها نحو جرف صغير أو نحو فسح أين يمكن قتلها وهي تقنية إستعملت أثناء العصر الجليدي الأخير و فى التاريخ المعاصر من قبل قبائل الصيادين). و يعود إستخدام النار إلى حوالي مليون سنة حسب التقديرات الأكثر تداولا رغم أنّه هناك بعض المقترحات بأنه فى كينيا جرى إستخدام النار قبل حوالي مليون و نصف المليون سنة . و بالطبع من الممكن تماما أن قدرة إستخدام النار كانت وثيقة الإرتباط بتطوّر الصيد على نطاق أوسع ، مثلما أمكن إستخدام النار لترهيب فرائس و تشريدها ما مكّن من إستهلاك كميات أكبر من اللحم صارت أكثر قابلية للهضم بفضل الطهي .

و من الممكن أنّ ذلك سمح بإستخدام النار للتوسّع نحو المناطق الباردة من الكوكب . لفترة طويلة كان يتمّ الحصول على النار من المصادر الطبيعية [مثل البرق] و تخزّن و تنقل فى شكل جمرة حيّة أو نار تحترق ببطء بغير لهب لكنها على ما يبدو لم تكن مصنعة بشكل نظامي (أي لم يكن الناس يشعلونها) بالمقارنة مع عصور حديثة . و بينما يمكن لوسائل إشعال النار كالخشب أن تتحلّل و تفقد إلى الأبد ، ذو دلالة أنّ الإكتشافات الأركيولوجية الأقدم بشأن وسائل إشعال النار (مثل قادحات نار الخشب) تعود إلى فقط 9 آلاف سنة و أن حجر القدّاح الأولي ظهر فقط قبل 7 آلاف سنة . و بالرغم من نقص الدلائل ، إقترح أنّ المعرفة التامة بصناعة النار يجب أن تعود على الأقلّ إلى 50 ألف سنة إلى العصر الجليدي الأخير سواء كان ذلك أم لم يكن صحيحا ، من الواضح أنّه لمدّة زمنية طويلة كان من الأسهل تخزين النار وحملها من إشعالها بصفة متقطّعة .

على الغالب لعبت النار دورا هاما فى تدجين النباتات والحيوانات إلى اليوم فى عديد المجتمعات البدائية (بما فى ذلك لدي الكونغ) حيث إستعملت نار خفيفة لإيجاد فسح من الأرض إليها تجلب الحيوانات الفرائس التى تأتي لأكل النباتات النامية الجديدة . و مثل هذه الطرق يمكن أن تكون قد إستخدمت لأجل جذب و صيد أوائل ما سيغدو القطعان المدجّنة الأولى .

و كذلك تتواصل فلاحة القطع و الحرق (التى من خلالها يقع إنشاء فسحات أراضي صغيرة فى المناطق الغابية بقطع الأشجار و حرقها ما يخلي الأرض و يوفّر طبقة من الغبار الخصب للأرض) كطريقة مشتركة لإيجاد أراضي زراعية صغيرة مميّزة للكثير من الفلاحة المعاشية الإستوائية .

31- من أجل نظرة مناقضة كلّيا و عرض واضح لوجهة النظر المادية التاريخية ، أنظروا كتاب آفاكيان " من أجل حصاد التنانين "، الفصل الأوّل ، خاصة الجزء الرابع ، " الماركسية كعلم و فى تعارض مع النظرات العالمية السابقة و المعارضة لها ".

32- فى ثلاثينات القرن العشرين ، سجلت الأنتروبولوجية ريجينا فلانيري أن بعض نساء الكري اللاتي " أجبرتهن الظروف " على الإنخراط فى الصيد كانت تتمتّع بسمعة صيادين جيدين . و جاء أيضا فى تقريرها أنّه ضمن المسكالارو آباشى-" النساء المتزوّجات الشابات يمكن أن تذهبن للصيد مع أزواجهنّ " (فلانيري 1932-1935).

الفصل الرابع

إثر حوالي المائة سنة بعد أوّل محاولة لتطبيق منهج المادية الجدلية والتاريخية على تطوّر المجتمعات الإنسانية و تغيّرها ، ظهر فهم أوضح للعلاقة القائمة فى أي زمن معطى بين **القاعدة الإقتصادية** للمجتمع (و علاقات إنتاجه – علاقات ملكية وسائل الإنتاج و كذلك تقسيم العمل و علاقات التوزيع – التى تتناسب بدورها مع مستوى معيّن من تطوّر قوى الإنتاج)

و **البنية الفوقية** لذلك المجتمع (مؤسساته السياسية و الثقافية و الأفكار السائدة إلخ) . عادة ينحوالمرء إلى التفكير الآن فى أنّ الجميع بإستثناء المحافظين العنيدين من المثاليين ذوى النواة الصلبة و الظلاميين الدينيين سيقدرون على رؤية أنّ المؤسسات الإنسانية الثقافية و السياسية لا تقف فى ضرب من الفراغ المصوّر فى أبهى الصور وهي و إن كانت نسبيّا منفصلة عن مجال نشاطات الإنتاج الإنسانية تتطلّب مقاربة مادية تاريخية متسقة أي أنّ المؤسسات الإجتماعية و العلاقات الإجتماعية الراهنة لا يمكن إلاّ الإقرار بأنّ لها **جذور** فى أشكال الإنتاج و تقسيم العمل فى المجتمع فى الماضي السحيق و مع ذلك تعامل كما لو أنّه لم تعد لها قاعدة مشابهة فى الزمن المعاصر ، كما لو أنّ الحفاظ على علاقات إجتماعية معينة و إعادة إنتاجها (بما فى ذلك العلاقات التى تشمل الإخضاع و الإضطهاد) مجرّد مسألة " مواقف و سياسات" إجتماعية فى المطلق .

و بالعكس ، لا يمكن مقاربة هذه المسائل مقاربة ميكانيكية محدّدة إقتصاديا كما لو أنّ مثلا كلّ تطوّر كبير فى قوى إنتاج مجتمع يفرز فورا و آليّا تغيرات كبرى فى العلاقات الإجتماعية و البنية الفوقية للمجتمع – و مفهوم خاطئ يقود إلى رؤية أنّ كلّ ما يُحتاج إليه لتخليص المجتمع من العلاقات الإجتماعية المتخلّفة هو توسيع الإنتاج و التعصير و إطلاق العنان لتقنيات دولة – فنّ إلخ .

و تستدعي المقاربة الجدلية فهم الحركة المتناقضة الكامنة فى كافة السيرورات فى الطبيعة و المجتمع . لا شكّ فى أنّ القاعدة الإقتصادية للمجتمع محدّدة جوهريّا بمستوى تطوّر القوى المنتجة لذلك المجتمع – سواء كان مجموعة معينة من الناس تمتلك بضع أدوات بسيطة للتجميع و الصيد أو القطعان المدجّنة و مساحات فلاحية ، أو إنتاج صناعي على نطاق واسع سيحدّد مرحلة أنواع علاقات الإنتاج التى ستميّز ذلك المجتمع و تجعله قابلا للمعرفة فى الأساس كمجتمع تجميعيين – صيادين ، أو فلاحي (عبودي أو إقطاعي) ، أو صناعي متقدّم . لكن هذا الرابط لعلاقات الإنتاج الإجتماعية يفرّخ عند أيّة نقطة معيّنة أشكال بنية فوقية خاصة تخدم الحفاظ على هذه العلاقات الإنتاجية الإجتماعية و تأبيدها.

و كون علاقات الإنتاج هذه هي المحدّدة الأساسية للطبيعة الشاملة للمجتمع يجب أن يكون بديهيّا من مجرّد واقع أنّه من غير الممكن تركيب أية بنية فوقية قديمة على قاعدة إقتصادية معيّنة. تصوّروا محاولة تركيب هياكل الحكم و المؤسسات الثقافية و الإيديولوجيات المهيمنة لمجتمع رأسمالي صناعي على القاعدة الإقتصادية لمجتمع التجميع أو العكس بالعكس : ببساطة لا يمكن القيام بذلك و القطع مع النسيج الإجتماعي برمته . لكن بينما تفرز القاعدة الإجتماعية لمجتمع بنية فوقية محدّدة و تفرض صنفا من الحدود و القيود أو الضغوطات التطوّرية على هذه البنية الفوقية لأي زمن معطى ، فإنّ هذين المجالين يوجدان فى حالة تفاعل جدلي . عندما يصبح التطوّر المستمرّ لقوى الإنتاج فى المجتمع فى نزاع مع علاقات الإنتاج الموجودة ، تصبح الثورة ضرورية فى هذه القاعدة الإقتصادية المقيّدة و التى تمنع تطوّر أشكال البنية الفوقية ذاتها التى أفرزت لتسهيل إعادة إنتاجها ذاتها و لم تعد الآن قادرة على خدمة الإبقاء على المجتمع فى قبضة العلاقات التى عفى عليها الزمن . لهذا ، المرّة تلو المرّة ، على البشر أن ينهضوا و يحطّموا الثقل القاتل لستار هذه البنية الفوقية لأجل تنفّس حياة جديدة فى كلّ مجال من مجالات التنظيم الإجتماعي وجوهريّا لتغيير علاقات الإنتاج – هذا هو تواتر الثورات الإجتماعية التى تتخلّل التاريخ الإنساني ، هذه القفزات و القطيعة النوعية الهائلة فى النظام الإجتماعي الذى يكسر عبره المجتمع السلاسل الخانقة له و يعيد الظهور على أساس بداية سريعة التأثّر لكن معاد الهيكلة دراماتيكيّا .

عند أية نقطة ، يفرض التاريخ الإجتماعي السابق بعض الضغوطات التطوّرية – و الطريق إلى الأمام لا يمثّل تنوّعا لا حدود له من إمكانيات التغيير ، و مع ذلك لا وجود كذلك لطريق وحيد خطّي مستقيم و ضيّق يحدّد بالضرورة مسبّقا توجه التغيير . و بالفعل ، من المهمّ القطع مع عدم فهم فلسفي راهن فى الفكر الماركسي الأولي معروف بإنكار الإنكار / نفي النفي الذى يعتبر ، كقانون أساسي من قوانين الجدلية ، أنّ التطوّر يحدث عبر تجاوز (نفي) شيء ما ثمّ يعيد الظهور (أو تعيد الظهور أهّم مظاهره) على مستوى أرقى من خلال النفي التالي . وهذه نظرة تحدّاها ماو تسى تونغ و مؤخّرا بوب آفاكيان (أنظروا خاصة آفاكيان 1979، ص 182-185) . فى مثال قدمه إنجلز عن نفي النفي ، حبّة شعير يقال إنّها نفيت بنبتة أنتجتها ، و نفيت بدورها بحبّات نتجت عنها . لكن ماذا لو أنّ الحبّة الأولى سُحقت ؟ ماذا لو أنتجت النبتة عدّة بذور بعضها ينبت بينما البعض الآخر يتعفّن إلخ؟ مثل هذه الإمكانية لا يمكن بسهولة إستبعادها على أنّها تلهّيات هامشية لقانون أساسي للتطوّر مثلما يبدو أنّ إنجلز يفكّر .

لهذه النقطة تبعات حيوية بالنسبة للنظرات المتصلة بالتغيّر الإجتماعي لأنّها تقترح أنّه مثلا إن كان إخضاع النساء اليوم متداخلا تداخلا وثيقا مع وجود العلاقات الطبقية الإستغلالية ، عندئذ يجب أن يعني ذلك آليّا أنّ مرحلة المجتمع التى " نفاها

" ظهور الطبقات أي المجتمع المشاعي البدائي ، يجب أن يكون حرّا تماما من أية لامساواة بين الجنسين (وهو أمر غير مرجّح الحدوث جدّا نظرا لكونه منذ البداية وُجد تقسيم للعمل بين الجنسين و بالتالي المشاركة المتباينة فى نشاطات معيّنة ، حتى و إن لم تستطع هذه الإختلافات بأية طريقة أن تعني إضطهادا). و الشيء نفسه ، مجتمع غير طبقي مستقبلي (الشيوعية) يجب أن يُنظر إليه كنفي للمجتمعات الطبقية و إعادة بعث للمشاعية البدائية (و إن على مستوى أرقى) نظرة خاطئة بديهية لدي إنجلز مع نهاية " أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة " بمقتطف من مورفان يطمح لمجتمع مستقبلي أين ستكفّ الملكية عن التحكّم فى كلّ شيء و يكون " النهاية و الغاية " و أين ستوجد " إعادة بحث على مستوى أرقى لحرّية ومساواة و أخوّة العشائر القديمة " (ص 237) . هذا المفهوم لنفي النفي لا يتجه نحو نظرة مثالية (ميتافيزيقية) للمجتمع المشاعي البدائي وحسب بل هو يتجه كذلك نحو تشجيع مثل هذه النظرة للتطوّر الإجتماعي الشامل و للمجتمع الشيوعي المستقبلي . و مثلما أشار بوب افاكيان :

" على وجه الخصوص فى ما يتصل بتطوّر المجتمع ، مفهوم نفي النفي ينزع إلى تقديم " نظام مغلق " من التطوّر يقود إلى الشيوعية و يشجّع على نظرة ثابتة ، " مطلقة " للشيوعية عينها على أنّها الإنتاج النهائي لنفي النفي و مملكة " الإنسجام الكبير" . و فى معارضة هذا ، صرّح ماو فى حديثه سنة 1964 بشأن الفلسفة " الشيوعية ستدوم آلاف و آلاف السنين و لا أعتقد أنّه لن توجد تغيرات نوعية فى ظلّ الشيوعية ، و أنّها لن تنقسم إلى مراحل بتغيرات نوعية ! لا أعتقد ذلك !... هذا لا يمكن التفكير فيه على ضوء الجدلية " . (1979 ، ص 185).

المجتمع الشيوعي سيعنى إلغاء الإختلافات الطبقية و اللامساواة الإجتماعية – بما فى ذلك تلك بين الرجال و النساء و إضطهاد الرجال للنساء - لكنّه سيقوم بذلك على أساس تطوّر الثقافة الإنسانية (بأوسع معنى) إلى هذه النقطة ، و بإنجاز قفزة كبرى إنطلاقا من ذلك و تجاوزا له ، و ليس بإعادة بعث و لو فى " مستوى أرقي " لمجتمع مشاعي بدائي صوّر فى أبدع الصور و يتضمّن فى الواقع جذور و فقط جذور هذه الإختلافات الطبقية و اللامساواة الإجتماعية عينها التى تنحو إلى بروز أشكال من المجتمع ستكون فيه أساسية .

لا تكمن جذور إضطهاد النساء فى كون الإناث من الأنواع ترعي الأطفال ، و حتى التقسيم الأول للعمل مع ظهور طريقة حياة التجميع و الصيد لم تستطع إلاّ أن تحمل فى طيّاتها بذور الإضطهاد لا أكثر . فى الواقع الإضطهاد و الإستغلال فى صفوف البشر لا يبدو ناجما عن تقسيم العمل فى ظروف معينة على نحو أنّ قاعدة نموّ مراكمة فائض تظلّ محدودة جدّا و بالتالي ليست فى تناقض حاد مع أنماط التنظيم المشاعية " المساواتية " السائدة . لكن حيثما و كلّما حصل تقسيم إجتماعي للعمل فى ظروف جعلت من الممكن مراكمة فائض له دلالته أزيد ممّا يستعمل المجتمع برمته تقريبا مباشرة ، عندئذ نشأت قاعدة للأفراد و فئات من الناس لإحتكار وسائل الإنتاج و البنية الفوقية السياسية و العلمية و الفنية و الدينية و هلمّجرّا ، و على ذلك الأساس يتحكّموا فى بشر آخرين . لمدّة زمنية طويلة لم توجد إمكانية الخروج من هذا الطراز الأساسي لأنّ الإنسانية لم تطوّر بعدُ قاعدة مادية كافية تسمح بالحفاظ على قوى الإنتاج الموجودة(بما فى ذلك كافة الناس) **و تزيد حتى** من تطويرها دون أي نوع من تقسيم للعمل يعنى الإستغلال و الإضطهاد .

و مثلما ناقشنا سابقا ، فى التقسيمات الأولية للعمل ، عادة كانت النساء العماد الإقتصادي للمجتمع موفّرة معظم الغذاء المستهلك الذى يتمّ الحصول عليه خلال التجميع . لكن نشاطات الصيد لدى الرجال و التزويد باللحم التى عادة ما كانت تمنح قاعدة منزلة إجتماعية و تحكّم إجتماعي خاصين ، إلى جانب الطابع المتقطّع بغالبية الصيد (فترات من النشاط فى معارضة الطابع الأكثر تواصلا للتجميع) يمكن أن يكونا قد وفّرا للرجال فرصا أكبر للإنخراط فى النشاطات غير المنتجة مثل الفنّ و التقاليد الدينية إلخ .

أقلّ إرتباطا بالأطفال ، عادة ما نزع الرجال كذلك إلى مسح فضاءات أوسع من النساء و من ثمّة كانت لديهم على الأرجح فرصا أوفر لإكتشاف مناطق جديدة و مقابلة مجموعات أخرى . المبادرون الأكثر شيوعا فى المبادلات بين المجموعات هم الرجال ، سواء تعلّق الأمر بمبادلات صداقة أم لا سيرتهن بعدّة ظروف . لا حاجة طبعا لأن تكون كلّ مقابلة مقابلة عدائية ، و التواجد و التعاون كأصدقاء بالفعل كان مفترضا أن يكون عاديّا لكنه كان يفترض عديد الأوضاع حيث نظرا للقدرات الإنتاجية المحدودة جدّا عامة ، من جهة و من جهة أخرى ، القدرات الحديثة الإكتشاف فى الخزن و مراكمة الفوائض ، إختلافات فى المراكمة المادية على الأرجح قد إتخذت دلالة أكبر. مثل هذا **اللاتكافئ** أكثر من أية درجة محدّدة من المراكمة هو على الأرجح العامل الأهمّ الدافع للتطوّر الأوّلي للإنقسامات الإجتماعية على النطاق الواسع فى

المجتمعات الإنسانية . و مجدّدا بينما لا مقابلة معينة تحتاج لأن تكون عدائية ، المسألة هي **الآن** عندما تحتدم التناقضات العدائية لأية أسباب كانت (إختلافات شخصية ، أو نزاعات متصاعدة متجذّرة فى المراكمة المادية غير المتكافئة أو مختلف مفاهيم " الملكية ") سيوجد شيء للنهب (و الدفاع عنه !) ، وستوجد القاعدة المادية لنشاطات الناس لمزيد مفاقمة الإختلافات فى الموارد المادية بينهم – لمصلحة البعض و على حساب الآخرين .

الرجال الذين خلال الصيد مسحوا نموذجيّا أراضي أبعد من النساء و إستعملوا أسلحة بصورة متكرّرة أكثر ، ينزعون وهو الأكثر إحتمالا لأن يكونوا فى موقع القيام بالهجمات على موارد المجموعات الأخرى – متملّكين الغذاء و الأدوات أو حتى البشر الذين يستطيعون القبض عليهم و الذين هم على الأرجح الأقلّ حركة من النساء و الأطفال . و من الممكن أنه وقع إدماج هؤلاء ضمن مجموعات الأسرى و ليس بالضرورة بالكثير من العسف و إلحاقهم بالنشاطات الإنتاجية للمجتمع بمعنى تحويلهم إلى جزء من " الموارد " .

بالضبط مثلما تحكّم الرجال فى إعادة الإنتاج المختلفة للحم المرغوب فيه بكثرة فى مجتمعات التجميع (و عبره تحصّلواعلى قدر من المنزلة و التحكّم المختلفين) فى المجتمعات حيث ظهر النهب كنشاط إجتماعي متسق كانوا ينزعون نحو تنظيم النساء و الأطفال الذين بالمشاركة فى النشاطات الإنتاجية لمجموعاتهم الجديدة قد يحصلون على ضرب من القيمة التبادلية و يتاجرون بهم و يقدمونهم كهدايا إلخ . المسألة ليست أنّ هذا حدث بين ليلة و ضحاها (و ليس بالتأكيد أنّه كان نسبيّا محدّدا بيولوجيّا !) بل إنّه مع مزيد توسّع القاعدة المادية للمجتمع على أساس اللاتكافئ (اللاتكافئ الإجتماعي ضمن مجموعة ناجم عن تقسيم العمل و اللاتكافئ بين مختلف المجموعات ذات القواعد المادية المتباينة) ، النساء على الأرجح و ببساطة أصبحن مرفوقات بمفهوم الملكية المتطوّر . و هكذا كانت النساء عادة بصفة متصاعدة عرضة للقوانين و القواعد التى تستهدف التحكّم عن كثب فى نشاطاتهنّ الجنسية و إنتاج الأطفال – و من هنا جذور القواعد التى تحول بينهنّ و إتخاذ أكثر من عشير واحد بينما فى عديد الحالات سيواصل الرجال إتخاذ أكثر من " زوجة " (31) واحدة . ومع تطوّر القاعدة الإنتاجية للمجتمع ، من غير الصعب عدم رؤية كيف أنّ مثل هذا النظام يمكن أن يكون قد إنتشر ليشمل إتخاذ رجال عبيد، لا سيما بعد توسع النشاطات الإنتاجية لتشمل الزراعة المنظّمة الأولية التى ستوفّر مواردا غذائية أكثر ، و الحاجة إلى أنماط حياة أكثر إستقرارا ، و القدرة على الحفاظ على مجموعات أوسع بكثير ، و التحوّل نحو نمط إنتاج (فلاحة) يتطلّب عملا شديدا لعدد من الناس فى منطقة محدّدة .

مجال فى حاجة إلى مزيد البحث هو مجال تطوّر تقسيم العمل بين الرجال و النساء و تبعاته فى ما يتصل **بالإنتقال** من مجموعات التجميع إلى مجموعات بستنة . يقدّم إنجلز فرضية كان يدافع عنها على نطاق واسع إلى السنوات الأخيرة ، بانّ الرجال كانوا نموذجيّا مسؤولين عن توفير معظم الموارد الغذائية فى المجتمعات البدائية ؛ و لم يدرك مدى نزوع النساء فعليّا إلى التزويد المنتظم بالغذاء المستهلك فى مجتمعات التجميع من خلال نشاطاتهن التجميعية . التحكّم فى الإنتاج و توزيع الغذاء كقاعدة إقتصادية موسّعة لتشمل صيد الحيوانات و الأشكال الأولية للفلاحة كانت بالتالي مفترضة من قبل إنجلز على أنّها عامة بيد الرجال كإمتداد طبيعي لنشاطاتهم السابقة . و قد إعتقد إنجلز أيضا أنّ تدجين القطعان الحيوانية سبق تدجين النباتات . و بالفعل كلا النشاطان يمكن أن يكونا قد ظهرا بالتوازي أو على عكس ما ذهب إليه ، جرّاء الموقع الجغرافي و التغيّرات الموسمية إلخ . إذ أنّ إنخراط الرجال نموذجيّا فى غالبيتهم فى الصيد قد مكّنهم تماما من الشروع فى تدجين الحيوانات و التحكّم فى القطعان الأولى . و بالعكس كانت نشاطات النساء التجميعية على الأرجح علّمتهنّ ملاحظة طرق النباتات (فى المجتمعات البدائية كانت النساء عادة تعرفن أكثر عن الأعشاب الطبية مثلا حتى حين كان الشفاء الروحي و إستعمال نباتات الهلوسة غالبا مجالا مخصّصا للرجال) و ملاحظة نبات البذور وبزوغ السقان الدرنية التى كنّ يجمعنها ، و من الممكن أن تكون النساء قد بادرن بأوّل الزراعات و تعهّدن أوّل البساتين (كانت النساء بالفعل تتعهّد الحدائق و الحقول فى أنظمة أساسية فى البستنة) و كنّ تخزّنّ الحبوب.

من غير الواضح كيف أنّ توزيع المحاصيل كان نموذجيّا يدبّر و كذلك من غير الواضح كيف دخل الرجال هذا المجال من النشاط مع تراجع أهمّية الصيد . لعلّ الرجال شرعوا فى الحصول على العبيد و التحكّم فيهم (" الماشية الإنسانية ") لتوسيع النشاطات الفلاحية ، و من ثمّة أزاحوا النساء من هذا المجال و كسبوا التحكّم فى الحقول و فى توزيع المنتوجات .

عند الحديث عن ظهور الطبقات ، شرح إنجلز :

" إنّ إنقسام المجتمع إلى طبقتين - إستغلالية و مستغَلّة ، سائدة و مضطهَدة - كان نتيجة حتمية للتطوّر السابق الطفيف للإنتاج . و طالما أنّ العمل الإجتماعي الإجمالي يعطى منتوجا لا يكاد يتجاوز أسباب المعيشة الأكثر ضرورية للجميع ، و طالما أنّ العمل يستغرق بالتالي ، كل وقت الأغلبية الهائلة من أفراد المجتمع ، أو وقتهم كله تقريبا ، يظلّ هذا المجتمع مقسما من كل بد إلى طبقات " (إنجلز 1878، ص 369 بالأنجليزية ؛ صفحة 328 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو).

إنّه لمجرّد مؤشّر لبقاء بدائية المجتمعات الإنسانية أنّ مزيد التوسّع و التغيّر فى القواعد المادية للمجتمعات إلى هذه النقطة لم يستطع أن يجدّ دون مثل هذه الإنقسامات و ما نجم عنها من إستغلال و إضطهاد لقطاعات واسعة من الإنسانية . لكن الآن قد بلغنا مرحلة أين توجد القاعدة المادية للمضيّ أبعد من هذا النوع من التنظيم الإجتماعي و فعلا هذه الإنقسامات الإجتماعية ، بعيدا عن زيادة تطوير القاعدة المادية للمجتمع الإنساني ، هي فعلا و **لأوّل مرّة فى التاريخ ، تمنع** مزيد تطويره . و مثلما وضع ذلك إنجلز :

" و بالفعل فإنّ زوال الطبقات الإجتماعية يتطلب بلوغ درجة من التطوّر التاريخي يغدو فيها ظاهرة بائدة ولى زمانها ليس فقط وجود هذه الطبقة المسيطرة المعنية أو تلك ، بل و وجود أية طبقة مسيطرة عموما، وبالتالي التقسيم إلى طبقات نفسه . و هكذا يتطلّب زوال الطبقات درجة رفيعة من تطوّر الإنتاج يغدو فيها إستئثار طبقة إجتماعية خاصة بوسائل الإنتاج و المنتوجات – و معها السيطرة السياسية و إحتكار التعليم و الزعامة الروحية – ليس نافلا فقط ، بل يصبح عائقا أمام التطوّر الإقتصادي و السياسي و الثقافي ." (إنجلز 1878 ، ص 364-365 بالأنجليزية ؛ صفحة 228-229 من النسخة العربية لدار التقدّم ، موسكو).

و اليوم فى عصر الإمبريالية ، علاقات الإنتاج السائدة فى العالم نظام عالمي مندمج و مترابط بدرجة عالية . إنّها فترة متميّزة بالتناقض الحاد الهائل بين الملكية الفردية و التملّك الفردي لوسائل الإنتاج من جهة و الإستعمال الجماعي لهذه الوسائل . لدرجة تفوق كثيرا ما بلغته سابقا ، قوى الإنتاج العالمية يجب أن تستعمل بصفة مشتركة كإنتاج مذرّر و على نطاق فردي ضيق يقع بسرعة تعويضه بنشاطات إنتاج على نطاق واسع تتطلّب المشاركة (34) المنسّقة لأعداد كبيرة من الناس . و عدم التوازن الموجود فى العالم يفاقم حتى أكثر عدم ترجيح إمكانية أن تتحقّق إعادة الهيكلة الجوهرية اللازمة للعلاقات الإجتماعية على النطاق العالمي أن تداهم فى مرّة واحدة ، لكن قاعدة مثل هذا التغيير الكوني متوفّرة و ثمّة آفاق القيام بخطوات جبّارة فى هذا الإتجاه بالإطاحة و تفكيك كلّما و حيثما كان ذلك ممكنا الثقل القاتل للبنية الفوقية التى تخدم الحفاظ على تقسيم العمل القائم مع كلّ البؤس و الإضطهاد غير الضروريين الناجمين عن ذلك ، فى سبيل الغالبية الساحقة من الإنسانية .

كم هو باعث للسخرية و كاشف إذن أنّه بالضبط مع حصولنا فى النهاية على مستوى يوفّر قاعدة مادية للتخلّص من الإضطهاد و الإستغلال على نطاق عالمي ، هناك خطوط طويلة من المادحين فى ميدان العلوم و فى وسائل الإعلام تجنح إلى ما هو متخلّف لتجد نوعا من – أي نوع من – الدليل على مفهوم أنّه هناك بعض المميّزات القارة الفطرية للطبيعة الإنسانية تجعل من هذه القفزة غير ممكنة : بقدر ما تطفح الأدلّة المادية التاريخية لتناقض هذه الحجج ، بقدر ما صراحة يبدو أنّهم يبحثون عن مثل هذه الأدلّة ، و يجبرون أكثر فأكثر على العودة إلى الوراء فى الزمن إلى جذورنا الأوّلية ، و مع ذلك هم غير قادرين على مدّنا و لو بظلّ واحد لدليل على الفطرية المفترضة و عدم القدرة تبدّل المميزات الإجتماعية للإنسان . يا لها من نظرة – و ياله من نظام تعكسه و تخدمه – تريد و تحتاج بيأس ، ضد الدلائل المتراكمة أبدا على العكس ، إلى تعليل نسبيّا " فطري " لسبب عدم إمكانية تجاوز إستغلال و إضطهاد قسم من الإنسانية لقسم آخر !

و بالرغم من كلّ ذلك ، كافة تاريخ الإنسانية و البيولوجيا ذاتها يلتقيان ليشيرا إلى الإتجاه العكسي كاشفين من يمثّل فى الواقع مرونتنا السلوكية الهائلة و قدرتنا على التغيّر الإجتماعي فى علاقة بالتغيرات فى الظروف المادية الخارجية التى نحن بصورة متزايدة قادرون على التأثير فيها و صياغتها .

معالجة مشاكل الإنقسامات الإجتماعية و الجور فى العالم المعاصر – بما فى ذلك إنقسامات الهيمنة على النساء و إضطهادهنّ- يبقى مقنّعا بعدد لا يحصى و من قبيل أوهام " أساطير الأصل " القائمة على الحتمية البيولوجية أو الثقافية . إنّهما جميعا جوهريّا مثالية ، كلاهما لأنّهما تعتمدان على فرضيّات لا أدلّة عليها صيّرت على الأرجح بفعل التطوّرات المادية الفعلية (مثل مفهوم يستند إلى قاعدة جينية خاصة لسلوكات إجتماعية خاصة لدى الإنسان) و تخفق فى أن تعترف

و تأخذ بعين الإعتبار الظروف الإجتماعية المادية الموجودة التى حدّدت إطار تغير المجتمعات الإنسانية (مثل القاعدة الناشئة لإضطهاد النساء فى التقسيم الإجتماعي الأكثر أوّلية للعمل وفق خطوط الجنس). قاعدة القضاء على الإستغلال و الإضطهاد ضمن البشر فى الأفق الآن رغم أنّ هذه القفزة ستتطلّب إنقلابا شاملا على العلاقات الإقتصادية و السياسية السائدة و على التثوير الصريح لمجال الأفكار . ستكون هذه القفزة ذات دلالة و محدّدة لمستقبل الحياة البشرية مثل ما كانت محدّدة تلك التى مثّلت الظهور الأوّل للقدرة على مراكمة فائض من الإنتاج بالنسبة لكافة تاريخ الإنسان إلى حدّ الآن .و فى هذه المرّة أيضا أنثى جنسنا ستنهض بدور حيوي ، و حقّا جوهري ، دور فى تحقيق القفزة لكن بنتيجة هذه المرّة هي تحريرها التام و تحرير الإنسانية جمعاء من كافة أشكال الإضطهاد و اللامساواة الإجتماعية .

==

ملحق : لماذا كان إنجلز متقدّما بخطوة ؟

فى علاقة بإستمرار " أساطير الأصل " المثالية ، من المفيد التفكير فى شدّة التمسّك بأسطورة خاصة ، أسطورة " أسبقية الدماغ " . فهذه الفكرة ظلّت متخندقة بعمق فى النظريّات السائدة بشأن تطوّر الإنسان على الأقّل إلى عشرينات القرن العشرين عندما كانت بقايا " ألوسترالوبتاسينس " الأوّلين قد جري إكتشافها مبيّنة أنّه لديهم دماغ صغير مع وضعية الوقوف (35) و المظهرالأساسي لهذه الأسطورة يكمن فى مفهوم أنّ ما يميّز " الهوموسابيانس " عن بقية العالم الحيواني هو مجال الأفكار : التفكير منفصلا عن أية مادة و أية قدرات و تفاعلات فيزيائية مع مادة أخرى . و فى عديد الأساطير الدينية و أنظمة مثالية أخرى من التفكير ، إتخذ هذا شكل إزدواجية مثالية بين " الجسد " و " الروح" أو بين " المادة " و " العقل ". وفى الزمن الحديث لا سيما منذ أن سلّطت نظريات داروين بشأن الإنتقاء الطبيعي والجنسي الضوء على القواعد المادية لظهوروتغير كافة أشكال الحياة و تشابك علاقاتها الكامنة، صار أعسر بكثير السعي لفصل الإنسان عن مثل هذه السيرورات و وصفها بأنصاف الآلهة. العديد عندئذ قاموا بتراجع جزئي معترفين بأنّ الإنسان كان أيضا نتاجا للسيرورات المادية للإنتقال الطبيعي لكن إلتصاق مفهوم أنّ الخطوة المفتاح تتوسّط الإختلاف التطوّري بعيدا عن القردة الجدود كانت ظهور ذلك المحلّ للتفكير المنطقي جدّا و السياسة المنظمة جدّا للدماغ الإنساني .

و مع ذلك ، الآن من الواضح و ما لا يمكن وضعه موضع سؤال إنطلاقا من المعلومات المتتالية من المستحاثة أن توسّع الدماغ لم يكن المعطي المفتاح فى تمايز خطّ " الهومينيد " عن القردة ؛ بدلا من ذلك الخطوة البدائية و الحيوية كانت ظهور وضعية الوقوف على رجلين و ما إنجرّ عنها من تحرير للأيدي من أجل نشاطات أخرى غير التنقّل . و هكذا لا شكّ فى أنّ إختلافنا عن القردة الجدود لم تتوسّطه أية قدرات تفكير خاصة مختلفة عن قدراتنا على تغيير المادة لكن بالعكس تماما : التغيرات المفاتيح فى قدرتنا على تغيير المادة عبر العمل أرست قاعدة تطوّر أدمغتنا و قدراتنا على التفكير المجرّد .

تاريخيّا ، جدّت مقاومة كبيرة لهذا المفهوم حتى أنّ أسطورة أسبقية الدماغ ظلّت نظرة سائدة حتى ضمن علماء التطوّر إلى عقود قليلة فقط ؛ إلى حين أجلت معلومات المستحاثة أن وضعية الوقوف على الرجلين أتت اوّلا . و لكن هذا ليس مجرّد مسألة جهل يمكن إستبعادها لا غير بإكتشاف مزيد الدلائل المادية فى شكل مستحاثات . لمدّة طويلة قبل إكتشاف المستحاثات التى ستقدّم هذا " الدليل " وضعت ثلّة من العلماء (لا سيما أرنست هيكل) نظرية أسبقية الدماغ موضع سؤال و إقترحوا أنّ وضعية الوقوف على الرجلين هي العامل الذى لعب الدور المفتاح فى التمايز عن القردة . و " نظرة الأقلّية " هذه تبنّاها أيضا إنجلز الذى كتب فى 1876 **" دور العمل فى تحوّل القرد إلى إنسان "** ، وهو بحث وقع تجاهله إلى درجة كبيرة لكنّه بقوّة عرض نظرة أنّ التحوّل من قردة يجب أن يكون بداية توسّط تطوّر فى وضع القيام إلى وضعية الوقوف التى ستحرّر الأيادي للعمل . و هذا ما أطلق عليه إنجلز " الخطوة الحيوية فى تحوّل القرد إلى إنسان " .

و شدّد إنجلز على أنّ العمل ليس فحسب مصدر جميع الثروة فى المجتمعات الإنسانية ، بل أيضا " الشرط الأساسي الأول للحياة البشرية كلّها " (1876، ص 279 بالأنجليزية ؛ صفحة 163 من النسخة العربية لدار الفرابي ، بيروت 1988) و عاكسا المقاومة الهائلة لهذه النظرية فى الأوساط العلمية فى أيامه ، كتب إنجلز أنّه مع تطوّر المجتمعات الإنسانية ، ظهرت ليس فقط الأشكال الأكثر تطوّرا من الإنتاج الفلاحي و الصناعي بل كذلك الفنّ و العلم و التنظيم الإجتماعي المعقّد و القوانين و الدين :

" حيال كلّ هذه التشكلات ، التى ظهرت ، فى المقام الأوّل ، على أنّها نتاجات للدماغ ، و بدت و كأنّها شيء مسيطر على المجتمعات البشرية ، فإنّ الإنتاجات الأكثر تواضعا ، إنتاجات اليد العاملة ، إنتقلت إلى المرتبة الثانية، لا سيما أن الدماغ ، الذى يخطّط للعمل ، كان بإمكانه ، منذ المراحل الأولى من تطوّر المجتمع (فى الأسرة البدائية ، مثلا) ، تنفيذ العمل ، الذى يقرّره ، بأيد غير يديه . فإلى العقل ، إلى تطوّر الدماغ و نشاطه ، بدأ الناس ينسبون كلّ الفضل فى التطوّر السريع للمدنية . و إعتادوا على ردّ أفعالهم إلى فكرهم ، بدلا من ردّها إلى حاجياتهم (التى تنعكس ، بالطبع ، فى الدماغ ، و تدرك عقليّا). و هكذا تولّدت ، مع الزمن ، تلك النظرة المثالية إلى العالم ، التى ، إستحوذت على العقول ، لا سيما منذ إنهيار العالم اليوناني القديم . وهي لا تزال تسيطر على العقول سيطرة نجد معها أنّه حتى أكثر العلماء من مدرسة داروين نزوعا نحو المادية لا يزالون غير قادرين على تطوير تصوّر واضح عن نشأة الإنسان ، إذ أنّهم ، بحكم التأثير الإيديولوجي المذكور ، لا يرون الدور ، الذى لعبه العمل فى هذا التطوّر ." إنجلز 1876 ، ص 289 بالأنجليزية ؛ صفحة 170 من النسخة العربية لدار الفرابي ، بيروت 1988) .

كيف يمكن لإنجلز أن يكون أقرب بكثير من الحقيقة من غالبية " العلماء الأخصّائيين " فى زمنه ؟

يكمن الجواب فى تطبيقه لمنهج المادية الجدلية و التاريخية الذى خوّل لماركس و إنجلز فهم العوامل و الأسس الجوهرية المحدّدة للتغيير فى مختلف المجتمعات الإنسانية عبر الزمن . و كانا قادرين على فهم أي مجتمع إنساني معيّن يتميّز بأنماط الإنتاج السائدة المتناسبة و قوى إنتاج معيّنة و بالعلاقات بين البشر المتناسبة مع سيرورات الإنتاج هذه ، و إستوعبا أنّ هذا مثّل القاعدة الأساسية التى عنها نشأت المؤسسات السياسية و الإيديولوجية و الأفكار الخاصّة ، عوض العكس . و إستطاعا كذلك أن يُحلّلا القطيعتين التاريخيتين الكبيرتين و الإنقلابات الإجتماعية الكبرى التى تتوسّط الإنتقال من شكل من المجتمع إلى آخر (أي الإنتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية). أكّدا أنّ لهذا جذوره فى تطوّر قوى إنتاج المجتمع إلى درجة صارت تكبحها و تعرقلها علاقات الإنتاج و أشكال البناء الفوقي التى أفرزتها فى الأصل . و إحتداد هذا التناقض لا يمكن معالجته إلاّ عبر الإطاحة بهذا الثقل الإجتماعي القاتل . لقد مكّنهما هذا الفهم للسيرورة الجدلية للتغيّر الإجتماعي ، المتجذّر فى التطوّر فى التطوّرات المادية فى الإنتاج المشروطة تاريخيّا ، من ربط كافة التاريخ الإنساني السابق بكلّ تنوّعاته و تعقيداته و الإحاطة به و إستخلاص القوانين الأساسية للتغيّر الإجتماعي منه . وهو ما سمح بلا شكّ لإنجلز بأن ينظر برؤية ثاقبة للعوامل التى تتوسّط الإنتقال من القرد إلى الإنسان . و إن وقع تجاهل هذه الرؤى الثاقبة لعقود ، فإنّها اليوم لم تعد قابلة للإنكار حتى من طرف الذين بينما يعترفون بتلكّؤ بالأدلّة غير القابلة للدحض ، يواصلون همهمة واهية مفادها عدم صلوحية الماركسية .

33- درجة تعدّد الزوجات لدى الرجال تتناسب على الأرجح تناسبا شديدا مع الموارد المادية التى يتحكمون بها أو قد ترتهن بها . لدي الكونغ مثلا ، لغالبية الرجال زوجة رسمية واحدة رغم أنّ زوجة ثانية مقبولة و حتى مصدر مكانة لكن معظم رجال الكونغ ليس بوسعهم ببساطة أن يوفّروا ما يكفى من اللحم ل " يقدموا على " زوجة ثانية و عائلة متسعة بما يعنيه ذلك من إلتزامات تجاه مزيد من الأقارب إلخ . و نموذجيّا تتزوّج نساء الكونغ عدّة مرّات فى حياتهنّ ، بيد أنّه بينما يكون لديهن عدد من العشّاق غير الرسميين ، ليس لديهنّ سوى " زوج " رسمي واحد كلّ مرّة . و عادة تعارض نساء الكونغ (و قد نجحن فى منع) إتخاذ الزوج زوجة ثانية و لو أنّ هذه الزوجة الثانية قد تساعدها على التجميع و النشاطات الأخرى . و مثل هذه المقاومة للزوجة الثانية تبدو غالبا على الأقلّ فى جزء منها مرتبطة بكون الإلتزامات الإضافية للرجل يمكن أن تقلّص من كمّية اللحم الموفّرة للزوجة الأولى و لأطفالها .

34- إستعرت هذه المفردة من بوب آفاكيان الذى كتب مثلا : " هذا العصر ، عصر الإمبريالية و الثورة الإشتراكية و مشكلة الإنتقال إلى الشيوعية عالميّا قد صارا أعقد ممّا وصفته فى " كسب العالم ..." ب " عدم التوازن فى العالم " . و ما يحيل إليه هذا هو بالفعل أنّ فى عالم اليوم قوى الإنتاج المتقدّمة متركّزة بين أيدى ثلّة من البلدان المتقدّمة – أي الإمبريالية – بينما إقتصاديات غالبية البلدان فى العالم ليست متخلفة فقط بل مشوّهة و مفكّكة فى تطوّرها بسبب الهيمنة والنهب الإمبرياليين "(أفاكيان،1983، ص 141).

35 – من أجل نقاش ممتع و فيه تحدّي للتفكير لكيف أنّ شدّة التمسّك بأسطورة أسبقية الدماغ قد ساهمت فى القبول طويلا لبلتداون مان فرود وكيف يتواصل إحياؤها فى الأدب المعاصر مثل أعمال آرثور كوسلار، أنظروا غولر 1980 ، ص108- 124 و 131).

مراجع كتاب " عن الخطوات البدائية و القفزات المستقبلية... "

(كما وردت فى آخر صفحات الكتاب بالأنجليزية)

References

Avakian, Bob 1979 *, Mao Tsetung's immortal contributions.*

Chicago: RCP Publications.

------1983 , *For a Harvest of Dragons: On the " Cursis of Marxism " and the power of Marxism , Now More Than Ever* .

Chicago: RCP Publications.

Chrover, Stephan L. 1980 .*From Genesis to Genocide: The meaning of Human Nature and the power of Behaviour Control*. Cambridge : MIT Press.

Donner , Florinda 1982 .*Shabono*. New York : Delacorte Press.

Eldredge , Niles , and Stephan Jay Gould 1972.*Functionated equilibria: an alternative to phyletic gradualism. In Models in Paleobiology*, edited by TM Schopt. San Francisco : Freeman . Cooper :& Co.

Engels , Frederic .1876 . *On the part played by labour in the transition from ape to man . In Dialectics of Nature*, by Engels. New York . International Publishers, 1940 ed.

------ 1878. *Anti – Duhring*. Peking : Forein Language Press, 1976 ed

------ 1884. *The origin of family, Private Property,and the State*, with an introduction by Eleanor Burke Leanock. New York: International Publishers, 1940 ed

Flannery , Regina. 1932. *The position of women amoung the Eastern Cree*.

Primitive man 12. 81-86.

Frish, Rose E. 1978 .*Population, food intake and fertility*. Science 199:22-30.

Gould , Stephen Jay 1977. *Ever Since Darwin*. W.W Norton.

------1978. *Sociobiology: the art of storytelling*. New Scientist 80. 530-533.

------1980. *The Panda's Thumb*, New York : W.W. Norton.

------ 1981. *The mismeasure of man* .New York: W.W. Norton.

------ 1983. *Hen's Teeth and Horse's Toes*. New York: W.W. Norton.

Gould, Stephen Jay , and Niles Eldredge. 1977*. Punctuated equilibria; the tempo and mode of evolution reconsidered.*

Palebiology 8 : 115-151.

Gould, Stephen Jay , and R.C Lewontin. 1979. *The spandrels of San Marco and the Panglossian paradigm: a critique of the adaptationist programme*. Proceeding of the Royal Society of London B205: 581-598.

Gould, Stephen Jay , and Elisabeth .S . Vrha. 1982. *Exaptation- a missing term in the science of form*. Palebiology 8 [1]: 4-15.

Hrdy, Sarah Blaffer. 1981. *The Woman That Never Evolved*. Cambridge : Harvard University Press.

Kurten , Bjorn.1978. *Dance of the Tiger* : A Novel of the Ice Age, with an introduction by Stephen Jay Gould. New York: Berkley Books.

Lee, Richard B. 1979. *The !Kung San : Men , Women and Work in a Foraging Society*. New York : Cambridge University Press.

Lewontin, R. C, Steven Rose , and Leon J. Kamin 1984. *Not in our Genes : Biology, Ideology and Human Nature .* New York: Pantheon Books.

Lorenz, Konrad. 1966*. On Agression* . New York : Harcourt Brace Jovanovich.

Marx, Karl . 1859.*Preface and Introduction to a contribution to the critique of Political Economy.* Peking : Forein Languages Press , 1976 ed.

Mayr , Ernst . 1982. *The Growth of Biological Thought- Diversity , Evolution and Inheritance*. Cambridge: Harvard University Press.

-----1983. *How to carry out the adaptioninst program?* American Naturalist 121:324-334.

Morgan , Elaine. 1971. *The Descent of Woman* . New York . Stein and Day.

Savage-Rumbaugh, E . Sue , and Beverly J. Wilkerson. 1978. *Sociosexual behavior in Pan paniscus and Pan troglodytes : a comparative stu*dy. Journal of Human Evolution 7 : 327- 344.

Shostak, Marjorie. 1981. *Nisa: The Life and Words of a !Kung Woman*. Cambridge: Harvard University Press.

Tanner , Nancy Makepeace. 1981. *On Becoming Human*. New York: Cambridge University Press.

Wilson , Edward O . 1978. *On Human Nature*. Cambridge:Harvard University Press.

الباب الرابع :

تطوّر الكائنات البشريّة

الفصل السابع من " علم التطوّر و أسطوريّة فكر الخلق ... "

) محتويات الكتاب برمّته :

مقدّمة

الفصل الأوّل : نظرة عامّة :

- إذن ما هو التطوّر على كلّ حال ؟

- ما المشترك بين كافة أنظمة التطوّر ؟

- ملايين و بلايين السنين .

- ما تقول لنا الأحافير .

- إذن ما الذى أدركه داروين ؟

- ما تعلّمه داروين من المزارعين عن الإنتقاء .

- هل وقع حقّا إختبار نظريّة داروين عن الإنتقاء الطبيعي و أثبتت صحّتها ؟

إضافات إلى الفصل الأوّل :

بدايات ظهور الحياة .

لا يريد منك كلّ إمرء أن تكون على معرفة بالتطوّر .

أساطير فكر الخلق .

تقنيات التأريخ .

كان التغيير فى الجوّ .

التحوّلات الجينيّة و الآثار المؤسسة .

إستمرار الحياة على هذا الكوكب ليس أمرا معطى .

الفصل الثانى : أدلّة التطوّر الجاري متوفّرة حولنا :

- التطوّر الجاري اليوم .

- التغيّر التطوّري الملاحظ ضمن سكّان الموث .

- أين كنّا سنكون دون ذباب الغلال ؟

- نوع سنقسم إلى إثنين على ضفتي الكانيون الكبير .

- بضعة كلمات عن أصحاب فكر الخلق .

إضافات إلى الفصل الثاني :

تحوّلات الموث .

التطوّر جاري – توزيع خلايا الجينات المنجليّة ضمن المجموعات البشريّة .

مثال تطوّر جاري مهمّ فى معالجة إصابات نقص المناعة .

الفصل الثالث : مراجعة بعض النقاط المفاتيح بصدد التأقلم :

الفصل الرابع : كيف يُفرز التطوّر أنواعا جديدة تماما :

- كيف نعرف أنّ شيئا قد حصل فعلا إن لم نكن هناك لنراه ؟

- ظهور الأنواع و تنوّع الحياة متجذّران فى نفس قاعدة الظاهرة ، بما فى ذلك الإنتقاء الطبيعي .

- ليس بوسع الكائنات الحيّة إلاّ أن تتطوّر .

- كيف تظهر إلى الوجود أنواع جديدة تماما ؟

إضافات إلى الفصل الرابع :

هل نحن ملزمون بالتطوّر ؟ دور عوامل الصدفة و غيرها فى التطوّر .

تطوّر مقاومة مبيدات الحشرات فى صفوف مجموعة من الحشرات .

الفصل الخامس : المزيد عن التوالد المنعزل و ظهور الأنواع و التجديدات التطوّرية :

- أليآت التوالد المنعزل .

- توالد مجموعات منعزلة يمكن بصفة خاصة أن يبيّن أكثر " تجديدات " تطوّريّة صغيرة و تغيّر تطوّري سريع .

- بعض أسباب عدم ظهور أنواع .

- محور جدال البيولوجيين التطوّرين و ما يعنيه ذلك و لا يعنيه .

- بضعة كلمات عن ما يسمّى ب" الفجوات " فى سجلاّت الأحافير .

- لا تتطوّر جميع الخطوط التطوّرية بنفس النسق .

- لا وجود لضمانات فى التطوّر .

- آثار الإنقراضات الجماعيّة .

- أمام أعيننا تظهر أنواع ؟

الفصل السادس : التطوّر واقع ثابت – الأدلّة الملموسة تأتى من عديد الإتجاهات المختلفة :

- الماضي يترك بصماته على الحاضر .

- الأدلّة المباشرة للتطوّر من كلّ من سجلاّت الأحافير و سجلاّت الذرّات.

- أدلّة غير مباشرة على التطوّر :

• تطوّر الجنين .

• معطيات أثريّة (" باقية " أو " متروكة ") .

• معطيات متماثلة .

• إلتقاء .

• " تصاميم إختيارية فرعية " : مراوغات الطبيعة و عيوبها .

• التوزّع الجغرافي للأنواع حول العالم .

• واقع أنّ ميزات الكائنات الحيّة تنسجم فى نظام من " شبكة " تصنيف تراتبيّة .

الفصل السابع : تطوّر الكائنات البشريّة

- من نحن؟ من أين أتينا ؟ كيف سيكون المستقبل ؟

- تطوّر الإنسان من أنواع غير إنسانيّة وجدت قبله :

- بعض الوقائع الأساسيّة عن التطوّر :

- ثمّ هناك الأحافير – الكثير من الأحافير :

- تلخيص مقتضب :

- ماذا يعنى عمليّا أن " تصبح إنسانا " ؟

- نحن الطفل الصغير ضمن الكتلة

- ظهور أنواع جديدة و تعزيزها :

- ظروف مفاتيح فى تطوّر الإنسان :

- الأدلّة الواضحة و المتراكمة عن التطوّر من قردة إلى إنسان :

- لماذا نوعنا من الهومينيد هو الوحيد الذى لا يزال منتصب القامة [واقفا] ؟

- ما الذى يجعلنا خاصّين جدّا ، و إن بالنسبة لأنفسنا ؟

- القفزتان الكبيرتان فى تطوّر الهومينيد :

- سلسلة مراحل إنتقاليّة من الملامح الأشبه بالقردة إلى ملامح أشبه بالإنسان :

- هل كان الهومينيد الأوائل" مجرّد قردة " دلالة تطوّر التنقّل على قدمين على طريق التحوّل إلى إنسان:

- لذا ، هل نحن مجرّد حادث ؟

- تلخيص و نظرة عامة :

- صلة بيئيّة ممكنة :

- نوع واحد – عبر العالم بأسره :

نوع يغيّر العالم تغييرا جذريّا

إضافات إلى الفصل السابع

الإنسان و الديناصورات ؟! فكرة عبثيّة أخرى لأنصار فكر الخلق .

الحمض النووي لدى الشنبنزي ولدى الإنسان : إلى أي مدى نتقارب ؟

هل كان توماي أحد أسلافنا ؟

ميف ليكي تمسك بآخر إكتشافاتها للأحافير

هل أن الهومو أركتوس أوّل أنواع الإنسان التى غادرت أفريقيا ؟

جميعنا أتينا من أفريقيا

ماذا يقول لنا علم التطوّر عن " الأعراق " الإنسانيّة ؟

ألا يزال الإنسان يتطوّر ؟

<u>الفصل الثامن : فكر الخلق المناهض للتطوّر و الهجوم الشامل على العلم بإسم الإلاه :</u>

- دون علم التطوّر لم يكن ليوجد أيّ علم – إلى هذا الحدّ هو جوهري .

- علم التطوّر و فيروس سارس .

- علم التطوّر و زرع الأعضاء و " قطاع الغيار " فى المستقبل .

- ما يجب على كلّ إنسان معرفته عن أصحاب فكر الخلق .

- باعة زيت الثعابين و المشعوذون أمام المحكمة ز

- إنّهم يستهدفونك أنت !

- " لكن كيف يمكن لنا أبدا أن نكون متأكّدين من صحّة أي شيء ؟ " .

- مثل هذه النسبيّة الفلسفيّة توفّر لأنصار فكر الخلق فضلات سهلة .

- نظرية التطوّر – أيّة نظريّة علميّة هي .

- الإعتراف بالحقيقة العلمية و المطالبة بها و القتال من أجلها .

- دليل لحديقة حيوانات فكر الخلق .

- أصحاب فكر الخلق المدافعين عن حداثة كوكب الأرض .

- أصحاب فكر الخلق المدافعين عن قِدم كوكب الأرض .

- أصحاب فكر الخلق التقدّميّون و أصحاب فكر الخلق التطوّريّون .

- التطوّريّون المؤمنون .

- أصحاب فكر الخلق المدافعون عن المصمّم الذكي .

- دحض " فكر الخلق العلمي " من المدرسة القديمة .

- القانون الثاني للحركة الحراريّة .

- مثال نموذجي آخر لمناهج فكر الخلق : الإلاه فى فجوات ؟

- مثال آخر من التطوّر ذو أهمّية كبرى : تطوّر الفيلة .

- المتحوّلون ليسوا وحوشا .

- عُمر الأرض (و عمر الكوكب) مشكل كبير بالنسبة لفكر الخلق .

- " ربّما جعلها الإلاه **تبدو** قديمة ، و ربّما جعلها أيضا **تبدو** كما لو أنّ الحياة قد تطوّرت " .

- هل سيقوم إلاه عالم بهكذا شيء بتصاميم غير دقيقة ؟

- الغلاف الجديد لفكر الخلق لن يخدعنا : نظريّة المصمّم الذكيّ لا تزال بعدُ مجرّد دين – ليست علما - و لا تزال خاطئة !

- فكرة دمبسكى عن " مصفاة مصمّم " .

- بيهي و فكرة " التعقّد غير ممكن الإختزال " ك " دليل " على " المصمّم الذكي " .

- التطوّر الطبيعي التام للسيرورات البيوكيميائيّة المعقّدة ذات الأجزاء المتعدّدة .

- مسألة مناهج ، مسألة صراع .

- كيف يمكننا أن نبلغ الحقيقة الفعليّة للأشياء ؟

- المزيد عن ما هو خاطئ منهجيّا فلى فكر خلق المصمّم الذكي و فكرة " التعقيد غير القابل للإختزال " كدليل على تصميم إلاهي .

- فكر الخلق وشرطة الأخلاق .

إضافات إلى الفصل الثامن :

- منذ البدايت الأولى و بالنظر إلى المستقبل .

- الإنفجار الكمبري و التوازن الذى يتخلّله و حجّة " فجوات الإلاه " .

- تشويه العلماء العاملين – تكتيك مفضّل لدى أصحاب فكر الخلق .

- تنوّعات نادرة لتقريبا الرمز الجيني العالمي كلّه تمثّل دليلا على التطوّر ، لا على التصميم .

- أنظروا من فى سرير من !

- " مشروع ستيف " : يستعمل التطوّريّون الفكاهة لتسجيل نقطة جيّدة .

- الواقع و تشويهات الواقع – الحقيقة الموضوعيّة و التأثيرات الذاتيّة .

- بعض ما يمكنكم تعلّمه لمزيد معرفة أكاذيب فكر الخلق و تشويهاته .

- التطوّر ليس " مجرّد سيرورة صدفة " .

- هل أنّ الرابحين فى اليانصيب يكسبون بفعل تصميم ؟

عن الكاتبة .

==

مقدّمة :

الرسالة المفتوحة التالية من أرديا سكايبراك إلى قرّاء جريدة " **العامل الثوري** " (الآن " **الثورة** ") نشرت فى الأصل فى ماي2002 للإعلان عن و تقديم سلسلة المقالات القادمة التى يتضمّنها هذا الكتاب. و تعيد إنسايت براس نشرها هنا لأنّها تصلح كمقدّمة مناسبة لكتاب " **علم التطوّر و أسطورية فكر الخلق ... معرفة ما هو حقيقي – و لماذا هو مهمّ** " .

القرّاء الأعزّاء ،

فى الأشهر القليلة القادمة ، أخطّط لكتابة سلسلة من المقالات للجريدة لعرض الأدلّة العلميّة على تطوّر الحياة على هذا الكوكب ، و مقارنة هذا بالإنفعالات المناهضة للعلم لدى الأصوليين الدينيين الذين يخوضون حملات منظّمة لمحاولة تلويث سمعة علم التطوّر و منع الناس من معرفته. وأكثر الأصوليين تطرّفا (المعروفين أيضا ب" أصحاب فكر الخلق ") يشدّدون على أنّ الحياة لم تتطوّر أبدا ، و أنّ كلّ أشكال الحياة المختلفة التى نراها على هذا الكوكب اليوم – كافة النباتات و الحيوانات ، بما فيها البشر – ليست مترابطة تماما ببعضها البعض ،و لا تتقاسم اسلافا ن و ظلّت غير متغيّرة فى المظهر الذى من المفترض أنّها ظهرت به منذ نشوء الأرض ، و أطلقتها يد خالق ما وراء الطبيعة . و الحقيقة هي أنّ العلماء قد كشفوا الكثير من الأدلّة و الإثباتات على العكس لأكثر من قرن و نصف القرن ، و اليوم الغالبيّة العظمى من العلماء عبر العالم بأسره لا شكّ لديهم مطلقا فى الوقائع الأساسيّة للتطوّر . و يعدّ التطوّر عمليّا من أكثر الوقائع الأفضل رسوخا فى العلم كلّه و كشيء أكثر تأكّدا مثلما هو متأكّد واقع أنّ الأرض ليست مسطّحة أو أنّها تدور حول الشمس . و الكثير من التقدّم فى العلم الحديث قد تحقّق **على أساس** فهمنا للتطوّر ، و لم يكن ممكنا دون ذلك . التطوّر مفهوم جوهري حاسم فى فهم **كلّ** الحياة إلى درجة أنّ العلماء يحبّذون الإستشهاد بملاحظة أبداها مرّة عالم الجينات الشهير تيودوسيور دوبزهنسكى : " ليس لأيّ شيء معنى فى البيولوجيا بإستثناء المعنى الحاصل على ضوء التطوّر ".

ومع ذلك ، رغم كلّ هذا الإجماع العلمي ، فإنّ أصحاب فكر الخلق و المتشدّقون بمعاداة العلم ببساطة لا يقبلون ذلك. و السؤال الذى يطرح نفسه هو لماذا لا يقبلون ذلك ؟ و فى بلدان مثل الولايات المتحدة ، بعض المدافعين الأغرب عن فكر الخلق يحتلّون حتى مواقع سلطة و يأثّرون فى السلطة التشريعيّة و يعيّنون كمستشارين مرحّب بهم للرؤساء . و مجدّدا ، لماذا يحصل هذا ؟ هذه الأسئلة تحتاج أن نخوض فيها .

سأحاجج بأنّنا نحتاج جميعا إلى معرفة على الأقلّ الوقائع العلميّة الأساسيّة عن التطوّر و كذلك إلى فهم كيف أنّ الأصوليين الدينيين الذين يريدون إبقاء الناس فى جهل و إضطراب فى ما يتصل بالتطوّر تدفعهم أجندا إجتماعية و سياسيّة رجعية . و نحتاج إلأى معرفة الإقرار بما هو جوهريّا خاطئ و غير علمي فى حجج فكر الخلق ، مهما كان الشكل الذى يتمظهر

فيه – و يشمل هذا حجج الجيل الجديد من أصحاب فكر الخلق المدافعين عن المصمّم الذكيّ ، هذا الجيل الذى يعترف بواثع أنّ بعض التغيّر التطوّري قد حدث إلاّ أنّه يواصل التأكيد على أنّ تنوّع الحياة و تعقّدها لم يكن ليستطيع الحدوث دون تدخّل نوع من " المصمّم الذكي " فى نقطة معيّنة من السيرورة .

يبدو لى أنّ أفضل الثوريين و أكثرهم بصيرة يفكّرون **دائما** و يخوضون فى عديد الأنواع المختلفة من المسائل " الكبرى " الإجتماعيّة و الثقافيّة و الفلسفيّة و السياسيّة ، حتى و بالذات فى خضمّ أشدّ المعارك إحتداما . ليس أبدا أمرا جيّدا أن نركّز فكرنا و أعمالنا و نصبح ضيقى التفكير إلى درجة أن نخفق فى التعاطي مع مسائل كبرى متنوّعة – بما فى ذلك فى العلم و الفنون – خاصة إن كنّا مهتمّين بإدراك كيف تغيّر العالم تغييرا جوهريّا .

آمل أن تندلع شرارة النقاش و الجدال الحيويين لهذه المسائل الهامّة فى صفوف (و بين) مروحة واسعة من قرّاء هذه الجريدة . إنّنا نحيا فى مجتمع حيث العلماء المحترفين و غير المحترفين ، الذين يملكون تعليما رسميّا و الذين توفّر لهم تعليم قليل أو لم يتوفّر لهم مثل هذا التعليم و الذين ظلّوا عادة مبعدين و نادرا ما تفاعلوا و تعلّموا من بعضهم البعض. ليس علينا القبول بهذه الإنقسامات . بتنوّع قرّائها المتميّز ، هذه الجريدة فى موقع للنهوض بدور هام فى تجاوز مثل هذه الإنقسامات .

الخوض فى الأدلّة العلمية الخاصة بالتطوّر و تخلّف فكر الخلق الأصولي الديني شيء مفيد للغاية :

إن كنت سجينا فى مكان ما يقاتل كي لا تسحقه الظروف و الآلام الناجمة عن كلّ هذا الجنون ، فإنّ بعض الفهم الحقيقي لكيفية وجود الأشياء (و كيفية و إمكانية وجودها) ، يتحدّد بالنظر من خلال كلّ هذه الأكاذيب التى رُويت من أجل أَسِر عقول الناس ؛

إن كنت فى مكان ما خارج النطاق ، متعب إلى النخاع من مجرّد محاولة تدبير الأمور ، خائفا من ما إذا كانت الشرطة ستعنّف أطفالك أو تقتلهم ، و مريض و متعب من سماع " الأشياء كما هي لأنّ تلك مشيئة الإلاه و ليس بوسعك القيام بأي شيء " ؛

إن كنت عالما محترفا أو أي شخص آخر قد يكون بعدُ " عارفا بكلّ الأشياء عن التطوّر " لكنّك ترغب فى " ربط " هذه المسألة بجمهور أوسع و أكثر تنوّعا ، و ربّما أيضا الإنخراط فى نقاش فكري حول ما هي العلاقة المناسبة بين العلم و الدين من منظور سياسي و إيديولوجي أكثر راديكاليّة ؛

إن كنت إنسانا تقدّمي الأفكار قد تكون له بعض المعتقدات لكنّك تتمنّى أيضا أن تحصل على معلومات علميّة ، و ليس بوسعك أو تواجه الحماسة المفرطة الأصولية المتعصّبة ، و تريد أن تكتشف أكثر مسألة العلاقة بين علم التطوّر و الإيمان الديني ؛

إن كنت أحد قرّاء الجريدة عبر العالم ، و تعلم أنّ ما هو حاليّا بوجه خاص شكل أمريكي من جنون فكر الخلق يمكن بسهولة أنيتجاوز الحدود الأمريكية ، و تعترف كذلك بأنّ تقديم الفهم العلمي الحقيقي لمئات ملايين الفلاّحين و المضطهَدين الآخرين حول العالم يمكن أن يساعد على الإطاحة بأعباء قرون من الزمن ؛

إن كنت أي شخص ببساطة يرغب فى معرفة حقيقة كيفيّة وجود الأشياء فى الطبيعة و المجتمع ؛

إن كنت ناشطا سياسيّا يصارع من أجل إيجاد عالم أفضل ، من المهمّ إدراك الروابط بين فظاعات اليوم و تعسفاته – بما فى ذلك تشجيع هجمات الأصوليّة الدينيّة و فكر الخلق على العلم و السير الكامن للنظام الذى نعيش فى ظلّه . نحتاج أن نساعد الناس على رؤية الروابط بين ، مثلا ، الهجوم الأصولي المسيحي على حقّ الإجهاض و كلّ ما يحدث للنساء فى ظلّ أصوليين دينيين إسلاميين مثل طالبان ؛ روابط بين لماذا بعض الناس و بعض الدول أغنياء للغاية بينما الملايين عبر العالم يغيشون الكاد يقدرون على البقاء على قيد الحياة فى ظروف عسيرة ؛ روابط بين السعي المحموم و بلا هوادة وراء الأرباح و كلّ من اهب الحيوي للكوكب ؛ روابط بين نظام من الإستغلال العالمي و الحروب التى لا تتوقّف التى تشنّها حكومة الولايات المتّحدة ؛ روابط بين تاريخ هذا النظام و جذور الواقع الحالي فى العبوديّة والإضطهاد القومي و العدوان السافر الذى يكتسح العالم إلى يومنا هذا ؛

إنّ إستخدام الدين لشنّ هجوم مركّز ضد العلم فى هذه الفترة فى الولايات المتحدة هو جزء لا يتجزّا من أجندا رجعيّة شاملة تستهدف دعم الإمبريالية الأمريكية و تعزّزها ؛ و هذا الرابط أيضا يحتاج إلى مزيد الدراسة و النشر بين صفوف الناس و فى الأوساط الشعبيّة . كانت معركة الدفاع عنعلم التطوّر ضد هجمات أصحاب فكر الخلق محتدمة لبعض الوقت

فى الولايات المتّحدة . و ليست تتجه نحو الإنتهاء و لها تبعات كُبرى : ليس على العلم و حسب و على الدين و حسب ، بل كذلك على المجالات السياسيّة و الإيديولوجيّة الأوسع ؛

بكلمات أخرى ، الأمر غاية فى الأهمّية .

وفى الأعداد القادمة من هذه الجريدة ، سحاول هذه السلسلة عن التطوّر أن تعالج أشياء مثل : ما هو التطوّر و كيف نعرف معرفة أكيدة أن ذلك حدث (و يتواصل حدوثه) ؟ ما الخاطئ بشأن حجج فكر الخلق ضد التطوّر ، و لماذا منهجه وهمي تماما ؟ لماذا تتواصل المعركة اليوم ؟ كيف يمكن لكافة التنوّع و التعقّد المدهش للحياة على هذه الأرض أن يكون قد نشا بفعل يد " مصمّم ذكي " ؟

سيكون من العسير أن نوفي حقّ مثل هذا الموضوع المتميّز بتعدّد الأوجه و ببعد المدى ببساطة فى عدد قليل نسبيّا من المقالات على صفحات هذه الجريدة . لكن آمل أن يكون من الكافي هنا على الأقلّ أن نبلغ بعض الوقائع الأساسيّة التى لدينا أدلّة علميّة شاملة عليها ، و أن نوفّر عرضا صغيرا لما يحاول فكر الخلق دفعه ؛ و أن ننشر الأفكار فى صفوف الجماهير العريضة لتخوض فى هذه المسائل و غيرها المتصلة بها .

و إن أراد أحد أن يرسل لنا تعليقاته أو إن كانت لديكم أسئلة معيّنة تودّون أجوبة عليها ، سارحّب بها و سأسعى إلى إدماجها فى هذه السلسلة من القمالات . و كذلك أودّ أن أدعو آخرين ذوى خلفية علمية (كلّ من العاملين المحترفين فى مجال العلم و الطلبة و غير المحترفين) إلى المساعدة بأيّة طرق بمقدورهم المساعدة بها فى تحسين هذا المشروع و فى إيجاد طرق لبثّ وقائع التطوّر (و الحرب الصليبية التى ما إنفكّ يخوضها فكر الخلق ضد التطوّر) و نشرها لتبلغ جمهورا أوسع ما أمكن – بما فى ذلك إلى الذين قد يكونون فى موقع لتعلّم أي شيء من هذا فى المعاهد أو قاعات المحاكم أين خيضت إلى الآن معظم المعارك بين التطوّر و فكر الخلق .

سنسعى فى هذه السلسلة إلى الحديث إلى كلّ من الناس الذين ليست لديهم خلفيّة علميّة و إلى الناس الذين لهم بعدُ علم " بالأسس " بيد أنّهم يرغبون فى التعمّق فى بعض المسائل العلميّة الأكثر تقدّما . و الرجاء عدم التردّد فى دراسة هذه السلسلة بتعمّق حتى و إن " لم تغوصوا فى العلم قبل أبدا " أو لم تكن لديكم قط فرصة لتعلّم أي شيء عن التطوّر . لا وجود لضرورة تجربة سابقة ! العلم ليس حقّا جدّ غامض (و إن أراد بعض الناس جعله يبدو كذلك قصد التمكّن من التسلّط على الناس) و على كلّ حال ، سنعمل على الشرح خلال تقدّمنا (و يجب على الذين يملكون معلومات أكثر من غيرهم أن يساعدوا الذين يمكن أن يكونوا أقلّ علما حتى نتمكّن جميعا من المضيّ قدما) .

و كمسألة واقعيّة ، الذين منكم ليس لديهم تدريب علمي و ربّما حصّلوا القليل من التعليم الرسمي عامة يمكن أن ينهضوا بدور هام بوجه خاص فى هذا : بالنضال من أجل تحصيل العلم بشأن التطوّر و ما يهدف إليه الأصوليّون الدينيّون عندما يبحثون عن منع الناس من هذه المعرفة العلميّة الراسخة جدّا ، بمقدوركم القيام بالكثير للمساعدة على نشر نظرة علميّة فى صفوف الناس . لقد تعرّض الكثير منكم لقدر كبير من الدين و لدي الكثير منكم جذور عميقة أو علاقات قرابة عائليّة و روابط شخصيّة أخرى ضمن المجتمعات حيث يتواصل الإعتقاد التام فى الكتب الدينيّة و تغذيته بعمق و يتواصل تشجيعه بشكل كبير من قبل الذين يُسيّرون المجتمع – بينما ، فى صفوف الجماهير الشعبيّة ، **لا يقع** عموما تشجيع الفهم العلمي للأشياء و لا يقع الترويج له من قبل ذات السلط لأسباب ليس من العسير جدّا تصوّرها . إنكم فى موقع جيّد للمساعدة على إلقاء شيء من الضوء على الوضع .

أنشروا الكلمة !

أرديا سكايبراك – ماي 2002)

++

الفصل السابع من " علم التطوّر و أسطوريّة فكر الخلق ... " : تطوّر الكائنات البشريّة

من أين أتينا ؟

" إنحدرنا من القردة ! عزيزي لنأمل أن لا يكون ذلك صحيحا ، لكن إنكان صحيحا ، لنصلّى من أجل أن لا يصبح ذلك معروفا لدى العموم ! "

هذا ما قالته فى القرن 19 إمرأة الأسقف وورسنستار ، عندما سمعت عن نظريّة داروين عن التطوّر .

" الوقائع هي معلومات العالم ؛ و النظريّات تفاسير مقترحة لتأويل الوقائع أو التنسيق بينها . واقع التطوّر من الأشياء الأكثر رسوخا فى العلم (يقيني مثلما هو يقيني دوران الأرض حول الشمس).

عالم الحفريّات و بيولوجي تطوّري محترم ، ستيفان جاي غولد .

============

من نحن؟ من أين أتينا ؟ كيف سيكون المستقبل ؟

هذه أسئلة كان البشر على الأرجح يطرحونها على أنفسهم طالما أنّهم بشر . إنّها من الأشياء التى تجعل منّا بشرا . هذه القدرة على التفكير و التساؤل و الحديث مع بعضنا البعض ليس بشأن أحداث يومنا الحالي فقط بل كذلك بشأن ما حدث فى الماضي ، أو بشأن ما يمكن أن يحدث فى المستقبل . ليس بوسع أيّة كائنات حيّة أخرى على هذا الكوكب أن تفعل ذلك . و هذه القدرة بالذات هي التى تسمح لنا بالتعلّم من المعرفة المتراكمة و تقاليد أجداد أجدادنا (بعضها قد نودّ أن نستفيد منه و بعضها بلا شكّ من الأفضل أن نستبعده ، غير أنّه منها جميعا يمكن أننتعلّم على أي حال) ؛ و هذه القدرة هي التى تسمح لأجيال من البشر ، جيلا بعد جيل ، بمواصلة البناء لمراكمة مخزون من المعرفة و التجربة ، معا بمراجعة و تحوير الفهم الماضي ، و بكسب أفكار ثاقبة جديدة على ضوء إكتشافاتنا الجارية و تغيّرات العالم من حولنا .

لكن إلى جانب كلّ هذه القدرة الملهمة ، يبدو أنّه لدينا نحن البشر قدرة و نزعة ببساطة ل" صنع الأشياء" عندما ببساطة لا نعرف بعدُ الحقيقة حول شيء ما ! حينما ننسج قصصا خياليّة عن المستقبل ، غالبا ما نسمّى ذلك **الخيال العلمي** ، بينما القصص الخياليّة عن الماضي يشار إليها عامة **بالأساطير** . و جملة خاصّة من الأساطير المعروفة " بأساطير الأصل " أو " أساطير الخلق " يمكن أن توجد بموقع القلب لدى العديد من الديانات التى لا تزال تمارس حول العالم اليوم (و مثل هذه الأساطير بلا شكّ كانت فى موقع القلب لدى العديد من ديانات العالم القديم التى قد كفّت الآن عن الوجود). (أنظروا " أساطير الخلق " ، بالصفحة 14) .

أساطير الخلق هي ببساطة القصص الخياليّة الكثيرة التى قصّها الناس الذين عاشوا قبل مئات و آلاف السنين على بعضهم البعض فى محاولة لتفسير ما ليس يملكون بعدُ أساسا لفهمه : **كيف نشأ الناس فى الأصل** . و تختلف هذه القصص (التى تروى عبر الأغاني و القصائد فى الكثير من الثقافات ، و تكتب فى كتب ألّفها بشر على انّها " كتب مقدّسة " من شتّى الألوان ، مثل الإنجيل و التوراة أو القرآن) فيما بينها فى التفاصيل و عادة ما تعكس واقع أنّ الناس الذين كانوا فى الأصل وراء رواية هذه القصص عاشوا فى أزمان و أماكن و بيئات متباينة . بيد أنّ لأساطير الخلق جانب مشترك هام : سواء كانت تتحدّث عن أشياء مثل آلهة الشمس او أرواح المياه و أمّهات الأرض ، أو البطاركة الملتحين فى الغيوم ، **جميع** أساطير الخلق تسعى إلى تفسير " من أين أتى البشر الأوّلون " من خلال قصّة خياليّة عن كيف أنّه فى زمن ما بعيد ، خلقت أرواح خارقة للطبيعة (و عادة غير مرئيّة البشر الأوّلين ، و يقال غالبا أنّها صنعت البشر من بعض العناصر المكوّنة للأرض (مثل الطين) . ثمّ إمّا أنزلوا من السماء أو أرشدوا إلى أحشاء الأرض ، أو شيء مشابه ، أو مذّاك إستطاع البشر المضيّ قدما و سكن الأرض (أو على الأقلّ أي جزء صغير من الكوكب مهما كان و كان أصحاب هذه الأساطير معتادين عليه زمنها).

لا أجد بتاتا من المفاجئ أن **البشر القدامى الذين عاشوا فى عالم ما قبل العلم** ، قد ألّفوا مثل هذه القصص فى محاولة منهم لتفسير جذور الإنسان . وفيما دراسة هذه القصص اليوم لنتمدّنا بتفسير حقيقي لمن أين أتى البشر ، فإنّ عددا منها يمكن بعدُ أن ينال إعجابنا كشعر أو أغنية أو أدب ، و جميعها لا تزال قادرة على أن تعلّمنا الكثير عن كيف عاش مختلف البشر القدامى و كيف كانوا يفكّرون فى عالمهم. (1)

لكن فى حين أجد من اليسير فهم لماذا صاغ البشر منذ زمن بعيد أساطير الخلق ، فإنّ واقع أنّ هناك أكثر ممّا يكفى من الأدلّة التاريخية و العلميّة للتدليل على أنّ كافة قصص الخلق المتنوّعة لكافة الأديان هي ذاتها " خلقها " **البشر !** و البشر يخلقون كذلك قصصا للأطفال حول أشياء من مثل سانتا كلوس أو جنيّة الأسنان – لكن فى هذه الحال نعلم جميعا أنه من المفترض أنّنا ننمو و نعلم ما هي عليه : قصص ذات غايات إجتماعيّة إلاّ أنّها مع ذلك تظلّ **قصصا** . أسباب أنّ البشر

حتّى البالغون يبدون متمسّكين بقصص الخلق الدينيّة حول جذور البشر و أشكال الحياة الأخرى ، وثيقة الصلة بالعوامل الإجتماعيّة التى تشعر العديد من الناس بحاجتهم إلى الدين فى المصاف الأوّل ، لكنّها وثيقة الصلة أيضا ب :

أ- كونه ببساطة بالنسبة لمعظم زمن وجود البشر ، ليست لدينا بعدُ المناهج العلميّة والنظرة العلميّة (و بعدُ لم نحقّق نوع الإكتشافات العلميّة التى حقّقنا الآن) التى يمكن أنتوفّر لنا أجوبة حقيقيّة عن من أين أتى البشر ، بالإعتماد على الوقائع عوض الإعتماد على الأسطورة و التطيّر ؛ و

ب- منعت المعرفة و الفهم العلميين الحقيقيين للأشياء تقليديّا عن غالبيّة الإنسانيّة كنتيجة مباشرة للإنقسامات و اللامساواة الإجتماعية القائمة عبر العالم – وهو وضع متواصل إلى اليوم.

اليوم بوسع العلم أن يجيب بوضوح و نهائيّا على السؤال الجوهري : " من أين أتينا ؟ " فمنذ نشر العمل الرائد لشارل داروين حول تطوّر الحياة فى 1859 ، إزدادت قدرة العلماء بصفة متصاعدة على الفهم و التفسير العلميين لكيف أنّ كافة أشكال الحياة المتباينة على هذا الكوكب (كلّ النباتات و الحيوانات ، بما فيها البشر) **مرتبطة** ببعضها بعضا بدرجات متنوّعة ، و كون كافة الأنواع المختلفة **تطوّرت** (نشأت و تغيّرت) طوال آلاف ملايين السنين من خلال سيرورة معروفة ب **" الإنحدار مع التبدّل "** من مجموعة **من الأجداد المشتركين (المتقاسمين)** . و صار الآن جليّا جدّا أنّ هذه السيرورة تشكلت فى جزء كبير منها جرّاء تلك الآليّة الأوّليّة للتغيّر التطوّري المعروف **بالإنتقاء الطبيعي** . (2)

لقد مثّل التطوّر عبر الإنتقاء الطبيعي الذى تعرّضت له مجموعات من الأشخاص المتنوّعين " الفكرة العظيمة " لداروين لكن كون التطوّر يحدث بهذه الطريقة لم يعد مجرد " فكرة مهمّة " أو " نظريّة لم يقع إثباتها " أو فرضيّة – إنّه **واقع** علمي مثبت جيّدا : و يمكن حتى قول الكثير عن أنّ كامل النموّ فى البيولوجيا و العلوم المتصلة بها بين بداية القرن العشرين و نهايته (وهو متواصل اليوم) قد شكّل " دليلا " متواصلا عن نظريّة التطوّر الأساسيّة لداروين . الآن ، بعيدا عن أي ظلّ للشكّ ، وقع إثبات أنّ الحياة قد تطوّرت بالفعل بإستمرار طوال ال3.5 بليون سنة الماضية ، وأنّ الحياة تواصل التطوّر، و أنّ التغيّر التطوّري على كلّ من النطاق الصغير و النطاق الكبير يحدث من خلال الآليّة اللاواعية المعروفة بالإنتقاء الطبيعي . إنّ العلوم المعاصرة لم تدلّل على أنّ التطوّر يحدث فقط بل دلّلت على **كيفيّة** حدوثه ، بما فى ذلك من خلال إكتشافات فى علم الجينات و بيولوجيا الذرّات / الجزيئات و هما لم يوجدا زمن داروين .

دليل التطوذر الماضي حولنا ، فى كلّ الأنواع الحيّة و فى كلّ أحافير أنواع ماتت منذ زمن بعيد .و هناك تماما آلاف الدراسات العلميّة التى بيّنت لنا أنّ التطوّر لا يزال يحدث حولنا . مجموعات من النباتات و الحيوانات الحيّة غالبا ما تتغيّر (تتطوّر) خلال عدّة أجيال متعاقبة (ليس " آنيّا ") بفضل الإنتقاء الطبيعي و الظواهر المرتبطة به .

<u>تطوّر الإنسان من أنواع غير إنسانيّة وجدت قبله :</u>

هل هناك دليل عمليّا على أنّ **الإنسان** (و ليس فقط الأنواع الأخرى من الحياة التى تعمّر الأرض) هي نتاج لمثل هذا التطوّر البيولوجي ؟ **هل هناك حقّاً دليل واضح على أنّنا ننحدر من بعض الأنواع غير الإنسانيّة التى سبق وجودها وجودنا** ؟ نعم . مطلقا ، دون أدنى شكّ . الدليل على هذا جليّ جدّا .

الإنسان قد إنحدر عمليّا من سلسلة طويلة من الأنواع غير الإنسانيّة التى وجدت قبله . فالخطّ التطوّري الذى قاد إلى الإنسان المعاصر (المعروف بخطّ " الهومينيد ") قد تميّز فعليّا (إنشقّ عن) **عن خطّ قردة أفريقية** قبل بضعة ملايين السنين فقط . و فرع آخر من هذا الخطّ إنشقّ ليعطي فى النهاية الغوريلا المعاصر و كذلك فى ظروف أخرى أعطى الشنبنزي الذى يمثّل أقرب أبناء عمومتنا فى التطوّر . و " الهومينيد " من ناحية هذا التطوّر " الإنشقاقي " يشمل كافة الأنواع التى تعتبر أقرب إرتباطا بالبشر منها بالشنبنزي . و كما سنرى ، قد وجدت فعلا **عدّة** أنواع مختلفة من جانب حدث تفرّع جانب**نا** الهومينيد ، و التى تميّزت جميعها عن أجدادنا القردة بكونها تتنقّل على قدمين (المشي وقوفا / منتصبي القامة). و هم يمثّلون الكثر من الخطوات التطوّرية **الإنتقاليّة** المتنوعة الرابطة بين أقدم الأجداد من القردة بالإنسان المعاصر . و أقدم هذه الأنواع التى تمشى منتصبة القامة كانوا و لا يزالوا أكثر شبها بالقردة من نواحي عدّة ، بينما الأحدث نسبيّا تشمل البعض من تلك التى كانت أشبه بالإنسان المعاصر . على علماء الحفريات (العلماء الذين يجمعون الأحافير و يدرسونها) يعثرون بإستمرار على المزيد و المزيد من الأحافير لللكثر من الأنواع المختلفة من الهومينيد المتنقلين على قدمين (بعضها تعايشا فى نفس الحقبة الزمنية) و يتم تعلم الكثير عن أي هذه الأنواع كانت أجدادنا الأكثر مباشرة و أيها تمثّل فروعا جانبيّة لشجرتنا العائليّة ما أدّى فى النهاية إلى نهايات تطورية مسدودة الأفق . بشر اليوم ينتمون جميعهم إلى نوع واحد ، النوع الوحيد الباقي من سلسلة متنوعة من نوع الهومينيد . و فى سيرورة

معرفة هذه الأنواع من الأجداد السابقين و البيئات السابقة التى عاشوا فيها ، تزيد معرفتنا ليس فقط بمن هم أجدادنا الأكثر مباشرة و أيضا ما يعنيه أن نصبح إنسان تماما .

مع كل أحفور تعثر عليه وتحلّله و تناقشه فرق متنوّعة من العلماء ، نظلّ نتعلّم المزيد زو المزيد من التفاصيل عن بالضبط كيف جرى تطوّر الإنسان . و لا يزال هناك الكثير لمعرفته إلاّ أن القضيّة الأساسيّة ، المسار الأساسي جدّ واضح و جدّ موثق بحيث أنّ الغالبيّة العظمى من العلماء عبر العالم سينظرون إلى شخص لم يعتقد أن الإنسان تطوّر من أنواع وجدت قبله بنفس الطريقة التى سينظرون بها إلى شخص لا يزال يعتقد أنّ الأرض مسطّحة و أنّك إن أبحرت فى قارب نحو الأفق ستسقط فى الفراغ !

يعتاش أنصار نظريّة الخلق الأصوليين الدينيين على الجهل و الإضطراب الناجم عننقص التعليم و عن التعليم المبني على معطيات **خاطئة** : إنّهم **يكذبون و يشوّهون** تماما الوقائع المعلومة عن التطوّر ، و حتى يحاولن جعل الناس يشعرون بالعار من جذورهم ما قبل الإنسانية و من أجدادهم . يجعل أنصار نظريّة الخلق الأمر يبدو كما لو أنّ أنصار نظريّة التطوّر يقولون للناس إنّ الإنسان ليس " مختلفا عنالقردة فى حديقة الحوانات " . لكن الأمر ليس كذلك . الحقيقة هي أن أنصار نظريّة التطوّر يقولون للناس أنه هناك عددا كبيرا من الأدلة الملموسة على أنّ :

(1) الإنسان فى الواقع ينحدر من أجداد يشبهون القردة ؛ (2) القردة المعاصرة كالشنبنزي ، لها روابط وثيقة بالإنسان ؛ (3) الإنسان و القردة لا زالا يتقاسمان عديد الملامح الجسمانيّة و السلوكيّة ؛ (4) للإنسان أيضا بعض الملامح التطوّرية الفريدة خاصة به ما يؤدى بداهة إلى كون الإنسان مختلف تمام الإختلاف من عدّة نواحي عن أقرب أقربائهم من القردة الحيّة .

يحبّذ أنصار نظريّة الخلق أن يدّعوا أنّه لو درّست المدارس و الكتب المدرسيّة أبناءنا أنّهم ينحدرون من حيوانات فإنّ الأطفال ببساطة " سيتصرّفون كالحيوانات " و يغرقون فى لاأخلاقيّة وحشيّة . و هذا بدوره رأي سخيف لا يحترم بعمق الشباب و عائلاتهم و قدرتهم على المسك بالحقيقة . وهو يخفق مرّة أخرى فى الإقرار بواقع أن البشر تطوّروا من أنواع لاإنسانيّة سابقة لهم لا يعنى أنّه ليست لدينا بعض الملامح الإنسانيّة الخاصة و الفريدة تميّزنا حتى عن أقرب آبائنا من ضمن الأنواع الأخرى . كيفيّة سلوكنا (للأفضل أو للأسوأ) هي – و ليس بوسعها إلاّ أن تكون – إنسانيّا مغايرة .

يكشف علم التطوّر أنّه إنإستطعت العودة عبر الزمن و عبر كامل سلسلة الأنواع السابقة التى تشكّل إرثنا ، لن تجدوا فقط سلاسل طويلة من الأنواع ما قبل الإنسان الشبيهة بالقردة التى تشكّل أجدادنا الأكثر مباشرة ، بل العودة إلى ما قبلهم فى آخر المطاف ستبلغ الثدييّات الأولى (التى منها إنحدرت على الأرجح كافة الثدييّات التالية بما فيها أنواع مختلفة مثل الدببة و الحيتان و الكلاب و الإنسان ، و إن كان فى نقاط متباينة من تاريخ التطوّر) . كان أولئك الأجداد من الثدييّات الأوائل لكافة الثدييّات التالية كائنات فى حجم الفئران عاشت زمن الديناصورات . وهي ذاتها قد تطوّرت من فرع زواحف تشبه الثدييّات ، و أوّل ممثّلى الزواحف بدورهم تطوّروا من فرع لبعض البرمائيّات الأوائل (المجموعة التى ينتمى إليها السلمندر و الضفادع) و التى مثّلت المخلوقات الأولىبالذات التى زحفت خارج الماء و مشت على الأرض . وهي بدورها قد تطوّرت من فرع خاص من الأسماك البحريّة (التى شكّلت نهاية عظميّة و قربة هواء أساسا للأرجل القصيرة والرئتين البدائية للأنواع الأولى لتزحف نحو الأرض و تتنفّس فى البرّ). أمّا بالنسبة إلى السمك ، فقد تطوّر قبل ذلك بكثير من فرع من اللافقريّات البحريّة (حيوانات بلا عامود فقريّ)، و التى بدورها تطوّرت من نوع حتّى أبسط و أكثر بدائيّة من الكائنات البحريّة ، عائدين تماما و بالذات إلى الأشكال الأولى للحياة الشبيهة بالبكتيريا و التى أطلقت كافة العرض التطوّري القائم ، و التى كانت تشبه أكثر بقليل من بعض الفروع من الحمض النووي المحاطة ببعض خلايا الغشاء .

لذا إن أردتم حقّا الحديث عن الجذور الإنسانيّة و أجداد الأجداد و حصلتم على الصورة بأكملها ، لا تتحدثون ببساطة فقط عن أجدادنا من القردة – عودوا بالأمر إلى نهايته ! عودوا به إلى تلك الكائنات الأولى الشبيهة بالبكايريل التى ظهرت من الخليط الكيميائي للمياه الأولى للعالم قبل حوالي 3.5 بليون سنة و إعترفوا بهم كذلك كأجدادكم الأوائل أيضا !

لا أعرف ردّ فعلكم لكنّى لا أجد هذا التاريخ مخيفا أو مزعجا بأي شكل من الأشكال . شخصيّا ، أعتقد أنّه جامح جدّا و مذهل فعلا كوننا بلغنا ما بلغناه اليوم بفضل مثل هذا الخليط المتنوّع من الأنواع القديمة المترابطة . لكن الإقرار بالدلائل العلميّة عن كلّ هذا لا يعنى أنّنا جميعا سنشرع فى العمل مثل البكتيريا و السمكأو القردة ! يمكن أن " نكون " فحسب ، و نسلك سلوكا مثلما نحن عليه عمليّا – نوع مختلف و بالأحرى فريد ، الهومو سابيانس .

لكن ، قد يسأل البعض إن كنّا فى نواحى عديدة مختلفين و فريدين كنوع ، عندئذ لماذا نقلص أنفسنا إلى محاولة إكتشاف الأنواع السابقة التى تطوّرنا نها ؟ هل نحن نسعى ببساطة إلى أن نجمع نوعا من ألبوم صور تطوّريّة عن الأجداد الذين

عاشوا منذ زمن بعيد ؟ ما القضيّة ؟ حسنا ، بعض الناس قد يريدون دراسة جذورنا و دراسة أجدادنا المباشرين لمجرّد إهتمام و فضوليّة عامين (و بالتأكيد لا عيب فى ذلك !) لكن أودّ أن أقول إنه ، أبعد منذلك ، من المهمّ السعي إلى تعلّم أكبر قدر ممكن عن الأنواع التى وجدت قبلنا و التى منها إنحدر الفرع الإنساني لسببين أساسيين إثنين :

1- **لنساعد أنفسنا على التحرّر من الأوهام المتعلّقة بما وراء الطبيعة** : فبقدر ما نعرف الواقع الملموس للجذور التطوّرية للإنسان ، بقدر ما يحرّر الناس أنفسهم على ألرجح من كافة التطيّر و الإعتقاد فى ما وراء الطبيعة – معتقدات أحاجج لأنّها لم يفت زمانها وحسب بل هي عمليّا ضارة للإنسان. يعتقد أناس كثر بأنّ نوعا من الروح الخارقة للطبيعة خلقتنا و ينزعون إلى البحث عن تبريرات كافة أنواع الأمراض و اللامساواة الإجتماعيّة التى غالبا ما يفسّرونها بقول : " إنّها إرادة الإلاه " أو " الإلاه يعمل بطرق غريبة " . و الكثير من الناس **ينتظرون بسلبيّة أن يأتي نوع من الروح لإنقاذ الإنسانية** عوض أن يتخذوا همأنفسهم المبادرات للقيام بشيء إزاء الأمراض و اللامساواة الإجتماعيين . لكن إن أدركنا الوقائع العمليّة للعلم الحديث و أدركنا أنّ الإنسان فى حين أنّه خاص و فريد من نواحي عدّة ، مع ذلك هو مجرّد نتيجة لسيرورة مديدة جدّا و غير واعية كلّيا من التطوّر البيولوجي و الإنتقاء الطبيعي الذى فعل فعله فى **جميع** الأشياء الحيّة لبلايين السنين ، عندئذ أظنّ أنّ هذا سيساعد الكثيرين منّا على وضع الأمور فى الأفق المناسب و أنّنا **سنمضى زمن أقلّ بكثير فى النظر إلى السماء و إلى بعض الأرواح ما وراء الطبيعة من أجل أن تنقذنا و عوض ذلك سننظر أكثر إلى أنفسنا** – لبعضنا البعض – **لإدراك ما يجب القيام به** .

2- لنفهم فهما أفضل من نحن و ما هي حاجياتنا و قدراتنا :

بقدر ما ندرك جذور تطوّرنا الخاص بقدر ما ندرك ، أعتقد ، فى نفس الوقت أنّ نوعنا الخاص وثيق الإرتباط و التداخل و الإرتهان بعديد أشكال الحياة الأخرى على هذا الكوكب ، و أنّ النوع البشري بالتالي لا يستطيع " المضيّ لوحده " (و لا يمضى لوحده) . و إنعكاس هام لهذا هو أنّ ذلك يمكن أن يساعدنا على إدراك أنّه لو بقينا نحطّم تعسّفيّا منظومات إيكولوجيّة كاملة و ندفع أنواعا جديدة أخرى نحو الإنقراض ، قد ننتهى إلى إطلاق شلاّل من الإنعكاسات البيولوجيّة التى يمكن أن تجعل الأرض غير قابلة للسكن حتى لنوعنا . و فى فس الوقت ، إن أدركنا بشكل أفضل ما حدث بيولوجيّا حين تطوّر الخطّ الإنساني من الأنواع القديمة التى وجدت قبله – ما كانت التغيّرات و التجديدات التطوّريّة **المفاتيح** المعنيّة – عندئذ أعتقد أنّنا سندرك إدراكا أفضل أشياء من مثل واقع أنّ تطوّر درجتنا الفريدة من المرونة السلوكيّة و قدرتنا غير المسبوقة على تعلّم أشياء جديدة تحرّرنا عمليّا إلى درجة كبيرة من أننكون محدّدين بصرامة ببرامجنا الجينيّة الكامنة (نحن أكثر بكثير من جيناتنا !).

نحن البشر لنا قدرة هائلة على أننغيّر دراميّا كافة أصناف مظاهر كلّ من الطبيعة و المجتمع من أجل الأفضل و من أجل الأسوأ . و هذه القدرة تنبع مباشرة من بعض مظاهر تطوّرنا البيولوجي التى أفرزت نوعا له قدرة تطوّر عالية للتفاعل بوعي مع العالم من حوله على أساس التعلّم المستمرّ ، ترافقه فى ذلك قدرة تطوّر عالية على التواصل الإجتماعي و التنسيق الإجتماعي . لسنا النوع الحيّ الوحيد الذى طوّر قدرة على التعلّم و بعض المرونة السلوكيّة ذات الدلالة و قدرة على التصرّف فى البيئة الخارجيّة ،و بعض الأشكال المعقّدة من التنظيم الإجتماعي و التواصل : هذه القدرات يمكن أن توجد أيضا إلى درجات متباينة لدى أنواع أخرى ، لا سيما ضمن الثدييّات الإجتماعيّة الأخرى . ولذكر بعض الأمثلة فقط، قردة الشنبنزي قادرة على صنع الأدوات البدائيّة و إستعمالها ،و الكلاب تدرك كيف " تسترعي " الإنتباه والذئاب تعلّم صغارها كيف تصطاد و الفيلة تتعلّم مثلا كيف تعتنى بصغارها و الحيتان تعلّم نسلها " الأغاني " المعقّدة التى يستخدمها نوعها للتواصل ، إلخ . لذا خاصة فى صفوف الثدييّات الإجتماعيّة التى تعيش فى مجموعات ،هناك عديد الأنواع إلى جانب البشر طوّرت قدرات مذهلة على تعلّممهارات معقّدة ليست ببساطة مبرمجة جينيّا . لكن سيكون من الصعب إنكار أنّ تطوّر البشر مثّل **قفزة نوعيّة حقيقيّة** فى تطوّر قدرات من هذا القبيل . ما من نوع آخر على الكوكب يقترب من البشر حين يتعلّق الأمر بالقدرة على التغيير العملي و الواعي للعالم المحيط بنا . و علينا أن نفهم فهما أفضل طبيعة هذه القفزة و جذورها التطوّرية لأنذ هذا ما يجعلنا بوضوح بشرا .

حتى فى أواخر القرن 19 ، لاحظ داروين و علماء آخرون أوجه الشبه الجسمانيّة البديهيّة بين الإنسان و القردة الأفريقيّة المعاصرة (الغوريلا و الشنبنزي) و بعدُ قد شكّوا فى أنّ الإنسان قد تطوّر كفرع منفصل من نوع من الأجداد البعيدين المشتركين مع القردة . و تبيّن أنّ داروين وأصقاؤه على حقّ ولو أنّ الدلائل المطلقة على هذا لم تأت قبل القرن العشرين .

منذ زمن داروين ، قام الأصوليّون الدينيّون المسيحيّون بكلّ ما بوسعهم سعيا إلى إبقاء الناس فى منأى عن النظريّات العلميّة للتطوّر و عن الكمّيات الهائلة من الدلائل العلميّة الملموسة التى جاءت **لتؤكّد** حقيقة هذه النظريّات . ببساطة لا

يريدون أن يكتشف الناس الوقائع المثبتة عن كيف أنّ الحياة على الأرض تعود إلى 3.5 بليون سنة لأنّ التأويل الحرفيّ للإنجيل يقترح أنّ عمر الأرض لا يعدو أن يكون بضعة آلاف سنة . لا يريد أنصار فكر الخلق أن يعرف الناس الأدلّة العلميّة التى تثبت أنّ كافة الأنواع النباتيّة و الحيوانيّة مترابطة بعضها ببعض إلى درجات متنوّعة و أنّ كلّ نوع من الأنواع هو نتيجة لتغيّر تطوّري لأنواع سابقة له ، لأنّ الإنجيل يقول إنّ الإلاه قدخلق كلّ النباتات و الحيوانات بشكل منفصل و كلّها فى لحظة واحدة (أو فى غضون بضعة أيّام) . و فوق كلّ ذلك ، لا يريد أنصار فكر الخلق سماع أي شيءعن كيف أنّ الإنسان تطوّر من أنواع لاإنسانيّة وجدت قبله لأنّ الإنجيل يقول إنّ الإنسان " مخلوق خاص " للإلاه و إنّنا خلقنا " على صورة الإلاه " و إنّنا بوجه خاص صمّمنا للتحكّم فى (" السيطرة على ") كافة الأنواع الأخرى على الأرض . و تقف وقائع التطوّر ضد كلّ هذا . (أنظروا **" الإنسان و الديناصورات ؟! فكرة عبثيّة أخرى لأنصار فكر الخلق ").**

طبعا ليس كلّ الناس المتديّنين حالات جنون أصوليين ! اليوم قلّة متزايدة من المسيحيين ذوى الأذهان المتفتّحة و متديّنون آخرون يقبلون بالتطوّر كواقع مثبت علميّا ،و إختاروا أن يأقلموا معتقداتهم الدينيّة لتأخذ بعيم الإعتبار الدلائل العلميّة الشاملة عن التطوّر . و مثلا ، يشعر العديد من الناس بأنّ البشر الذين كتبوا مختلف أسفار الأنجيل قبل قرون عدّة كانوا بالضرورة محدودي المعرفة ،و أنّ ما يقال فى الإنجيل لا يجب بالتالى أن يفهم فهما " حرفيّا " . و كان على الكنيسة الكاثوليكيّة أن تجري " تعديلا " مماثلا عندما كان عليها فى النهاية أن تقرّ بأنّها كانت على خطأ فى معارضتها لنظريّة كوبرنيك على أنّها هرطقة و كفر . لكن لقرون عديدة ، نظريّةكوبرنيك – التى بيّنت أنّ الأرض لم تكن مركز العالم و أنّ الأرض و كواكب أخرى تدور حول الشمس و ليس العكس – تمّت معارضتها بقوّة و خبث و حتى قمعها السلط الدينيّة لأنّها تتحدّى النظرة الإنجيليّة القائلة إنّ الإنسان محور الخلق الإلاهي الخاص . لكن فى النهاية لم يوجد ما ينكر أدلّة علميّة ملموسة : كان كوبرنيك على حقّ ! (3) .

صدمت كلّ من نظريّة كوبرنيك و نظريّة داروين للتطوّر عالم الدين المنظّم و عارضتهما السلط الدينيّة و ندّدت بهما على أنّهما هرطقة لأنّ كلا النظريتين أنزلتا الإنسان من على ظهر الفرس (إن أمكن قول ذلك) و كشفتا أنّ البشر و الأرض لم يكونا ضربا من المركز الخاص لكلّ شيء ،كما وضع ذلك الإنجيل . و يواصل الأصوليّون الدينيّون أنصار فكر الخلق التنديد اليوم بالتطوّر الدرويني (حتى أمام الدليل العلمي الشامل) بما يذكّرنا تماما بالهذيان اللاعقلاني للكنيسة ضد كوبرنيك و غاليلي قبل مئات السنين .

ألا تقشعرّ الأبدان من أنّ جورج بوش ، الرئيس الحالي للولايات المتحدة – أقوى بلد على الأرض و بلد يقرّ بأنّه يملك مخازن أسلحة الدمار الشامل – يصف نفسه بأنّه وُلد من جديد كأصولي مسيحي يشارك بلا حياء و يشجّع بنشاط جوانب كثيرة من الأجندا السياسيّة و الإجتماعيّة لأنصار فكر الخلق المسيحيين الفاشيين ضمن ما يسمّى ب" اليمين الديني " ؟

معرفة التطوّر (بما فى ذلك التطوّر الإنساني) أوّلا و قبل كلّ شيء هي معرفة حقيقة الوقائع العلميّة المثبتة . لكن معرفة هذه الوقائع و معرفة تعرية أكاذيب أنصار فكر الخلق سيساعد ، نأمل ، كذلك على توجيه ريح مقاومة لأجندا الرجعيّة السياسيّة و الإجتماعيّة .

بعض الوقائع الأساسيّة عن التطوّر :

إذن ما هي أهمّ الأشياء التى ينبغى أن نعلمها بشأن التطوّر الإنساني ؟ حسنا ، قبل كلّ شيء ، يجب أن تعلموا أنّ هناك الآن صفر مطلق من الشكّ فى أنّنا فعلا مرتبطون وثيق الإرتباط بالقردة الأفريقيّة المعاصرة اليوم و التى تشمل الغوريلا و الشنبنزي . و نقطة إضاءة علاقتنا بالقردة الأفريقيّة الحيّة هو أنّها إلى درجة كبيرة **أقرب** أقربائنا الأحياء . و منهنا ، دراسة القردة الحيّة المعاصرة اليوم يمكن أن يساعدنا على تحسين فهم الكثير من المظاهر المشتركة بعدُ لدى القردة و الإنسان ، و هي على الأرجح أيضا مظاهر قد إمتلكها الأجداد المشتركين للإنسان و القردة الذين عاشوا قبل بضعة ملايين السنين و الذين منهم إنفصل كلّ من جهته كلّ من الخطّ الإنساني و خطّ الشنبنزي . دراسة القردة الحيّة يمكن أن توفّر لنا أيضا فهما أفضل للطرق التى يختلف فيها الإنسان المعاصر عن القردة بأشكال فريدة و هذا كذلك يمكن أن يساعدنا على إعادة بناء ما كانت على الأرجح بعض الخطوات الأكثر حيويّة فى المسار التطوّري للتحوّل التام إلى إنسان.

عديد الناس وهم يشاهدون القردة فى حدائق الحيوانات ، فى التلفاز ، أو فى الحياة البرّية ليس بوسعهم إلاّ أن تصدمهم أوجه الشبه الجسمانيّة البديهيّة مع الإنسان ، و حتى بعض السلوكات الأساسيّة " الإنسانيّة تقريبا " (طريقة لعبهم

و مسكهم الأشياء أو الإنضباط و رعاية الأطفال مثلا). و بالنسبة للتخصّص العلمي فى علم التشريح (شكل و وظيفة مختلف أعضاء الجسم) أوجه الشبه أكثر بداهة حتى : أكثريّة أعضاء جسمنا الأساسيّة (عظامنا و أجهزتنا) مشابهة بصفة مذهلة لتلك لدى القردة ، و هذا فى حدّ ذاته دليل كبير على أنّ أجدادنا مشتركين . ة تتضمّن بعض أكثر إختلافاتنا بروزا : الإختلافات فى **أحجام** الجسد (الإنسان نسبيّا يداه أقصر و رجلاه أطول) و كوننا نملك جلدة أقلّ شعرا نسبيّا ، و إبهام اليد أكثر حركة ، و جمجمة فى خطّ واحد ما عامودنا الفقري مصطفّ بطريقة تمكّننا من الوقوف و المشي و الجري واقفين تماما (بدلا من الإنحناء إلى الأمام على المفاصل معظم الوقت كما تفعل القردة). نحن البشر لنا كذلك دماغ أكبر بكثير نسبيّا و قدرة أكثر تطوّرا على تعلّم اللغة المعقدة . هذه بعض أبرز إختلافاتنا . لكن من ناحية أخرى ، تنطوى أوجه تشابهما على كون بروتينات دمنا وذرات الحمض النووي هي تقريبا مماثلة لتلك لدى الشنبنزي : غالبيّة بيولوجيّو الذرّات يتفقون على أنّه **هناك شيئا بنسبة 3 بالمائة إلى 5 بالمائة من الإختلاف بين الحمض النووي لدى الإنسان و الحمض النووي لدى الشنبنزي!**

و من المعروف أنّه بقدر ما تمتدّ المدّة الزمنية لتطوّر الخطّين إبتعادا عن الأجداد المشتركين بقدر ما تكون الإختلافات فى الحمض النووي . و يبيّن لنا تحليل أوجه الشبه و أوجه الإختلاف فى الحمض النووي مثلا ، أنّ القردة الأفريقيّة الحيّة أكثر إرتباطا وثيقا بالإنسان منها بأيّة قردة أخرى ، وهي مجموعة تطوّرت قبل ذلك من أصل حيواني مشترك . و بشكل أدلّ ، واقع أنّه لا يزال هناك تقريبا 95 إلى 98 بالمائة من التشابه بين الحمض النووي لدي الإنسان و الحمض النووي لدى الشنبنزي يثبت بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ نوعينا مترابطان وثيق الإرتباط إلى أبعد حدّ . و بالفعل ، إستطاع علماء بيولوجيا الذرات العمل خلفا إنطلاقا من هذه المعطيات لحساب أنّنا **لا زلنا** نتقاسم أجدادا مشتركين مع الشنبنزي قبل حوالي 5 مليون سنة ، و هذا على نطاق الزمن التطوّري الشامل ليس سابقا زمنا طويلا جدّا .(أنظروا " الحمض النووي للشنبنزي و الإنسان : إلى أي حدّ نتقارب ؟ ")

<u>ثمّ هناك الأحافير – الكثير من الأحافير :</u>

زمن حياة داروين ، كان الناس بالكاد يشرعون فى البحث عن أحافير أجداد الإنسان الممكنين ، لذلك لم يعرف تماما أي احد إذا كان سيتمّ العثور أبدا على العديد من مثل هذه الأحافير ،و كيف ستكون (أشبه بالقردة أم أشبه بالإنسان أم مزيجا من الإثنين ؟) أو إن كانت ستتجه نحو تأكيد أو دحض فكرة أنّ الإنسان قد تطوّر من الأجداد الشبيهين بالقردة غير الإنسانيين . لكن فى القرن و نصف القرن منذ نشر داروين لأوّل مرّة لعمله عن التطوّر ، تمكّنت عدّة فرق مختلفة من العلماء من تجميع تماما آلاف النماذج من أحافير الهومينيد [أسلاف الإنسان] من مختلف الأعمار . وهي تتضمّن : أحافير هومينيد عمرها أقلّ من 200 ألف سنة (وهي بوضوح إنسان معاصر من الناحية التشريحيّة) ، و أحافير عدد من أنواع الهومينيد المختلفة و عمرها يتراوح بين مليون و مليوني سنة (وهي ليست مشابهة تماما تشريحيّا للإنسان المعاصر لكن بعضها قد أظهر بعدُ بعض الملامح الجسمانيّة الحيويّة التى تميّز الإنسان عن القردة ، لكن مع ذلك كانت قادرة على المشي واقفة تماما) .

لا تزال أحافير الهومينيد التى عمرها أكثر من 4 مليون سنة نادرة جدّا . و إكتُشفت حديثا فى التشاد ، بأفريقيا جمجمةسمّيت توماي عمرها مقدّر ب 7 مليون سنة ، وهي لما يمكن أن يكون هومينيد يمشى منتصب القامة . و يراجع مختصّون متنوّعون فى هذا الحقل راهنا الأدلّة (بما فى ذلك أين ترتبط عضلات الرقبة بالجمجمة ما يمكّن من توفير دليل عن وضع المشي على قدمين إثنين) ولا أحد مقتنع كلّيا بأنّ هذا المخلوق قد تنقّل منتصب القامة تماما . غير أنّه ، إن إنتهى الأمر إلى تأكيد أنّ هذا الأحفور كان يتنقّل منتصب القامة على قدمين ، فإنّ هذا الإكتشاف سيمثّل أقرب ما إستطعنا بعدُ العثور عليه من بقايا الهومينيند الذين عاشوا زمن ، أو كانوا قريبين جدّا من زمن ، أوّل إنفصال للهومينيد المتنقّلين على قديمين إثنين عن خطّ الفقردة الأفريقية . (أنظروا " هل كان توماي أحد أجدادنا الأوّلين ؟ ").

و يعتقد بعض العلماء أنّ وضع التنقّل على قديمين يمكن أن يكون قد تطوّر (و إضمحلّ) أكثر من مرّة واحدة ضمن خطوط أجداد القردة : أكان الحال كذلك أم لم يكن ، من الواضح الآن أنّ قصّة تطوّر الإنسان ليست نوعا بسيطا من القصّة ذات الخطّ المستقيم لكيف أنّ نوعا وحيدا من القردة قبل زمن طويل أفرز صنفا وحيدا من نوع الهومينيد المتنقّل على قدمين و الذى مضى تاليا ليفرز الإنسان المعاصر . و الأمر أعقد بكثير من ذلك : و الآن نعرف معرفة أكيدة أنّ **بين هؤلاء الأجداد من القردة الأفريقيّة غير المتنقّلة على قديمن و الإنسان وُجدت عدّة موجات مختلفة من أنواع الهومينيد المتنقّلين منتصبي القامة .** و بعض هذه الأنواع المتنقّلة على قدمين عاشت لمئات الآلاف أوحتّى مليون أو أكثر من السنوات قبل إضمحلالها . و كان البعض منها أجدادنا فى خطّ مباشر ، و بعضها كانت أشبه بالفروع الجانبيّة لأكبر عائلة هومينيد كبير (فروع جانبيّة إنتهت فى آخر المطاف دون أن يظلّ منها منحدرون معاصرون اليوم) .

عموما ، نموذج تطوّر الهومينيند يبدو أكثر " شجيرة " شبها و تفرّعا و غنى مقارنة بأي نوع من المسارات الخطّية – المباشرة أو " النسل " من القردة إلى الإنسان . و وفّرت دراسة أوجه الشبه و الإختلاف بين شتّى أنواع الهومينيند التى عاشت فى أزمان متباينة فى الخمسة ملايين سنة الماضية قسطا كبيرا من الأدلّة الملموسة عن أنّ الإنسان المعاصر تطوّر من خلال **سلسلة من الخطوات الواسعة من التغيّرات التطوّريّة** – إبتداء من أجدادنا الهومينيد ألشبه بالقردة و ثمّ تطوّر من خلال سلسلة من الأنواع المنحدرة المتتابعة ، العديد منها لها ملامح كانت بوضوح **إنتقاليّة** بين القردة والإنسان المعاصر، و ثمّ فى النهاية أنتجت نوعها الإنساني المعاصر ذاته تماما قبل حوالي 200 ألف سنة .

هل نعلم الآن كلّ شيء يجب علمه عن جذورنا الأولى كبشر ؟ بالطبع لا . يبدو أحيانا أنّ فى كلّ مرّة تفتحون فيها جريدة هناك تقرير عن فرقة من العلماء قد إكتشفوا بعدُ جمجمة **أخرى** لهومينيند متحجّر

تزوير الوقائع لتتماشى و قناعات الأصوليين الدينيين :

هذا إختصاص من إختصاصات أنصار فكر الخلق . و إلى فترة حديثة ، غالبيّتهم إعتادوا حتى على التشديد على أنّ الإنسان و اليدناصورات عاشا فى نفس الزمن (وهو ما كان سيكون عليه الحال إن كانت قصّة الخلق الإنجيليّة صحيحة) . أشار أنصار نظريّة الخلق إلى آثار قدمي إنسان وجدت فى ذات الطبقات الحجريّة و بعض آثار أرجل ديناصورعلى أنّها " دليل " مفترض عن أنّ الإنسان و الديناصور عاشا جنبا إلى جنب . إلاّ أنّه ببساطة هناك مشكل صغير فى هذا " ففى حين أنّ آثار أرجل الديناصور حقيقيّة (و يعود تاريخها إلى ما قبل إضمحلال آخر ديناصور قبل 65 مليون سنة) ؛ يتبيّن أنّ آثار قدمي الإنسان كانت ببساطة محفورة فى ذات حجر التكساس خلال إنهيار فى ثلاثينات القرن العشرين ، عندما كان ذلك كرنفالا لعب شعبي و ترفيه سياحي فى ذلك الجزء من التكساس . و لا حاجة إلى قول إنّ غالبيّة أنصار نظريّة الخلق لم يعودوا يتحدّثون كثيرا عن ذلك .

وجزء آخر من الهيكل العظمي لبعض أنواع الهومينيد الأجداد الذين عاشوا قبل ملايين السنين . و فى كلّ مرّة يحدث هذا جميع فرق العلماء المختصّين فى المجال تصبح جدّ متحمّسة . وهو أمر مفهوم ، ثمّ يقضون أشهرا (و غالبا سنوات) للتثبّت من عمر الأحفور و فحص ملامحه عن كثب بحثا عن أوجه الشبهو أوجه الإختلاف مع الإنسان المعاصر ومع القردة الحيّة و مع أي أحافير هومنيدوُجدت فى طبقات الصخور الراجعة للعصر نفسه و مع كلّ الأحافير الأكبر و الأصغر عمرا التى عُثر عليها قبلا . و بهذه الطريقة ، تتجمّع المعلومات التى تجعل من الممكن إستخلاص (عادة عقب نقاش حيوي جدّا بين مختلف الفرق العلمية) بالضبط أين يقع مكان أحافير الهومينيد فى شحرة العائلة بأكملها ، نسبة إلى كاملأحافير الهومينيند الأخرى التى وقع إكتشافها قبلا .

و مجدّدا ، بالعودة إلى أيّام داروين ، فرضيّة أنّ الإنسان ينحدر من أجداد يشبهون القردة لم تكن إلاّ مجرّد فرضيّة لم تختبر صحّتها – كان داروين و عدد من العلماء الآخيرن متأكّدين جدّا من أنّ هذا هو ما حدصل ، مقيمين فرضيّتهم على علم أن – أ- واقع أوجه الشبه التشريحيّة التى يتقاسمها الإنسان مع القردة و – ب- واقع أنّ كل أشكال الحياة الأخرى على الأرض كانت بداهة تامة نتيجة للتغيّر التطوري لشتّى الأنواع التى وجدت قبله .

لهذا داروين و أصدقاؤه و زملاؤه (و ت . هتش . هاكسلي خاصة) إشتبهوا فى أنّ الإنسان لن يكون إستثناءا عن القاعدة . لكن طبعا ، جرّا ء ذلك غدت السلط الدينيّة أيّام داروين مجنونة بما أنّ كامل نظام عقيدتها و نمط وجودها بات فى خطر بديهي لإفتراض أنّ الإنسان يمكن أن يكون نتاجا للتطوّر البيولوجي الطبيعي ،عوض نوع من الخلق المنفصل الخاص لكائن ما وراء الطبيعة . و داروين نفسه كان حذرا بهذا الشأن لأنّه ظلّ عرضة لهجمات بلا رحمة من الأصوليين الدينيين و الضغط الشعبي و من آخرين تحدّت إكتشافات داروين معتقداتهم ،و كذلك لأنّه كان يعلم أنّه لم يكن لديه بعدُ دلائل صلبة كافية لإثبات التطوّر الإنساني على النحو الذى إستطاع إثباته بالنسبة لعديد الأنواع الأرى .

علم داروين أنّه غذا كان الإسنان بالفعل تطوّر من بعض الأنواع الشبيهة بالقردة التى وجدت قبله ، سيكون من الممكن الحفر فى طبقات الأحجارة القديمة و إيجاد عظام أحفور تربط الخطّ الإنساني بخطّ أجداد القردة ، لكن هذا لم يتمّ بعدُ . و فى الواقع ، قبل زمن داروين ، لم يكن الناس قد عرفوا حتى ما يكفى لبدء البحث عن مثل هذه الأحافير (أوّل مثل هذه الأحافير التى تمّ إستخراجها – تلك المعروفة بالبشر البدائي النيندرثال – لم تكتشف إلى أواخر القرن التاسع عشر ، حوالي زمن نشر عمل داروين الإختراق " أصل الأنواع ").

و إنطلقت الأبحاث عن أحافير الهومينيد إنطلاقا فعليّا فى القرن العشرين (خاصة بفضل العمل الرائد لأجيال ثلاثة منعائلة ليكي العاملة فى أفريقيا الشرقيّة) ، و كانت عديدة خاصة فى العقودالأخيرة . و اليوم المشكل ليس **نقصا** فى الأحافير و إنّما واقع أنّ هناك **الكثير و الكثير** منها ، و الأحافير الجديدة إكتشفت بنسق يمكن أن يكون تحدّيا حقيقيّا للتوصّل إلى

تنظيمها "جميعا " تنظيما صحيحا فى علاقة الواحدة بالأخرى . و مع مطلع القرن الواحد و العشرين ، نحن قادرون على إعادة بناء جزء كبير من شجرة عائلتنا ، لكن إكتشافات الأحافير الجديدة لأنواع مختلفة من الهومينيد المترابطين يواصل مراكمة المزيد من المعلومات إلى الخليط و عادة ما تدفع العلماء إلى إعادة النظر أو إعادة تفحّص التسلسل الصحيح و درجة العلاقات الرابطة بينمختلف أنواع الهومينيد بأنواع أجداد القردة الأقدم فى إتجاه واحد ، وبأنواع الهومينيد الباقية فقط (نوعنا نحن) فى الإتجاه الآخر ، من خلال سيرورة عدة ملايين السنين من الخطوات التطوّريّة الإنتقاليّة . و من جديد ، فى كلّ مرّة يكتشف فيها أحفور جديد ، يتبع ذلك نموذجيّا بأشهرو حتى سنوات من التحليل و النقاش الحيوي فى صفوف مختلف فرق العلماء قبل بلوغ ضرب من الإجماع حول أين توجد بالضبط "مكانة " المكتشف الجديد فى علاقةبكلّ الأحافير الأخرى المكتشفة قبل ذلك .

لعقد مقارنة نقول يشبه الأمر قليلا وضع إمتلاكنا لكمّية هائلة من صور ألبوم العائلة – لعديد الأجيال – و رمينا بها أرضا فتداخلت الصور جميعها . و الآن نحاول أننعيد ترتيبها غير أنّ الأمر عسير بفعل الكمّ الكبير من المعلومات حول **بالضبط** علاقة كلّ واحد بالآخر التى فقدت مع مرور الزمن . قد يكون بديهيّا جدّا تحديد الصور التى تمثّل الأجداد **الأبعد** و الصور التى تمثّل صور الأجداد **الأقرب** لكن **بينهما** يمكن قد يكون من الصعب تحديد على وجه الضبط ما هي الصور التى تمثّل حقّا أقرب الأقرباء و الأجداد فى خطّ مباشر ، و ما هي تلك التى تنتمى إلى أبناء عمّ بعيدين يختلّون فروعا جانبيّة من شجرة العائلة . و قد توجد حتى بضعة صور لأجداد لن يستطيع أي كان أن يكون متأكّدا تمام التأكّد بشأنها و بشأن مكانها الأصلي فى ألبوم الصور العائليّة و قد تستمرّ المحاججة حول الأقارب لسنوات ! بيد أنّه مع الوقت و الصبر الكافيين ، سيكون من الممكن فى النهاية جمع الصور ذاتها (و من ألجزاء المرتبطة بالأدلّة التاريخيّة) معلومات كافية لنقدر على إعادة ترتيب معظم صور العائلة الترتيب الصحيح للعلاقة . حسنا، هذه مجرّد مقارنة ، لكنّها تعبّر عن الكثير من أحوال عمل العلماء اليوم لملئ فراغ تفاصيل ألبوم العائلة الكبيرة التى تربط الأجداد الذين يشبهون القردة قبل ملايين السنين بنوعنا الإنساني المعاصر (نوع الهومو سابينس من خلال باقة متنوّعة من الأقارب الإنتقاليين – عدّة أنواع من الهومينيد الإنتقاليين .

و لتوسيع المقارنة حتّى أكثر ، يمكننا أن نقول إنّه ندما يتعلّق الأمر بتطوّر الهومينيد ، " لا تزال بعض الصور مطروحة أرضا " (لا شكّ مطلقا فى أنّ المزيد من البقايا المتحجّرة من الهومينيد القدامي ستكتشف فى السنوات القادمة) ، " لا نزال على ألرجح صور فى المكان الخطإ " (و التقنيات المجرّبة و الفهم العلمي الجديد بالتأكيد تقريبا سيخوّلان لنا مزيد تقييم العلاقات العائليّة لبعض أنواع أحافير الهومينيد فى السنوات القادمة) ، لكن بشكل عام " عديد الور توجد بعدُ فى الأساس فى المكان الصحيح فى ألبوم العائلة " . بكلماتأخرى ،من الصحيح حقّا فهم أنّ **هناك بعدُ إجماع علمي عام** حول بعض العلاقات و الملامح المميّزة المفاتيح التى تسمح لنا بربط أنواع الأجداد الأوائل المتنقلين على قديمن و المنتصبي القامة فى مشيتهم بالإنسان المعاصر منخلال سلسلة من الخطوات الإنتقاليّة و التغيّرات التطوّرية الحيويّة التى شهدتها بضعة ملايين السنين .

<u>تلخيص مقتضب</u> :

دعونى أحاول أن ألخّص بإقتضاب بعض ما نعرفه الآن عن " من أين أتى الناس " ؟ نعلم أنّ هناك العديد من الأصناف المختلفة من أنواع الهومينيد المنتصبي القامة فى مشيتهم عاشت طوال فترة تمتدّ على بضعة ملايين السنين ،و من الواضح أنّ بعضها كان ط ناجحا " جدّا (بمعنى القدرة على الحفاظ على النفس كنوع مختلف لمئات آلاف أو حتى ملايين السنين قبل الإنقراض) . و نعلم كذلك أنّه وجدت أوقات أثناءها عاشت أنواع هومينيد متباينة فى نفس الفترة الزمنيّة العامة (و أحيانا حتّى فى نفس المجال الجغرافي) ، مع بعض الإختلافات فى بعض الملامح الجسمانيّة الخاصة (حجم الأسنان و الجسد و حجم الجمجمة إلخ) و مختلفة بأشكال معيّنة فى علاقتها بالبيئة – مثل أصناف الأغنية التى كانت تتناولها (و التى يمكن إستنتاجها من أحافير أسنانها) أو إذا كانت أم لم تكن تستعمل الأدوات الحجريّة (و لاحقا النار) للحول على غذائها أو لإعداده . نعلم أنّ تطوّر الهومينيد لم يكن " "مجبرا على " أن يؤدّى إلى الإنسان المعاصر ، فقط **فعل ذلك** . و نعلم بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ أجدادنا البعيدين جدّا كانوا نوعا من القردة أجدادهم السابقون أفرزوا من جهة خطوطا قادت فى النهاية إلى القردة الأفريقيّة المعاصرة (الغوريلا و الشنبنزي) و من جهة أخرى ، إلى سلسلة معقّدة كاملة من الهومينيد المنتصبين فى مشيتهم ما أدّى فى النهاية إلى الإنسان المعاصر .

<u>ماذا يعنى عمليّا أن " تصبح إنسانا " ؟</u>

<u>نحن الطفل الصغير ضمن الكتلة</u>

بات جليّا بشكل متزايد أنّ كامل تاريخ خطّنا الهومينيد – خطّ نوع إنفصل عن أجدادنا القردة قبل جحوالي 5 ملايين سنة و الذى يشمل أنواعا أقرب للإنسان منها إلى الشنبنزي – ينطوى على فترات بارزة من **تنوّع** الأنواع (عندما تطوّر عدد من أنواع الهومينيد الجديدة و المختلفة منعن تلك التى وُجدت قبلها) و كذلك بعض الفترات البارزة ب**إنقراض** أنواع (عندما إنقرض نوع أو أكثر من الهومينيد ، و إن كان عادة فقط بعد مئات آلاف السنين من الوجود الناجح) .

و نعلم أيضا أنّ نوعنا الإنساني المعاصر الخاص تماما (الهومو سابينس) صنف من الطفل فى باقة الهومينيد بما أنّه تطوّر من أنواع الأجداد السابقين مباشرة قبل 200 ألف سنة فقط . و عاقدين مقارنة ، أفضل التقديرات العلميّة الراهنة للنقطة التى إنفصل فيها فى البداية نوع الهومينيد المتنقّل على قدمين عن خطّ القردة الأجداد ، تؤرّخ هذا الحدث فى نطاق قريب من أكثر بقليل من 5 مليون سنة .

و طبعا حتى **هذه الخطوة الأولى ذاتها** التى ميّزت أجدادنا الأكثر مباشرة عن كافة الأنواع السابقة – ظهور التنقّل على قدمين **ضمن خطّ القردة** – هو فى حدّ ذاته تطوّر " حديث " نسبيّا فى مجمل الخطّ الزمني لتطوّر الحياة على هذا الكوكب : تذكّروا أنّ العلامات الأوّليّة للخياة الشبيهة بالبكتيريا تعود إلى حوالي 3.5 بليون سنة ، و أنّ البرمائيّة الزاحفة على الأرض الأولى تطوّرت من خطّ واحد لأسماك عظميّة قبل حوالي 400 مليون سنة ، و أنّ الزواحف الأولى تطوّرت من أجداد البرمائيّة قبل أكثر من 300 مليون سنة ،و أنّ الثدييّات الأولى ، و العصافير الأولى و النباتات المتفتّحة الأولى قد تطوّرت قبل حوالي 200 مليون سنة (مع أنّ أوّل الثدييّات و أوّل العصافير تطوّرت من خطّين منفصلين من الأجداد الزواحف).

و مثلما أشرنا سابقا ، بعض أنواع الثدييّات الأسبق كانت مخلوقات صغيرة بحجمالفئران كانت بعد موجودة قبل حوالي 150 مليون سنة ، فى زمن كانت فيه بعدُ الديناصورات تجوب فى الأرض . و رغم أنّه يبدو أنّ أنواع الثدييّات هذه كانت نسبيّا قليلة زمن الديناصورات ، و إستطاع البعض منها أن يظلّ على قيد الحياة فى وجه الإنكسارات البيئيّة الشاملة قبل حوالي 65 مليون سنة ، عندما توجت قبالة فترة تغيّرات شاملة أطول (ما كان يحدث بعدُ لبعض الزمن ، ما طال أشياء مثل تراجع مستويات البحر وتصاعد النشاط البركاني و التغيرات المرتبطة بذلك فى البيئات الماديّة و الإحيائيّة) جراء حدث فجئيّ حقّا ، الصدمة الدراميّة لكويكب إصطدم بكوكب الأرض بقوّة تساوى قوّة عدّة قنابل ذرّية . و هذه الصدمة حدثا زمن كانت مجموعات من الأنواع السابقة المهيمنة سابقا (بما فى ذلك غالبيّة الديناصورات) كانت على ما يبدو بعدُ فى حالة إنحدار شديد وتواجه أنساق إنقراض متصاعدة . فى هذا الإطار ، نقص عام مفاجئ يطول أسابيع فى ضوء الشمس (بشبب الكمّيات الهائلة من الغبار و الحطام الذين رمت بهما فى الجوّ صدمة ك/ ت فى شبه جزيرة يوكاتان) كانت على الأرجح شيئا مثل القشّة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة لعديد الخطوط التى لا تزال على قيدالحياة : سحب الغبار والحطام هي على الأرجح المسؤولة مباشرة على الخسارة المقدّرة ب 80 بالمائة من أنواع النباتات الأقلّ إرتفاعا حول الكوكب . و هذا لوحده على الأرجح قد تسبّب فى إنهيار سريع فى عدد السكّان و الإنقراض النهائي التام ،خاصة فى صفوف الكثير منالنباتات الأكبر الآكلة للفقريّات (و الحيوانات المفترسة الكثيرة) بما فى ذلك بعض ما بقي من الديناصورات القريبة بعدُ من الإنقراض . و بالعكس يبدو أنّ الثدييّات الصغيرة ذات الدم الساخن وعلى الأرجح الليليّة و الشبيهة بالقوارض قد تمكّنت على نطاق واسع من البقاء على قيد الحياة أمام هذا الحدث و ما تلاه و بعد ذلك سريعا ما عرفت توسّعا " إنفجاريّا " لتنوّع فى الأنواع أفرز فى النهاية تنوّعا هائلا فى أنواع الثدييّات الجديدة . و مثلما جدّ مع جميع الإنقراضات الكبرى ، إبتعاد عديد و عديد الأنواع و الخطوط المهيمنة سابقا من على ركح المسرح " عبّد الطريق " لمجموعات جديدة بأكملها من الأنواع لتتوسّع و تزدهر ،و فى هذه الحال سمحت للسكّان و أنواع الثدييّات الباقيين على قيد الحياة (و كذلك العصافير) بالتوسّع و ب" إشعاعات تأقلم " دراميّة منتشرة إلى عدّة " محاريب " إيكولوجيّة جديدة مفتوحة ثمّ عرفت سلسلة من التغيّرات التطوّرية فى سيرورة التأقلم مع هذه الفرص الجديدة .

فى كلّ الأحوال ، لا شكّ فى أنّه مذّاك فصاعدا (قبل حوالي 65 مليون سنة) واصل خطّ الثدييّات التطوّر و أفرز عديد الأنواع الجديدة لملايين السنين . و أنتجت أوّل " القردة الشبيهة بالإنسان " قبل حوالي 35 مليون سنة (هذه مجموعة ثدييّات ستشتمل فى النهاية كافة القردة و كافة أجداد الهومينيد من الإنسان ، و الإنسان ذاته) . واصل خطّ الحيوان الأصل الرئيسي التطوّر – و مزيد الإنقسام إلى كلّ الألوان المتباينة من أنواع الحيوان الأصلي الرئيسي لحوالي 30 مليون سنة أخرى قبل أن يفرز فرع الحيوان الأصلي الرئيسي الخاص الذى سيشكّل أكثر أجدادنا مباشرة ، الهومينيد المنتصب القامة فى مشيته .

و من هنا بينما شرعت الحياة ذاتها تتطوّر على الكوكب قبل حوالي 3.5 **بليون** سنة ، و خطّ الحيوانات الأصليّة الرئيسية ككلّ قدتطوّر بعدُ قبل حوالي 35 **مليون** سنة ، فإن الهومينيد المنتصب القامة فى مشيته لم يظهر إلى تقريبا قبل 5 **مليون**

سنة و أحدث الهومينيد الذى تطوّر من أنواع سابقة – نوعنا الخاص ، الهومو سابينس – الذى هو حقّا الطفل الجديد فى الكتلة التى وجدت حوالي **تقريبا أقلّ من مليون سنة .**

ومن المهمّ أنّ ندرك أنّه ، قبل حوالي 20 مليون سنة ، زمن إمتدادات هائلة من الغابات المغطّات دون إنقطاع نسبيا غالبيّة أفريقيا، وُجد عادة عدد أكبر من أنواع القردة فى أفريقيا من ما هو عليه الحال اليوم. لكن هذا الإزدهار لعديد أنواع القردة القاطنة للغابات **قد تقلّص** لاحقا تقلّصا كبيرا لفقط مجموعة صغيرة من أنواع القردة على القارة الأفريقيّة).

ونفس النوع " وُلدت منه " عدّة أنواع و تنوّع يبدو أنّه قد حصل لخطّ هومينيدنا الخاص : فى البداية يبدو أنّه وُجد فقط نوع واحد أو قلّة قليلة من الهومينيد المتنقّلين على قدمين ، و لكن بسرعة كبيرة عدد أنواع مختلف أنواع الهومينيد المتنقّل على قدمين أخذ فى التنامي بشكل هام ، ثمّ لاحقا شهد بعدُ موجة أخرى من التنوّع فى الأنواع ، قبل أن يتمّ فى النهاية " تراجعها " لفقط قلّة من الأنواع ، و فى النهاية بقينا نوع الهومينيد الواحد و الوحيد الذى لا يزال قائما .

و هذا النوع من السيرورة و النموذج يُلاحظ عمليّا على نحو شائع عبر العالم الطبيعي بعد ظهور خطّ تطوّري جديد من خطّ أجداد على أساس لون من التغيّر التطوّري الهام (مثل ظهور التنقّل على قدمين فى خطّ قردة تقطن الأشجار) : فترة من التنوّع التطوّري (مولّدة عدّة أنواع) عادة ما تتبع بما يمكن أن يفكّر فى أنّه صنف " التشذيب " التطوّري – فترة خلالها تبدو فيها سيرورة نشوء أنواع جديدة خفّضت من سرعتها و إنقرضت بعضالأنواع بينما حافظت أخرى على نفسها ضمن الصورة لفترة زمنيّة ، لكن دون أن تفرز أيّة أنواع جديدة . (4)

ظهور أنواع جديدة و تعزيزها :

مثلما ناقشنا أعلاه ، كلّ التغيّر التطوّري الهام و الملموس (بما فى ذلك التغيّرات التطوّريّة من صنف النطاق الضيّق و المراوحة بين التراجع و التقدّم ، التى تواصل حدوثها داخل أعضاء أي نوع و التى يشار إليها عادة ب " التطوّر – على النطاق الضيّق) يمكن أن تحدث فقط على أجيال متعاقبة **عدّة** . و هذا يصحّ كذلك بشأن سيرورة **نشوء أنواع جديدة تماما** – الإنقسام الأوّلي أو " تبرعمها " ، إضافة إلى التعزيز التالي ، لنشوء نوع جديد (مختلف تماما و منفصل فى عمليّة إعادة التوالد) من ضمن الأنواع المختلفة السابقة الوجود . و قد تنطلق هذه السيرورة بباقة صغيرة نسبيّا من الأفراد المختلفين غير النمطيين الذين يجدون أنفسهم بطريقة أو أخرى منقطعين عن عمليّة إعادة التوالد الأوسع و الأكثر نمطيّة لمجموع أفراد الأجداد التى منها إنحدروا (و قد لاحظ البيولوجيّون عمليّا أنّ هذه السيرورة تحدث ضمن الأنواع الحيّة) ، لكن نامي ملموس فى أعداد أفراد جدد غريبي الأطوار وكذلك مزيد التوسّع التطوّري و التعزيز للإختلافات المفاتيح (المتعلّقة بكتلة الأجداد) ما يشير نموذجيّا إلى أنّ مجموعة من الأجهزة التى تمثّل **نوعا جديدا حقّا** (فى تعارض لمجرّد صنف صغير أو مؤقّت من النوع القديم) – **كلّ هذا** سيرورة لا يمكن أن تحدث إلاّ طوال توالد أجيال كثيرة جدّا .

و مثلما ناقشنا أيضا قبل ، إنطلاقة سيرورة نشوء أنواع جديدة بأكملها يمكن أن تكون " فجئيّة " تماما (يتصوّر أنّها منطلقة بفقط مجموعة صغيرة من التغيّرات الجينيّة أو إعادة التركيبات الجينيّة لدى فقط أفراد قليلين ، مثلا) و الظهور التالي لذلك النوع الجديد فى تسجيل الأحافير يمكن أن يظهر كذلك على انّه " فجئي " تماما (لا سيما على الأرجح لأنّه لن تكون لدينا و لا فرصة لإيجاد أحافير الأنواع الجديدة إلى أن يكون زمنا كافيا قد مرّ ليسمح لأعدادها و مداها الجغرافي بالنموّ بشكل ملموس). لكن سيرورة **تعزيز** حدث نشوء أنواع جديدة و النقطة التى يمكن أن يقال بصددها بالفعل " آه، هذا نوع جديد نهائيّا "، إنّم لم ينقرض بسرعة بعد ظهوره ،و لم يتمّ جينيّا إعادة إستيعابه إلى كتلة الأجداد – لقد حافظ على هويّته المختلفة و يبدو أنّه سيبقى لمدّة – سيرورة التعزيز هذه تستغرق **وقتا أطول** . و يمكن أن نواصل وصفها بأنّها " فجئيّة " نسبيّا فى نطاق الزمن البيولوجس الشامل (حيث الأشياء تقاس بمئات آلاف ملايين السنين **!**) و لكن لن يكون مفاجئا أن نجد أنّ هذا حدث طوال مئات أو آلاف الأجيال المتوالدة . لدى أنواع لا تعمّر كثيرا أو سريعة التوالد مثل ذباب الثمار ، يستغرق الأمر فحسب بضع سنوات ل " تبرعم " نوعا جديدا (وبالفعل قد لوحظ حدوث هذا عمليّا فى المخابر) ، لكن لدى أنواع تعمّر طويلا و بطيئة التوالد نسبيّا مثل الحيوانات الأصليّة الرئيسية ، التراكم فى مجموعة التغيّرات التطوّريّة الهامة الكافية تؤدّى إلى نشوء أنواع جديدة تماما يمكن أن تنتشر بيسر طوال مئات أو آلاف السنوات .

ظروف مفاتيح فى تطوّر الإنسان :

لن أكرّر هنا كلّ ما قد قيل عن آليّات كيفيّة حصول نشوءأنواع جديدة ، و عن أهمّية آليّات التوالد المنفصل لأصناف متنوّعة فى " لفّ كرة نشوء أنواع جديدة " ، إن أمكن قول ذلك؛ بيد أنّى أودّ أننشدّد مرّة أخرى على أنّ التفكير العلمي

الراهن هو أنّ **التغيّرات و التبدّلات الكبرى للبيئات المحلّية** قد لعبت على الأرجح عادة دورا مبادرا حيويّا (أو " دافعا ") فى شقّ خطّ آخر تطوّري ستاتيكي ثبوتي نسبيّا للنباتات و الحيوانات و يفرز نوعا أو عدّة أنواع جديدة .

أتطرّق للمسألة هنا بوجه خاص لأنّه يبدو أنّ مجموعتين من التغييرات البيئيّة (سناقشها بعد قليل) قد أثّرت فى التحفيز على **ظرفين كبيرين بصفة خاصة أو " قفزتين "** فى تاريخنا التطوّري الإنساني الخاص : **أوّلا** ، النقطة التى إنفصل فيها الهومينيد المتنقّلين على قدمين منتصبي القامة) عن أنواع القردة السابقة التى لم تكنتمشى واقفة تماما ؛ و ثانيا ، نقطة (بعد بضعة ملايين السنين) عندما نسجت فرعا نوعيّا مختلف من الهومينيد المتنقّل على قدمين عن فرع أنواع الهومينيد السابقين المتنقّلين على قدمين (بالضبط ذلك الذى لا يزال يتمّ الإشتغال حوله) ليولّد سلسلة من الأنواع كانت أشبه بكثير بالإنسان المعاصر ، و صنّفت عموما على أنّها تنتمى إلى جنس الهومو الخاص .

الأنواع المتنوّعة ضمن جنس الهومو التى عاشت باية من قبل حوالي مليوني سنة ، عموما لديها أدمغة أكبر بكثير من القردة أو الهومينيد السابقين المتنقّلين على قدمين مثل الأسترالوبيثين . و بالفعل ، معدّل حجم الأدمغة لدى أنواع الهومو الأوائل كان تقريبا ضعف معدّل حجم أدمغة القردة أو الأسترالوبيثين الأوائل ، رغم أنّ معدّل حجم الجسد لم يكن مختلفا جدا . إلاّ أنّ سجلاّت الأحافير تبيّن أنّ حجم ثقب الحوض الذى عبره يمرّ الأطفال عندما يولدون كان صغيرا جدّا ليسمح بكائنات كبيرة الدماغ مثل هذه بالمرور عبره (و هذا هوحال كلّ من الأنواع الأوائل فى جنس الهومو و نوعنا المعاصر عينه) . لذا كيف أمكن للهومينيد اللاحقين و الإنسان المعاصر أن ينتهوا إلى مثل هذا النموّ الكبير فى حجم الدماغ مقارنة بالأجداد القدماء ؟ الإجابة على هذا يبدو أنّها ظهور تغيّر تطوّري حيوي فى النسق العام لنموّ الهومينيد و تطوّره – تغيّر نجم عنه أساسا هومينيد جنس هومو يلدون أطفالا " غير تامي التطوّر"(أو غير تامي التشكّل) و تواصل أدمغتهم التطوّر لفترة طويلة **بعد** الولادة و خارج جسد الأمّ ،و فى النهاية **يتضاعف ثلاث مرّات** معدّل حجمه فى الفترةبين الولادة و النضج فى حال الأفراد الأخيرين من جنس الهومو و فى حال نوعنا الإنساني الخاص (لدى الإنسان المعاصر دماغ الطفل يتضاعف حجمه فى السنة الولى فقط بعد الولادة) . بكلمات أخرى ، خلال سيرورة تطوّر و فعل تغيّرات الإنتقاء الطبيعي – و ليس بفعل أي " تصميم " – التى حدثت فى علم التشريح بعض الهومينيد أفرزت أن يولد أبناؤهم بمظهر خاص هو من جهة حجم دماغ (و حجم الهيكل العظمي المتناسب معه) كان بعد صغيرا بما فيه الكفاية ليسمح بالمرور الناجح عبر ثقب الحوض ، و من جهة أخرى ، إستطاعت الأدمغة بعدُ أن تواصل النموّ و مزيد التطوّر تطوّرا كبيرا **بعد الولادة** .

و من المهمّ أن نلاحظ أنّ عديد التغييرات التطوّريّة الكثيرة عبر تاريخ الحياة قد نجمت على ما يبدو من خلال " دوائر" صغيرة نسبيّا لنسق نموّ و تطوّر جزء أو أكثر من الجسد . مثلا ، منذ ثمانينات القرن العشرين ، تراكمت الأدلّة على أنّ حتى التغيّرات الصغرى فى المجموعة الصغيرة من الجينات التى تتحكّم فى التطوّر الجنيني (الجينات المثليّة التى " تفتح و تغلق " الجينات الأخرى) يمكن أن تتسبّب فى تغييرات درامية فى التنظيم التشريحي أو " مخطّط الجسد " . و بعض هذه الأنواع ذات " دوائر" أصغر نسبيّا لأنساق النموّ و التطوّر يمكن أن تنتج الكائنات الحيّة الفرديّة بملامح تشريحيّة جديدة ما قد يثبت فى النهاية أنّه ميزة فى إعادة التوالد و بالتالى ينتشر بفعل الإنتقاء الطبيعي طوال أجيال متتالية .

و فى حال الهومينيد المنتصب القامة – شكل تنقّله و " حرّية اليدين " لا شكّ فى أنّهما قد خوّلا له بعدُ إكتشاف وسطه و إستخدامه إلى درجة أكبر بكثير من أيّة أنواع قردة سابقة – و " دوائر" تطوّر و تباطئ الأنساق العامة للنموّ و التطوّر يبدو أنّها مثّلت **القفزة التطوّرية الكبرى الثانية (و الأولى هي ظهور التنقّل على قدمين) و نقطة تحوّل مفتاح** فى مسار التحوّل إلى إنسان تماما . و أدّى هذا التغيّر ليس إلى نموّ فى الحجم العام للدماغ (و قد كان معتبرا) فقط **بل كذلك إلى نموّ فى المدّة الزمنيّة التى بمقدور الدماغ أن يتطوّر أثناءها خارج جسد الأمّ** . يبدو أنّ هذا مثّل تطوّرا مفتاحا سمح بقدرة متنامية كبيرة على **التعلّم** ، فى تفاعل نشيط مع الديناميكيّة خارج البيئة الطبيعيّة و الإجتماعيّة .

و إضافة إلى ذلك ، واقع أنّ أطفال الهومينيد الأخيرين كانوا قد ولدوا (مثلما هو حال أطفال البشر) فى وضع جدّ ناقص التطوّر و غير مستقّل و غير ناضج ممّا عني أنّه كان على الكبار أن يعتنوا بهم عناية أكبر و لفترات **أطول** بكثير من الزمن ممّا كان عليه الحال لدى الهومينيد السابقين (بالضبط مثلما أنّه يجب الإعتناء بأطفال البشر لفترة زمنيّة أطول بعد الولادة أكثر من العنايةبأطفال الشنبنزي التى هي أكثر حركة و إستقلاليّة بالضبط منذ الولادة) . الحاجة إلى فترة عناية طويلة بالأطفال كانت لها بلا شكّ تبعات هامة على التنظيم الإجتماعي للهومينيد ، و تحفيز و تعزيز تطوّر التنسيق و التواصل الإجتماعيين فى صفوف عائلات و مجموعات أوسع ما يسّر توسيع التعليم و التعلّم .

وحتى من تلك النقطة ، سيستغرق بعض الوقت تطوّر الإنسان المعاصر تطوّرا تاما : تبيّن سجلاّت الأحافير بوضوح أنّ الأنواع السابقة " الأوّلية " من جنس الهومو لم تكن قريبة من الإنسان المعاصر تماما (سواء فى ملامحهم الجسمانيّة أم فى قدراتهم على صناعة الأدوات) مثلما هو حال المنحدرين " الأخيرين " الذين أفرزوا نوعنا الخاص بعدما يناهز أكثر

من مليوني سنة من مزيد التطوّر فى خطّ الهومو . و فتح ظهور التغيّرات التطوّرية التى يبدو أنّها تسبّبت فى تباطئ النموّ و التطوّر العامين لدى الهومينيد و سمحت بتعلّم الكثير بعد الولادة و تطوّر الدماغ يبدو أنّه بمعنى ما ، فرتة من صقل ما ننزع إلى التفكير فى أنّها ملامح إنسانيّة مميّزة . و خلال كامل هذه الفترة ، ضمن مجموعات الهومينيد القابلة للأذى جسمانيّا مع أطفال غير مستقلّين إلى درجة عالية ،و الإنتقاء الطبيعي ، على الرجح قد وفّروا أرضيّة كبرى لأي نموّ فى قدرة التعلّم و التعاطي مع التحدّيات المعقّدة التى تطرحها البيئة الطبيعيّة و الإجتماعيّة من خلال سلوكات أكثر مرونة و تنسيق إجتماعي متنامي ، بما فى ذلك من خلال لغة منطوقة أكثر تطوّرا و أشكال أخرى من الإتصالات .

و يرجّح أنّ بعض أنواع الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين (مثل تلك المصنّفة عموما على أنّها أوسترولوبيثين) و أنواع مشابهة) قد إستعملت على الأقلّ أدوات بدائيّة (و بالفعل درجة معيّنة من إستعمال الأدوات للحصول على الغذاء ليس شيئا يتفرّد به خطّ الإنسان فقد لوحظ بشكل متكرّر لدى الشنبنزي ، و حتى لدى بعض العصافير كالغراب و عائلات طائر زرياب) و عديد الأدوات الأوّليّة التى إستخدمها الهومينيد يمكن أن تكون قد شملت أدوات طبيعيّة مثل تلك التى يستخدمها الشنبنزي الذى يرمى بالأغصان على الحيوانات المفترسة المهدّدة له و شريط أوراق من الأغصان ل " صيد " النمل الأبيض عند خروجه من أعشاشه أو إستخدام حجارة لكسر و فتح الجوز . الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين مثل الأسترالوبيثين ، إستطاعوا على الرجح أن يفعلوا الكثير من مثل هذه الأشياء و يمكن كذلك أن يكونوا قد بدؤوا فى إستخدام أشياء كالقرع الجوفاء غير المعدّلة أومثانات حيوانات التموين و جلودها لحمل أشياء كالماء أو تجميع نباتات غذائيّة بأيديهم الحرّة نسبيّا . لا نعرف معرفة يقينيّة ذلك أنّ هكذا مواد غير المعدّلة و السريعة التلف على الأرجح لم تخفظ فى سجلّ الأحافير . نعرف أنّ الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين لم يصنعوا أيّة أدوات حجريّة معدّلة : أوّل الأدلّة عن **صناعة** حتى أبسط **الأدوات الحجريّة** (أبسط المكاشط و القواطع الحجريّة التى تعلّم الهومينيد صناعتها بضرب أصناف معيّنة من الحجارة بعضها ببعض لصناعة رقائق حجريّة حادّة) لا تظهرفى سجلّ الأحافير إلى قبل حوالي 2.4 مليون سنة ، أو بضعة ملايين السنين **بعد** أوّل ظهور للتنقّل على قدمين .

فقط حوالي تطوّر نوع الهومينيد الأوّل المنتمى إلى جنسنا الهومو شرعنا فى العثور على أدلّة ليس على **إستعمال** الأدوات فحسب لكن أيضا للمهام الأعقد و الأكثر تحدّيا ذهنيّا للأدوات **المصنّعة** : مستعملين مواد طبيعيّة غير معدّلة كأدوات من صنف شيء يمكن أن يكون الهومينيد الأوّلين قاموا به تماما (و لعلّهم قاموا بذلك حتّى على نطاق أوسع من ما يقومبه الشنبنزي اليوم) ؛ لكن من الأعسر و الباعث على التحدّى أكثر بكثير (حتّى بالنسبة للإنسان المعاصر !) تصوّر كيف تضرب ببساطة الحجارة المناسبة بالضبط فى الزاوية المناسبة للنجاح فى صناعة حتى أبسط الحجارة الحادة كالقواطع و المكاشط التى إستخدمت فى تقطيع جثث الحيوانات و التى بدأت تظهر فى سجلّ الأحافير قبل حوالي 2.5 مليون سنة . ومع الوقت ، أنواع لاحقة من الهومو أركتوس و الهومو أرغاستار ظهرت فى سجلّ الأحافير و " ثقافة الأدوات " قدتطوّرت حتى أكثر لتشمل أشياء ذات محاور حجريّة أعقد ، و كذلك الإستعمال الواعي و المحسوب للنار (التى يمكن إستخدامها للتدفأة و طبخ الغذاء من الحبوب و الحماية من الحيوانات المفترسة . و طبعا ، لم يتغيّر الجانب التشريحي و التطوّر الفيزيولوجي و القدرات التقنيّة للهومينيد فحسب عبر الزمن : هذه التغيّرات كانت على الأرجح إرتبطت بالعديد من التغيّرات الهامة فى السلوكات و فى الهياكل الإجتماعيّة كذلك .

و جزء من الحماس لدراسة جميع التغيّرات التى جدّت لدى شتّى أنواع الهومينيد ، من أوائل الأسترالوبيثين إلى الإنسان المعاصر ، يعود إلى أنّ بقاياها تحجّرت فتعطينا أدلّة ليس عن ما كانت تبدو عليه و حسب بل كذلك عن كيف عاشت و ماذا يعنى عمليّا أن " تصبح إنسانا " .

<u>الأدلّة الواضحة و المتراكمة عن التطوّر من قردة إلى إنسان :</u>

كتبت كتب و صفحات علميّة كثيرة بصدد تطوّر الهومينيد و تضيف الإكتشافات الجديدة لفهمنا بعض التفاصيل و الثراء بشأن التطوّر الإنساني على أساس يومي عمليّا . و هنا ليس بوسعى إلاّ أن أحاول أن أقدّم عرضا و تلخيصا سريعين لأين وصل فهمنا الأساسي اليوم .

نعرف واقع أنّنا مرتبطون وثيق الإرتباط بالقردة الأفريقيّة الحالية (الغوريلا و الشنبنزي) . و فعلا ، لنا تقريبا 95 إلى 99 بالمائة من الحمض النووي المشترك مع الشنبنزي ! و هذا غاية فى الأهمّية لأنّه بيّن بشكل قطعي أنّه بقدر ما تكون الأنواع قريبة الترابط ببعضها البعض ، بقدر ما يمكن أن نعثر على أوجه شبه فى ذرّات حمضها النووي . وبالعكس ، بقدرما يكون نوعان بعيدي الإرتباط ، بقدر ما تطون الإختلافات قدتراكمت فى حمضهما النووي وذرّاتهما الداخليّة الأخرى .

و مثلما ناقشنا آنفا ، للعلماء عدد من المناهج المختلفة للتثبّت فى وفحص عمر أشياء متنوّعة بما فيها العظام المتحجّرة ، و من ضمن مناهج فحص التأريخ المتعدّدة هناك التقنية المعاصرة لتأريخ الذرّات ، الذى يسمح للعلماء بمقارنة درجة التشابه و الإختلاف فى الحمض النووي للأنواع الحيّة ، و هذا بدوره يجعل ممكنا الحصول على فكرة جيّدة جدّا عن **الزمن الذى إنفصل فيه خطّان تطوّريّان عن أجداد مشتركين تقاسماهما و ذهبا كلّ فى حال سبيله** . حسب معلومات هذه " الساعة الذريّة " ، خطّ الشنبنزي و خطّ الإنسان لا يزالان يتقاسمان أجدادا مشتركين إلى زمن حديث قبل حوالي 5 مليون سنة . و لعدد من الأسباب لن أفصّلها هنا ، يعتبر العلماء عموما أنّ خطّ الشنبنزي (الذى يتكوّن اليوم من نوعين فقط ، الشنبنزي المشترك بان تروغلوديتوس ، و الشنبنزي البغمي / القزم أو بونوبو ، خطّ بان بانسكوس " محافظ " نسبيّا ، ما يعنى أنّه لا يعتقد أنّه قد تغيّر تغيّرا راديكاليّا جدّا منذ زمن الأجداد الذين تقاسمهم مع الفرع الإنساني من خطّ الهومينيد . (لسوء الحظّ ، لا وجود لسجّل أحافير لخطّ الشنبنزي على نحو ما توجد بالنسبة لخطّ الإنسان لأنّ الأنواع التى قطنت الغابات كالشنبنزي تعيش فى أوساط حيث حتى العظام تنزع إلى التلاشي بسرعة دون أن تشكّل أحافير . لكن دليل الحمض النووي ضمن أشياء أخرى ، يشير إلى أنّه من المعقول إعتبار أنّ الأجداد المشتركين بين خطّ الشنبنزي و خطّ الإنسان كانت يمكن تمييزها بالنسبة لنا كقردة أفريقيّة . مثل القردة الأفريقية اليوم ، هذه الأنواع الأجداد من الممكن جدّا أنّها أحيانا تنقّلت على الرض بالإنحناء إلى الأمام على مفاصلها (شكل تنقّل معروف ب " التنقّل على المفاصل ") إلاّ أنّها على ألرجح قد قضت معظم وقتها فى إستعمال الأيادي الطويلة و الأرجل القابضة النموذجيّة لدى قردة الغابات لتتعلّق و تتأرجح عبر الأشجار بينما تتغذّى على وفرة أوراق و غلال الغابات الإستوائيّة .

و مثلما أشرت إلى ذلك سابقا ، قبل حوالي عشرين مليون سنة ، وُجدت أنواع أكثر بكثير من القردة الأفريقية من ما يوجد اليوم . لكن قبل حوالي 10 ملايين سنة (أكثر أو أقلّ بمليون سنة) إنحدر بحدّة تنوّعهم . و هذا هام لأنّ ذلك يقترب جدّا من الزمن الذى تشير الأدّلة الذرّية أنّه قاد إلى إنفصال خطّ الإنسان و خطّ الشنبنزي عن الأجداد المشتركين . وهو يقترب كذلك من الزمن الذى شرع فيه نوع مختلف راديكاليّا من " القردة " فى الظهور فى سجلّ الأحافير : أوّل الهومينيد المنتصب القامة فى مشيته ! ويفترض هذا أنّه مهما كانت العوامل (مثل التغيّرات البيئيّة) تساهم فى تقليص العدد الجملي من أنواع القردة القاطنة للغابات زمنها يمكن أن يكون ذلك فى نفس الوقت يساهم فى " النجاح " النسبيّ (من وجهة نظر إعادة التوالد) لأوّل وهلة أنواع قردة صادف أن كانت تتنقّل على قدمين – خاصة إن كان التنقّل على قدمين نفسه يسّره إستغلال مصادر الغذاء من تنوّع أكبر من البيئات بما فيها بيئات بها ندرة من الأشياء أو لا أشجار بها .

و كما شرحت آنفا ، من العسير غالبا و عادة مستحيل) أن نجد الأحافير للممثّلين **الأوائل بالذات** لأي خطّ تطوّري مختلف ، فى آن معا لأنّ المشكل العام لكون غالبيّة الأجسام (أو أجزاء الأجسام) لا تنتهى بأن يحافظ عليها كهياكل عظميّة صلبة (لأجزاء هيكل عظمي) فى المقام الأوّل ،و لأنّ غالبيّة الأنواع الجديدة تنشأ ربّما بأعداد قليلة من أفراد غريبي الأطوار تعلق بعيدا فى جيوب جغرافيّة منعزلة و فقط تاليا ينتشرون و يزداد تنوّعهم فى الأنواع المنحدرة منهم هم . و اليوم لدينا عدّة أحافير الهومينيد المتنقّلين على قدمين لما قبل 3 إلى 4 مليون سنة (عندما وُجد بعدُ عديد الهومينيد المتنقّلين على قدمين) لكن ليس لدينا بعدُ أحافير نكون متأكّدين من أنّها تمثّل الأنواع **الأوائل بالذات** للهومينيد المتنقّلين على قدمين (المنتصبي القامة تماما) . و كما تمّت الإشارة إلى ذلك أعلاه ، فإنّ الهيكل العظمي لتوماي وعمره 7 ملايين سنة و الذى إكتشف حديثا فى التشاد مرشّح ممكن إن تبيّن أنّه بالفعل كان حقّا نوعا من المتنقّلين على قديمن . و واقع أنّ الأنواع الأولى ذاتها من الهومينيد المتنقّلين على قدمين كانت كانوا بالضرورة إنطلقوا مثل أي نوع جديد آخر كعدد صغير من الأفراد ، يجعل مهمّة إيجاد أحافير للأنواع المتنقّلة على قدمين صعبا بشكل خاص ويعنى أنّه على الأقلّ إلى ألان ، يجب أن نكون بالأساس مقتنعين بالعديد من الإكتشافات (المتزايدة بإستمرار) لعديد الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين (مثل شتّى أصناف الأسترالوبيثين) الذين صاروا شائعين نسبيّا فى سجلّ الأحافير بداية من قبل حوالي 3,5 مليون سنة . و تقوم هذه الأحافير دليلا على الملامح الإنتقاليّة بوضوح بين ملامح القردة و الإنسان المعاصر مع البعض أشبه بالقردة و البعض الآخر أشبه بالإنسان .

لنضرب مثالا فقط عن الثراء الحقيقي لتنوّع الأنواع التى حدّدت جميعها كهومينيد منتصب القامة إلى ألان (تنوّع سيكتشف بلا شكّ أنّه أغنى و أعقد حتى مع إكتشاف المزيد من الأحافير) دعونى نقدّم جردا فى بعضها مستعملين الأسماء العلميّة المتّفق بشأنها حاليّا :

أقدم ما عُثر عليه يبدو أنّه سهلندروبوس تشادنسيس (المسمّى توماي) عاش قبل 6 إلى 7 ملايين سنة ، رغم أنّه لا وجود بعدُ لإجماع علمي على أنّ هذا النوع الخاص كان يتنقّل على قدمين لذا أضمّه هنا على أنّه فقط قاعدة تجريبيّة ؛ و سأفعل الشيء ذاته مع الأرديبيثكوس راميدوس و عمره 4.4 مليون سنة و الذى لا يمكن بعدُ التأكيد تأكيدا نهائيّا أنذه كان يتنقّل على قدمين . و من ضمن أكثر الهومينيد المتنقّلين على قدمين الأقّل موضع سؤال نجد الأسترالوبيثكوس أنامنسيس

قبل 4 إلى 5 مليون سنة ؛ و الأسترالوبيثكوس أفارنسيس (بما فى ذلك الهيكل العظمي التام تقريبا المسمّى " لوسى ") قبل حوالي 3.5 مليون سنة ؛ إكتشاف ميف ليكيس الأخير لهومينيد ذى وجه مسطّح أكثر (و هكذا أشبه بالإنسان) من تقريبا ذات الفترة (المسمّى عادة بكينياأنتروبوس بلاتيوبس – انظروا " ميف ليكي تمسك بآخر إكتشافاتها لأحافير ").

و بعد ذلك لدينا أسترالوبيثكوس أفريكانوس و أسترالوبيثكوس أيثيوبيكوس و أسترالوبيثكوس غارهي ، و كلّهم عاشوا فى فترة قبل حوالي 2.5 إلى 3 مليون سنة . و من هؤلاء أسترالوبيثكوس أيثيوبيكوس و عمره 2.5 مليون سنة (و " الهيكل العظمى الأسود " الشهير الذى عثر عليه ريتشارد ليكي و قد سمّي كذلك بسبب اللون الجميل للمعادن المحاذية للعظام يمكن أن يكون الأوّل من فرع جانبي من الأسترالوبيثكوس الذى سيشمل لاحقا الأسترالوبيثكوس روبستوس (المعروف أيضا ببرانثروبوس روبستوس) و أسترالوبيثكوس بواسير (أو برانثروبوس بواسير) - المسمّى "روبستوس" /" المتين " – الذى عاش إلى قبل حوالي 1.5 مليون سنة . و هذا الهومينيد " المتين " إختلف عن ما يسمّى ب أسترالوبيثكوس " غراسيل " / " الناحل " (مثل أسترالوبيثكوس أفريكانوس و أسترالوبيثكوس غارهي) لأنها كانت تملك جمجمة عظميّة ثقيلة جدّا حقّا ،و عضلات حنك عريضة و أسنان طحن هائلة . يُعتقد أنّها تمثّل طريقا بديلا فى تطوّر الهومينيد ، طريق متمثّل فى نوع بوجبة أكثر تميّزا من الغذاء النباتي الصلب . هؤلاء الأسترالوبيثكوس " روبستوس " وصلوا فى الأخير إلى نهاية مسدودة و ليسوا معتبرين أجدادا للخطّ المباشر للإنسان .

بعض الأسترالوبيثكوس " روبستوس " قبل حوالي 1.5 و 2.5 مليون سنة مع ذلك قد تتشابك فى الزمن ليس فقط مع أنواع " الناحل " / " غراسيل " و الأسترالوبيثكوس " الأخيرين " بل كذلك مع بعض الأنواع الأسبق فى جنس الهومو الخاص . فى الواقع ، فى الفترة العامة قبل حوالي 1.5 مليون سنة يبدو أنّه وجدت ستّة أنواع أو أكثر من الهومينيد المتنقّل على قدمين شرقي أفريقيا ، مع بعض أنواع " المتين " يتشابك مع بعض أنواع الهومو السابقة التى تطوّرت على ألرجح من الخطوط الأكثر الأسترالوبيثكوس " غراسيل ".

كانت الأنواع الجديدة من الهومينيد المتنقّل على قدمين مثل سابقاتها لكن لديها عديد الملامح الجديدة ،منها أحجام الجسد و وجوه و جماجم أكبر بكثير أشبه بالإنسان . عند هذه النقطة ، تشمل الأحافير فى خطّ الهومو أنواع الهومو أبيليس (أحيانا مصنّفة ك أسترالوبيثكوس أبيليس بسبب طابعها ط الإنتقالي ") و هومو رودلفانسيس اللذين عاشا قبل حوالي 1.5 إلى 2.5 مليون شنة – ما يتناسب مع الفترة التى ظهرت فيها أوّل أدوات حجريّة مصنّعة حسب سجّل الأحافير . و تُبعت هذه الأنواع الأولى من الهومو بالضبط قبل حوالي 1.5 مليون سنة بالأطول رجلين بكثير ،و كبير الجمجمة و اشبه معاصر ب الهومو أرغستار (و المعروف كذلك بالشكل الأفريقي من الهومو أركتوس). الهومو أرغاستار / أركتوس (الذى يشمل الأحفور التام تقريبا لطفل تركانا الأشهر و المدروس أكثر) هو نوع الهومينيد المعروف بأنّه **صنع أدوات معقّدة ذات محاور حجريّة و بأنّه إمتلك النار** . و يعتبر كذلك عموما أنّه كان أوّل الأنواع فى الإنتشار خارج أفريقيا ، فى إطار **الموجة الكبرى الأولى لهجرة الهومينيد** . و المنحدرون منه بلغوا فى النهاية مناطقا بعيدة كالصين و جنوب شرق آسيا (أين تعرف أحافيرها عامة برجل جافا ، و رجل بيكين أو الهخومو أركتوس الآسيوي) لكن فى النهاية جميعها إنقرضت . و بلغ فرع من الهومو أركتوس الشرق الأوسط و أوروبا أين أحافير المنحدرين منهم معروفة لدى العموم بالهومو هيدلبار جنسس و الهومو نيندرثالنسيس أو ببساطة " النيندرثال " . و هي بدوره فى النهاية إنقرضت لأسباب منها أنّ الهومو أبيليس – الذى لديه ملامح تبدو إنتقاليّة بين الأشبه بالأسترالوبيثن و الأنواع التالية الأشبه بالإنسان فى خطّ الهومو . كان هذا على الدوام موضوعا خلافيّا . نزع بعض الناس إلى نوع من "بإنزال رتبة " الهومو أبيليس ورفع الأسترالوبيثين و إلى التساؤل إن كان أبيليس حقّا قد صنع أدوات حجريذة بسيطة أو أنّ تلك التى وجدت فى الطبقات الصخريّة من زمن وجود الأبيليس كانت على ألرجح مصنوعة من قبل أنواع مختلفة من الهومو التى كانت تعيش فى نفس الفترة (كالهومو رودلفنسس) . على كلّ حال ، يجعل كلّ هذا من الواضح أنّه وُجد بعدُ تنوّع **كبير** (و الكثير من إمكانيّات التوسّع) حتى لدى خطّ الهومو المبكّر جدّا ز

قبل ذلك فى أفريقيا ، نوعنا الإنساني المعاصر تماما من الهومو سابينس تطوّر (على الأرجح من الهومو أرغستار أو نوع مشابه جدّا له) قبل حوالي 200 ألف سنة . أنواعنا الجديدة كانت بوضوح ناجحة للغاية ، و مع قبل 50 ألف سنة هاجرت من أفريقيا و إنتشرت عبر كافة أنحاء العالم . و كانت موجة الهجرة هذه على الأقلّ المرّة **الثانية** التى كان فيها الهومينيد هاجر خارج أفريقيا .

و مع إنتشار الهومو سابينس إلى مختلف أنحاء العالم، قابلنا و تعايشنا لبعض الوقت مع مجموعات من الأنواع الإنسانيّة المختلفة ، مثل الهومونيندرثال . و هؤلاء النيندرثال كانوا منحدرين من بعض المجموعات السابقة من الهومو أركتوس التى هاجرت خارج أفريقيا قبل مليون أو مليوني سنة . و منذ تداخل الهومو سابينس و الهومو نيندرثال فى أنحاء أوروبا لبضعة آلاف السنين (و بما أنّ يعض الأدوات الحجريّة الأكثر تقدّما للهومو سابينس وجدت بأماكن النيندرثال ، ما يقترح

أنّ النوعين تفاعلا إلى درجة معينة) فقد إعتقد قبلا أنّ النوعين قد يكونا عمليّا تزاوجا و تناسلا و أنّ الإنسان المعاصر يمكن أن يكون منحدرا من الإثنين . مع ذلك اليوم ، نعلم أنّ الحال لم يكن كذلك : إستُعملت التقنيات الحديثة للبيولوجيا الذرّية لتحليل الحمض النووي و ذرات بيوكميائيّة أخرى منالإنسان المعاصر عبر العالم قاطبة ، و قد حدّد هذا التحليل أنّ كافة البشر الأحياء منحدرين من مجموعة واحدة عاشت فى أفريقيا قبل حوالي 150 ألف سنة ، و أنّ النيندرثال لم يساهموا أبدا فى المسبح الجيني الشامل لنوعنا . والآن يُعتقد أنّ خطّ الهومينيد الذى أدّى إلى الإنسان المعاصر و الخطّ الذى أدّى إلى النيندرثال قد إنفصلا قبل حوالي 600 ألف سنة ، و مثل هذه الفترة الطويلة من الإنفصال و التوالد بوسعها ببساطة أن تسمح بما يكفى من مراكمة الإختلافات الجينيّة لتنتهي إلى نوعين مختلفين تمام الإختلاف ، و هذا بدوره سيشرح لماذا يبدو أنّ مجموعات الهومو سابينس و الهومو نيندرثال التى تلاقت لاحقا فى أوروبا (قبل حوالي 40 ألف سنة) لم تستطع أن تتناسل بنجاح و تنتج منحدرين منها قابلين للحياة و الإخصاب .

و رغم أنّ النيندرثال لميكونوا أجدادا فى خطّ مباشر لنوعنا الخاص ، فقد يستخدمون كتذكير جيد بأنّه **فى المدّة الأخيرة قبل 40 ألف سنة** ، وُجد على الأقلّ **نوعان أو ثلاثة أنواع إنسانيّة مختلفة على هذا الكوكب** : الإنسان المعاصر الهومو سابينس(نوعنا الخاص) ، و النيندرثال فى أورروبا ، إضافة إلى مختلف مجموعات المنحدرين من الهومو أركتوس التى أنتشرت بإتجاه شرقي آسيا فى موجة الهجرة السابقة تلك . لكن مع إنتشار الهومو سابينس عبر الكوكب ، فى كلّ مكان ذهب إليه إنتهى بشكل أو آخر إلى تعويض هذه الأنواع الإنسانية المتباينة . ونعلم من سجلّ الأحافير أنّ الهومو سابينس ، ضمن أشياء أخرى كانت لديهم أدوات حجريّة و غيرها أكثر تقدّما من الأنواع الإنسانية الأخرى زمنها . وتعكس المهارات الأكثر تعقيدا التى تطلّبها تصوّر و صنع هذه الأدوات إختلافات هامة فى القدرات المعرفيّة الذهنيّة) لنوعنا ، وهو ما قد يشرح لماذا قد عوّض بنجاح الأنواع الإنسانيّة الأخرى حيثما ذهب .

كافة أنواع الهومينيد المنتصب القامة الأخرى (بما فيها الأنواع الإنسانيّة أساسا الأخرى فى جنس الهومو) إندثرت الآن – بإستثنائنا نحن . لكن من الهام تذكّر أنّ مجرد واقع أنّ كلّ الآخرين فى النهاية إنقرضوا لا يعنى أنّ الهومينيند الأسبق قد كانوا على نحو ما أنواعا " منشقّة " أو " أدنى " : فى الواقع ، عدد من أنواع الهومينيد هذه عمّر لوقت طويل جدّا ، و بعضها مثل الهومو أركتوس ، عمّر لمليون سنة أو أكثر . و كون نوعنا الإنساني وحده هو الذى لا يزال موجودا ليس بالأمر المفاجئ فكلّ الأنواع فى النهاية تنقرض ،و كمعدّل أغلب أنواع الفقريّات عامة يبدو أنّها تعمّر أكثر منحوالي مليوني سنة . و مرّة أخرى ، كون كافةانواع الهومينيد الأخرى قد إنقرضت الآن لا يعنى " أنّنا " بشكل ما أتمّ الأنواع الممكنة التصوّر ، أو أنّ كافة ألاخرين كانوا نوعا ما " منشقّة " أو " غير مناسبة " . نملك فعلا بعض الميزات الفريدة (مثل قدرتنا غير المسبوقة على تغيير أنفسنا و تغيير العالم بإستمرار عبر وسائل ثقافيّة) ما يمكن أن ينتهى بالسماح لنا بإمتلاك معدّل تعمير أعلى من المعدّل العامكنوع ، ومع ذلك ، هذه الميزات و " القدرات " يمكن أيضا أنتؤدّي بسهولة إلى إنقراضنا الخاص فى زمن قياسي ، من خلال إستعمال أسلحة الدمار الشامل و / أو بلتسبّب فى تفكّكات بيئيّة ضخمة . ستخبرنا الأيّام !

<u>لماذا نوعنا من الهومينيد هو الوحيد الذى لا يزال منتصب القامة [واقفا] ؟</u>

يعزى إنقراض أنواع الهومينيد الأخى الآن إلى بعض القوانين الأساسية للتطوّر البيولوجي : العالم الخارجي المادي الملموس و البيولوجي الذى تعيش وسطه الأنواع و الذى معه تتفاعل بإستمرار (الظواهر الماديّة كالطقس و الأرض و الملامح البيولوجيّة كخليط أنواع الحيوانات المفترسة و الفرائس التى تحتلّ البيئة عينها) هو بحدّ ذاته دائم التغيّر و إن كان إلى درجة أكبر أو أصغر فى أوقات مختلفة .

و نظرا إلى ذلك ، كلّ الأنواع على الأرجح عند نقطة ما تواجه " تحدّيات " جديدة هامة نتيجة تغيّر بيئي قد تستطيع و قد لا تستطيع أن تتأقلم معه من خلال مزيد التغيّرات التطوّريّة التى تحصل عبر أجيال متعاقبة . مجموعات الكائنات الحيّة التى يحدث أن تواجه تغيّرات بيئيّة هامة و **لا تستطيع** التأقلم معها بسرعة كافية ستتجه ببساطة نحو الإنقراض . لكن زمن إنقراضها ، عديد الأنواع تكون بعدُ قد تقلّصت أنتجت منحدرا منها أو أكثر " أنواع بنات " (معها يمكن أن تكون حتى قد واصلت التواجد لفترة من الزمن) التى بمعنى ما ستواصل خطّها التطوّري . عندما تنقرض أنواع دون إنتاج أيّة أنواع أو خطوط منحدرة منها ، تصبح أمامها ببساطة " نهايات مسدودة للتطوّر " . و كان هذا حال بعض (و بديهيّا ليس جميعها) خطوط و أنواع الهومينيد المنتصب القامة .

و من الهام إدراك أنّ كافة الأنواع البيولوجيّة فى النهاية إنقرضت بغضّ النظر عن مدى " نجاحها " فى مرحلة محدّدة : يقدّر أنّ حوالي 99 بالمائة من أنواع النباتات و الحيوانات التى عاشت **أبدا** على الأرض قد إنقرضت **!** أمّا بالنسبة لأنواعنا الخاصّة ، الواقع هو أنّنا الوحيدون من أنواع الهومينيد المنتصبي القامة الباقين **ليس** يعود إلى نوع من " المعجزة

فى التقدّم و الكمال " و **ليس** يعود إلى أي نوع كامن من القوّة المحرّكة لتطوّر الهومينيد(أو أيّة سيرورات تطوّريّة قبلهم) كانت نوعا ما " تنزع " سحريّا إلى أن تؤدّى إلى الإنسان كنوع فى قمّة " التقدّم " التطوّري . يبدو الأمر كذلك فقط من وجهة نظر مؤسّسة مفهومة و متمركزة ذاتيّا على **أفق إنساني !** لقد أشار عديد البيولوجيينمثلا إلى أنّ عددا كبيرا من الكائنات الحيّة الأبسط (مثل البكتيريا و عدّة طفيليّات) كانت موجودة لمدّة أطول بكثير من الإنسان وهي جدّ منتشرة إلى درجة أمكن **لها** ببساطة أن تعتبر الأنواع البيولوجيّة الأكثر " نجاحا "على الكوكب**!**

نحن النوع الواقف الباقي الوحيد فى خطّ الهومينيد فى جزء ببساطة مردّه كوننا لا زلنا بعدُ النوع الجديد على الكتلة إذ تطوّرنا من أجدادنا الهومينيد السابقين مباشرة (على ألرجح الهومو أرغستار أو أنواع مشابهة جدّا) فقط قبل حوالي 200 ألف سنة . و مع ذلك الآن و نحن هنا ، أعتقد أنّه يمكن أن نقول – نظرا لقدرتنا غير المسبوقة على تغيير نفسنا و بيئتنا الطبيعيّة و الإجتماعيّة عن وعي – ما يحدث لأنواعنا فى المستقبل (بما فى ذلك متى و كيف سيخرج نوعنا من على ركح المسرح) سيكون مرتهنا بنا ، على الأقلّ إلى درجة ذات دلالة .

ما الذى يجعلنا خاصّين جدّا ، و إن بالنسبة لأنفسنا ؟

لنعد إلى أجداد الهومينيد الأوائل المنتصبي القامة الذين نشير إليهم عامة بالأسترالوبيثين . يتساءل الكثير من الناس : هل كانو قردة ؟ أم كانوا إنسانا ؟ حسنا ، أعتقد أنّه سيكون من الصحيح قول إنّهم كانوا الإثنين معا . وبات بالأحرى رائجا فى السنوات الأخيرة التركيز أكثر على مميّزاتهم الشبيهة بتلك التى لدى القردة ، لكن يبدو أنّ ذلك مضلّل قليلا . كمجموعة نوع الأسترالوبيثين الأوّل المختلف كان بعدُ يملك الكثير من الميزات الشبيهة بتلك التى لدى القردة (بعض الأنواع أكثر من غيرها من الأنواع) لكن فى العديد من أحافيرها مميزات يمكن وصفها على أفضل وزجه بأنّها **إنتقالية** بين السمات الشبيهة بالقردة الأكثر نموجيّة وفى ما بعد سمات إنسانيّة نموذجية. مثلا ، كانت لديهم أيدى قردة طويلة و أرجل قصيرة، بيد أنّهم كانوا منتصبي القامة و يمشون وقوفا مثلما يفعل الإنسان . و كانت أدمغتهم على نحو ما أكبر من أدمغة القردة ، غير أنّها أصغر بكثير من أدمغة الهومينيد اللاحقين . و وجوههم ناتئ فيها إلى الأمام أنف أشبه بأنف الشنبنزي منه بأنف الإنسان ، و أسنانهم و أحناكهم كانت كذلك أشبه بتلك لدى القردة . و فى الوقاع ، هؤلاء الأسترلوبيثين الأوائل ، إلى جانب المنحدرين منهم لاحقا ، و ثمّ المتبوعين بالأنواع السابقالسابقة واللاحقة فى خطّ الهومو ، تمثّل أحد **أفضل** الأمثلة (فى كامل سجلّ الأحافير البيولوجي) عن سلسلة من **الأنواع الإنتقاليّة** التى يمكن رؤيتها فى علاقة بنوع آخر منخلال سلسلة من الخطوات الإنتقاليّة . هذا – الدليل الواضح على الأنواع الإنتقاليّة الحقيقيّة ، لكلّ شيء ، فى الخطّ التطوّري **الإنساني** – يجعل أنصار نظريّة الخلق مجانين لأنّه إن كان صحيحا (مثلما يقال فى الإنجيل) أنّ الإنسان نتاج لخلق " خاص و منفصل " ، فإنّها بديهيّا لن توجد مثل هذه الأنواع الإنتقاليّة الرابطة للقردة بالإنسان فى مثل هذا النمط البديهي من الخطوة الذكيّة . حسنا ، ماذا عساني أن أقول ؟ إن أنصار نظريّة الخلق بعناد و عبثيّا على خطأ .- و السلسلة المديدة و المتنوّعة لمختلف أحافير الهومينيد المتنقّلين على قدمين تثبت أنّهم على خطأ بـ**لا** أدنى شكّ **!**

ماذا يقول أنصار نظريّة الخلق حول الأعداد النامية لأحافير الهومينيد التى تقف أمامهم ؟

حسنا ، مثلما يشير إلى ذلك عالمالحفريّات نيلس الأدردج فى كتابه المساعد للغاية ، " إنتصار التطوّر و إخفاق أنصار نظريّة الخلق " ، إجابة انصار نظريّة الخلق ،عندما يواجهون الوقائع الأساسيّة للتطوّر الإنسانيى ، مثيرة للشفقة صراحة :

أ- يحاجج أنصار نظريّة الخلق بأنّ أحافير الهومينيد **الأوائل** (الذين عاشوا قبل حوالي 3 إلى 4 مليون سنة) تمثّل " قردة لا غير " . و يستبعد هذا تماما الإستبعاددلالة كون هؤلاء الهومينيد الأوائل كانوا يتنقّلون منتصبي القامة ،و أنّ على الأقلّ الأسترلوبيثين " اللاحقين " قد إستعملوا أدوات بدائيّة ، أبعد من ما نراه لدى القردة المعاصرة اليوم . بعض الأسترالوبيثين " اللاحقين " على الأرجح كانوا قد بدؤوا فى **صناعة** أدوات حجريّة بسيطة : أحافير الأسترالوبيثين غارهى لما قبل 2.5 مليون سنة وُجدت مترابطة مع بقايا أحافير عظام الظباء و **كانت تحمل ندوب جروح أداة حجريّة** ما يفيد على الأرجح أنّها قطّعت بأدوات حجريّة . و قد وجدت أدوات حجريّة بالفعل فى مواقع قريبة .

ب- يحاجج أنصار نظريّة الخلق بأنّ الأحافير التى تبدو أشبه بالإنسان المعاصر هي بالفعل إنسان . بيد أنّهم يرفضون القبول بواقع أنّ بعض هذه الأحافير يعود عمرها إلى 100 ألف سنة (رغم كون تقنيات التأريخ العلمية المعاصرة لا تتركأي شكّ فى أنّ هذا هو الحال) . وجودالإنسان المعاصر تشريحيّا لمدّة طويلة قبل ذلك يتضارب مع قصّة الخلق الأنجيليّة .

ت- يرفض أنصار نظريّة الخلق دليلا يبيّن أنّ بعض أنواع الهومينيد كانت بوضوح إنتقاليّة بين الأسترالوبيثين الأشبه بالقردة و الإنسان المعاصر تماما : هذه شتّى أنواع جنس الهومو ، مثل الهومو أرغستار و الهومو أركتوس الذى تطوّر

لاحقا بعد الهومينيد السابق المتنقّل على قدمين لكن قبل نوعنا الخاص ، الهومو سابينس . و هذه الأنواع من الهومينيد معروفة بفضل سجلّ الأحافير بأنّها صنعت أدوات حجريّة أعقد ، و أنّها إستخدمت النار . و تبيّن الحسابات أيضا أنّ حجم الدماغ كان إنتقاليّا بين الهومينيد السابقين و الإنسان المعاصر تماما . لذا أنواع مثل الهومو أركتوس و الهومو أرغستار تشكّل مشاكلا حقيقيّة بالنسبة لأنصار نظريّة الخلق ، تحديدا لأنّها هكذا إنتقالية تطوريّة بديهيّة بين أنواع الهومينيند الأوائل الأشبه بالقردة و الإنسان المعاصر تماما . و من ثمّة ما يقوم به أنصار نظريّة الخلق ؟ ببساطة يصرّحون بأنّ كلّ هذه الأحافير خدع !

بما أنّه يتمّ بإستمرار إكتشاف المزيد و المزيد من الأحافير (و من قبل عدد من الفرق المختلفة من علماء الحفريّات و العلماء العاملين فى عدّة أماكن متباينة) ، من غير الواضح إلى أيّ مدى سيقدر أنصار نظريّة الخلق على التمسّك بذلك الإدعاء الخاص بهم ! ليس بوسعى إلاّ أن أتّفق من كلّ قلبي مع نيلس ألدردج حين كتب :

" أفضل ما يمكن أن يفعله أنصار نظريّة الخلق بسجلّ الأحافير الإنساني هو إعتبار الأحافير الأحدث إنسانا و الأسبق مجرّد قردة ، و تلك الواقعة فى الوسط – الإنتقالية إن أردتم – خدعا صريحة ، هذا منهم مثير للشفقة...و السخرية كبيرة : المسألة التى يوجهون إليها فى النهاية كلّ حماسهم الدعائي - كيف **وصلنا** إلى هنا – تتعلّق بالمسألة ألصعب التى يمكن أن أفكّر فى أنّها تسند نموذج الخلق " . (" إنتصار التطوّر و إخفاق نظريّة الخلق ") .

القفزتان الكبيرتان فى تطوّر الهومينيد :

تميّزت السيرورة التطوّريّة الشاملة التى تربط البشر المعاصرين بأجدادنا القردة الأوائل بعدد من الظروف الهامة أو " العلامات " المفاتيح لعلّ أهمّ علامة **بيولويجية** كانت ، قبل كلّ شيء ، الظهور الأوّلي للتنقّل على قدمين فضمن خطّ القردة ؛ و ثانيا ، التغيّر التطوّري الهام – على ما يبدو فى إرتباط ب **" تراجع " نسق تطوّر الهومينيد** – التى حدثت بضعة ملايين السنين **بعد** الظهور الأوّل للتنقّل على قدمين و التى أنتجت أطفال إنسان يولدون فى وضع غير مكتمل التطوّر و غير مستقلّ جدّا (أكثر بكثر من أطفال الشنبنزي على سبيل المثال) لكن سمحت بنموّ هائل **لحجم الدماغ** و بفترة أطول من **التطوّر ما بعد الولادة .** و قد جعل هذا بدوره ممكنة القدرة غير المسبوقة على **التعلّم** التى هي مميّزة لنوع الإنسان .

و أوّل هذه التغيّرات التطوّرية الكبرى – الظهور الأوّلي للتنقّل على قدمين – غيّرت الشكل الأساسي لتنقّل الهومينيد و على الأرجح خوّلت للهومينيد أن يُوسّعوا مجالهم إلى تنوّع أكبر من المواطن و البيئات . والتنقّل على قدمين كذلك – على الأقّل موضوعيّا - قد " حرّر اليدين " لتوظيفها فى خدمة غايات أخرى غير التنقّل ، و توفير أساس تشريحي لمثل هذه الأشياء البسيطة كروتين حمل الغذاء و غيره على مسافات طويلة و ل**لإستخدام** البسيط للمواد الطبيعيّة غير المعدّلة ك" أدوات " (مثل ما عُثر عليه من حجارة وعصيّ) .ستمرّ بضعة ملايين السنين قبل أن يشرع فعلا أيّ نوع هومينيد متنقّل على قدمين فى ضرب الحجارة بعضها ببعض للحصول على رقائق حادة و من ثمّة **صناعة** (فى تعارض مع مجرّد إستعمال) أدوات حجريّة بسيطة . إنّ التحرير الموضوعي للأيدى من ما يقارب الإستعمال المستمرّ فى التنقّل ، و الظهور الأوّلى ذاته للتنقّل على قدمين فى خطّ قردة قد حدّد مرحلة التطوّر اللاحق. و مجدّدا ، رغم أنّ سجلّ الأحافير (على الأقلّ إلى حدّ الآن) يقترح أنّ الهومينيد لم يتوصّلوا إلى **صناعة** حتى القواطع و المكاشط الحجريّة البسيطة إلى ما قبل حوالي 2.4 مليون سنة (بضعة ملايين السنين **بعد** أوّل ظهور للتنقّل على قدمين) ، تجدر الإشارة إلى أنّ حتى الشنبنزي الذى هو غير قادر جسديّا على المشي واقفا لأيّة فترات زمنيّة طويلة ، هو مع ذلك قادر على إستعمال الأيدي لحمل الغذاء لأفترات زمنيّة قصيرة وعلى إستخدام الغصون ببراعة كهراوة لإخافة الحيوانات المفترسة و على إستعمال الحجارة ك " مطرقة " لكسر وفتح الجوز، أو على نزع أوراق من الإصان للحصول على مجسّات مرنة تستخم ل" صيد " النمل الأبيض و إخراجه من أعشاشه . يبدو على الأرجح أنّ حتى الهومينيد الأوائل و الذين لا زالوا يشبهون للغاية الهومينيد المنتصبي القامة تماما كانوا قد إستعملوا إستعمالا حتى أتمّ لأيديهم من الأنواع غير المتنقّلة على قدمين و التى منها إنحدروا خاصة حينما يكونون يتحرّكون على الأرض و بعيدا عن الأشجار . (5)

و مثلما تمّت الإشارة إلى ذلك ، المعلم البيولوجي الحيوي الثاني على طريق التحوّل إلى إنسان جاء بعدبضعة ملايين السنين من الظهور التطوّري للتنقّل على قدمين ، عندما بدأ تغيّر هام فى النسق العام للتطوّر يظهر فى خطّ الهومينيد المتنقّل على قدمين . ومن المهمّ ملاحظة أنّالبيولوجيّون التطوّريّون يشعرون بأنّ عديد التغيّرات الهامة فى تطوّر الحياة التاريخي جدّ نتيجة لتغيّر بسيط نسبيّا فى نسق تطوّر هيكل أو عدّة هياكل جسمانيّة لدى مجموعة سابقة . و فى حال الهومينيد ، يبدو انّ " تراجعا " فى التطوّر التشريحي و الفيزيولوجي قد أدّى إلى ط حزمة " من التغيّرات بما فيها تغيّرات فى حجم الأيدي و الأرجل و تغيّرات فى شكل الهيكل العظمى و فى عظام الوجه إلخ .

و من المرجّح أنّ اهمّ هذه التغيّرات كان كون الأطفال صاروا يولدون الآن فى وضع غير مكتمل النضج و غير متطوّر ما يتطلّب فترة أطول بكثير من عناية الأولياء بهؤلاء الأطفال الضعفاء و غير المستقلّين . عند النظرة الأولى ، قد يفكّر المرء أنّ ولادة أطفال غير مكتملي النضج و غير مستقلّين يتطلّبون فترات طويلة من العناية كان سيكون أمرا معيقا و أنّ الإنتخاب الطبيعي سيقضى بسرعة على مثل هذا "التجديد" التطوّري لدى المجموعات التى ظهر فى صفوفها . بيد أنّ مثل هذا التغيير كان كذلك يعنى أنّ الأطفال الذين وُلدوا أساسا سابقين لأوانهم (نسبة لأنساق التطوّر عندالأنواع السابقة) **سيواصلون النموّ و التطوّر لفترة أطول بكثير خارج جسد الأمّ** – و شمل هذا النموّ و التطوّر الدماغ **!** عند الأنواع السابقة من الهومينيد المتنقّلين على قدمين وُجدت حدود صارمة جدّا حول كيف و إلى أي مدى يمكن للدماغ أن ينمو ، ببساطة لأنّ طفلا بدماغ كبير لم يكن يستطيع الخروج من جسد المراة دون قتلها . لكن إن كان دماغه يشهد معظم نموّه وتطوّره **بعد** ولادة الطفل ، فإنّ الحجم العام لدماغ الهومينيد كان بإمكانه النموّ نموّا كبيرا .

وهذا بالضبطما حدث . فى ظرف معيّن من تطوّر الهومينيد المتنقّل على قدمين،فإنّ نوعا أو أكثر قد تطور وفق نموذج تطوّر شامل كانأبطأ من ذلك الذى لدى القردة أو الهومينيد السابقين ، لكن دماغه واصل النموّ و التطوّر لفترات زمنيّة أطول بكثير **بعد** الولادة . عند هذا الهومينيد اللاحق و كذلك عندنوعنا الإنساني ذاته ، كان معدّل حجم الدماغ عمليّا قد **تضاعف ثلاث مرّات** بين الولادة و الرشد (و عند الإنسان المعاصر يواصل الدماغ النموّ و التطوّر لتقريبا **سنتين تامتين** بعد ولادة الطفل) . و هكذا ، شيئا نسبيّا بسيطا منذ تراجع السيرورة العامة للنضج يبدوأنّه كان **كلّ ما كانت هناك حاجة إليه** ليجعل ممكنا توسّاعا لا يصدّق فى حجم الدماغ وتطوّرا فى فترة ما بعد الولادة لدى هؤلاء الهومينيد الجدد . و سمح هذا بدوره بديهيّا بنموّ لا يصدّق فى قدرة الهومينيد على **التعلّم** ، و على القيام بهكذا أمر فى ترابط نشيط مع البيئات الخارجيّة الطبيعيّة و الإجتماعية .

<u>سلسلة مراحل إنتقاليّة من الملامح الأشبه بالقردة إلى ملامح أشبه بالإنسان :</u>

لما نقارن القردةالمعاصرة و الإنسان ، يمكن أننميّز بين الملامح التى هي خاصة أكثر بالقردة و تلك التى هي خاصة أكثر بالإنسان . وعديد هذه الملامح قد حفظتها الأحافير (بداهة ، هناك كذلك إختلافات كبرى فى اللغة و فى القدرات العامة على فهم الأشياء المختلفة والقيامبها ،وهي أشياء لا يمكن أن تحفظها الأحافير ، لكن الآن أتحدّث فقط عن نوع الإختلافات التى يمكن لكم أنتتعرّفوا عليها فى العظام المتحجّرة) . حينما نعرف ما هي الملامح التى تشبه أكثر القردة والملامح التى تشبه أكثر الإنسان المعاصر ، يمكننا دراسة أحافير الهومينيد من فترات متباينة فى بضعة ملايين السنين الماضية و الحصول على معنى متى حدثت أوّل الأمر التعيّرات التطوّريّة التى ميّزت طريق التحوّل إلى إنسان .

أجسادنا مشابهة بشكل بارز لأجساد القردة فى عدّة ملامح : لدينا أجزاء عظام متشابهةجدّا بما فيها الحمض النووي ، لكن القردة الأفريقية المعاصرةمثل الغوريلا و الشنبنزي غير قادرة على الوقوف و المشي منتصبة القامة لأيّة فترة زمنيّة لأنّ هياكلها العظميّة مصطفّة بشكل مختلف . و عند القردة و الثدييّات غير الإنسانيّة الأخرى الثّقب الأعظم (فتحة فى أسفل الجمجمة يدخل فيها النخاع الشوكي) يوجد أبعد بكثير إلى الخلف منه لدى الإنسان . لتكوين فكرة عن هذا ، أنظروا وحسب إلى كلب و تحسّسوا الثقب فى **خلفيّة** الهيكل العظمي - هكذا كذلك يرتبط الهيكل العظمي للقردة بعامودها الفقري . عند الإنسان ، الثّقب الأعظم موجود بالضبط **تحت** الجمجمة كي " تتدحرج " رؤوسنا فى الأساس على قمّة عامودنا الفقري . و هذا مظهر حيوي – لا يوجد إلاّ عند نوع الهومينيد - الذى ، إلى جانب بعض التغيّرات الأخرى فى إصطفاف الهيكل العظم ، سمح لنا بالوقوف و المشي فى وضع وقوف تام .

للإنسان المعاصر كذلك هياكل عظميّة مغايرة فى أبعادها عن تلك التى لدى القردة – و لدينا ذات الهياكل العظميّة لكن للقردة أيادى أطول نسبيّا و أرجل أقصر نسبيّا . و أقدامهم مختلفة أيضا ، مناسبة أكثر للمسك بأغصان الأشجار منها للمشي على الأرض . و عندما تمشى القردة على الأرض فإنّها تتحرّك بالأساس مائلة إلى ألمام على أربعة ، فى أسلوب تنقّل يسمّى " المشي على المفاصل " ، وهو أسلوب على الأرجح أنّ غالبيّتنا قد كانت لديهم فرصة مشاهدته فى التلفاز أوفى حديقة الحيوانات .

و للقردة " وجوه " مختلفة جدّا (عامة تلك التى لدى الإنسان المعاصر " مسطّحة ") و نسبيّا حنك وأسنان أكبر تشتمل على أنياب أطول . لن أتوغّل كثيرا فى التفاصيل هنا بشأن شكل الإنسان و حجم و تطوّر نماذجه ، لكن ينبغى أننعلم أنّأحافير الأسنان فى غاية الأهمّية فى إدراك طرق تطوّر الهومينيد . حجم الأسنان وشكلهم و موقعهم يكشفون الكثير عن ما كانالنوع بأكمله (سواء غذاء منتباتات بدائيّة أو لحم أو حمية أوسع تصنيفا أو أكل نبات و حيوان معا كالإنسان المعاصر) . و فضلا عن ذلك تساعد فى تحديد ما إذا كانت أنواع مختلفة من الهومينيد مترابطة أو ليست وثيقة الإرتباط .

و إضافة إلى ذلك ، لقد تمّ تبيان أنّ نماذج ظهور الأسنان و تطوّرها (ما يمكن إستنتاجه من بعض أحافير الهومينيد) يمكن أن توفّر القليل جدّا من المعلومات عن تلك الأنساق الهامة للغاية من تطوّر كامل أجسادهم . و تحليل لهذه المعلومات مرفوق بحسابات لأشياء من مثل حجم الدماغ نسبة لحجم ممرّ الولادة عند أنثى النوع – يمكن ، مثلا ، أن توفّر إشارة جيّدة عن ما إذا كان نوع خاص قد ولد أطفالا أنساق تطوّرهم كانت أشبه بتلك التى عند القردة ، أو أشبه بتلك التى عند الإنسان المعاصر . (من أجل نقاش هام لمعلومات تطوّر الأسنان ، أنظروا على سبيل المثال كتاب رتشارد ليكي" **إعادة النظر فى الجذور"**).

لذا عندما يجد علماء الحفريّات بقيا أحافير هومينيد ، جمجمة هنا ، و جزء هيكل عظمي هناك - أو أحيانا لمّا يحالفهم الحظّ حقّا فيجدوا عددا من الأجزاء فى مرّة واحدة ، يشرعون بتحديد تقريبا عمر هذه البقايا (من خلال تقنيات تأريخ أنف نقاشها فى هذا الكتاب) ؛ ثمّ يحاولون إدراك إن كان الأمر يتعلّق بفرع نوع جديد لم يعثر عليه قبل ، أو بعيّنة إضافيّة من نوع درس قبلا (و أحيانا يكتشفون أنّ أكثر من نوع هومينيد عاشوا فى نفس الفترة الزمنية على وجه العموم) . يقيس علماء الحفريّات بعد ذلك و يدرسون أشياء خاصة جدّا كحجم عظام الأيدى و الأرجل وموضع الثقب الأعظم و شكل الجمجمة و حجمها و مواضع إرتباط عضلات الحنك ، و شكل عظام القدم أو اليد (عندما تتوفّر – و لسوء الحظّ نادرا ما يحصل ذلك) ؛ و حجم طحن سطوح الأسنان و شكلها (و أحيانا هذا النموذج لظهور الأسنان ونسق تطوّرها) ؛ و الحجم العام و الجنس والعمر التقريبي للفرد لمّا توفّي ؛ و إن كان وُجد قرب أو فى نفس المجال العام لأيّة أدوات حجريّة بدائيّة ؛ و إن وجدت أيّة بقايا أحفوريّة لحيوانات قد تكون أنواع فرائس يأكلها الهومينيد . و يمكن للعظام أن تكشف " علامات جروح " ناجمة عن أدوات حجريّة إستخدمها بعض الهومينيد لتقطيع الجثث . و فى نفس الوقت ، عادة ما يساهم علماء آخرون فى ظهور صورة للبيئات العامة التى عاش فيها الهومينيد الأحفوري بدراسة الملامح البيولوجية للأحافير و التربة القديمة و النباتات و الحيوانات فى نفس العصر ، و حتى أحافير حبيبات اللقاح من نفس الفترة ، كلّ هذا يساعد على إعادة رسم صورة أشمل للموطن الذى عاش فيه الهومينيد وماتوا : سواء ، مثلا ، المنطقة حينها كانت متكوّنة أكثر من غابات ، أو من سافانا غابيّة أم من سافانا عشب و أشجار أو مزيج من الثلاثة ، ما هي أنواع الحيوانات الأخرى (بما فيها أنواع فرائس ممكنة أو الحيوانات المفترسة للهومينيد) كانت موجودة ؛ و أيضا ما إذا هناك أي دليل على أي تغيّرات بيئيّة كبرى (مثل موجة جفاف أو موجة برد) حدثت خلال الفترة العامة المعنيّة .

<u>هل كان الهومينيد الأوائل" مجرّد قردة " دلالة تطوّر التنقّل على قدمين على طريق التحوّل إلى إنسان:</u>

و قسط كبير من المعلومات الجديدة عن سلسلة التغيرات فى شتّى خطوط الهومينيد إكتشف فى العقود القليلة الأخيرة فقط ، و خاصّة فى السنوات القليلة الأخيرة فقط . بمقارنة ملامح عدّة أنواع مختلفة من الهومينيد المتنقّلين على قدمين ، أضحى أوضح أنّ الذين جرى التفكر عموما فى انّهم الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين – أولئك الذين عاشوا بين الظهور الأوّل للتنقّل على قدمين و قبل حوالي 2.5 مليون سنة – كان لديهم بعدُ الكثير من الملامح الشبيهة بالقردة ، رغم انّهم كانوا يمشون وقوفا . لم يكونوا متشابهين تماما بل عامة كانوا ينزعون نحو أن يكونوا قصار القامة جدّا ، بأحجام أرجل قصيرة و أيادي طويلة نسبيّا ، أشبه بالقردة الذين يقفزون ويتأرجحون فى الأشجار . عامة كانت جماجمهم أكثر إمتدادا من تلك التى كانت لدى الهومينيد اللاحقين و الإنسان ذى الجمجمة الأكثر دائريّة ؛ و أنيابهم كانت بوجهعام أطول كتلك التى عند القردة المعاصرة ؛ و فى عدّة حالات (و ليس كلّها) كانت عظام وجوههم " ناتئة " أكثر أشبه ب أنف القردة منها بالوجوه المسطّحة المترابطة مع الهومينيد اللاحقين و الإنسان المعاصر . لعلّ ما يبعث أكثر على الدهشة هو أنّ هذه الأنواع من المتنقّلين على قدمين الأوائل كانت جماجمها صغيرة جدّا نسبيّا ،و هي أقرب إلى التناسب مع أحجام جماجم القردة منها إلى جماجم الإنسان.(6)

و من هنا من الصحيح مثلما أشار آخرون ، أنّ ما يسمّوا بالهومينيد الأوائل كانوا لا يزالون أشبه بالقردة و أنّه بالتالي لا يمكن حقّا إعتبارهم مجرّد صنف من " الإنسان الصغير ". لكن من جهة أخرى ، لم يكونوا كذلك " مجرّد " قردة - كانوا ، فى أخر المطاف متنقّلين على قدمين" يبدو أنّ بعض الناس يستهينون بدلالة الظهور التطوّري للتنقّل على قدمين (غاضين النظر عن فكرة أنّ " الأيادي الحرّة " كانت لها أيّة أهمّية حقيقيّة ،بما أنّ الهومينيد الأوائل لميصنعوا أدوات حجريذة و بما أنّ جمجمة الهومينيد لمتتوسّع إلى فترة مديدة لاحقة) ، و إختاروا عوض ذلك أن يشدّدوا على المميّزات التى لا تزال شبيهة بالقردة عند الهومينيد الأوئل بالإشارة إليهم على أنّهم " قردة متنقّلين على قدمين " . هذا المصطلح كان سيكون دقيقا صراحة بمعنى المسك **بظاهرهم** ، إلاّ أنّى أشعر أنّ هذا نوعا ما مضلّل وأنّه يشدّد بصفة أحاديّة الجانب على الملامح الشبيهة بالقردة بينما يستهين بما يجب فى الواقع أن يكون تبعات عميقة لظهور التنقّل وقوفا والأيادي الحرّة لشكل أتمّ لدى هذه " القردة " غير العاديّة (أو" نموذج إنسان أوّل ") – الملامح التى على ألأرجح سمحت لها بالتوسّع إلى تنوّع أكبر من البيئات و الإنخراط فى سلوكات جديدة ذات دلالة .

قبل بضعة سنوات ، كان يُعتقد أنّ ظهور التنقّل على قدمين كان بذاته وفى حدّ ذاته تغيّرا تطوّريّا هاما يجعل ممكنا تسمية كلّ هومينيد متنقّل على قدمين بأنّه بالأساس إنسان . كان التفكير على أنّه حالما طوّر أجدادنا الهومينيد الأوائل القدرة على التنقّل وقوفا على قدمين ،" تحرّرت " ايديهم لقضاء شؤون أخرى غير التنقّل و بالتالى ، ذهب الظنّ إلى أنّ الأجداد الأوائل قد شرعوا " آليّا " فى إستخدام أياديهم فى نشاطات كصنع الأدوات و الأسلحة والصيد وتجميع الغذاء و العناية بالأطفال غير المستقلّين و ما إلى ذلك . كانيُفترض أنّ هذا بدوره يجب أن يكون قد خلق حاجة مباشرة و ملحّة لنموّ الذكاء و جماجم أكبر و أعقد ، و تواصل و تنسيق إجتماعيين أكثر تقدّما و تغيرات فى هيكل العائلة و تنظيم إجتماعي أوسع . حسنا ، هذه التغيّرات **بالفعل** جدّت فى النهاية غير أنّها لم تحصل بين ليلة و ضحاها **!** و الآن نعلم لاّ كلّ هذا لم يحدث كجزء من حزمة واحدة وحيدة للتغيّرات التطوّريّة زمن أوّل ظهور للتنقّل على قدمين : الأسترالوبيثين الأوائل قبل حوالي 3 إلى 4 ملايين سنة تنقّلوا منتصبي القمة على قدمين ، لكن جماجمهم ظلّت صغيرة نسبيّا و لا يبدو أنّها صنعت أيّة أدوات حجريّة . القفزة الكبرى فى حجم الدماغ ، و لا يبدو أنّ التوسّع النوعي لفترات عدم النضج الطفولي و تطوّر الدماغ ما بعد الولادة و القدرة المعرفيّة عمليّا لرسم و صناعة حتى الأدوات الحجريّة الأبسط ظهر إلى على الأقّل 2 إلى 3 مليون سنة **بعد** الظهور الأوّل للهومينيد المتنقّل على قدمين . و بالتالى صحيح أنّ التنقّل على قدمين ظهر لتجديد تطوّري **قبل فترة طويلة** من الميزات الأخرى التى نعتقد أنّها مميّزة للإنسان .

لكن ،من جهة ، أعتقد أنّه سيكون من الخطإ الإخفاق فى تقدير فقط مدى أهمّية تطوّر التنقّل على قدمين فى السيرورة العامة " للتحوّل إلى إنسان " . حتى و إن كانت الأنواع الأوائل للأسترالوبيثين المتنقّل على قدمين لمتستعمل بالضرورة أيديها لصناعة أدوات أو لصيد الحيوانات و تقطيعها (و ربّما ليس حتّى لجمع النباتات الغذائيّة و نقلها) ، **بالذات إنطلاقا من** زمن أوّل ظهور للتنقّل على قدمين ، لا يزال الحال أنّ الظهور التطوّري للقدرة على التنقّل على قدمين قد مهّد الطريق فعليّا لتلك القدرات اللاحقة .

فكرّوا فحسب بالطريقة التالية : تصوّروا إن كانت بعض انواع القردة **غير** المتنقّلة على قدمين فى الماضي البعيد قد حصل ببساطة أنّها نسجت نوعا جديدا لا يزال بعدُ غير قادر على التنقّل منتصب القامة لكن تغيّره التطوّري الحيوي كان ولادة طفل نسقه التطوّري منخفض بما لطلّب مدّة عناية أبويّة طويلة للأطفال و لكن فى نفس الوقت ، سمح للدماغ بالتوسّع و التطوّر لزمن أطول بكثير بعد الولادة . مثل هذا التغيّر قد يكون قد حوّل نموّا كبيرا فى قدرة التعلّم و كذلك قد يكون جعل من الممكن تطوير ذخيرة عريضة جدّا من الأصوات (أنواع الأصوات المنتجة) و حتّى ربّما ظهور لغةمعقّدة .بيد أنّه ، حتّى و إن حدث كلّ هذا ، أي صنف من الأنواع يكون قد نجم عن مثل هذه التغيّرات التطوّرية **لو انّ الأيدي لم " تحرّر " خدمة لأغراض أخرى عدا التنقّل من قبل التطوّر السابق للتنقّل على قدمين ؟** النتيجة ربّما كانت أي شيء يمكن أن نفكّر فيه – مختلفا عن الإنسان . لقد إقتضى الأمر مزيجا من قفزتين تطوريتين كبيرتين **إثنين** ، و إنتشار عبر ملايين السنين – تطوّر التنقل على قدمين متبوعا بعد بضعة ملايين السنين بتطوّر آليّة تسمح بتطوّر الدماغ بعد الولادة و بتطوّر القدرة على التعلّم – لدى خطّ من القردة ليظهر نوع الإنسان المعاصر .

لهذا مرّة أخرى ، حتى وإن كان من المهمّ أن نكون حذرين فى التشديد على انّ الأسترالوبيثين لا زالوا يشبهون جدّا القردة (و ليس " الإنسان الصغير ") و أنّ عددا منهذه الأنواع الأولى المتنقّلة على قدمين يمكن أن تكون قد إستعملت إستعمالا نسبيّا لأيديها فى بضعة مئات الآلاف الأولى أو حتى ملايين السنين من التنقّل على قدمين (ربّما إلى أن إرتبطت الأدمغة بالأيدى ، بمعنى ما) ، أعتقد أنّنا سنقدّم نظرة مشوّهة لجذورنا إن لم نشدّد أيضا على كون الفترة الأخيرة من التغيّرات التطوّرية النوعيّة (تلك التى قادت إلى نموّ ملموس فى حجم الدماغ و القدرة على التعلّم) لم تكن لتعود إلى فترة أقرب بكثير من كما لو أنّ هذه الفترة الثانية لم نحدث فى صفوف أنواع قد سبق بعدُ للتنقّل على قدمين أن سمح لأيديها بأن تستخدم لأغراض أخرى عدا التنقّل . و حتى إن لم يكن للأسترالوبيثين الأوائل التطوّر الدماغي و القدرات الذهنيّة على " الإستخدام إستخداما تاما " لأيديهم المتحرّرة ، إن أمكن القول (رغم أنّهم ربّما فعلوا على الأقلّ مثلما يفعل الشنبنزي المعاصر) ، فإنّ تطوّر التنقّل على قدمين و التحرير الموضوعي للأيدى قد ميّزا العلامة التطوّرية الكبرى الأولى على طريق التحوّل إلى إنسان . لقد جعلت من الممكن حصول الفزة الثانية فى تطوّر الإنسان (القفزة الأخيرة فى حجم الدماغ و تطوّر الدماغ فى فترة ما بعد الولادة) **لتكون لها الإنعكاسات التى كانت – منتجة نوعا إكتسب قدرة على تغيير نفسه و محيطه مذّاك فى المقام الأوّل من خلال التجديد الثقافي و مراكمة المعلومات التى تمّ تعلّمها و نقلها أكثر من حصول ذلك عبر التطوّر البيولوجي .**

و يجدر بنا التفكير فى واقع أنّ الإختلاف (فى أشكال النشاطات الإنتاجيّة و التنظيم الإجتماعي) بين الأعضاء الأوّلين **لنوعنا** الخاص من **الهومو سابينس** (الذى حافظ على نفسه كمجرّد مجموعات متنقّلة للصيد و تجميع الغذاء لأكثر من مائة ألف سنة قبل إختراع الفلاحة قبل حوالي عشرة آلاف سنة ، و الشروع فى بناء المدن) و الإنسان المعاصر اليوم

(الذى يصنع السيّارات و الحواسيب و يكتشف الفضاء الخارجي و أعماق المحيطات) مختلف قبل كلّ شيء فى **الثقافة** : و لا شيئ من هذا قد تطلّب المزيد من التغيّرات التطوّريّة الملموسة فى البيولوجيا الأساسيّة لأجسادنا . و كلّ ما نفعله اليوم نفعله على أساس ذات القدرة على **" التعلّم "** و **نقل ذخيرة هائلة من المعرفة المراكمة عبر الأجيال بوسائط ثقافيّة غير جينيّة** مثّلت الميزة التطوّريّة لنوعنا من الهومينيند منذ البداية . و لعلّ هذا أكبر من أي شيء آخر هو ما يجعلنا جوهريّا إنسان و يميّزنا عن الأنواع الأخرى .

و لكن لا شيء من هذا كان على الأرجح سيحصل لولا القفزة الثانية لما جدّ قبل حوالي مليوني سنة على قاعدة قد شملت بعدُ التنقّل على قدمين و أيدى " محرّرة " موضوعيّا .

<u>لذا ، هل نحن مجرّد حادث ؟</u>

طرق التطوّر الخاصة التى إتبعها صدفة خطّ الهومينيند لم تكن " ملزمة " بأن تصل إلى ما وصلت إليه . إذ كان من الممكن أن تجدّ عوض ذلك جملة من التغيّرات التطوّريّة المغايرة و كان من الممكن أن يعرف الطريق التطوّري أي عدد من المنعرجات و الإلتواءات المتنوّعة و لم يكن ليفرز الإنسان أبدا .

و يجد بعض الناس أنّ هذا الأمر مبعث لإضطراب كبير . فى يوم من أيّام المدّة الأخيرة ، كنت أقصد القليل ممّا نعرفه الآن عن جذور كوكبنا و النظام الشمسي و الظهور الأوّلى للحياة على الأرض و ما تبع ذلك من تطوّر لكافة أشكال الحياة فى 3.5 مليون سنة و كيف تطوّر نوعنا من الأنواع التى سبقته فى الوجود – كلّ هذا دون تدخّل أيّة قوّة إلاهيّة أو أيّة أرواح أخرى خارجيّة ما وراء الطبيعة – كنت أقصّ ذلك على شخص لم يكن إلى حينها قد إعتاد على سماع كلّ ذلك . و بعد برهة ، قال لى وهو فى حالة رعب : **" لكن عندئذ ما المسألة ؟ ما هو هدف كلّ هذا ؟ "**

لكن الأمر بسيط : لا وجود لمسألة خاصة **!** لا وجود لهدف خاص لوجودنا فى المخطّط الكبير للأشياء – **عدا ما نفعله نحن به** . سواء كنّا هنا أم لم نكن لا يهمّ حقيقة (على الأقلّ ليس بشكل واعي) لأي شيء على هذا الكوكب سوى أنفسنا ؛ و بالتأكيد (على الأقلّ عند هذه النقطة) وجودنا أو عدم وجودنا لم يكن يستطيع أن يأثّر أدنى تأثير فى أي شيء فى الكون الأوسع ، حيث موضوعيّا لا أهمّية كبرى لنا أكثر من أهمّية حبّة رمل عل شاطئ . و ماذا إذن ؟ **هل يعنى هذا أنّه لا أهمية لنا ؟** هل يعنى هذا أنّنا سنقتل بعضنا البعض لأنّه لا وجود لإلاه يرعى ما نقوم به بطريقة أوأخرى ؟ هل يعنى هذا اّ حياتنا لا هدف لها مطلقا ؟ بالطبع لا **! حياتنا ثمينة و لنا أهمّية كبرى ...بالنسبة لبعضنا البعض !** نبغى أن نقرّر " القيام بالشيء الصواب " – و نتحرّك مع بعضنا البعض بشيء من الإستقامة و بطرق " أخلاقية " – ليس لأنّنا نخشى أن يسجّل أعمالنا نوع من الإلاه الشبيه بالسجّان إن لم تفعل و إنّما لأنّ ما نقوم به مباشرة يؤثّر فى نوعيّة حياة الإنسان . و طبعا ، حياتنا يمكن و لها هدف (رغم أنّ أنساسا مختلفين سيحدّدون ذلك بطرق مختلفة وفقا لنظرتهم للعالم) ، لأنّنا نحن البشر يمكن أن نختار أن نصبغ حياتنا بهدف **!**

لذا نحن هنا : باقة من الكائنات الحيّة المعقّدة بصفة مذهلة كانت فى ذات الوقت جدّ هدّامة و جدّ مبدعة و لها قدرة غير مسبوقة على التغيير الواعي للعالم الطبيعي حولنا و للمجتمعات التى تعيش فيها . لا وجود لشيء آخر فى " الخارج " ... لكن أليس هذا كافيا تماما ؟

<u>تلخيص و نظرة عامة :</u>

بينما هناك بعدُ الكثير نتعلّمه فى السنوات القادمة ما سيساعفنا على فهم أشمل للتاريخ المعقّد لتطوّر الهومينيد ، فإنّ القصّة الأساسيّة لجذورنا يمكن تلخيصها بإقتصضاب فى ما يلى : كافة البشر الأحياء اليوم ينتمون إلى نوع **الهومو سابينس** وهو جزء من عائلة الهومينيد ، العائلة البيولوجيّة التى تشمل الإنسان و الأنواع الباقية الأخيرة من القردة الأفريقيّة (الغوريلا و الشنبنزي) و القردة الآسيويّة (أورنغوتان و لسنا على صلة قرابة وثيقة جدّا بها) . فالإنسان ليس منحدرا مباشرة من الشنبنزي و الغوريلا ، لكن قبل ملايين السنين تقاسم معهما أنواع أجداد مشتركين – نوع من عديد أنواع القردة التى تطوّرت فى البداية على القارة الأفريقيّة و التى كانت على الأرجح تقطن الأشجار و تلأكل الغلال و الأوراق من الأنواع التى عاشت فى الغابات الأفريقيّة ،وهو شبيه فى عدّة جوانب بالغوريلا و الشنبنزي اليوم . و اليوم لا يزال الشنبنزي و الإنسان أقرباء قرابة كبيرة تنعكس فى أنّ 95 إلى 99 بالمائة من حمضنا النووي لأثرنا الجيني هو ذاته **!**

يمكن لعلماء البيولوجيا الذرذية أن يقارنوا الحمض النووي للإنسان و الحمض النوووي للشنبنزي ليحسبوا الزمن التقريبي ل" إنفصال " (أو " إفتراق ") خطّنا التطوّري عن الخطّ التطوّري للشنبنزي عن أنواع القردة التى كانت أجدادا لكلا الخطّين . و من خلال هذه التقنية نعرف الآن أن الإنقسام الأوّلي (أو " حدث التفرّع ") حدث قبل تقريبا حوالي أكثر من 5 ملايين سنة . و فى النهاية ، أدّى خطّ إلى نوع الشنبنزي المعاصر اليوم و أدّى الخطّ الآخر فى النهاية إلى نشوء نوع

الإنسان المعاصر . و هذا الفرع من الهومينيد قد بدأ مع تطوّر أحد الملامح الجديدة جذريّا – التنقّل على قدمين . و بالرغم من كون أجدادنا الأوائل من الهومينيد كانوا بعدُ يشبهون كثيرا القردة فى عديد الجوانب ، كانوا قادرين على التنقّلاً منتصبي القامة و المشي على قدمين . و بداهة كان الهومينيد المتنقذلين على قدمين ناجحين ماما: لقد إنتشروا و فى النهاية، سمح عدد من الأنواع الإضافيّة (كلّ منها بسمات متباينة نوعا ما ، لكنّها جميعا إستطاعت التنقّل منتصبة القامة و المشي على قدمين) . و أنتج خطّ الهومينيد المتنقّلين على قدمين تنوّعا كبيرا من الأنواع المنتصبة القامة خلال بضعة ملايين السنين التالية . و مثّل بعض هذه الأنواع من الهومينيد المتنقّلين على قدمين الأجداد الخطّيين مباشرة لنوعنا الإنساني الخاص المعاصر ، و بعضها كانت أقرب إلى فروع جانبيّة لنفس شجرة المتنقّلين على قدمين ممثّلة عددا من المسالك التطوّرية البديلة. و العديد من هذه الأنواع كانت ناجحة إذ حافظت على نفسها كأنواع حيّة لمئات آلاف السنين أو أكثر ، و بعضها أنتج أنواعه الخاصّة من المنحدرين ، لكنّها جميعا فى النهاية إنقرضت .

نعلم أنّ نوعنا الإنساني المعاصر ، الهومو سابينس ، هو " الأصغر سنّا " فمن كافة أنواع الهومينيد ، و قد إنفصل عن أنواع أجداده السابقين مباشرة فقط قبل حوالي 200 ألف سنة و اليوم إنقرض جميع أنواع الهومينيند الآخرين . لكن فى الآونة الأخيرة **قبل 40 ألف سنة** ، وُجد بعدُ على الأقلّ نوعان ، أو ربّما ثلاثة أنواع مختلفة من الهومينيد يتجوّلون على الأرض . و قد شملت :

1- **<u>الهومو سابينس</u>** :

و هذا هو نوعنا الإنساني الذى تطوّر أوّلا فى أفريقيا قبل حوالي 200 ألف سنة و ثمّ إنتشر إلى أوروبا والشرق الأوسط بداية من قبل حوالي 50 ألف سنة .

<u>2- الهومو نيندرثالنسيس :</u>

و هذا النوع (النيندرثال) قد عاش فى أورروبا و الشرق الأوسط ، و التقنيات الحديثة للتحليل الذرّي تشير إلى أنّه كان حقّا نوعا مختلفا من الإنسان . و يُعتقد أن **النيندرثالنسيس** قد تقاسم أجدادا هومنيد مشتركين مع **الهومو سابينس** قبل حوالي 600 ألف سنة (7) . و نعلم أنّ المجموعات الأولى من **الهومو أركتوس** قد شرعت أوّلا فى الهجرة إلى خارج أفريقيا قبل أكثر من مليون سنة . و نوع الهومو نيندرثالنسيس الذى عاش لاحقا فى أورروبا و الشرق الأوسط يُعتقد أنّه قد تطوّر من أولئك الهومو أركتوس الأوائل المهاجرين . و بينما فى أفريقيا ، و بعد ذلك بقليل (قبل حوالي 200 ألف سنة) قد تطوّر نوعنا الهوموسابينس المعاصر من بعض المنحدرين الأخيرين من خط الهومو أركتوس الأفريقي . و هذا النوع الجديد من الإنسان إنتشر بسرعة ، وهناك أدلّة على أنّه بدأ هجرته الخاصّة إلى خارج أفريقيا قبل حوالي 50 ألف سنة . ولمّا بلغ الشرق الأوسط و أورروبا إنتهى إلى التشابك (لفترة دامت آلاف السنين) مع مجموعات نوع النيندرثال .

لا نعلم بعدُ الكثير عن كيفيّة تفاعل هذين النوعين من الإنسان . نعلم أنّه بينما كان للنيندرثال كافة أنواع الأدوات الحجريّة ، فإنّ مجموعات الهومو سابينس كانت لديها أدوات حجريّة " متقدّمة " كانت أعقد فى كلّ من تصوّر رسمها و تقنية تنفيذ صنعها . و بعض هذه الأدوات الخاصة بالسابينس وُجدت أثناء حفريّات أركيولوجيّة للنيندرثال بما يفترض أنّ على الأقلّ النيندرثال يمكن أن يكونوا قد حاولوا تبنّى هذه التقنية الأكثر تقدّما . و لا نعلم إم كانت مجموعات النيندرثال لوحدها قد واجهت ببساطة ظروفا بيئيّة لم يعد بمقدورها التأقلم معها ، أم أنّ مجموعات الهومو سابينس كان لها دور مباشر أكثر فى الإنقراض النهائي لنوع النيندرثال (لعلّه بالتنافس مع النيندرثال على الغذاء أوز على موارد أخرى أو ربّما حتّى بالهجوم عليها) لكنّنا نعلم أنّ نوع الهومو سابينس بطريقة أو أخرى كلّيا قد حلّ محلّ نوع النيندرثال قبل حوالي 35 ألف سنة .

<u>3- المنحدرون من الهومو أركتوس فى آسيا الجنوبيّة و الشرقيّة :</u>

كان هؤلاء كذلك منحدرون تطوّريون من تلك المجموعات الأفريقيّة الأولى من **الهومو أركتوس** التى شرعت فى الهجرة إلى أنحاء اخرى من العالم قبل أكثر من مليون سنة ، قبل مدّة طويلة من حتى تطوّر نوعنا الخاص من **الهومو سابينس** . نعلم أنّهم أفلحوا فى الوصول إلى جنوب و شرقي آسيا (بما فى ذلك إلى الصين و إلى جافا التى هي اليوم جزء من أندونيسيا) . ونعلم كذلك من سجلّ الأحافير أنّهم مثل الهومو أركتوس الذين إنحدوا منهم ، قد صنعوا أدوات حجريّة متنوّعة و إستخدموا النار . و تمكّنوا من البقاء فى آسيا لمئات آلاف السنين ، إلى على الأقلّ المدّة الأخيرة المقدّرة بقبل حوالي 30 ألف سنة ! و لا نعلم بعدُ إن كان الهومو سابينس قد تفاعلوا مع هذه الأنواع من الهومو أركتوس ، أو ما هي طبيعة هذه التفاعلات ، لكنّنا نعلم أنّ آخر هؤلاء المنحدرين من الهومو أركتوس الآسيوي فى مناطق مثل الصين و جافا يبدو أنّهم إنقرضوا حوالي زمن أخذ فيه الهومو سابينس فى الإنتشار إلى تلك المناطق .

و قد طفق يقوم بهجراته الخاصة خارج أفريقيا قبل فقط حوالي 50 ألف سنة، نوعنا الإنساني المعاصر، الهومو سابينس حلّ فى النهاية محلّ كافة الأنواع الإنسانيّة الأخرى حيثما ذهب. و قبل حوالي 35 ألف سنة أو ما يناهزها، لم يبقى سوانا .

[<u>تحيين للمؤلّفة</u> : فى المدّة الأخيرة جدّا ، عثر فريق من الباحثين الأندونيسيين و الأستراليين أثناء حفريّات البقايا المتحجّرة على ما يبدو أنّه نوع آخر من الإنسان (غير معروف لدى العلم قبلا !) فى بعض كهوف جزيرة فلورنس الأندونيسيّة . و قد أطلق عليه إسم هومو فلورنسينس، هذا النوع من الإنسان الذى إستخدم أدوات حجريّة كان مذهلا قبل كلّ شيء فى أحجامه الصغيرة (لم يكن الأفراد الذين عُثر عليهم أطول من حوالي ثلاثة أقدام) ، و لكن ما هو باعث على الحماس بوجه خاص بشأن الإكتشاف الجديد هو أنّ هذا النوع (الذى تفترض الدلائل المتوفّرة أنّه على ألرجح منحدر آخر من خطّ الهومو أركتوس) قد إستقرّ على ما يبدو و نجح فى الحياة على هذه الجزر قبل على الأقلّ 95 ألف سنة فحسب ، بل قد إستمرّ فى التواجد هناك كنوع على قيد الحياة إلى فترة حديثة ، قبل حوالي 13 ألف سنة! إن تمّ تأكيد هذه المعلومات بمزيد التفاصيل العلمية ، سيعتى ذلك أننوعا آخر من الإنسان تشابك (على الأقّ فى الزمن) مع نوعنا الخاص الهومو سابينس و أنّنا لم نصبح فى الوقاع النوع البشري الباقي الأخير إلى فترة أحد بقليل ممّا إعتقدنا سابقا] .

و كلّ هذا يذكّرنا مرّة أخرى بأنّ نموذج أنواع " تشبه الشجيرة " – المتميّزة بعديد أحداث نشوء أنواع جديدة و إنقراضها – قد ميّز كامل التاريخ التطوّري لخطّ هومينيدنا . هذا هو النموذج الشائع للتطوّر البيولوجي للأنواع بصفة أعمّ : مثلما ناقشنا سالفا ، يبدو عادة أنّ أنواع جديدة تأخذ فى الإنطلاق عندما يظهر " تجديد " تطوّري هام (مثل ظهور التنقّل على قدمين فى خطّ القردة) ضمن مجموعة صغيرة تصبح معزولة عن الأجداد فى إعادة التوالد. و متى لم ينقرض النوع الجديد بسرعة ، فإنّه تاليا ينحو نحو أن يشهد ما سمّي **بالإشعار التأقلمي** : نموّ فى عدد المجموعات و إنتشار إلى أماكن مختلفة و عادة يشرع فى إنشاء عدد من أنواع منحدرين إضافيين فى موجة أو عدّة موجاة من مزيد التنوّع التطوّري .
و يعتقد الكثيرون أنّ هكذا أحداث نشوء لأنواع متعدّدة على ألرجح تقع خاصة زمن تغيرات و إنكسارات بيئيّة هامة .
و مع مرور الزمن ، مع ذلك ، نسق مزيد نشوء الأنواع فى أي خطّ تطوّري جديد ينزع نحو الإستقرار ، و يشاهد تقليص فى نسق إنتاج أنواع جديدة . و التشبيه المقدّم عامة هو أنّ شجيرة تطوّرية جديدة يتسارع فى البداية تكاثرها و تحصل لفترة على المزيد من الشجيرات لكن بعدئذ فى الأخير يأخذ فى التراجع من خلال إنقراض الأنواع . هذا النموذج التطوّري الذى شوهد فى تطوّر شتّى الخطوط النباتيّة و الحيوانيّة ، هو كذلك نموذج تطوّر الهومينيد ذاته : عند ما يبدو أنّه نقطة عليا من تنوّع نوع الهومينيد (فى فترة تقريبا قبل 2 إلى 3 ملايين سنة) عاش ما يناهز الستّة أنواع أو أكثر من الهومينيد، بما فيهم بعض الأخيرين من ما أطلق عليهم إسم الأسترالوبيثين " " غراسيل " / " النحيف " و بعض ما سموّا بالأسترالوبيثين " روبست " / " المتين " ،و نوعان أو ثلاثة أنواع سابقة أخرى من جنسنا الخاص لل**هومو** . لكن الآن هذه الشجيرة التطوّرية المتنوّعة إضمحلّت و هناك نوع هومينيد واحد وحيد ، نوعنا نحن ، الهومو سابينس .

و ليس من اليسير أننميّز بدقّة كامل الدرجات المختلفة للعلاقة بين شتى أنواع الهومينيد و إدراك سماتها المميّزة فقط من بقايا أحافيرها ، لكن بعض النماذج العامة المهمّة تبدو قد ظهرت . و يبدو من الواضح تماما أنّه ، من أفقنا على الأقلّ ، وُجد ظرفان تطوّريّان **إثنان** لهما دلالات خاصّة فى تطوّر " الشجيرة " التطوّرية للهومينيد : **أوّلا** ، حدث نشوء النوع الذى حدّد البدايات الأولى لخطّ الهومينيد – ظهور الهومينيد الأوّلين من خطّ القردة الأفريقيّة ، وهو حدث وقع قبل بين 5 إلى 10 ملايين سنة ؛ و **ثانيا** ، النموّ الهائل فى حجم الدماغ و القدرات المرتبطة بذلك و التى طبعت ظهور نوع الهومينيد الأوّل بنموذج سمات إنسانيّة ، و ليست مشابهة للقردة ، من " التراجع " التطوّري البيولوجي الذى أفرز أطفالا يولدون وهم فى الأساس غير مكتملي النموّ و يحتاجون إلى فترات طويلة من رعاية الأولياء ، لكن مع " فائدة " (من أفقنا) مضافة لإمتلاك أدمغة يمكن أن تواصل النموّ بشكل كبير فى الحجم و تظلّ تتطوّر لمدّة طويلة **بعد الولادة** . و طبع هذا التغيّر الحيوي (المترابط مع نموّ كبير فى القدرة على **التعلّم** ، أكبر بكثير من ما كان ممكنا قبلا) ما أعتقد أنّه **" القفزة الكبرى الثانية "** فى تطوّر الهومينيد – القفزة التى ميّزت حقّا جنس **الهومو** الذى ظهر ظهورا جديدا عن تنوّع الهومينيد **الأسترالوبيثين** السابقين . و يبدو أنّ هذا التغيّر أتى ضمن " حزمة " من باقة من التغيّرات التطوّرية التشريحية الهامة الأخرى ، وجميعها جعلت هؤلاء الهومينيد عموما **أقلّ** شبها بالقردة المتنقّلة على قدمين و **أكثر** شبها بالإنسان المعاصر ، بما فى ذلك :

أجساد أكبر حجما و أيدى أقصر و أرجل أطول نسبيّا ؛ و وجوه مسطّحة أكثر و جماجم أكثر دائريّة ، و تغيّرات فى الحجم و الشكل ونمّو الإنسان و تطوّره ، وأقلّ بكثير من إزدواج الشكل الجنسي (أقلّ إختلافا فى الحجم بين الذكور و الإناث من الجنسيّات السابقة) ؛ و إنعطاف ظاهر فى وضع الحنجرة (أو صندوق الصوت) إلى موضع أسفل فى الحنجرة بتغيّر يسمح للإنسلن بأن يصدر عددا أكبر من الأصوات من تلك التى لدى القردة المعاصرة اليوم (و ربّما عدد أكبر بكثير من الهومينيد الأوائل) . و قد يكون الإنعطاف فى موضع الحنجرة ، **إلى جانب** التطوّر الهام للدماغ ما بعد

الولادة يميز الهومينيد الأخيرين ، مفتاحا فى تطوّر أتمّ **للغة** الإنسانية ، مع ما نتج عن ذلك من إنعكاس فى تعزيز التواصل و التنسيق الإجتماعيين .

صلة بيئيّة ممكنة :

هل حفّزت التغيّرات البيئيّة نوعا ما ظهور التنقّل على قدمين و النموّ التالي فى حجم الدماغ إلخ لدى خطّ الهومينيند ؟ عندتفحّص هذه المسألة ، من المهمّ تذكّر أنّ التغيّر فى البيئة لم " يتسبّب " أبدا مباشرة فى حدوث منعطف تطوّري – لا يسير التطوّر البيولوجي على هذا النحو . لكن ثمّة حال أنّ التغيّر البيئي يمكن أحيانا أن يغيّر دراميّا الظروف المحلّية التى تعيش فيها مجموعات من النباتات و الحيوانات . فى مثل هذه الحالات ، **إذا** حصل تجديد تطوّري فى خطّ نبات أو حيوان (من خلال السيرورات العاديّة العشوائيّة للتعديلات الجينيّة إلخ) **و إذا حدث** هذا التغيّر الجيني العشوائي ليفرز نوعا من الميزة فى التوالد عند أفراد لهمهذا الملمح الجديد و الذين يعيشون فى ظلّ هذه الظروف البيئيّة الجديدة ، **عندئذ** على الأرجح أنّ الملمح التطوّري الجديد سينتشر من خلال الإنتقاء الطبيعي . و فى ظلّ ظروف معيّنة (منها العزلة الكافية فى التوالد عن مجموعة الآباء) ، و خاصة إذا كانت للتغيّر التطوّري دلالة كافية ، فإنّ ظهور و إنتشار الملمح الجديد (شيء مثل ظهور التنقّل على قدمين فى خطّ القردة القاطنة للأشجار) قد يكون كافيا لنسج نوع جديد كلّيا .

ومن المهمّ جدّا أن نلاحظ أنّ كلا الفترتين اللتين جدّت فيهما التغيّرات الأكثر دلالة فى تطوّر الهومينيد كانت على ما يبدو كذلك فترات تغيّر بيئي كبرى فى أنحاء واسعة من شرقي أفريقيا أين وجدت أحافير الهومينيد الوثيقة الصلة أكثر بالموضوع : اوّلا ، فى فترة قبل ما بين 5 و 10 ملايين سنة لمّا إعتقد أنّ التنقّل على قدمين قد ظهر ، حدث **نموذج إنخفاض حراري على الكوكب و بعض النهوض الجيولوجي النشيط و إنشقاق فى القارة الأفريقية** ، و نجمت عنه موجة جفاف عامة فى شرقي أفريقيا و تفكّك جزئي ونسبي فى التنقّل على قدمين و فى الحزام المنسجم للغابات الأفريقيّة . فصارت البيئة شرقي أفريقيا أقلّ " إكتمالا " بكثير ، و برزت مناطق من السافانا الغابيّة المختلطة الجديدة (متكوّنة من مناطق منفتحة أكثر وبها مجموعة أشجار) أين كانت توجد سابقا غابات على نفس الشاكلة تماما . لقد إفترض أنّ الإنتخاب الطبيعي قد يكون حفّز إنتشار التنقّل على قدمين بعد أن ظهر فى صفوف مجموعات من قردة الغابات ، إذ سمح لهذه القردة الغريبة الأطوار بتوسيع مداها و التمكّن من الحصول على الغذاء و موارد أخرى فى بعض هذه البيئات الجديدة أين تباعدت الأشجار أكثر فأكثر و أين قد تكون الموارد الغابيّة التقليدية قد غدت شحيحة . قد يكون التنقّل على قدمين ميزة فى هذه الأوضاع حتى إن كان الأمر كذلك ، كما يبدو على ألرجح الآن ، فإنّ نوع المتنقّلين على قدمين الأوائل واصلوا تمضية غالبيّة وقتهم متحرّكين بين الأشجار و يرجعون إليها بحثا عن الأمان و المأوى . وأجسادها الواقفة الجديدة كانت بالتأكيد تقريبا قد يسّرت تحرّكها بين مجموعات الأشجار المنفصلة فى السافانا الغابيّة المختلطة الجديدة . و فى حين أنّ هؤلاء الهومينيد الأوائل لم يصنعوا أدوات حجريّة – و يمكن أن لا يكونوا حتى قد إستخدموا بشكل ذو دلالة المواد الطبيعيّة غير المعدّلة كأدوات ،على الأقلّ لفترة من الزمن – واقع أنّ أيديهم لم يعودوا يحتاجونها فى التنقّل يعنى أنّه كانبوسعهم على ألرجح أنيغطّوا مسافات أوسع على الأرض ، و هذا يوفّر على الأقلّ إمكانية أنّهم قد شرعوا فى مزيد إستخدام أياديهم لأغراض مثل الحفر تفتيشا عن جذور يمكن أكلها و **حمل** مخزون الطعام لمسافات أطول . و كلّ هذا بدوره إستطاع أن يحفّز نموّا فى الغذاء الشامل و دفعا فى عدد المجموعات و تيسيرا فى التوسّع إلى أماكن جديدة ،و ربّما قد أدّى إلى تغيرات فى التفاعلات الإجتماعية – مثلا ، إن أمكن حمل الغذاء بطرق أسهل و جلبه لتقاسمه مع الأطفال و آخرين (وهو تصرّف نشاهد أسسه عند الشنبنزي المعاصر).

على كلّ حال ، ما لا نقاش حوله هو أنّ التنقّل على قدمين ، بعد ظهوره ، أمسى مركّزا بصلابة فى صفوف خطّ الهومينيد و أنّه تواصل فى الإنتشار عبر تتابع أنواع لاحقة . و هذا يفترض أنّ هذا " التجديد " التطوّري بفعل الإنتخاب الطبيعي فى فترة تبدو أيضا تناسبت مع بعض التغيّرات البيبيئيّة الهامة و على النطاق الواسع .

هل كانت " القفزة الكبرى الثانية " فى تطوّر الهومينيند – إنخفاض نسق التطوّر و النموّ الهائل فى حجم الدماغ – كذلك مترابطة بفترات تغيّرات بيئيّة كبرى ؟ هناك أدلّة تقترح أن الأمركان كذلك . الفترة قبل حوالي 2.5 مليون سنة (بالضبط حوالي حدوث " القفزةالثانية ") كانت زمن إنخفاض فى حرارة الكوكب حتى أكثر ،عندما أخذت جبال جليديّة كبرى تغطّى الأركتيك وعندما غدت أجزاء كبرى من أفريقيا أكثر جفافا بكثير . أين وُجدت قبلّ غابات إستوائيّة هائلة لا إنقطاع فيها ، و ثمّ مرقعات مزيج منالغبات و السافانا الغابيّة ، ظهرت الآن مناطق مفتوحة أوسع و أجفّ و سافانا مروج واسعة لا أشجار بها . و مرّة أخرى ، فترات من مثل هذه التغيّرات البيئيّة الدراميّة يمكن أنتؤدّى إلى إنقراض الكثير من الأنواع (و على الأرجح أدّت) ، لكن مثل هذه التغيّرات يمكن أيضا أن تخلق ظروفا بيئيّة تشجّع على تركيز و إنتشار التغيّرات التطوّرية الهامة و إنتشار أنواع جديدة كلّيا . سافانا المروج الجافّة المتّسعة المدى الجديدة أصبحت بيئة صعبة بالنسبة للهومينيد الأوائل : فمصادر الغذاء النباتي المناسب يمكن أن تكون أضحت أندر و أكثر تفرّقا ممّا هي عليه فى الغابات

الإستوائيّة التقليدية و حتى من السافانا الغابيّة المختلطة للفترات الأولى ، و الغياب النسبي للأشجار قد جعل مجموعات الهومينيد أكثر عرضة لأذى الحيوانات المفترسة الكبيرة فى المروج ، مثل القطط الكبيرة . و فى ظلّ مثل هذه الظروف ، ظهور أي نموّ فى قدرات صناعة الأدوات و التفكير المنطقي و التنسيق الإجتماعي كانت على ألرجح قد شجّع عليها بصورة هائلة الإنتقاء الطبيعي .

و قد يتبيّن أنّ التغيّرات البيئيّة الهامة التى جدّت فى أفريقيا قبل حوالي مليوني سنة (جفاف و تطوّر سافانا المروج الأكثر إمتدادا) بالفعل بصفة غير مباشرة قد " حفّزت " مزيد التغيّر لدى الهومينيد بإتجاه إنساني أكثر . و مجدّدا يمكن للمرء أن يفكّر فى أنّ الإنتخاب الطبيعي قد يكون ألغى أي خطوط هومينيد شرعت فى إنجاب أطفال بالأساس " غير مكتملي النموّ " كانوا تماما دون مساعدة و لم يستطيعوا أن يصونوا أنفسهم لفترة مديدة ؛ لكن واقع أنّ مثل هذا التغيّر حدث **كذلك** ليسمح لدماغ الهومينيد بالتطوّر لفترات زمنيّة أطول بعد الولادة (ما خوّل لأطفال الهومينيد الجدد توسيع قدراتهم الذهنيّة من خلال التفاعل و التعلّم الإجتماعيين ، بدلا من البرمجة الجينيّة ، و إلى درجة لم يسبق لها مثيل) على الأرجح **عوّضت و أكثر** أيّة عراقيل .

لعلّ كلّ هذا قد وقع دون حصول حتّى مثل هذه التغيّرات البيئيّة الكبرى . و فى نهاية المطاف ، نموّ فى القدرة على التعلّم و إستخدام الأدوات و إدخال تحسينات عليها و التواصل بشكل أفضل و تعزيز المظاهر الإجتماعية بعدُ ضمن خطّ إجتماعي من الثدييّات يمكن أن يكون وقع عليه الإنتقاء الطبيعي ، حتى فى بيئة غير متغيّرة نسبيّا . لكن التعديلات الجديدة التى على الأرجح أفرزتها التغيّرات الهامة فى المناخ و النباتات و مصادر الغذاء المتوفّرة و التعرّض للحيوانات المفترسة فى تلك الفترة العامةّ قبل حوالي مليوني سنة ، يمكن بالتأكيد أن تساعد على تفسير لماذا النوع الجديد من الهومو (مرّة أخرى" غريبة " تماما زمنها **!**) يبدو أنّه كان ناجحا تماما و بسرعة و أنّه شهد دفعة **أخرى** من التوسّع و تنوّع الأنواع الإضافيّة طوال المليون سنة التالية .

و من المثير للإهتمام أنّ أنواع الهومينيد ليس كلّها إنتهت إلى التطوّر بإتجاه الإنسان المعاصر . لا يبيّن خطّ الأسترالوبيثين " روبست " /" المتين " ذى الأسنان و الحنك اللذان يقترحان أنّه على الأرجح إختصّ فى الأكل أساسا لأغذية نباتيّة فى السافانا الجافة ، لا يبيّن أدلّة عنتوسّع دماغي هام و بسرعة إنقرض. و يبدو أنّ خطوط الهومينيد " غراسيل " / " الناحل"، من جهة أخرى – و خاصة أنواع الهومينيد الظاهرة جديدا – قد حافظت على حمية معمّمة (بحكم هياكل أسنانها و وجوهها ، و هي نموذجيّة لدى آكلي النبات و الحيوان الأقلّ تخصّصا) . و يرجّح أنّها شرعت هي الأخرى فى إستهلاك كميات متنامية من اللحم ما أعطى مجالا أوسع (و غالبا مغذّيا إلى درجة عالية) من الغذاء تحافظ به على نفسها فى البيئات المتنامية الصعوبةو الجفاف . و حتى أحافير الأسترالوبيثين " الأخرين " ، **الأسترالوبيثين غارهي** (الذين عاشوا شرقي أفريقيا **بالضبط** قبل ظهور أوّل أنواع الهومو) وُجدت مترابطة مع بقايا ظبي له عظام تبيّن " علامات جروح " أدوات حجريّة بما يؤشّر إلى أنّه تمّ تقطيعه . و أي نموّ فى تطوّر الدماغ ما بعد الولادة فى هذه الفترة كان على الأرجح سيكون مساعدا على تعلّم مثل هذه القدرات الجديدة، و على الأرجح شجّع عليها كثيرا الإنتقاء الطبيعي .

و لكن الأنواع اللاحقة من الهومو أرغستار هي التى مضت حقيقة بالأمور إلى خطوة أكبر بما أنّ هذا النوع كانعلى ما يبدو الأوّل فى إدراك كيفيّة إستخدام **النار** و الحصول عليها . كان هذا تحديدا هائلا لأنّه سمح لهؤلاء الهومينيد بالسفر فى الساحات المفتوحة مع إمكانية إبقاء الحيوانات المفترسة بعيدة عنهم فى الليل حتى حين لا توجد أشجار للنومفوقها ؛ و إستخدمت النار أيضا لتلطيف و جعل أصناف منالأغذية القاسية أسهل لعمليّة الهضم (مثل الجذور الليفيّة و اللحوم القاسية) من خلال **الطهو** .

و ليس بالغريب (مع أدمغتهم الأكثر بكثير و الأدوات الحجريّة المتنامية التتحسّن و النار و لغتهم و وسائل تنسيقهم الإجتماعي الأكثر تطوّرا) أن كان الهومو أرغستر (المعروف أيضا بالهومو أركتوس الأفريقي) نوعا يبدو أنّه كان الأوّل فى المغامرة خارج أفريقيا على نطاق واسع و الأوّل فى النجاح فى تركيز نفسه فى تنوّع بيئات متباينة فى عدد من أنحاء العالم الأخرى . عندما ظهر نوعنا الخاص من الهومو سابينس فى أفريقيا قبل حوالي 200 ألف سنة (على الأرجح خارج خطّ الهومو أرغستار / أركتوس أو على أي حال نوع هومينيد مشابه جدّا) كان يملك قدرات معرفيّة متطوّرة حتى أكثر – المنطق الذهني – (كما دلّلت على ذلك مثلا الأدوات الحجريّة التى كانت بشكل دال نتيجة رسممعقّد أكثر منتلك التى للهوموأرغستار / أركتوس) . عند هذه النقطة قد طوّر الهومو سابينس تماما قدرات لغويّة إنسانيّة يمكنتمييزها ، تفاعلات إجتماعية و قدرة عامة على تغيير نفسه و العالم من حوله **أكثر من خلال التغيّرات الثقافية الواعية منه نتيجة أي تطوّر بيولوجي جاري** (و تجدر الإشارة إلى أنّ حتى بعض الخطوط الإنسانيّة الأخرى إنحدرت من المهاجرين الهومو أركتوس السابقين مثل النيندرثال المعروفين بأنّهم كانوا قادرين على تطوير بعض الظواهر ذات الدلالة فى الثقافة الإنسانية ،مع شروع بعضهم فى دفن موتاهم بشكل طقوسي ، كمثال للذكر لا الحصر) .

نوع واحد – عبر العالم بأسره

نوع يغيّر العالم تغييرا جذريّا

زمن شروع نوعنا الهومو سابينس المعاصر فى الإنتشار خارج أفريقيا قبل حوالي 50 ألف سنة ، كانت لديه مرونة سلوكيّة قائمة على البيولوجية و على مدى تنسيقه الإجتماعي فى تقريبا أيّ صنف من البيئات المادية و على **التأقلم معها عبر الوسائل الثقافيّة** (مثلا ، مستعملا جلود الحيوانات و النار لدرء البرد ،محسّنا الرسوم و المواد فى صنع الأدوات المستخدمة فى حصاد النباتات الغذائيّة و صيد الحيوانات للحصول على لحمها إلخ) . يملك الهومو سابينس الآن وسائل مراكمة المعرفة و نقلها بين المجموعات – و عبر الأجيال – منخلال كافة أشكال الوسائل **الثقافيّة** بما فيها الفنّ و الطقوس التى ظهرت حديثا . فى كلّ مكان ذهب إليه ، إنتهى إلى الحلول محلّ المجموعات الباقية من الأنواع الإنسانيّة القديمة التى كانت منحدرة من الهجرات الأسبق من أفريقيا والتى قام بها الهومو أركتوس .

منذ ظهورنا فى أفريقيا قبل حوالي 200 ألف سنة ، تصرّفنا لننتشر بسرعة تامة إلى كامل أنحاء الكوكب ، حتى بلوغ القارة الأمريكيّة عبر مضيق بيرنغ على الأقّل قبل 12 ألف سنة . إنطلقنا من أفريقيا كنوع واحد و مذّاك بقينا نوعا واحدا . (أنظروا " جميعنا أتينا منأفريقيا ") . لمينعزل و لا جيب واحد من الهومو سابينس المعاصرين أبدا حقّا فى التوالد عن بقيّة النوع ، لذا بإستمرار تتشابك جيناتنا مثلما حصل منذ جذورنا الأولى على القارة الأفريقية . و بصفة أكثر جوهريّة ، نوعنا – الذى يصنع اليوم الحواسيب و يكتسف أعماق المحيطات و يمضى بعيدا فى إكتشاف الفضاء – فى الأساس **لم يتغيّر** بيولوجيّا نسبة للهومو سابينس الذى خرج من أفريقيا فى تلك الموجة الثانية من الهجرة قبل حوالي 50 ألف سنة . و هذا ليس فقط لأنّ الأمر يتعلّق بمرور فترة زمنيّة قصيرة و الأنواع الفرديّة تنحو نحو " الإستقرار " النسبي طوال الكثير من فسحة الحياة ، و إنّما لأنّ النوع الذى " نسج " أجدادنا الهومينيد المتنوّعين تنوّعا ثريّا قبل 200 ألف سنة يملك قدرة غير مسبوقة على مواصلة التغيّر و إعادة تشكيل طرق حياته الخاصّة ، و تغيير أي مظهر من بيئته الخارجيّة من خلال الوسائل الثقافيّة . و تبيّن أنّهذا أمر لميستطع أن يُحقّق من خلال أي منالتطوّر البيولوجي الجاري . والأشخاص المسؤولين عن أوّل فنّ كهوف ما قبل التاريخ ، أولئك الذين غامروا أوّلا عبر مضيق بيرنغ ، أولئك الذين حافظوا على نمط حياة الصيد و التجميع لمائة ألف سنة أو أكثر ، أولئك الذين طوّروا الفلاحة قبل 10 آلاف سنة ، و الذين خلقوا مجتمعات متقدّمة تقنيّا فى فقط القرنين الأخيرين – كانوا جميعا فى الأساس **نفس النوع الإنساني** . (أنظروا **" ماذا يقول لنا علم التطوّر عن " الأعراق " البشريّة "**) . لم نشهد حقّا تغيّرات بيولوجيّة ذات دلالة (لا مزيد من التوسّع فى الدماغ مثلا) فى كلّ هذا الوقت – رغم أنّ التغيّرات التى أحدثناها فى كلّ مظهر من مظاهر العالم حولنا من خلال التغيّرات الإجتماعيّة والثقافيّة المطلقة عنوعي ، فى فقط بضعة عشرات آلاف السنين مذهلة ، هذا أقلّ ما يقال فيها .

نحن البشر طوّرنا قدرة غير مسبوقة على التعلّم المستمرّ للأشياء الجديدة ،و على البحث الواعي عن تغيير و تحويل العالم المادي بما فى ذلك المجتمع الإنساني ، و على نقل كمّية هائلة من المعلومات المراكمة من جيل إلى الجيل التالي عبر هذه الوسائط الثقافيّة غير الجنسيّة . هذا ما يسمح لنوعيّات ب " التغلّب " على المشاكل الجديدة و الفرص الجديدة التى يوفّره العالم الخارجي (أو حتى الإخفاق فى القيام بذلك !) ، دون أن نعرف تغييرات بيولوجيّة هامة فى أجسادنا و دون أن نولّد أية أنواع جديدة . (أنظروا **" ألا يزال الإنسان يتطوّر ؟ "**) .

و مع ذلك ، لا يعنى هذا أنّنا لن ننقرض فى يوم ما : كلّ شكل خاص من المادّة فى النهاية يكفّ عن الوجود و الإنسان – على الأقل ما نعتقد أنّه الإنسان اليوم – بدوره فى النهاية سيكفّ عن الوجود . المسألة الحقيقيّة يمكن أن تصبح ما إذا كان إنقراض الإنسان سيحصل عاجلا أو آجلا ، و أي نوع من حياة الإنسان سنحيا من هنا إلأى ذلك الحين . هل نستطيع أن نستخدم بعض القدرات الهائلة لإدخال تغييرات إجتماعيّة و ثقافيّة لتجنّب دفع أنفسنا إلى الحافة عبر الحلرب والإضطهاد الإجتماعي و التحطيم البيئي الشمال ؟ الجواب على هذا السؤال فى أخر المطاف سيرتهن بنا .

هوامش الفصل السابع :

1- و بمقدورنا كذلك (و يجب علينا) أن نطبّق مناهج العلم المعاصر و تقنياته لكسب فهم أفضل لأشياء مثل لماذا خلق الإنسان الأديان فى المصاف الأوّل ، أو العديد (على أنّه بالتأكيد ليس الجميع) من الأفراد يواصلون الشعور ب " الحاجة " إلى دين .

2- مثلما ناقشنا سابقا فى هذا الكتاب ، الإنتقاء الطبيعي آليّة بسيطة نسبيّا : ملامح جديدة (ممثّلة للتجديدات فى الشكل أو الوظيفة لم تحدث لدى الأجيال السابقة) يمكن أن تظهر فى أجهزة فرديّة ببساطة نتيجة لأنواع مختلفة من " تعديلات " التنوّع الجيني القابل للتوريث الذى كان حاضرا فى جيل" آبائهم "؛ عندما يحدث أن توفّر مثل هذه الملامح الجديدة للأفراد المتمتّعين بهذه الملامح ب " حافة توالد " نسبيّ للأفراد الذين **لا** يملكون هذه الملامح الجديدة (ما يخوّل لهم إنتاج خلف / منحدرين نسبيّا بأعداد أوفر سيكونون بدورهم قادرين على البقاء و التوالد) ، تقريبا بشكل طبيعي ، هذه الملامح الجديدة ستنتهى إلى العبور إلى قسم أكبر من الأفراد الذين يشكّلون المجموعة فى الأجيال التالية . بهذه الطريقة ، ستنزع هذه الملامح إلى **الإنتشار** عبر مجموعة كاملة من النباتات و الحيوانات .وهذا سيحدث آليّا ، طالما أنّ الملامح المعنيّة هي حقّا قابلة للتوريث (يمكن أن تمرّ من الآباء إلى الأبناء من خلال التوالد) و طالما أنّها توفّر حقّا للأفراد نوعا من الميزة التوالدية فإّ الذين يملكون هذه الملامح الجديدة ينتهون فى المتوسّط إلى المساهمة بمزيد من الخلف / المنحدرين منهم فى الأجيال التالية أكثر من مساهمة الأشخاص الذين يملكون هذه الملامح .

3- لم يكن أبدا عند الكنيسة الكاثوليكيّة أي سجلّ جيّد لمّا يتّصل الأمر بالإعتراف بالتقدّم العلمي و تقديره حق قدره : عالم الفلك كوبرنيك أوّل من إقترح أنّ الأرض تدور حول الشمس (عوض العكس) فى القرن الخامس عشر . و نظريّته حينها أثبت العلم صحّتها من خلال عالم الفلك غاليلايو فى بدايات القرن 16 . و قد أغضبتها هذه الأدلّة العلميّة التى كشفت أخطاء الأنجيل ، رفضت الكنيسة الكاثوليكيّة القبول بهذه الأدلّة العلميّة و عوض ذلك عذّبت غاليلايو و قمعته على أنّه كافر إلى أن فرضوا عليه أن يتراجع (يسحب) نظريّة كوبرنيك . كان هذا فى 1633 . و البابا الكاثوليكي جون بول الثاني فى الأخير قام بجولة لإلقاء خطاب فيه إعترف بأنّ الكنيسة كانت على خطإ و بأنّ غاليلايو قد عانى ظلم الكنيسة . و لكن هذا لم يحصل إلى 1979 !!! و بينما بلغ الأمر بذلك البابا سنة 1996 بأن يعترف بأنّ نظريّة التطوّر " هي أكثر من مجرّدفرضيّة " ، فإنّ خلفه الحالي البابا بنديكت السادس عشر ، يوضح مرّة أخرى أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة ترفض نظريّة التطوّر .

4- التأثير العام لهذه الفترات من " الركود النسبي " (عندما لا تكون عديد الأنواع الجديدة قى أنتجت) هو انّ الإنفجار الأوّلي لنشوء الأنواع فى النهاية " يشذب " و يتقلّص مع مرور الزمن ، على الأقلّ إلى نقطة أخيرة لمّا ظهر شيء ل " إثارة ط إنفجار **آخر** فى نشوء الأنواع – منتجا محصولا جديدا من الأنواع من خطّ صار ، بمعنى ما ، بالأحرى سكوني و مملّ من وجهة نظر تطوّريّة . تولى هذه الأيّام الكثير من الأهمّية العلمية لمحاولة الفهم فهما أفضل لمجرّد ما هي الملامح (أو مزيج الملامح) التى تحفّز على وتيسّر أو بطرق متنوّعة تساهم فى هكذا تغيّرات فى الإيقاع و التواتر الشاملين لنشوء أنواع فى خطوط خاصّة من النباتات والحيوانات ، أو حتى فى عديد الخطوط المختلفة فى ذات الوقت تقريبا . مع إحراز العلماء تقدّما فى مهمّة إعادة بناء الصورة البيئيّة الكلّية فى أزمان مختلفة من تاريخ الأرض و خاصّة فى أماكن جغرافيّة خاصة (بما فى ذلكالقدرة على إعادة بناء ليس كيف كانت الأرض و كان المناخ و المظاهر البيئيّة الأخرى فحسب ، بل أيضا ما هي تشكيلة أنواع النباتات و الحيوانات التى شكّلت البيئة البيولوجيّة المحلّية) ، وما يبدو طافحا على السطح هو أنّ **هذه الفترات الخاصة من التوسّع فى نشوء الأنواع غالبا ما تكون مترابطة بفترات من الإستقرار أو إعادة الهيكلة النسبيّة للبيئات الماديّة و / أو البيولوجيّة التى عاشت فيها مختلف الأنواع .** وعادة ما تؤدّى تغيّرات هامة فى الظروف البيئيّة الخارجيّة إلى إنقراض أنواع ، لكن **كذلك** يمكن أن تكون ظروفا مواتية لغريبي الأطوار من المجموعات المتنوّعة للحصول عقد أصبع القدم و إيجاد نوع جديد بملامح جديدة تتناغم أكثر مع الظروف الخارجية الجديدة .

5- بقدر ما تزداد معرفتنا بالهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين ، بقدر ما يبدو على ألأرجح أنّهم قوواصلوا تمضية قسط كبير من الوقت متحرّكين بعدُ بين الأشجار (و تقريبا من الأكيد أنّهم كانوا يرتاحون و ينامون على الأشجار ، بعيدا عن متناول عدّة حيوانات مفترسة). لا زالوا يملكونعظام أيادي طويلة كالقردة المتأرجحة بين الأشجار ، و يظهر الآن أنّ التنقّل على قدمين ظهر أوّلا زمن كان كبير من القارة الأفريقيّة لا يزال مغطّى بغابات إستوائيّة لا إنقطاع فيها تقريبا . والفكرة القديمة القائلة بأنّ الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين تطوّروا زمن إنتشرت فيه إمتدادات شاسعة من سافانا المروج التى لا شجر بها فى أجزاء واسعة من أفريقيا (و أنّ الإنتقاء الطبيعي يمكن أن يكون قد شجّع تنقّلهم منتصبي القامة إذ أنّه خوّل للأفراد أن يعبروا بصفة أسهل هذه المساحات المفتوحة ،و النظر من خلال الأعشاب الطويلة ، و البقاء على قيد الحياة بعيدا عن الأشجار لأيّام فى مرّة واحدة) لم يعد بعدُ معتبرا ذات مصداقيّة كبرى ذلك أنّه تبيّن أنّ سكّان الأشجار ظلّوا كثيفي العدد فى الكثير من أنحاء أفريقيا زمنها. حقّا تطوّرت الأحزمة الشاسعة من سافانا المروج المفتوحة وبلا شجر نسبيّا غير أنّ هذا على ما يبدو حصُل تماما فى فترة لاحقة من ظهور الهومينيد الأوائل . و هناك مع ذلك دلائل على انّ التوسّعات التقليديّة للغابات الإستوائيّة التى لا تنقطع كانت على الأقّل **بدأت** فى التفكّك إلى مواطن أقلّ " إكتمالا "

(متكوّنة من " خليط " متنوّع من المناطق الغابيّة الكثيفة و الممتدّة و المتداخلة مع جيوب من مناطق سافانا غابيّة مفتوحة أكثر) حوالي زمن تطوّر أوّل نوع متنقّل على قدمين .

تذكّروا طبعا أنّ التنقّل على قدمين لم يتطوّر بأي حال " بسبب " أيّة تغييرات بيئيّة خاصة – مثلما ناقشنا سابقا ، تغيّر بيئي بذاته و فى حدّ ذاته لا " يتسبّب " فى ظهور تجديد تطوّري لكن التجديد التطوّري الذى **يحدث** أن يظهر عبر تعديلات جينيّة عشوائية إلخ . و يرجّح أنّه يتمّ الحفاظ عليه و ينتشر ضمن مجموعة خلال عدد من الأجيال **إذا** حدث أن كانت هذه المجموعة تواجه بعض التغيّرات البيئيّة زمنها و **إذا** حدث أن تمكّن هذه التغيّرات التطوّريّة الجديدة الأفراد من بقاء أفضل على قيد الحياة و التوالد بشكل أفضل . و هكذا ، يمكن أنيكون الأفراد فى مجموعات حدث أن طوّرت وضع و تنقّل منتصبي القامة أكثر قد كسبوا ط حافة توالد " ببساطة من قدرتهم على تمضية على الأقلّ **بعض** الفترات الزمنيّة بعيدا عن الأشجار ، و التحرّك بأكثر سهولة إلى الأمام و الخلف بين الأشجار وجيوب المواطن المفتوحة أكثر نسبيّا التى طفقوا يطوّرونها . و هذا النوع من المرونة السلوكيّة الجديدة قد يكون إلى حدّ كبير قد سمح لها بإستغلال تشكيلة أوسع من الغذاء النباتي والموارد الأخرى فى رقع السافانا الغابيّة المختلطة و على " حافة " الغابات التقليديّة . و حتى إن كان الهومينيد الأوائل المتنقّلين على قدمين بعدُ يمضون قسطا كبيرا من الوقت بين الأشجار ، من الممكن أنّهم قد شرعوا فى مزيد **نقل** الغذاء بصورة روتينيّة من مكان إلى آخر (بدلا من الأكل الدائم للغذاء فى الموقع) بما فى ذلك على نطاق أوسع من المساكن المختلطة ؛ و إن كان الأمر كذلك ، فقد يكون قد أثّر تأثيرا كبيرا فى كلّ شيء من تغذيتهم الفرديّة إلى طبيعة تفاعلاتهم الإجتماعيّة (مثلا ، إن كان الأفراد ضمن حتى نوع المتنقّلين الأوائل على قدمين قد أخذوا يحملون الغذاء من مناطق بعيدة ليتقاسموه مع آخرين فى المجموعة).

فى كلّ الأحوال لا شكّ فى أنّ فى ذات الفترة العامة لمّا كان تنوّع فى أنواع القردة **غير** المتنقّلة على قدمين **ينهار** بحدّة ، ظهر التنقّل على قدمين **و** التنوّع لدى أنواع المتنقّلين على قدمين و بسرعة أخذ فى النموّ . و هذا بحدّ ذاته يفترض بالتأكيد بقوّة أنّ التنقّل على قدمين يجب أن يكون قد وفّر نوعا من ميزات التوالد المختلة فى البيئات الأفريقيّة المتغيّرة لتلك الفترة و بالتالي قد حفّز بقوّة الإنتقاء الطبيعي .

6 - للأسترالوبيثين " الأوائل " المتنقّلين على قدمين معدّل حجم الدماغ بحوالي 550 سم مكعّب وهو فقط أكبر بقليل من معدّل حجم دماغ الشنبنزي المعاصر (حوالي 400 سم مكعّب) لكن الهومينيد " الأخيرين " ، بمن فيهم أوّل ممثّلي جنسنا الهومو ، كان دماغهم أكبر بكثير " كان للهومو رودلفانسيس مثلا ، معدّل دماغ بدائرة 700 إلى 900 سم مكعّب – وهو ما يمثّل قرابة **ضعف** معدّل حجم دماغ الأسترالوبيثين – حتى و إن كانت أجسادهم لا تزال بعدُ صغيرة مثل سابقيهم من الأسترالوبيثين . و نموذج التطوّر الشائع لدى القردة مثل الشنبنزي هو بالنسبة للدماغ ضعف الحجم بين الولادة و الرشد عند الهومينيد بداية من الهومو أركتوس (و كذلك عند الإنسان المعاصر) معدّل حجم الدماغ **تضاعف** أكثر **بثلاث مرّات** بين الولادة و الرشد .

عند الإنسان المعاصر ، يولد الطفل بمعدّل حجم دماغ بحوالي 385 سممكعّب ، ويتضاعف تاليا فى السنة الأولى من الحياة فقط وفى النهاية ينمو إلى معدّل حوالي 1350 سم مكعّب .

7- نوع الأجداد المشتركين الذين يتقاسمهم كلّ من الهومو سابينس و الهومو نيندرثالنسس كانوا على الأرجح نسخة " متأخّرة " من الهومو أرغستار/ أركتوس المشار إليهم أحيانا ب " الهومو سابينس القديم".

إضافات إلى الفصل السابع :

(1) الإنسان و الديناصورات ؟! فكرة عبثيّة أخرى لأنصار فكر الخلق .

نظرا لأنّ الإنجيل يقول إنّ الإلاه خلق كلّ الكائنات الحيّة بصفة منفصلة و فى نفس الوقت ، فإنّ الأصوليين المسيحيين سيفعلون أي شيء لمحاولة إنكار الأدلّة العلميّة الواضحة بأنّ مختلف الأنواع تطوّرت الواحد من الآخر و فى أوقات متباينة فى تاريخ 3,5 بليون سنة من الحياة على كوكب الأرض.

لقد أزعجتهم بصورة خاصّة أدلّة التطوّر التى لا يمكن دحضها بشأن الخطّ الإنساني و التى تشمل العديد و العديد من أنواع الأحافير لهومينيد مختلفين تنقّلوا منتصبي القامة كمرحلة بوضوح إنتقاليّة بين الأجداد القردة و الإنسان المعاصر . لا يستطيع أنصار فكر الخلق التعاطي مع هذه الأدلّة ، لذا عادة ما يلجؤون إلى قول إنّ الأسترولوبيثاسين الذين إنتقلوا منتصبي القامة الأولين هم " مجرّد قردة " ، و الهومينيد التالين مثل الهومو سابينس / الإنسان الماهر و الهومو أرغستر والهوموأركتوس إلخ – الذين لهم ملامح إنتقاليّة واضحة بين الأسترولوبيثاسين و الإنسان المعاصر – " يجب أن يكونوا مجرّد " خدع " ، و البقايا ألحفوريّة لنوعنا الراهن ، الهومو سابينس و التى تعود إلى أكثر من 100 ألف سنة ، هي بإعتراف الجميع الإنسان المعاصر لكن أنصار فكر الخلق يشدّدون على أنّه لا يمكن أن يكون عمرهم هو ذاك **!**

---

(2) <u>**الحمض النووي لدى الشنبنزي ولدى الإنسان : إلى أي مدى نتقارب ؟**</u>

إنطلاقا منسبعينات القرن العشرين ، إستخدمت مختلف فرق العلماء تقنيات البيولوجيا الذرّية لمقارنة بروتينات الحمض النووي فى دم الإنسان و الشنبنزي . و قد إكتشفوا قدرا متميّزا من التشابه بين الحمض النووي للشنبنزي و الإنسان على المستوى الكامن للذرّات . و غالبية العلماء العاملين فى المجال إستخلصوا بصفة متكرّرة نفس الأرقام الأساسية لحوالي 98.5 إلى 99 بالمائة من التشابه . و بما أنّه من المعروف أنّ بقدر ما تفصل مدّة زمنيّة أطول بين النوعين ، بقدر ما يراكم الحمض النووي الإختلافات ، كان من الممكن إنطلاقا من معطيات الحمض النووي حساب أنّ الشنبنزي المعاصر و الإنسان المعاصر لا يزالان يتقاسمان أجدادا مشتركين عند نقطة زمنية حدّدت تقريبا ب 5 مليون سنة. و هذه ليست فترة زمنيّة طويلة جدّا أبدا بالنظر إلى كون الحياة على الأرض أخذت فى التطوّر منذ 3.5 بليون سنة .

و فى المدّة الأخيرة ، كانت الصحافة تزخر بعناوين تعلن " الشنبنزي و الإنسان ليسا بالقرابة التى كان يُعتقد أنّهما عليها **!** " قد يساعف هذا على بيع الجرائد غير أنّه لسوء الحظّ قد يضلّل كذلك بعض الناس و يستدرجهم إلى الإعتقاد بأنّ علماء البيولوجيا التطوّرية مختلفين الآن حول ما إذا كنّا بالفعل مرتبطين إرتباطا وثيقا عن قرب بالشنبنزي و تطوّرنا من أجداد مشتركين . لا وجود لمثل هذا الخلاف . العناوين لا تفعل سوى الإحالة على كون روي بريتان ، عالم بيولوجي لدى شركة كال تاك ، إستخدم تقنية جديدة لإعادة حساب بعض الإختلافات الذرّية بين الحمضالنووي للإنسان و للشنبنزي . لم يستعمل مجرّد التقسيم المتعارف عليه للإختلافات فى الحمض النووي المقاسة من خلال تعويضات ذرّية و كذلك تؤخذ فى حسابات كمّية ما يسمّى ب " إندالس" (إدماج و فسخ) أجزاء إضافيّة للحمض النووي التى يبدو أنّها تحصل بصفة خاصة فى أقسام من الحمض النووي يعتقد عموما أنّها " غير عملية " بهذه الطريقة الجديدة (و دلالتها و صلوحيتها الشاملة يجب مزيد تقييمها) **لا يزال** بريتان يتوصّل إلى رقم **على الأقلّ 95 بالمائة من التشابه الجيني** بين الإنسان و الشنبنزي (مقارنة مثلا بالإنسان و أقربائه من الثدييّات الأبعد ، الفأر ،التى لديها مع الإنسان أقلّ من 60 بالمائة من الجينات المشتركة) .

لذلك ، سواء فضّلتم رقم 95 بالمائة ، 89.5 بالمائة أو 99 بالمائة عندوصف علاقة القرابة الجينيّة للإنسان و الشنبنزي ، يظلّ مطلق الوضوح أنّ الإنسان و الشنبنزي هما فعلا **أقرباء جدّا إلى أقصى حدّ** ،و أنّ الشنبنزي يظلّ إلى حدّ بعيد أقرب أقربائنا ضمن الأنواع الحيّة راهنا (نحن حتىّ أكثر قلرابة مع أنواع أجدادنا الهومينيد المتنوّعين ، لكنّهم جميعا إضمحلّوا الآن) . و أشار روي بريتان ذاته إلى أنّ " قسما كبيرا من هذه 5 بالمائة من التحوّلات نسبيّا لا أهميّة له "و أضاف أنّ هذه الأرقام تواصل مساندة إستنتاج أنّ الخطّ الإنساني و خطّ الشنبنزي إنفصلا من أجداد مشتركين قبل حوالي 5 مليون سنة .

---

(3)   هل كان توماي أحد أسلافنا ؟

يشمل مصطلح " الهومينيد " جميع الأنواع المعتبرة الأكثر قرابة للإنسان منه إلى الشنبنزي . نعلم علم اليقين (بفضل دليل الحمض النووي الذرّي) أنّ الهومينيد المتنقّل على قدمين و المنتصب القامة إنقسم قبل حوالي أكثر من 5 مليون سنة و خطّ القردة الأفريقيّة الذى أفرز أيضا الشنبنزي المعاصر . بفضل وفرة الأحافير ، لدينا أيضا قدرا لا بأس به من المعلومات عن نواع الهومينيد المنتصبة القامة الكثيرة (و هناك الكثير منها !) عاشت فى أفريقيا بداية من قبل حوالي 3 إلى 4 مليون سنة . لكن الأحافير الأقدم من 4 مليون سنة أو حوالي 4 مليون سنة قليلة و متباعدة ، فى جزء منه لأنّ السكّان الهومينيد الأسبق المتنقّلين على قدمين بالضرورة قليلون و لأنّ الشروط البيئيّة زمنها كانت رطبة أكثر لا تؤدّى إلى تشكّل أحافير .

فى المدّة الأخيرة ، جرى إكتشاف جمجم شرقي أفريقيا و جنوبها عمرها 7 مليون سنة فى الصحراء ، بعيدا عن الأماكن العاديّة إكتشافات أحافير الهومينيد الأوائل . لقد وقع توصيفها ك سهلنتروبيس تشادنسيس و أطلق عليها إسم " توماي " . ميشال برونات و أخصّائيّون آخرون كذلك مقتنعون بأنّ توماي تنقّل واقفا بسبب بعض المعطيات عن مكان إرتباط عضلاته بجمجمته . إن كان هذا صحيحا ، سيمثّل توماي أقدم هومينيد متنقّل على قدمين عُثر عليه و يمكن تماما أن يكون أوّل نوع متنقّل على قدمين ينفصل عن خطّ أجداد القردة غير المتنقّلين على قدمين . و مع ذلك ، بعض العلماء يعبّر بعض العلماء حاليّا عن بعض الشكّ فى أنّ الهيكل العظمي لتوماي يدلّل قطعيّا على أنّه تنقّل واقفا كهومينيد قبل 3 إلى 4 مليون سنة . وحتى إنفعل يمكن أن يثبت أو لا يثبت أنّه خطّ الجدّ الإنساني المباشر ، كما يمكن أن يتبيّن أنّه تطوّر وفق فرع من عدّة " فروع " شجرة عائلة الهومينيد التى بلغت فى النهاية طريقا تطوّريّا مسدودا .

بغضّ النظر عن إذا كان العلماء مجمعون على إستنتاج أنّ توماي كان تنقّل على قدمين تماما أم لم يفعل، فإنّ هذا الإكتشاف هام بما فى ذلك لأنّه يوفّر دليلا على أنّه من الممكن (و إن كان من الصعب) إيجاد أحافير هومينيد عمرها أكثر من 5 ملايين سنة ، و أنّ على الأقلّ بعض هذه الأحافير يمكن أن توجد فى أماكن من أفريقيا بعيدا جدّا عن أماكن أفريقيا الشرقيّة و الجنوبيّة التى قد وفّرت أغلب بقايا الهومينيد .

(4) ميف ليكي تمسك بآخر إكتشافاتها للأحافير

تواصل عالمة الحفريّات ، ميف ليكي ، و توسّع الإرث المذهل لأسرة ليكي إذ كان لويس و ماري ليكي و أنسابها و زوجها رتشارد ليكي ، جميعهم ساهموا مساهمات كبرى فى إكتشافات الهومينيد و غيرها من الأحافير و فى تفكيك أحافير قصّة الجذور الإنسانيّة الأولى فى أفريقيا. لقد إكتشفت ميف ليكي بعدُ بعض الأنواع الجديدة عمرها 4 ملايين سنة ، أسترالوبثين أنامنسيس (على ألرجح أجداد الأسترتلوبثين أفرنسيس ، المعروف عامة ب " لوسى ") . ثمّ فى 1999 ، بمساعدة إبنتها لويس ، وجدت بعدُ أحافير أخرى لهيكل عظمي للهومينيد على ضفاف بحيرة تركانا فى كينيا . و أطلقت عليه إسم كينينتروبوس بلاتيوبس (" الرجل ذو الوجه المسطّح بكينيا) – و هكذا سمّي لأنّ وجهه أقلّ شبها بالقردة و أكثر شبها بالوجه المسطّح للإنسان و الذى يوجد غالبا فى أحافير الهومينيد اللاحقة . هذا بوضوح تام هومينيد سابق عاش قبل حوالي 3.5 مليون سنة ، فى حوالي ذات الفترة الزمنيّة للأسترالوبثين أفرنسيس (" لوسي ") و ليكي واثقة من أنّ بلاتيوس مختلف بما فيه الكفاية عن أفرنسيس ليسجّل ضمن جنس منفصل كلّيا . و سواء كان هذا النوع الخاص من الهومينيد مرشّح أفضل حتى لخطّ مباشر لأجداد الإنسان أم يتبيّن أنّه نوع جانبي أكثر ليس واضحا الآن . غير أنّه مثلما تشير ليكي ، ما هو وضاح تماما هو أنّ تطوّر التنقّل على قدمين قد أفرز منذ البداية تنوّعا و " إنفجارا فى الأنواع " وهو أمر لم يشهد تراجعا إلاّ لاحقا . و اليوم ، تقول ليكي إنّ نوع إنساننا النعاصر هو " النوع الباقي الوحيد و نحن غصين واحد صغير باقي من شجرة الماضي المعقّدة " (" لقاء رجل كينيا " **ناسيونال جيوغرافيك** ، أكتوبر 2001).

---

(5) هل أن الهومو أركتوس أوّل أنواع الإنسان التى غادرت أفريقيا ؟

من المعروف جيّدا أنّ أفراد نوع الهومينيد الذين إستعملوا النار و صنعوا الأدوات ، المعروفين سواء كهومو أرغستار أو هومو أركتوس ، طفقوا يسافرون خارج أفريقيا بداية من تقريبا قبل مليوني سنة . و فى الأخير بلغوا حتى آسيا (حيث أحافير المنحدرين منهم تشمل ما يسمّى برجل جافا و رجل بيكين) و كذلك الشرق الأوسط و أوروبا (حيث أحافير المنحدرين منهم يشار إليهم بالنيندرثال) . كان هؤلاء بعدُ إنسانا " متقدما " (يستعمل أدوات حجريّة متقدّمة نسبيّا ، مثلا)

لكنّهم لا ينتمون إلى نوع الهومو سابينس المعاصر تماما ، الذى يبدو أنه تطوّر من بقايا مجموعات هومو أرغستار فى أفريقيا بعد قليل – قبل حوالي 200 ألف سنة . و شرع الهوموسابينس ينتشرون خارج أفريقيا قبل حوالي 50 ألف سنة و فى الأخير إنتهوا إلى الحلول محل النيندرثال و المنحدرين الآخرين من نوع الهومو أركتوس عبر العالم قبل حوالي 35000 سنة .

نعرف معرفة يقينيّة أنّ الهومو أركتوس كان مهاجرا سابقا من أفريقيا ، لكن هل كان هو الأول ؟ حديثا عدد من أحافير الهومينيد المؤرّخ عمرها حوالي 1.7 و 1.8 مليون سنة إكتشفت فى بلاد جورجيا (بين البحر الأسود و بحر قزوين ، قرب روسيا و تركيا و إيران) . و ليس واضحا بعدُ إن كانت هذه الأحافير (المشار إليها على نحو شائع بأحافير دمانيسى و حديثا أطلق عليها إسم هومو جيورجكوس) يمكن ببساطة أن تنتمي إلى النوع المعروف جيّدا بنوع الهومو أركتوس أو أن تنتمي إلى أنواع حتى سابقة من أنواع الهومينيد . كانت لديهم جماجم صغيرة و وجوه شبيهة بوجوه الشنبنزي و كانوا يصنعون قواطعا و مكاشطا حجريّة بسيطة . وبطرق عدّة تبدو إنتقاليّة نوعا ما بين أنواع الهومو الأقدم مثل الهومو أبيبيس و الهومو رودولفنسيس (الذين كانت لديهم أدوات حجريّة بسيطة قبل حوالي 2.4 مليون سنة لكن إلى الان على الأقّل ، لم يفكّر أبدا أنّهم غادروا أفريقيا) و نوع الهومو أركتوس اللاحقين الذين كانوا أقرب إلى الإنسان المعاصر فى ملامحهم من ملامح أحافير دمانيسي و كانت لديهم أدوات حجريّة أكثر تقدّما و التى نعلم بشكل مأكّد أنّها هاجرت إلى آسيا و أوروبا بداية من قبل حوالي مليون سنة . قد تكون الملامح " الإنتقالية " لأحافير دمانيسي (بين الهومو بيليس و الهومو أركتوس) قد مضلّلة ، و قد يتبيّن فى الأخير أنّ هذه الأحافير أحافير هومو اركتوس أوائل . لكن من الممكن أن يُمثّلوا المنحدرين من بعض المهاجرين السابقين و أنّ الهومو أركتوس لك يكن الأوّل بالذات فى السفر إلى خارج أفريقيا .

و من المهمّ أنّ أحافير دمانيسي مترابطة بأحافير بعض الحيوانات الأفريقيّة الأخرى (مثل النعام و الزرافات ذات العنق القصير) : يمكن أن تكون التغيرات البيئيّة الواسعة النطاق قد شجّعت عددا من الأنواع على الهجرة حوالي ذلك الزمن . هومو أركتوس أومهما كان نوع الهومينيد الذى يتبيّن أنّهم ينتمون إليه ، يمكن أن يكونوا قد إتبعوا ببساطة بعض الحيوانات المهاجرة الأخرى إلى خارج أفريقيا . و لعلّ بعض العوامل المشابهة دفعت لاحقا نوعنا من الهومو سابينس إلى توسيع أفقه و الإنتشار إلى قارات أخرى و مثلما نعلم إنطلق ذلك قبل حوالي 50 ألف سنة . و بلا شكّ سنحصل على علم حول كلّ هذا مع ظهور مزيد الأدلّة العلمية .

6- جميعنا أتينا من أفريقيا

كيف نعرف هذا ؟ يعود الأمر إلى مزيج من الأسباب :

أوّلا ، يبيّن حمضنا النووي أنّ أقرب أقربائنا على قيد الحياة هو الأنواع الباقية من القردة الأفريقيّة الشنبنزي و الغوريلا الأفريقيين) و ليس القردة الآسيويّة (الأرغو كانس التى لسنا جدّ مرتبطين بها) . و تبيّت " الساعة الذرّية " للحمضالنووي أنّ قبل تقريبا 5 ملايين سنة " إنشقّ " نوع من القردة الأفريقية إلى خطوط متباينة : من جهة ، خطّ أنتج فى النهاية الشنبنزي الأفريقي المعاصر ، و من جهة أخرى ، خطّ انتج فى النهاية الإنسان المعاصر .

ثانيا ، **فقط** فى أفريقيا أحافير أنواع الهومينيد التى لها من العمر أكثر من 3 ملايين سنة قد وجدت أبدا (و هناك العديد منها) . لذلكهناك إجماع عام ضمن العلماء الحرفيّات على أنّ كامل سيرورة تطوّر الإنسان قد بدأت فى أفريقيا .

ثالثا ، يجعل دليل الحمضالننوي مطلق الوضوح أنّ النوع الوحيد الباقي على قيد الحياة من خطّ الإنسان (نوعنا المعاصر من الهومو سابينس) **نوع وحيد** عبر العالم ، و أنّ أقدم أحافير نوعنا المعروفة – المأرّخة ب 100 ألف سنة أو أكثر – قد وُجدت كذلك فى أفريقيا . و لا تظهر أحافير الهومو سابينس المعاصر تشريحيّا خارج أفريقيا قبل 50 ألف سنة ، الزمن الذى كان فيه نوعنا قد بدأ الهجرة خارج تلك القارة .

و أخيرا ، بينما نعلم أنّ نوعنا الهومو سابينس قد تشابك على الأقلّ مع نوع أونوعين إنسانيين آخرين فى أجزاء من آسيا و الشرق الأوسط و أوروبا إلى مدّة متأخّرة قبل حوالي 35 ألف سنة ، فإنّ أدلّة الأحافير تشير إلى أنّ هذه الأنواع الأخرى تشريحيّا و ثقافيّا أشبه بأنواع الهومو أركتوس لما قبل مليون إلى مليوني سنة (منهم يرجّح أنّهم إنحدروا) . أكثر من الهومو سابينس المعاصر .

سؤال لا يزال يطرح أحيانا هو هل أنّ نوعنا الإنساني المعاصر الفريد نهائيّا قد تطوّر بداية فى أفريقيا (و من ثمّة إنتشر إلى كافة أنحاء الكوكب)، أم هل يمكن أن يكون قد تطوّر فى جزءآخر من الكوكب ، مثلا كنسج لمجموعات هومو أركتوس أوروبيّة و آسيويّة – و ثمّ فقط لاحقا إنتشر إلى أفريقيا و إلى المناطق الأخرى من الكوكب .

و قد يفترض حتى أن الإنسان المعاصر يمكن أن يكون قد ظهر من نوع من الإلتقاء التطوّري و" مزيج" لإثنين أو ثلاثة من أنواع من أنواع الإنسان التى يرجّح انّها مترابطة عن قرب نحو مختلف أنحاء الكوكب قبل حوالي مليون سنة (مثل الهومو أرغستار / أركتوس فى أفريقيا و الهومو أركتوس فى آسيا و الهومو نيندرثالنسيس فى الشرق الأوسط و أوروبا إلخ) . و هذه المسمّاة " فرضيّة متعدّدة المناطق" التى لا تزال تقدّم أحيانا فى وسائل الإعلام ، تقترح أنّ هذه المجموعات كان بإمكانها فى آخر المطاف أن تعود إلى الإتصال مع بعضها البعض و تزاوج لتنتج الهومو سابينس المعاصر . لكن هكذا إفتراضات لا تقوم على قاعدة علمية راسخة . و بينما من الممكن تماما أن وُجدت بالفعل موجاة هجرة الهومينيد إلى خارج أفريقيا طوال حوالي المليون سنة الماضية (لعلّ ذلك إنطلق مبكّرا مع الهومو أبيليس) ، و بينما قد يكون وُجد قدر معيّن من الهجرة فى الإتجاهين (مع عودة بعض المجموعات المهاجرة الأولى لاحقا إلى أفريقيا) ، لا أدلّة تقترح أنّالنوع المعاصر للهومو سابينس تطوّر من أي من هذه المجموعات المهاجرة الأوائل أونتيجة أي نوع من التزاوج و" الإمتزاج " مع المجموعات التى إنحدرت منه . فكرة من هذا القبيل تمضى تماما ضد ما نفهمه عموما عن كيفيّة سير التطوّر . المجموعات البيولوجيّة التى تظلّ منعزلة فى عمليّة التوالد عن بعضها البعض لمئات آلاف السنين (مثلما هو الحال على ألرجح مع تلك المجموعات من الهو مو أركتوس التى هاجرت قبلا) لتراكم إختلافات جينيّة ذات دلالة فى ذلك القدر من الإمتداد الزمني و يرجّح أكثر أنّها لم تستطع أن تتزاوج و تتوالد ، حتى و إن عادت لاحقا إلى التواصل مع بعضها البعض ؛ و المجموعات البيولوجيّة التى صارت جغرافيّا وتوالديّا منعزلة عن بعضها البعض لفترة طويلة بما يكفى لتشكّل أنواعا جديدة لمتفعل ، فى نقطة زمنيّة لاحقة ، ثمّ شرع الكلّ فى التقاطع فى توجّه تطوّري وحيد ما أفرز من تجمّعهم تشكّل نوع جديد وحيد . ببساطة التطوّر لا يسير بتلك الطريقة . بالعكس ، ما هو المكان المشترك فى التطوّر البيولوجي هو أنّ نوعا جديدا يتطوّر فى مكان وحيد ، من مجموعة فرعيّة صغيرة ومنعزلة فى توالدها عن النوع الوالدلها ، و ثمّ تنتشر إلى مناطق جديدة . الدليل الذى يفارض بقوّة أنّ الهومو سابينس قد تطوّروا إنطلاقا من مجموعة صغيرة فى أفريقيا و فقط لاحقا إنتشروا إلى كافة أنحاء الكوكب تنسجم مع هذا النموذج المشترك لجذور النوع الجديد.

تقنيات البيولوجية الذرّية المعاصرة ، مطبّقة على تحليل الحمض النووي للمجموعات البشريّة المعاصرة، قد وفّرت المزيد من الأدلّة تدعم هذا الرأي الأخير . كلّ من تحليل ذرّة الحمض النووي الإنساني الواردة فى كافة الخلايا و الذى ساهم فيه كلا الأبوين) و تحليل الحمض النووي الميتوكندريال الإنساني (شكل من الحمض النووي الموجود فى خلايا العضلات المسمّاة ميتوكندري لكنّها تورّث من جيل إلى جيل فقط منخلال خطوط الأمّهات) إلى جانب بعض الدراسات لتوزّع نماذج التنوّع الجيني الإنساني حول الكوكب ، قد توصّلت **جميعها** إلى الإستنتاج ذاته لنوعنا الإنساني المعاصر ، الهوموسابينس ، جذور أفريقية واحدة .

و بالفعل ، دليل الحمض النووي الميتوكوندري يفترض بقوّة أن كلّ البشر على قيد الحياة حاليّا ، منحدرون من مجموعة صغيرة واحدة (و إن لم يكن فقط من إمرأة واحدة ، كما تشوّه الصحافة الأمر أحيانا) عاشت فى أفريقيا قبل حوالي 150 ألف سنة . و الحسابات المبنيّة على تحليل ذرّة الحمض النووي تتوصّل إلى الإستنتاجات ذاتها . جينومنا الإنساني العام يحتوى على معلومات الحمض النووي التى تعود حتى بعيدا فى الزمن ، و بعض تركيبات الحمض النووي الإنسانية الخاصة الموجودة لدى بعض أسلافنا الذين ماتوا الآن (ذات الطريقة الأساسيّة لإمكانيّة موت أسماء إنسانيّة عندما تكفّ بعض الخطوط عن إنتاج خلف / منحدرين منها) . لكنّ حسابات ذرّة الحمض النووي تشير ليس فقط إلى أنّ أنواعا مثل النيندرثال لم تساهم فى مسبح جينات الإنسان المعاصر (كاشفة ،مثلا ، أنّ النيندرثال قد إنفصلوا عن خطّ الهومينيد الذين سيولد منهم لاحقا الهوموسابينس قبل حوالي 600 ألف سنة) لكن كذلك أنّ كافة البشر الأحياء لا يزالون يحملون أقسام من الحمض النووي الميتوكندريكانت موجودة لدى فقط مجموعة صغيرة من الهومو سابينس التى عاشت فى منطقة جغرافيّة واحدة قبل 150 ألف سنة ، قبل بكثير من بداية هجرة الهومو سابينس خارج أفريقيا (وهو أمر موثّق فى سجلّ الأحافير) .

<u>7- ماذا يقول لنا علم التطوّر عن " الأعراق " الإنسانيّة ؟</u>

أهمّ شيء يُعلّمنا إيّاه التطوّر بشأن الأعراق هو أنّه ليس هناك مثل هذا الشيء كالأعراق الإنسانيّة المختلفة حقيقة بيولوجيّا **!** ما نعتقد عامة أنّه " أعراق " مصنّفة محدّدة تاريخيّا و إجتماعيّة و ثقافيّا ؛ لكن هذه الأصناف لا تتناسب عمليّا مع أيّة تقسيمات " طبيعيّة "للنوع الإنساني .

لنكون واضحين : المفهوم الإجتماعي عن " العرق " يمكن (و له) بعدُ أن يكون له معنى **إجتماعي** هام لحياة الناس – يمكن مثلا ، أن يكون شكلا هاما للهويّة الثقافيّة لكلّ من المجموعات الإجتماعيّة المضطهَدة و المضطهِدة (سواء فى إتجاه إجتماعي إيجابي ، كما فى شيء كحركة عزّة السود ، أو بإتجاه إجتماعي سلبي ، كما فى شيء مثل الكلوكلوكس كلان أو تفوّقيين بيض آخرين) . و فوق ذلك المفهوم الإجتماعي للعرق لا يزال مستخدما الإضطهاد الإقتصادي و الإجتماعي و الثقافي و السياسي و للميز العنصري ضد مجموعات كاملة من الناس . لذا ، بوضوح ، النضال ضد العنصريّة و الإضطهاد القومي بعيد عن أن يكون إنتهى ، و النضال من أجل تحقيق " المساواة بين الأعراق " و من أجل التحرير الأصلي للمضطهَدين شيء لا يزال يحتاج لأن **يُقاتل من أجله** قتالا ملموسا . مهما كانت كيفيّة نظركم إلى الأمر ، الحال لم يصل بعدُ إلى " ما عاد موضوع العرق موضوعا مهمّا .

لكن مرّة أخرى ، لهذا صلة بالواقع **الإجتماعي** للعرق . من وجهة نظر **بيولوجيّة** ، مفهوم الأعراق المختلفة ضمن البشر مفهوم أساسا **لا معنى له** .

يمكن أن يفاجئ هذا عديد القراء لأنّ الكلّ قد كان محدّدا إجتماعيّا ليفكّر فى أنّ الناس الذين ينتمون إلى ما يفترض أنّها " أعراق " مختلفة إعتمادا على معدّل إختلافات فى ملامح سطحيّة كلون البشرة أو نوع الشعر . يعلم بعدُ العديد من الناس أنّ لا " عرق " بأيّة طريقة هو بالفطرة متفوّق أو أدنى لأيّ " عرق " آخر ؛ و قد يعلم بعدُ العديد من الناس أيضا أنّ كافة البشر ينتمون إلى نوع واحد (نجتاز جميعنا " إختبار النوع الواحد " لأنّه لا مجموعة إنسانيّة قد توالدت أبدا بإنعزال تام عن بقيّة الإنسانيّة و المجموعات الإنسانية كافة يمكن أن تتزاوج و تزاوجت و أنجبت نسلا عبر الكوكب قاطبة) . لكن ، بالرغم من كلّ هذا ، لا يزال عديد الناس بعدُ مخطئين فى إعتقادهم أنّ ما يسمّى ب " الأعراق " تتناسب مع نوع من الأصناف البيولوجيّة الطبيعيّة و يعتقد بعض الناس حتى فى أنّ الأعراق الإنسانيّة المختلفة شيء كالسلالات المختلفة للكلاب **! ما من شيء قد يكون أبعد من هذا عن الحقيقة** . لا يهمّ مدى إختلاف الطرق الكثيرة التى تحاولون أنتقسموا بها الإنسانيّة و تصنّفوها وفق مثل هذه الإختلافات السطحيّة كلون البشرة أو نوع الشعر (و بغضّ النظر عن إذا ما كنت تحاول أن تقسم الإنسانيّة إلى 5 أو 500 " صنف من " الأعراق " المتباينة إعتمادا على عدد الملامح التى إخترتوا التركيز عليها) ، ستجد أنّه عندما **تنحدر إلى مقارنة المجموعات الإنسانيّة على المستوى الكامن للذرّة و الجينات ، تتداعى كلّ هذه الأصناف العرقيّة المجدّدة إجتماعيّا و إصطناعيّا ! و يعزى هذا لأنواع و إلى قدر التنوّع الجيني الذى توجد معا ضمن و بين المجموعات الإنسانيّة المحلّة و لم يتناسب أبدا عمليّا تماما مع أي من التصنيفات الإجتماعية المحدّدة عادة بأنّها " أعراق " الإنسانية الكبرى .**

لا يتعلّق الأمر بأنّه ليست هناك بعض النماذج من التنوّع الجيني بين البشر من سكّان المناطق – ببساطة الأمر هو أنّ النماذج الملاحظة للتنوّع الجيني تنحو نحو عبور جميع الخطوط المسمّاة ب " الأعراق " . مثلا ، التنوّع البيئي الموجود ضمن سكّان معيّنين فى قارة يمكن أن يكون أشبه بالذى يوجد ضمن سكّان نصف الطريق حول العالم منه بالذى يوجد ضمن السكّان المجاورين ؛ و من الواقع أنّه لا وجود لجينات فريدة (أو " أليل " فريد أو شكل بديل من الجينات) يمكن أن يستخدم للتمييز بوضوح بين " عرق " محدّدة إجتماعيّا و أخرى **!**

هناك ، طبعا ، بعض الإختلافات المتوسّطة المعروفة جيّدا فى صفوف سكّان مناطق جغرافيّة مختلفة من الكوكب ، بمعنى تواتر توزّع بعض الأليل الجينيّة مثل تلك التى توفّر مقاومة لبعض الأمراض (كواقع أليل الهيموغلوبين التى يمكن أن تتسبّب فى مرض الخلايا المنجليّة لكنّها تحمى ضد مرض المالاريا الأكثر شيوعيّا وسط أنسا أسلافهم الحديثين نسبيّا أتوا من أجزاء من أفريقيا و آسيا أين تشكّل المالاريا مشكلا منتشرا – بيد أنّ حتى هذا المظهر ليس دائما مرتبطا بوضوح بما يجعل الناس ينزعون إلى التفكير فى أنّه " عرق ") . و مع ذلك ، بالأساس ، لغالبيّة الإختلافات التى يمكن التعرّف عليها بين المجموعات الواسعة من البشر ونوع الشعر : لن يُنكر أحد ، فى المتوسّط ، انّه عادة من اليسير تماما الحديث عن الإختلاف بين الناس فى بنتو و اليابانيين و المنحدرين من السويديين ،مثلا . لكن مجدّدا ،هذا فى المتوسّطو **لا يوجد عمليّا أي شيء ك العضو " التنوذجي " لأي ممّا يسمّى ب " الأعراق " الإنسانيّة الكبرى فى أي مكان من الكوكب ، حتى فى ما يتّصل بالمظاهر السطحيّة كلون البشرة و الشعر أو نوع الجسد .**

و على سبيل المثال ، يشمل " الأفارقة " كلّ لون بشرة و نوع جسد ممكن التصوّر ، بما في ذلك ليس كلّ طيف ممكن التصوّر من البشرة الداكنة فقط و إنّما أيضا أفارقة من شمال أفريقيا و مصريين يشبهون القوقازيين أو أناس الخواز ذوى البشرة الصفراء فى الجنوب . و القارة الأفريقية موطن ، فى نفس الوقت ، **لأقصر** فى المتوسّط و **لأطول** ، فى المتوسّط ، السكّان البشر على الكوكب (البغماي و الماساي تباعا) .

و كذلك ، يشمل " الأوروبيّون " ليس عدّة أناس شقر ذوى بشرة شاحبة كمتوسّاط الأسكندينافيين ، فقط ، لكن كذلك ، أناس ذوو بشرة سوداء بجنوب أوروبا و شرقها ، الذين يبدون غالبا أكثر شبها ببعض متوسّط سكّان شمال أفريقيا و الشرق الأوسط منهم مع متوسّطا اليوديين . و " الآسياويّون " أيضا لا يتناسبون و قالب جاهز وحيد : إنّهم يشملون مروحة واسعة من الناس بمن فيهم الأتراك و الهنود و اليابانيين ، و جميعهم يشمل كلّ لون بشرة و نوع جسم يمكن تصوّره .

أمّا بالنسبة إلى " اللاتينيين " أو " الأمريكيين اللاتينيين " فهم يتضمّنون أناسا ينحدرون من سلف فى جنوب الشيلي يبدون أشبه بالكنديين ذوى البشرة الشاحبة منهم إلى جيرانهم الهنودالأمريكيين ذوى البشرة البنّية و الذين يقطنون المناطق الإستوائيّة لأمريكا اللاتينيّة ، و كذلك عديد السود من الساحل الشرقي للبرازيل أو أمريكا الوسطى .

ومن هنا حيثما ولّيتم بوجوهكم ، ستجدون تنوّعا واسعا من ألوان البشرة و أنواع الأجساد (بعضها يمكن تتبع خطّه إلى تأثيرات " مزج " الهجرات و الغزوات الأحدث ، لكن بعضها يبدو أنّه يعود فى الزمن بعيدا و مثل التواتر الأعلى فى اللون الداكن للبشرة فى المناطق الإستوائيّة و التواتر الأعلى للبشرة الشاحبة فى المناطق المعتدلة و الأركتيك ، يمكن أن تكون قد نشأت كتأقلم محلّى مع بعض الظروف البيئيّة المحلّية فى التاريخ الأولى للتوسّع الإنساني العالمي-أنظروا أدناه). لكن اليوم التنوّع العام كبير إلى درجة أنّه لا معنى حقّا للحديث عن " أفريقي " نموذجي أو " أوروبي " نموذجي أو " آسيوي " نموذجي أو " أمريكي لاتيني " نموذجي ، حتى بمعنى تلك المظاهر الأكثر سطحيّة كلون البشرة .

و أهمّ من ذلك حتّى ، إن نظرتم نظرة أعمق إلى الذرّة الكامنة و التنوّع الجيني الموجود فى الحمض النووي لكلّ واحدة من المجموعات السكّانيّة الإنسانيّة المحلّية ، ستجدون أنّ **هناك دائما أكثر تنوّع جيني عام بين الأفراد ضمن سكّان منطقة معيّنة منه ضمن أفراد من أيّة منطقتين جغرافيّتين ، او بين أيّة مجموعتين " عرقيّتين " محدّدتين إجتماعيّا ، فى أي مكان على الأرض .** و بالفعل هناك الآن إجماع واسع فى صفوف علماء الحفريّات وعلماء البيولوجيا الذرّية وعلماء جينات السكان بأنّ مفهوم " الأعراق " البيولوجيّة عند البشر هو فى الأساس لا معنى له ، بما أنّ الكثير تماما من **مجمل** كمّية التنوّع الجيني الموجود لدى كامل النوع الإنساني يمكن أنيوجد داخل أيّة **مجموعة** سكّانيّة إنسانيّة محلّية فى كلّ مكان من الكوكب . مثلا ، كما يشير غالبا إلى ذلك عالم جينات السكّان رتشارد ليونتان ، إن إنقرض جميع الناس بإستثناء قبيلة كيكويو شرقي أفرقيا فقط ، فإنّ هذه القبيلة ستكون كافية للحفاظ على الأقلّ على 85 بالمائة من **كامل** التنوّع الجيني للنوع الإنساني **ككلّ** .

عرق بيولوجي حقيقي (كذلك يسمّى عرق جغرافي أو نوع فرعي) يتحدّد بأنّه مجموعة أفراد متنوّعة جينيّا يتزاوجون فيما بينهم لكنّهم يحافظون بإستمرار على قسم نسبيّ (أو " تواتر نسبي ") لبعض الأشكال الجينيّة الخاصة (الأليل)التى هي مختلفة عن تلك التى توجد لدى مجموعات منفس النوع تعيش فى منطقة جغرافيّة مختلفة . المجموعات الإنسانيّة المحلّية المتباينة تختلف أحيانا فى التواتر النسبيّ لبعض الأليل الجيني (لتلك الجينات التى تأثّر فى أليل متعدّد) . وعلى سبيل المثال ، بعض المجموعات الإنسانيّة المحلّية فى المتوسّط لها تواتر عامة أعلى أو أدنى من أصناف الدم : الألف ، الباء، الألف و الباء ، و الأو ؛ للبعض تواتر أعلى من آخرين فى الهيموغلوبين خلايا منجليّة أليل التى تحمى من الملاريا؛ و للبعض تواتر أعلى من المعدّل فى أليل يسهّل هضم الحليب من غالبيّة المجموعات الإنسانيّة التى هي قليلة الإحتمال لللكتوز كالكهول . لكن هذه الأنواع من الإختلافات السكّانيّة المناطقيّة المناسباتيّة فى نسبة الأليل الخاصةلا تتناسب أبدا حقّا و بجلاء أو صراحة مع ما يسمّى بالأصناف " العرقية " الكبرى . و مثلا ، الأمريكيّون ذوو الجذور الأفريقية الذين كان أسلافهم التاريخيّون يعيشون فى المقام الأوّل غربي أفريقيا و فى أنحاء أفريقيا أين إنتشرت الملاريا ، فى المتوسّط لهمتواتر أعلى من الأليل فى الهيموغلوبين الخاص الذى يمكن أن يتسبّب فى مرض الخلايا المنجليّة (لكنّه أيضا يحمى من الملاريا) أكثر من الأمريكان القوقازيين الذين عاش أسلافهم الأوروبيّون أساسا فى مناطق لم توجد فيها المالاريا . لكن فى المتوسّط ، تواتر الأليل أدنى من تواتره عند المجوعات الأفريقيّة التى لا تزال عادة معرّضة بصفة متكرّرة للمالاريا . و حتّى أهمّ من ذلك ، إن نظرتم أيضا إلى مختلف المجموعات المناطقيّة فى أفريقيا ذاتها ، ستجدون أنّه ضمن مختلف المجموعات السكّانيّة للسود جنوبي الصحراء ، هناك سكّان من مناطق جبليّة عالية (حيث لا يستطيع الذباب الحامل للمالاريا العيش و بالتالى لا تشكّل المالاريا مشكلا) ينحون نحو إمتلاك تواتر أدنى بكثير من أليل الخلايا المنجليّة التى تحمى من المالاريا من كلّ من السود الأمريكيين ذوى الأصول الأفريقيّة أو السكّان الأفارقة السود فى المناطق

الإستوائيّة المنخفضة أين تشكّل المالاريا مشكلا كبيرا . و مع ذلك ، معظم الناس ينزعون لوضع **جميع** هؤلاء الناس بالذات ضمن **نفس** " العرق " .

مجدّدا ، من وجهة نظر بيولوجيّة ، لا وجود لشيء مثل " الأفريقي " النموذجي و " الأسود الأفريقي " النموذجي و " الأمريكي ذو الأصول الأفريقيّة " النموذجي أو " الأسود " النموذجي بالضبط كما لا يوجد " بيض " نموذجيّون و لا " آسيويّون "نموذجيّون و لا " أمريكيّون لاتينيّون " نموذجيّون . و الشيء نفسه يمكن أن يقال عن كلّ تصنيف عرقي آخر سعى الناس أبدا إلى تحديده إجتماعيّا .

و السبب فى أنّه لا وجود لأعراق إنسانيّة بسيط غاية البساطة . النوع الإنسانيالواحد والوحيد الراهن (الهومو سابينس) قد إنطلق وجوبا (على غرار جميع الأنواع الجديدة) فى البداية من مجموعة فرعيّة صغيرة تطوّرت من أنواع آباء سبقوه (على الأرجح الهومو أرغستار ، النسخة الأفريقيّة من الهومو أركتوس ، أو بعض الأنواع المشابهة جدّا) ؛ لكنّنا نعلم أيضا بفضل سجلّ الأحافير أنّ نوعنا الهومو سابينس الذى تطوّر تقريبا قبل 200 ألف سنة كان قادرا على الإنتشار إنتشارا كبيرا بداية من على الأقلّ 50 ألف سنة . لذا ، ضمن فترة زمنيّة قصيرة نسبيّا (بالمعنى التطوّري) لذا ، ضمن فترة زمنيّة قصيرة نسبيّا (بالمعنى التطوّري) إنتشرنا خارج أفريقيا و إلى أي مواطن و مناطق مناخيّة متصوّرة فى الشرق الأوسط و أوروبا و آسيا وأستراليا و حتى عابرين منشمال آسيا إلى القارة الأمريكيّة قبل حوالي 12 ألف سنة .

تفترض الأدلّة العلميّة أنّ نوعنا لم يشهد أيّة تغيّرات بيولوجيّة ذات دلالة حقيقة فى المائة ألف سنة الماضية . ما **قد** تغيّر كثيرا هو الثقافة الإنسانيّة ، قدرتنا على التطوّر ونقل و بإستمرار البناء على قاعدة المخازن المتزايدة من المعرفة و التجربة الإنسانيّتين اللتان نرثهما جيلا بعد جيل من خلال وسائط الثقافة اللاجينيّة ، **و بالتالي أصبحنا النوع الأوّل على الأرض القادر على تغيير نفسه و تغيير محيطه (بسرعة و دراميّا) فى المقام الأوّل من خلال الوسائل الثقافيّة اللاجينيّة ، متجاوزين آليّة التطوّر البيولوجي الأبطأ و الأكثر تقييدا (محدودية) .**

و ذو أهمّية شاملة أكثر من أي تغيير جيني فى صفوف الأفراد ، ثمّة واقع أنّ المظاهر البيولوجيّة عينها التى جعلتنا مختلفين فى المصاف الأوّل – مزيج من التنقّل على قدمين تماما (الذى حرّر أيدينا تحريرا أكثر تماسكا) إلى جانب أهمّية فترة تطوّر الدماغ ما بعد الولادة (التى جعلت من الممكن الحصول على قدر غير مسبوق من التعليم والتعلّم الإجتماعيين و ترافقت بالتنسيق و التواصل الإجتماعيين) – وفّرت لنا قدرة غير مسبوقة على التأقلم مع كلّ نوع متصوّر من البيئة الأرضيّة من خلال تأقلم و تغييرات ثقافيّة بدلا من عبر سيرورات تطوّر بيولوجي أكثر تقييدا و بطأ .

و فضلا عن ذلك ، فقط فى بداية تاريخ نوعنا (و فقط مؤقّتا) إستطاع السكّان المحلّيون البقاء نوعا ما بعيدين عن بعضهم البعض لأيّة فترة زمنيّة مديدة . و بعض الإختلافات الصغرى فى أشياء مثل متوسّط لون بشرة السكّان ذوى أسلاف من مناطق مختلفة يمكن أن يعكس درجة التأقلم البيولوجي مع الظروف المحلّية فى بداية ذلك التاريخ . مثلا ، عبر كامل الكوكب ، السكّان المعاصرون ذوو الأسلاف الذين عاشوا فى المناطق الإستوائيّة التى تتعرّض إلى قدر كبير من أشعّة الشمس فوق البنفسجيّة) ينزعون إلى أن تكون بشرتهم أدكن (أكثر صبغة الميلانين) من السكّان الذين عاش أسلافهم فى مناطق معتدلة أقرب إلى القطبين (و التى تتعرّض إلى قدر أقلّ من أشعّة الشمس فوق البنفسجيّة) . لقد إفتُرض أنّ ذلك يمكن أن يكوننتيجة تأقلم السكّان مع الظروف المحلّية لأنّ البشرة الأدكن تحمى منما تتسبّب فيه أشعّة الشمس فوق البنفسجيّة من تحطيم للحامض الفولك (وهو مادة مغذّية هامة فو سنوات التوالد ، بما أنّه يمنع عيوب الولادة كالسنسنة المشقوقة بينما البشرة الأفتح تجعل من الأيسر إنتاج الفيتامين " د " (وهو هام فى أيض الكلسيوم و التطوّر الصحّي للهيكل العظمي فى مناطق لها ضوء شمسي غير كافى) . و من هنا من الممكن (و إن لم يكن أكيد مطلقا) أن متوسّط إختلافات لون البشرة لدى المجموعات الإنسانيّة الجغرافيّة المحلّية ظهرت من بداية تاريخيا نظرا لميزات توالد ألوان بشرة ختلفة فى مناطق لها كمّيات عامة مختلفة من ضوء الشمس. (للمزيد عن هذا ، أنظروا مثلا مقال جابلونسكي و شابلين فى عدد أكتوبر 2002 من **" الأمريكي العلمي " / " سينتيفيك أمركن "** .)

لكن يظلّ الحال ، إلى درجة أكبر بكثير ، أنّ التنوّع الجيني القائم عند النوع الإنساني يمكنأويوجد فى التنوّع الذى يوجد فى صفوف أفراد أيّة مجموعة إنسانيّة خاصة . على المدى القصير نسبيّا من الزمن التطوّري منذ الظهور الأوّل للهومو سابينس (قبل حوالي 200 ألف سنة) لم تبقى أيّة مجموعة إنسانيّة أبدا منعزلة تماما فى توالدها (منقطعة) عن المجموعات الإنسانيّة الأخرى لأية فترة زمنيةّ طويلة (العدد الكبير من الأجيال المتوالدة) لتنشا إختلافات جينيّة هامة بما فيه الكفاية و تشرع فى التراكم بين السكّان و تحوّلهم إلى أعراق حقيقيّة مختلفة جغرافيّا .

بعض المجموعات تختلف فى التواترات الجينيّة النسبيّة التى تحدث بأشكال متنوّعة (مثل تلك التى ترمّز أصناف الدم) إلاّ أنّه ليس بوسعنا أن نستخلص " عرقا " من هذه لنماذج المتباية : و كما يشير إلى ذلك رتشارد ليونتان مجدّدا :

" كيكويو شرق أفريقيا يختلفون عن اليابانيين فى التواتر الجيني بيد أنّهم يختلفون كذلك عن جيرانهم الماساي ... التحديدات الإجتماعية و التاريخية التى تضع قبيلتي شرق أفريقيا ضمن نفس " العرق " لكنّها تضع اليابانيين فى " عرق " مغاير كانت عبثيّة بيولوجيّا " (ليونتان ، روز و كامين 1984 " ليس فى جيناتنا : البيولوجيا و الإيديولوجيا و طبيعة الإنسان ").

لهذا حتّى فى الطبّ (أين يمكن عمليّا عكس الإرث الأثني الفردي **الظاهر** لأجل عدم " تفويت " إختلافات تاريخيّة معيّنة فى قابليّة للأمراض كالخلايا المنجلية و ما إلى ذك) المظهر الذاتي لل" عرق " يظلّ دون أهمّية فى اللمحة عن حياة الفرد و يمكن بالفعل أنيكون مضلّلا للغاية . على كلّ حال ، العائلات الفردية والتاريخ الشخصي و تحليل العوامل الإجتماعية التى تؤثّر بنسب متفاوتة فى صحّة مجموعات معيّنةمحدّدة **إجتماعيّا** (مثل عديد تأثيرات الفقر على صحّة سكذان الغيتو ، أو تفشّى فوضى الأكل لدى مراهقين موسرين أفضل تنبّؤ بما يحتاجونه على الرجح من رعاية صحّية أكثر منه إلى تقييم ذاتي لصنف عرقي يبدو أن الفرد " يتناسب " معه .

من المهمّ تذكّر أنّه ،عبر تاريخ نوعنا ، هاجرت المجموعات الإنسانيّة بإستمرار إلى خارج مناطق مختلفة و بإستمرار متزاوجة و ضامنة تدفّق جيني لا ينقطع بين المجموعات وهذا يحصل فى النهاية عبر الكوكب برمّته . الهجرات على النطاق الضيّق و الأوسع قد ميّزت كامل تاريخنا كنوع ، وهي متواصلة إلى اليوم ، ضامنة كلّ من الوحدة البيولوجيّة وتواصل تبادل الثقافات و إثرائها ز

إنّ المساعي المقرفة و الجاهلة العاملة على الحفاظ على ما تفترض أنّه " نقاوة عرقيّة " ل"عرق " إزاء الأعراق الأخرى (كتلك التى روّج لها النازيّون ، الأمم الآريّة ، و الكلو كلوكس كلان وتفوّقيّون عنصريّون آخرون) هي ، ضمن أشياء أخرى ، **عبثيّة حقيقة** ، لا تملك أي نوع من القدم العلميّة تستند إليها **!** تاركين جانبا واقع أنّ البيولوجيا يمكن بوضوح أنتثبت أنّه ليس هناك شيء كشعب " متفوّق " بالفطرة أو " أدنى " من " الأعراق " التى يعرفها العديد منّا – واقع أنّ ما يعتقد فيه التفوّقيّون على انّه أسوء كوابيسهم (ما يسمّى " بالإختلاط العرقي ") قد وقع بعدُ تجاوزه فى الأساس **!** نحن الآن و كنّا على الدوام **نوع** عالمي واحد وحيد – متنوّع لكن بيولوجيّا لا يقبل القسمة .

[و القرّاء الذين يهمّهم تحصيل مزيد المعلومات عن لماذا لا ينطبق مفهوم العرق البيولوجي على البشر و المواضيع المتصلة به قد يرغبون فى تفحّص خاصة :**" ثياب الإمبراطور الجديدة : النظريّات البيولوجيّة عن العرق فى الألفيّة "** لجوزاف غرافس ، و كذلك أقسام مفيدة من " **تضليل فى قياس الإنسان "** لستيفان جاي غولد و " ليس فى جيناتنا " لليونتان و روز و كامين] .

==

8- ألا يزال الإنسان يتطوّر ؟

للإجابة على هذا السؤال من المهمّ أن نتذكّر الإختلاف بين آليّات التطوّر البيولوجي و آليّات التطوّر الثقافي .

نوع الإنسان ككلّ الإنواع الأخرى من النباتات و الحيوانات، يتشكّل من مجموعات من الإراد المتنوّعين. و جزء من هذا التنوّع جيني و بالتالي قابل للتوريث و عرضة ممكنةللأنتقاء الطبيعي . فمثلا ، إن كنت تحمل جينات التليّف الكيسي فى حمضك النووي ، ثمّة إمكانيّة أن تمرّره إلى أطفالك .

و مع ذلك ، قدر كبير من التنوّع الإنساني الفردي تنوّع ثقافي – إنّه نتاج للتعلّم الإنساني و التجربة الإجتماعية – و هذه الأشياء لا يمكن نقلها إلى الخلف من خلال التوالد البولوجي . هذا هو الحال مع أشياء كالشخصيّة و المكانة الإجتماعيّة مثلا : الناس الأغنياء يمكن أن " ينقلوا " الثروة و الإمتيازات لأطفالهم (مقدّمين لهم المال و التعليم و الإمتيازات الإجتماعية إلخ) إلاّ أنّه ليس لهذا صلة بأي من الجينات التى تمرّر عبر البويضات و المني . أو إن قال أناس إنّ طفلك " قد ورث " ضيق الخلق " من خاله أو حسّك الفكاهي ، من الممكن تماما أنّ طفلك **تعلّمّ** هذه الأشياء من خلال المثال و التقليد لكن ليس لهذا صلة بالإرث البيولوجي والجينات المورّثة .

الجينات تصنع البروتينات – البروتينات الهامة لسير عديد أجزاء أجسدنا – لكن أشياء كالشخصيّة و الذكاء و المكانة الإجتماعية إلخ تأتى نتيجة لعدّة تجارب إجتماعيّة معقّدة و للتفاعل بين الأفراد و العالم الخارجي ، و هكذا أشياء ليست ببساطة مشفّرة فى جيناتنا . مقارنة بكافة الأنواع الأخرى على الأرض ، و منها كافة القردة الأخرى و عديد أنواع

الهومينيد المختلفة التى مثّلت أحدث أسلافنا ن الشيء الذى جعلنا الأكثر إختلافا هو قدرتنا الأكبر على التعلّم و التعليم ، وعلى صنع أشياء لمتوجد أبدا قبلا ، و خلق طرق جديدة للتفاعل مع بعضنا البعض و مع البيئة ، و للتنظّم و التواصل ، و تغيير أنفسنا و الطبيعة و العالم الإجتماعي من حولنا – **كلّ هذا دون أن نعرف أيّة تغيّرات بيولوجية .**

أقرب أقربائنا كالشنبنزي بإمكانه أن يقوم بالكثير من الأشياء المشابهة إلى درجة معيّنة (لديهم أشكال معقّدة من التعاون و التواصل الإجتماعيين ، و إستخدام الأدوات أو السلوكات الإجتماعية) لكن لا شيء من هذا يقترب من ما يستطيع الإنسان القيام به . نوعنا الإنساني المعاصر هو أوّل نوع فى تاريخ التطوّر البيولوجي و " التطوّر " فى المقام الأوّل من خلال وسائل إجتماعيّة وثقافيّة لاجينيّة .

هذا ، فى جزء كبير منه ، ما يجعلنا إنسانا .

فى الواقع ، صار التطوّر الثقافي اللابيولوجي أكثر أهمّية من التطوّر البيولوجي فى التأثير على التغييرات لدى الناس و كيفية بقائهم على قيد الحياة ، و عدد النسل الذى يبقونه ، لها عموما صلة صغيرة أو لا صلة لها بأيّة مظاهر مميّزة أو معرقلة يمكن للتنوّع الجيني والآليّات الجينيّة أن يفرزاه . أن يقتلك مرض أو لا يقتلك ، فى غالبيّة الأحيان أمر متّصل صلة كبرى بما إذا تحصّلت على لقاح أو مضاد حيوي أو معالجة طبّية أخرى – أو ربّاما فقط ماء نظيف و غذاء طازج – منها بأي تنوّع جيني يكون لديك نسبة للأفراد الآخرين . و عدد المنحدرين منك الذين ستبقيهم على الأرجح ضمن الأجيال التالية متّصل أكثر بالعوامل الإجتماعيّة (الفقر أو الثراء النسبيّين و الحصول على الموارد ؛ و العادات و التقاليد و النظرات و الممارسات المتعلّقة بالتحكّم فى الولادات و مكانة المرأة ؛ و الهيكل الاقتصادي و التنظيم الإجتماعي و التشجيع على العائلات الكبيرة العدد أو الصغيرة العدد ؛ و تأثيرات الدين و عوامل إيديولوجيّة أخرى ، و ما إلى ذلك) ثمّ له صلة بملامح يمكن أن تورّثها عبر المادة الجينيّة و السيرورات الجينيّة .

فى حوالي المائة ألف سنة الماضية ، أجسادنا (بما فيها أدمغتنا) يبدو من العسير أنّها قد شهدت تغييرا و ب**ذات** الأجساد الأساسية بيولوجيّا مضينا من ثقافة الأدوات الحجرية إلى القدرة على معالجة عدّة أمراض و إكتشاف (من خلال إستعمال التكنولوجيا) لأنحاء بعيدة من الكون .

من جديد تحقّق كلّ هذا فى المقام الأوّل من خلال التطوّر الثقافي و ليس البيولوجي ، رغم أن بيولوجيتنا ذاتها هي التى جعلت هذا ممكنا فى المصاف الأوّل .

لذا ، هل توقّف التطوّر البيولوجي توقّفا تاما عند نوع الإنسان ؟ لا ، ليس تماما ، لكنّه توقّف تقريبا . المجموعات الإنسانيّة لا تزال متشكّلة من أفراد متباينين جينيّا (لسنا نسخ الواحد للآخر) و التواتر النسبي للأليل المعيّن (شكال الجينات) فى أي مكان معطى لا يزال قادرا على التأثّر من جيل إلى جيل بفعل التعديلات الجينيّة المتواصلة المتحقّقة من خلال التوالد الجنسيّ أوحتى بأشياء مثل التغيّرات الجينيّة المناسباتيّة ، أو الإنعطافات فى التواتر الجيني إعتبارا لعوامل عشوائيّة كوفاة الأفراد أو هجرات الأفراد إلى منطقة أو خارجها . (مع ذلك ، هذه الأصناف من العوامل العشوائيّة التى يمكن أن تكون لها آثار كبرى على التشكّل الجيني العام لخاصّة مجموعات **صغيرة ومنعزلة** لدى أنواع أخرى ،تنحو لأن تكون تبعات لا أهمّية لها فى فرز الجينات لدى الإنسان ، ببساطة لأنّ المجموعات الإنسانيّة لم تنعزل أبدا بشكل تام فى توالدها عنبعضها البعض و هناك بالفعل تدفّق جيني مستمرّ ضمنها).

و كما هو الحال لدى الأنواع الأخرى ، إن ورث أفراد من البشر بعض التنوّع الجيني فإنّ ذلك يوفّر لهم بعض المظاهر المؤدّية لنوع من الميزة التوالديّة (سامحا لهم بإنتاج المزيد من الأطفال الذين يمكن أن يتوالدوا هم ذاتهم بنجاح ، من أفراد ليست لهم هذه الملامح القابلة للتوريث) **و** إن تكرّرت هذه السيرورة طوال عدد من الأجيال المتتالية ، لا يزال ممكنا لبعض التغيّرات التطوّرية على النطاق الضيّق (فى علاقة بمقاومة مرض ، مثلا) أن تصبح ظاهرة فى صفوف مجموعات إنسانيّة محلّية .

لكنّ عمليّا هذا النوع من الأشياء نادر جدّا ، لأنّ معظم التغيّرات التى لا تزال تحدث من خلال التعديل الجيني عند الإنسان ، لا تأثّر تأثير له دلالته فى عدد المنحدرين الذين ينتهى الأفراد إلى المساهمة بهم فى الأجيال القادمة . وكما رأينا ، فى الأوقات المعاصرة ، عدد المنحدرين الذين يستطيع إنسان فرد أن يساهم بهم فى الأجيال التالية له صلة ضعيفة بأي نوع بيولوجي من " قدرة التوالد " و علاقة أكبر بكثير بالعلاقات افجتماعية و الثقافيّة و التقاليد و الفرص النسبيّة – أشياء مثل ما إذا كان للناس أو لم يكن لهم ما يكفيهم من الأكل ، و النظرات المتّصلة بكيف و متى ومع من يجب أو لا يجب التوالد ، وقدرتنا على منع و التعافي من العديد من الأمراض التى كانت سابقا تحول دون التوالد إلخ .

كلّ هذه الأنواع من الأشياء اليوم لها تأثير أكبر بكثير على توالد الإنسان من أيّة مظاهر جديدة يمكن أن تنتج عن التعديل الجيني العشوائي للحمض النووي . و بالفعل ، حتى العودة إلى ماضي بعيد من الوجود الإنساني ، قدرة الإنسان على تغيير نفسه و عالمنا من خلال الوسائل الثقافيّة، لزمن طويل الآن ، إلى هذا الحدّ فاقت آثار أي تطوّر بيولوجي بأنّه لا دليل على أنّ أجسادنا قد عرفت أية إعادة تنظيم بيولوجي له دلالته حقّا من خلال الإنتقاء متّجها فى أي إتجاه محدّد جيّدا فى ماضي المائة ألف سنة **!**

على نطاق ضيّق ، لا يزال من الممكن بعدُ أن نجد أدلّة حديثة وحاليّة عن تطوير مجموعات إنسانيّة أشياء مثل المقاومة المختلفة للأمراض . عديد للأمراض الإنسانيّة الراهنة (بما فيها العديد من السرطانات) ليس فى الأساس عرضة للإنتقاء الطبيعي البيولوجي لسبب بسيط هو أنّها إمّا لا تأثّر تأثيرا له دلالته على قدرة شخص على التوالد بطريقة أو أخرى ، أو لأنّها تنحو إلى إجابة الناس بالأساس فى سنواتهم الأخيرة ، بعد أن يكون الكثير منهم بعدُ قد أنجبوا أطفالا . و من الجهة الأخرى ، تستطيع مجموعات إنسانيّة كاملة أحيانا أن تدمّر بسرعة عندما خاصّة الأمراض المميتة تصيب عديد الناس مرّة واحدة ، خاصة إن كان هذا يشمل أعدادا كبيرة من الشباب فى سنوات توالدهم الأولى . فقط قبل بضعة مئات السنوات دمّر المستعمِرون الأوروبيّون مجموعات بأكملها فى شمال وجنوب أمريكا بإدخال مرض الجُدري (أحيانا عمدا **!**) فى صفوف السكّان الهنود الأمريكيين الذين لم يتعرّضوا قبلا أبدا لهذا المرض الأوروبي . زمنها كان سكّان أوروبا قد تعرّضوا للجدري لمئات السنوات ، و جيلا بعد جيل ، قد طوّروا على الأقلّ جزئيّا مناعة لهذا المرض . نظرا لهذا عموما حصلوا على الكثير من حالات الجدري المعتدل وغالبا ما تمكّنوا من البقاء على قيد الحياة . و بالعكس ، السكّان الهنود الأمريكيّون الذين لم يتعرّضوا قط قبلا للجدري و بالتالى لم يكن لديهم بعدُ الوقت لتطوير أيّة درجة من المناعة ، أصيبوا بالمرض بقوّة تامة عبر كافة الأعمار و تقريبا قضي عليهم (عامل ساهم مساهمة هامة فى هزيمتهم العسكريّة على أيدى الأوروبيين).

ليس من العسير أن نتصوّر اليوم أنّ أية فرصة تغيير يمكن أن توفّر مقاومة لشيء مثل فيروس نقص المناعة (الذى يقتل العديد من الناس ، قبل حتى أن يقدروا على إنجاب أطفال) يمكن أن يمدّ جذوره وينتشر عبر الأجيال فى أفريقيا و أنحاء أخرى من العالم يدمّرها بوجه خاص هذا المرض . مثل هذا التغيّر يبدو حاضرا بعدُ عند نسبة مئويّة صغيرة من القوقازيين الأوروبيين و يعتقد أنّه قد تركّز عبر الإنتقاء الطبيعي قبل بضعة مئات السنوات خلال وباء الطاعون الدبلي للقرون الوسطى ، حيث يمكن أنيكون فى الأصل حماهم ضد **ذلك** المرض . و مثل هذه الحالات مهمّة و تدع مفتوحة إمكانيّة أن تقدر بعدُ نوعنا على معرفة تطوّر بيولوجي على الأقلّ بأشكال محدودة ، لا سيما فى علاقة بأشياء كالأمراض المميتة التى تأثّر فى وتقتل عددا كبيرا من الشباب قبل أو أثناء سنوات التوالد الأوّلى ، و بالتالي عادة بالإجمال تمنع أو تحدّد بشدّة قدرتهم على إنجاب الأطفال فى مثل هذه الأوضاع يستطيع الإنتقاء الطبيعي على الأرجح أن يساعد على تركيز و إنتشار عبر الأجيال لأيّ تغيّر جيني جديد يمكن أن يمدّ حتى بنموّ جزئيّ فى مقاومة هذا المرض ، بما أنّالناس ذوى هكذا تغيير يرجّح أنّهم سيعيشوا أكثر بكثير طويلا بما يكفى لإنجاب أطفال ، بعضهم سيحملون هم أنفسهم التغير و بالتالى سيقدرون على تمريره إلى مزيد من الأجيال .

لكن حتى مع مثل هذه الأمراض المدمّرة ، من البديهي أن ما إستطاعت الإنسانيّة أن تنجزه من خلال التغيرات الإجتماعية و الثقافيّة أكبر بكثير – و أسرع بكثير – من أي شيء ربّما أنجزه الإنتقاء الطبيعي الضعيف نسبيّا فى هذا اليوم و العصر . و على سبيل المثال ، سبب لماذا مرض الأيدز اليوم فى مستويات طاعون لدى عديد الأمم الأفريقيّة و لماذا يموت ملايين الأفارقة بسرعة بسبب مرض الأيدز فى سنّ الشباب (بينما على الأقلّ بعض الناس يقدرون على " التعايش " مع فيروس نقص المنتعة لفترات أطول ضمن الأمم المصنّعة) له صلة وثقى بتأثيرات الفقر و العلاقات اللامتكافئة و إستغلال النظام الإمبريالي عبر العالم ، مع حجب غير معقول للأدوية و العلاجات العصريّة الضروريّة من قبل الشركات الصيدليّة العالمية التى يحكمها الربح ، و مع السياسات الإجراميّة للحكومة الأمريكية المتأثّرة بالأصوليين المسيحيين (التى ترفض تمويل تربية جنسيّة قائمة على غير الإمتناع و ممارسة الجنس و برامج التحكّم فى الولادات التى يمكن أن تساعد على توقّف إنتشار الأمراض المتنقّلة جنسيّا) أكثر من أي شيء لع صلة بالتطوّر البيولوجي . و الحلّ الجوهري لهذه المشاكل لا صلة له بالتطوّر البيولوجي أيضا **!**

تطوّر نوعنا الخاص من أنواع هومينيد سبقوه فى الوجود – لذا هل سنسج أبدا نوعا جديد تماما ؟

على الأرجح ، لا . و السبب متّصل ، قبل كلّ شيء ، بكلّ ما سبق قوله عن كيف أنّ الوسائل الثقافيّة و الإجتماعيّة لتغيير أنفسنا و عالمنا الخارجي **قد فاق إلى درجة كبيرة** أي شيء يمكن أن ينجز عبر التطوّر البيولوجي الطبيعي (رغم أنّ ما قد ينتهى إلى فعله بيولوجيّا نوعنا من خلال أشياء كالهندسة الجينية يظلّ مسألة مفتوحة).

و إضافة إلى ذلك ، من المهمّ تذكّر أنّ علامة نوع جديد تتطوّر عموما من مجموعة فرعيّة صغيرة **منعزلة فى توالدها** عن النوع الوالد . و دون هذه الفترة من الإنعزال المطلق فى التوالد ، متجاوزة عددا هاما من الأجيال المتوالدة ، من غير الممكن لتغيّرات جينيّة هامة أن تحدث و أن تميّز بما فيه الكفاية مجموعة جديدة عن مجموعة سلفها و تجعل من غير الممكن لها مرّة أخرى أن تتزاوج وتعود إلى الإختلاط فى نوع واحد. لكن مثل هذا الإنعزال فى التوالد ليس ببساطة سيقع مع البشر على هذا الكوكب – نحن عند هذه النقطة نوع واحد وحيد متحرّك **بدرجة عالية و منتشر عالميّا** . نقطن كلّ ركن من أركان الأرض و كلّ المواطن و **هناك تدفّق جيني مستمرّ** ضمن المجموعات الإنسانيّة . ببساطة من غير الممكن عند هذه النقطة لأيّة مجموعة إنسانيّة على هذا الكوكب أن تصبح منقطعة تماما تواليّا عن بقيّة الإنسانيّة طوال مدّة طويلة يتطلّبها **شروع** حتى مجموعة فى التمايز كنوع جديد (حتى إن كانت العوامل الثقافيّة المشار إليها سابقا لم تخرّب السيرورة على كلّ حال).

أعتقد أنّه إن إستعملت أبدا مجموعة إنسانيّة صغيرة جزء بعيد من الكون ، و تمكّنت من البقاء نوعا ما هناك منعزلة تماما عنالإنسانيّة على الأرض لعديد و عديد الأجيال (كيف يمكن ذلك ؟) ،عندئذ يمكن أن نتصوّر حدوث قدر معيّن من التمايز التطوّري البيولوجي و حتى حينها ، مع ذلك ، خصوصيّات الوراثة الجينيّة الفرديّ' لنتلعب على الأرجح لدرجة كبيرة دورا رئيسيّا فى تحديد تشكّل الأجيال التالية . أن يكون التمايز كافيا لمنع مستمرّ لتزاوج مستقبلي ناجح لمستعمري الفضاء مع سكّان الأرض أسلافهم (التحديد البيولوجي للنشوء التام للأنواع) يظلّ على الأرجح مرتهنا فى المقام الأوّل بالإختلافات الثقافيّة و الإجتماعيّة اللاجينية ، بما فيها كيف تتعاطى المجتمعات المستقبليّة مع مسائل كالهندسة الجينيّة و ما إذا كانوا أم لا حتى يتوالدون بعدُ بيولوجيّا بالطرق التى إعتدناها نحن .

آليّأت التطوّر البيولوجي قد أنتجت جميع الأنواع الحيّة على الأرض طوال حوالي 3.5 بليون سنة ، و مطلقا ما من شكّ هناك فى أنّ نوعنا الخاص قد أنتجته هذه السيرورة الطبيعيّة . و كبقيّة الأنواع الحيّة الأخرى ، نوعنا الخاص سينقرض فى يوم ما ، بشكل أو آخر ، لكن بين اليوم وحينها بلا شكّ سنغيّر عنوعي أنفسنا و العالم المحيط بنا بطرق بالكاد نستطيع الآن تصوّرها .

===

الباب الخامس :

إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

مقتطفات من كتاب :

" العلم و الثورة – حول أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة للشيوعية و قيادة بوب أفاكيان " لأرديا سكايبراك - 2015

(و الأكيد أنّ كامل محتويات الحوار الآتى ذكرها تستحقّ الدراسة العميقة :

مقاربة علمية للمجتمع و تغيير العالم

نظرة علميّة و فضول لا حدود له بشأن العالم

تقييم علمي : العالم اليوم فظيع بالنسبة لغالبيّة الإنسانيّة – و يمكن تغييره تغييرا راديكاليّا

التجربة والتطوّر الخاصين : التدريب الفكري و متعة السؤال العلمي

التوصّل إلى رؤية الرأسمالية – الإمبريالية كمشكل و الإنجذاب إلى الشيوعية

مزيد الوضوح بخصوص الحاجة إلى الثورة – القطيعة مع الأفكار الخاطئة الأوهام

عن حضور الحوار بين بوب افاكيان وكورنال واست

بوب أفاكيان ذو رؤية علمية ثاقبة حقيقة

الخلاصة الجديدة و اللبّ الصلب و المرونة

رجل دولة شيوعي وتشكيل قيادة شيوعية

دحض حيوي للقوالب الجاهزة والأفكار الخاطئة

إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

ما الجديد فى الخلاصة الجديدة ؟

الإختراقات النظريّة و التطبيق العملي للخلاصة الجديد

دستور الجمهورية الإشتراكية الجديدة – تطبيق ملموس لرؤية ثاقبة للخلاصة الجديدة

الخلاصة الجديدة : المضي صراحة صوب الحقيقة – و نبذ مفهوم " الحقيقة الطبقية "

بوب أفاكيان : مزيج نادر جدّا من – النظريّة العالية التطوّر و المشاعر و الصلات العميقة مع الذين يحتاجون بأكبر يأس إلى هذه الثورة

تهمة " عبادة الفرد " – جاهلة وسخيفة و فوق كلّ شيء تتجاوز المعقول

القيادة : هل تخنق المبادرة أم تطلق لها العنان ؟

لماذا من المهمّ جدّا التوغّ فى مؤلّفات بوب أفاكيان و ما يعنيه ذلك

رؤية آملة – على أساس علمي

التفاعل الجدّى مع الخلاصة الجديدة – و الفرق الذى يمكن أن تحدثه

هبّات كبرى فى العالم و الحاجة الكبيرة للمقاربة العلمية للخلاصة الجديدة

لنتفزعنا مفردات مثل دكتاتوريّة البروليتاريا ... نحن نعيش الآن فى ظلّ دكتاتورية البرجوازيّة

ماذا يعنى أن يوجد حزب منظّم على أساس الخلاصة الجديدة و ما الفرق الذى يمكن أن يحدثه ذلك ؟

بعض الشكر الذى يجب أن يقال بصوت عالى

لماذا يوجد قدر كبير من السخرية و الهجمات الخبيثة وكيف يمكن تغيير ذلك ؟

فهم مادي – أساس مادي للماذا تعتّم الضبابيّة رؤية بعض الناس لأفق ثورة فعلية

خدمة الذات أم خدمة قضيّة تحرير الإنسانية ؟

هناك حاجة لنقاش إجتماعي كبير : إصلاح أم ثورة ؟

مواقع مختلفة فى المجتمع ، نظرات مختلفة للثورة و للقيادة الثوريّة

أوهام الحرّية و المساواة و واقع الدكتاتوريّة – و تجاوز الإنقسامات الإضطهاديّة

مشكل جوهريّ فى عالم اليوم : النقص المفجع فى المناهج العلمية و المادية العلمية

إلى جانب من تقفون ؟

تقدّموا ، هناك مكان و دور لكم

القيادة الشيوعية ليست منقذا مبعوثا من السماء

منهج و مقاربة علميين صراحة

مكتشفة و مفكّرة ناقدة و مناصرة لبوب أفاكيان : فهم العالم و تغييره إلى الأفضل ، فى مصلحة الإنسانية .)

سؤال : ... لكن كنوع من التوسّع فى الموضوع ، كنت أتساءل إن كان بوسعك الحديث بطريقة أشمل عن كيف ترين مضمون أعمال بوب أفاكيان و منهجه و قيادته و أهمّيتهم . ما هي أهمّية هذا عالميّا ؟ و كيف يرتبط هذا بالنقاط التى تحدّثنا عنها بمعنى المقاربة العلميّة لفهم العالم و تغييره عبر الثورة .

جواب : حسنا ، أعتقد أنّنا نتحدّث عن المنظّر الثوري الأكثر تقدّما على قيد الحياة فى عالم اليوم ، الشخص الذى مضى بالأشياء إلى أبعد حدّ بمعنى تطوير علم الثورة الذى إنطلق مع ماركس فى القرن التاسع عشر و الذى تطوّر أكثر خلال فترات مختلفة على يد لينين و ماو تسى تونغ بوجه خاص . و مع مرور الزمن ، و فى كلّ مرحلة ، وُجدت بعض الأشياء الجديدة المهمّة وقع تعلّمها وتطبيقها . لقد وُجدت بعض التطويرات النظريّة و كذلك العمليّة . لكن **أعتقد حقّا أنّ أعمال بوب أفاكيان فى هذه الفترة تدشّن عمليّا مرحلة جديدة من الشيوعية .** ويعود هذا برايى إلى أسباب موضوعيّة وذاتيّة

معا . و دعونى أشرح ما أقصده بهذا . قبل كلّ شيء ، حدثت تطوّرات ماديّة جديدة هامّة فى العالم حتّى منذ زمن ماو ، والعمل النظري الذى أنجزه بوب أفاكيان قادر على تشخيص هذه التغيّرات **الموضوعية** و الإلمام بها و معالجتها . لا يتوقّف العالم عن الحركة و لسنا نحيا بالضبط فى نفس العالم الذى عاش فيه ماركس او الذى عاش فيه لينين أو حتّى الذى عاش فيه ماو ، لذا على علم الثورة أن يظلّ ديناميكيّا و يكون قادرا على التطوّر بإستمرار ، بما فى ذلك فى علاقة بهذه التغيّرات الجارية فى الوضع الموضوعي . لكن مردّ إعتقادى بأنّ عمل بوب افاكيان يدشّن مرحلة جديدة من الشيوعيّة ليس فقط بإلنظر إلى التغيّرات الموضوعيّة الجارية فى العالم فى الوضع الموضوعي بل بالنظر إلى الإختراقات الرائدة التى أنجزها بوب أفاكيان فى ما يمكن أن نسمّيه الجانب **الذاتي** من المعادلة – بكلمات أخرى ، كامل تطويره للخلاصة الجديدة للشيوعيّة و المنهج و المقاربة المختلفين راديكاليّا الذين يعتمدهما فى معالجة مشاكل تطوير الثورة ، فى كلّ من هذا البلد و عبر العالم ، هي التى أشعر أنّها تمثّل تقدّما هاما فى تطوير العلم ذاته و التى تقف فى تناقض حاد مع الأنواع المختلفة من المناهج و المقاربات المطبّقة الخاطئة و التى مثّلت آفة بالنسبة لأغلبيّة ما يسمّى بالحركة الشيوعيّة العالميّة لبعض الوقت الآن .

لقد حلّل عمل بوب أفاكيان النظري بعمق و غاص فى أعماق وأعاد صياغة تجربة الماضي على نحو يتقدّم عمليّا ببعض المكوّنات النظريّة الجديدة التى لم يسبق لها مثيل قبلا ، بما فيها فى علاقة بالسيرورة الملموسة لبناء حركات ثوريّة – تشخيص بعض المفاتيح و المناهج و المبادئ الأكثر إنسجاما و علميّة التى يجب تطبيقها لأجل القيام بهذا بطريقة صحيحة (ليس فقط هنا ، بل فى ضروب أخرى من البلدان كذلك)، الأشياء المفاتيح التى يجب أن نتذكّرها على طول الطريق نحو الثورة ، وصولا إلى إفتكاك السلطة ؛ و كذلك التقدّم ، مرّة أخرى ببعض الطرق الجديدة الهامة ، ببعض المناهج و المبادئ التى ينبغى تطبيقها فى مقاربة الإفتكاك الفعلي للسلطة ، و المضي قدما من هناك إلى بناء مجتمع إشتراكي جديد على نحو لن يشكّل فقط حقيقة مجتمعا يرغب معظم الناس فى العيش فيه ، و إنّما أيضا مجتمعا ستكون له فرص أفضل من المجتمعات الماضية المماثلة فى تجنّب الإنحراف والعودة إلى الخلف ، إلى الرأسماليّة عوض التقدّم صوب الشيوعيّة .

لكن هنا يكمن جزء من المعضلة ، هنا يكمن ما هو محبط بالنسبة إليّ : لا يستوعب معظم الناس أي شيء من هذا **!**لا يستوعبون أهمّية ، تماما على النطاق العالمي ، ما تفتحه الخلاصة الجديد للشيوعية بمعنى الإمكانيّات الجديدة للإنسانيّة . لا يستوعب الناس هذا إلاّ إذا شرعوا فعليّا فى الحفر فى هذه المسائل أكثر بجدّية و فعليّا شرعوا فى الخوض بأكثر علميّة فى ما يحدث فى العالم و ما نحتاجه عمليّا .

<u>سؤال:</u> أيّة مسائل ؟

<u>جواب :</u> مرّة أخرى ، أهمّية ما تقدّم به بوب أفاكيان فى علاقة بالتطوّرات فى العالم و فى علاقة ببعض الرؤى و المشاكل المنهجيّة الخاطئة جدّا السائدة اليوم فى صفوف غالبيّة ما يسمّون بالشيوعيّين . و مجدّدا ، وجدت ما أطلق عليها " الموجة الأولى " من الثورات الإشتراكيّة التى إمتدّت إلى أواسط سبعينات القرن الماضي ، عندما أعيد تركيز الرأسماليّة فى الصين و صار العالم من جديد خاليا من المجتمعات الإشتراكية الحقيقية . لقد عبّد ماركس الطريق حقّا للمرحلة الأولى فى القرن التاسع عشر بعمله النظري المادي التاريخي حول التناقضات الطبقيّة عبر التاريخ وحول مظاهر خاصّة من المجتمعات الرأسماليّة و الحاجة إلى و أساس أن تتجاوز الثورات ذلك بإتجاه الإشتراكية و الشيوعيّة ، فى النهاية على الصعيد العالمي . و وُجدت فى 1871 تجربة كمونة باريس التى كانت ذات دلالة كنوع أوّلي من المحاولة إفتكّت خلالها القوى البروليتاريّة السلطة فى باريس و أمسكت بها لفترة قصيرة ، لكن هذا لم يستطع فعلا أن يتعزّز لأيّة مدّة زمنيّة طويلة- لم يوجد بعدُ مفهوم و إستراتيجيا و نظرة حقيقيّين لما يُحتاج إليه للمضيّ بها إلى الأمام . بداهة ، إستطاعت الثورة الروسيّة لسنة 1917 ليس فقط أن تفتكّ السلطة بل أيضا أن تعزّز هذه السلطة ثمّ أن تمضي إلى تركيز الإشتراكية و بناء الإتّحاد السوفياتي كدولة إشتراكيّة لعدّة عقود ، قبل أن يقع الإنقلاب عليها و يعاد تركيز الرأسماليّة هناك فى خمسينات القرن العشرين . و تمكّنت الثورة الصينيّة ، بعد إفتكاك السلطة على نطاق البلاد كافة هناك فى 1949 ، و إلى أواسط سبعينات القرن الماضي ، من المضي بالسيرورة حتّى إلى أبعد من ذلك ، قبل الإنقلاب عليها هي الأخرى . لذا من الهام أن نتعلّم **كلّ** هذا ، من كلّ من الخطوات إلى الأمام و من النقائص .

و كان لينين الذى قاد الثورة التى أنشأت الإتحاد السوفياتي منظّرا هاما للغاية و طوّر ضمن عديد الإختراقات الأخرى الهامة فهما حقيقيّا لكيف أنّ الرأسماليّة قد تطوّرت إلى الإمبريالية ، إلى نظام على الصعيد العالمي . و كانت تلك تغيّرات

موضوعيّة هامة فى العالم زمنها ، و بعض تطويرات لينين للنظريّة قد شملت عمليّا تلك التغييرات و تحدّثت عنها ببعض الطرق الهامة التى لن أتوغّل فيها هنا . ثمّ ، زمن الثورة الصينيّة ، دفع ماو الأشياء حتّى أكثر إلى الأمام مجدّدا ، متقدّما بالكثير من الجديد فى فهم الأشياء ، على غرار كيف الإنطلاق على الطريق الثوري فى بلد من بلدان ما يسمّى بالعالم الثالث الذى تهيمن عليه الإمبريالية ، و ما الذى عناه الخوض الفعلي لحرب الشعب الطويلة الأمد فى ذلك النوع من البلدان لفترة من الزمن ، وصولا إلى إفتكاك السلطة عبر البلاد . و أنجزت بعض أعظم مساهمات ماو بعد إفتكاك السلطة ، طوال عدّة سنوات ، فى مسار تحليل التجارب الإيجابيّة و السلبيّة للإتحاد السوفياتي ، و فى علاقة بالتحدّيات التى واجهها وهو يعمل على تطوير مجتمع إشتراكي فى الصين . و تشمل الإختراقات النظريّة لماو خلال تلك السنوات تحليلا – هاما للغاية – لما هي البقايا الإجتماعية و الإيديولوجية ، مخلّفات ، المجتمع القديم التى لا تزال تمارس تأثيرا هاما فى المجتمع الإشتراكي الجديد ، و إقراره بالتالى بالحاجة إلى إيجاد السبل المناسبة ل " مواصلة الثورة " حتّى فى المجتمع الإشتراكي . فكان ذلك شيئا جديدا لم يقع فهمه أو توقّعه سابقا و قد مثّل تقدّما حيويّا فى تطوير علم الشيوعيّة – وهو درس مفتاح بالنسبة للشيوعيّين يتعلّمونه و يتعلّمونه جيّدا ، ليس فحسب فى الصين حينها بل فى كلّ مكان حول العالم ، و درس سيكون حيويّا تذكّره فى كافة المجتمعات الإشتراكيّة المستقبليّة . و كجزء من كلّ هذا ، طوّر ماو تطويرا حيويّا مفاهيما نظريّة هامة حول العلاقات الطبقيّة فى ظلّ الإشتراكيّة ، بما فى ذلك نشره شعبيّا لمقولة شهيرة بأنّه فى المجتمع الإشتراكي " لا تعرفون أين توجد البرجوازية – إنّها بالضبط داخل الحزب الشيوعي **!** " . هذا شيء قام ماو بتحليله عند نقطة معيّنة من تطوّر المجتمع الإشتراكي و أطلق الشعب لخوض الثورة الثقافيّة ، حتىّ فى ظلّ الإشتراكيّة ، لمزيد التقدّم بالأشياء . و كان هذا فى منتهى الأهمّية و بعمق ثمّن بوب أفاكيان هذه القفزات و الإختراقات الهامة التى أنجزها ماو و حلّلها و أدمجها فى الخلاصة الجديدة التى أخذت تتطوّر مذّاك . وبالرغم من جميع الخطوات و المساهمات النظريّة و العمليّة المتقدّمة لماو و الإنجازات المذهلة التى تحقّقت فى مسار تطوير الإشتراكيّة فى الصين فى غضون بضعة عقود فقط ، كان واقع الإنقلاب على الثورة هناك فى أواسط سبعينات القرن العشرين و إعادة تركيز الرأسماليّة هناك بالتأكيد دافعا قويّا للإعتراف بالحاجة إلى القيام بتحاليل علميّة صارمة لما جدّ هناك و لتطوير الإطار النظري العلمي للشيوعيّة حتّى أكثر ، لأجل القدرة على معالجة الأمور حتّى أفضل فى المرّة القادمة . و هذا بالذات ما قام به بوب أفاكيان و الخلاصة الجديدة للشيوعيّة التى تقدّم بها هي إلى حدّ كبير ثمرة العمل الذى أنجزه تلبية لهذه الحاجة .

و من ثمّة اليوم ، لا وجود لبلدان إشتراكيّة فى العالم . وهذا لا يعنى أنّه لا يوجد ثوريّون أو أناس يتحدّثون عن الشيوعيّة و الإشتراكيّة فى شتّى أنحاء العالم ، فى مختلف البلدان ، وحتىّ يخوضون حرب الشعب فى بعض الأماكن – أو أناس قد قاموا بذلك فى العقود الأحدث . لكن صراحة ، الوضع العالمي مشوّش . الحركة الشيوعيّة العالميّة تجد نفسها إلى حدّ كبير فى وضع مربك و ذلك بسبب بعض الخطوط الإشكاليّة جدّا جدّا و الإختلافات فى الخطّ صلب الحركة العالميّة – بعض الأخطاء الجوهريّة للغاية التى إرتكبت فى إتّجاه أو آخر و التى تحدّث عنها بوب أفاكيان . إنّه يساعد على معالجة ذلك . لكن لنكون واضحين ، لا يتمتّع بالتقدير من قبل معظم ما كان نوعا ما يشكّل المدرسة القديمة للحركة الشيوعية العالميّة . إنّه موضوع خلاف كبير فى هذه الأوساط . و يختلف معه الناس كثيرا لأنّ هناك إتّجاهات و نزعات خاطئة جدّا فى مختلف البلدان تبتعد عن الطريق الثوري وعن طريق الإشتراكيّة و الشيوعيّة الحقيقيّين . إنّه موضوع خلاف كبير فى هذه الأوساط. لكن بعض الأفراد و المنظّمات منكبّين على التمسّك بتلك الإتجاهات و النزعات ، على ما يبدو . و أقصد أنّ بعض الناس عمليّا يعتقدون أنّه ليس له حتّى حق الحديث عن هذه المواضيع لأنّه ليس من بلد من بلدان العالم الثالث ، وهو شخص أبيض البشرة من بلد إمبريالي . و هذه طريقة تفكير ضيّقة بائسة يرثى لها . إلاّ أنّها متجذّرة ليس فحسب فى القوميّة الضيّقة (على أنّ ذلك بالتأكيد عامل من العوامل)، لكن كذلك فى ضرب من الإزدراء بالعلم و بالنظريّة عموما ، المستشري فى كلّ مكان هذه الأيّام .

و فى الجانب الأكثر إيجابيّة ، أودّ أن أشير على القرّاء بالجدالات التى صيغت من قبل الثوريّين فى المكسيك ، منظّمة الشيوعيّين الثوريّين ، التى يمكن الحصول عليها بفضل موقع

revcom.us

و أشياء أخرى كتبها آخرون ، مجادلين **ضد** بعض هذه التيّارات الخاطئة داخل الحركة الشيوعيّة العالميّة اليوم و **مدافعين** عن الخلاصة الجديدة للشيوعيّة لبوب أفاكيان فى تعارض مع ذلك . و مرّة أخرى ، على الناس التوجّه إلى المجلّة النظريّة على الأنترنت **" تمايزات "** التى يمكن كذلك الحصول عليها عبر الموقع المذكور أعلاه . و تشير هذه الجدالات إلى واقع

أنّه من جهة توجد هذه النزعات الدغمائية ... و سأقول بإقتضاب فقط هذا : من جهة هناك صلب الحركة الشيوعية العالميّة هذه النزعات التى تمثّل النزعات **الدغمائيّة** والتى تحاجج أنّه عليكم فحسب أن تمضوا بصلابة فى " التمسّك بالأساسيّات " و التى تتصرّف كما لو أنّه ليس هناك فى الأساس أي شيء جديد تتعلّمونه (!) ، بالرغم من الأدلّة الواضحة بأنّ العالم لا يكفّ عن التغيّر بعديد الطرق الهامة يجب أخذها بعين الإعتبار ، و بالرغم من وجود حاجة كبيرة بداهة للتعمّق فى التجربة الماضية المراكمة لأجل تعلّم أفضل كيفيّة تجنّب التراجعات الحيويّة و الحصول على المزيد من الثورات الناجحة وبناء مجتمعات إشتراكيّة أكثر نجاحا . يبدو هذا نوعا ما بديهيّا ، أليس كذلك ؟ لكن هناك أكثر من بعض الأصناف الدغمائيّة الميكانيكيّة حول العالم تقارب الثورة و الشيوعيّة أكثر كدين منها كعلم و بالتالى لن تعالج حتّى حقيقة هذه الألوان من الأسئلة و تتفاعل معها . ثمّ هناك صنف آخر من النزعات يقول فى الأساس " حسنا ، وُجدت مشاكل فى صفوف الحركة الشيوعية العالميّة وأخطاء فى الماضي ، لذا علينا أن نجعل الأمور أكثر مرونة و فقط نحصل على شيء عام من مزيد المرونة و سيكون كلّ شيء على ما يرام " – إلاّ أنّهم أساسا يدورون فى حلقات مفرغة و ضرب من **إعادة إكتشاف الديمقراطيّة البرجوازيّة !** يمكن أن يسجّلوا أنفسهم و يوقّعوا ، يوقّعوا على خطّ منقّط لمجرّد محاولة الحصول على مزيد من بعض الحرّيات الديمقراطيّة البرجوازيّة بينما يبقون العالم كما هو جوهريّا**!** لهذه النزعة صلة صغيرة جدّا بالقطع الفعلي مع الإطار الرأسمالي بأيّة صفة جوهريّة – يبدو غالبا أنّها تسعى ببساطة إلى تشجيع التطوّر الإقتصادي لبلدان العالم الثالث **ضمن** ذلك الإطار الرأسمالي العالمي ، و ربّما فحسب مجرّد إستخراج المزيد من الحرّيات خاصة للطبقة الوسطى فى المدن . لكن لا شيء من هذا عمليّا يأخذ بصورة كافية بعين النظر النواة الحقيقيّة لتناقضات هذه البلدان ، و التغيّرات الموضوعيّة التى ما فتأت تحدث و ما تحتاجه الجماهير العريضة لهذه البلدان عمليّا من أجل القطيعة الحقيقيّة مع الإطار العام الإضطهادي و الإستغلالي التى تعيش فى ظلّه .

أنظروا ، أدرك أنّ فى هذا الحوار ليس بوسعنا حقّا التوغّل فى كلّ هذا فى جزئيّاته . فقط أردت أن أسجّل نقطة أنّ اليوم بخصوص الحركة الشيوعيّة العالميّة ، حسنا ، لا توجد حقّا حركة شيوعيّة عالميّة . هناك ثوريّون وشيوعيّون فى مختلف أنحاء العالم و منذ خسارة الإشتراكية فى الصين ، إلى درجة كبيرة جدّا ، وجدوا أنفسهم فى مأزق . فى الواقع ، بفضل بوب أفاكيان وُجد حتّى تحليل متّسق قُدّم زمن الإنقلاب فى الصين و إعادة تركيز الرأسماليّة هناك . لقد حلّل ما حدث فعلا هناك لإعادة وضع الأمور على الطريق الرأسمالي . و ساعد فى صياغة فهم أعمق لما هو السبيل الصحيح لفتح طريق الثورة و الإشتراكيّة فى العالم المعاصر . لكن ليس الأمر كما لو أنّ كلّ فرد قد قرّر الوقوف و التصفيق و الموافقة على ذلك – لقد وقع إمّا إنكاره أو الصراع حوله ، و لا يزال الأمر كذلك إلى اليوم . لذا صراحة ، إنّه لمشكل كبير فى العالم أن لا يوجد حتّى التفاعل الجدّي حول المضمون و الخوض فى التطويرات النظريّة لعلم الشيوعيّة الذى تمثّله الخلاصة الجديدة لبوب أفاكيان . وسيكون من الأفضل أن توجد المزيد من الوحدة على هذا الأساس وهذه القاعدة المتطوّرة .

<u>سؤال</u>: إذن جزء كبير ممّا تقولينه هو أنّ العمل الذى أنجزه بوب أفاكيان عمليّا رسم إطارا نظريّا جديدا لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعيّة و تقدّم عمليّا بعلم الثورة .

<u>جواب</u> : هذا بالضبط ما أقوله . و أفكّر فى مدى كون الحاجة فى كلّ من هذا البلد وعالميّا واضحة تماما نظرا لما حدث فعلا للعالم و لشعوب العالم ومدى التغيّر الثوري اللازم . لكن هناك الكثير من الإلتباس و الإضطراب . وهناك أناس ... أنظر وُجدت محاولات لتطوير الثورات فى العقود الأخيرة فى البيرو و النيبال حتّى نأخذ أبرز الأمثلة . و فى كلتا الحالتين وُجد بعض الناس الذين كرّسوا أنفسهم و قدّموا تضحيات جسام و قاتلوا لسنوات محاولين إنجاز ثورات فى تلك البلدان لكنّهم خرجوا تماما عن المسار . و المسألة هي أنّه **ما كان يجب أن ينتهي الأمر كذلك** ... و لست أقول أنّه كان يمكن أن توجد ضمانات أنّهم لن يخرجوا عن المسار فالثوريّون قد واجهوا بعض الظروف الشديدة الصعوبة فى البلدين كلاهما . وُجدت الكثير من المشاكل الباعثة على التحدّى كانت تحتاج المعالجة كي تتمكّن هذه الثورات من الحصول على فرصة النجاح . لكن المشكل هو أنّه وُجد الكثير من المقاومة غير الضروريّة للتعمّق فى البحث فى بعض الصراعات النظريّة الحيويّة التى يلزم الخوض فيها سعيا لتسليط الضوء عليها و تسليط الضوء على بعض المشاكل التى إعترضت الصراعات الثوريّة مع تغيّر الظروف فى العالم – ظروف مدن العالم الثالث و ظروف الريف فى العالم الثالث . مثلا ، كامل مسألة تطبيق اللبّ الصلب مع الكثير من المرونة إعتمادا على اللبّ الصلب ، على تلك الأوضاع الخاصة ، فى ذلك الصنف من البلدان ، كان سيكون مفيدا منتهى الإفادة فى البحث . لكن ذلك الصنف من المبدأ الشامل لم يُفهم فهما جيّدا و لا وقعت معالجته حتّى أو عكسه من قبل الثوريّين فى مختلف أنحاء العالم هذه الأيّام . و عوض ذلك ، كما قلت سابقا ، ما تجدونه هو إمّا نزعات نحو المضيّ بإتّجاه الدغمائيّة الجافة أو الركود والتحكّم بشكل سيّء ؛ و إمّا نزعات بإتّجاه رمي كلّ شيء

من النافذة بأن يكونوا جدّ مرنين بما فيها محاولة و شراء ذمّة الطبقة الوسطى لبعض تلك البلدان و مصالحها – أساسا الدفاع عن ما يبدو حزمة كاملة من الديمقراطيّة البرجوازيّة . و حتّى لو أطلقتم عليه إسم الإشتراكيّة أو الشيوعيّة ، ليس ذلك جوهره .

و لذلك ثمّة حاجة إلى تفاعل كامل عالمي مع بعض الأشياء . و أعتقد جازمة من منظور علمي أنّ ما قام به بوب أفاكيان ...هو فعلا تطوير ... ففى عدّة نقاط مفاتيح قد طوّر حقّا **بعض التفكير الجديد جدّا** : حول طريق الثورة وحول إفتكاك السلطة و حول طبيعة المجتمع الجديد الذى يجب بناؤه . فى **كلّ** هذه الأبعاد رسم بعض التفكير الجديد ، و شخّص بعض العلامات التحذيريّة و المشاكل التى ينبغى تجنّبها و قام خاصة بهذا بتسليط الضوء على الأخطاء الفلسفيّة و المنهجيّة النموذجيّة التى ينزع الناس إلى السقوط فيها ، و بإبراز تبعات أنّه إن لم تقاربوا الأشياء ب**المناهج** الصحيحة ، لا مجال لأن تقدروا على تحقيق بعض الخطوات المتقدّمة الإيجابيّة حقيقة . لقد بيّن هذا و قد جلب الكثير من الأدلّة الملموسة لهذا و شيّد على الكثير من الأمثلة التاريخيّة لكشف الأنماط و تبيان إلى أين يمكن لهذه الأخطاء فى المنهج أن تؤدّى .

فى كلّ مجال من المجالات العلميّة ، كلّما وُجد أناس يتقدّمون حقيقة بتفكير جديد و تحاليل و خلاصات ثاقبة النظر حقّا و ينقدون طرق التفكير القديمة و المناهج القديمة و الطرق القديمة فى مقاربة الأشياء ، لسوء الحظّ غالبا ما يكون الحال أنّ عملهم ، لفترة على الأقلّ ، لا يفهم و يجرى الإستهزاء به و يُشيطن أو ببساطة يجرى تجاهله . إنّ تاريخ العلم – كافة العلم – يزخر بأمثلة عن هذا القبيل . و من العار حقّا ... إنّه يمثّل خسارة للإنسانيّة . برايى ، كلّ لحظة تمضى و لا يتمّ فيها التفاعل الجدّي مع الخلاصة الجديدة للشيوعيّة لبوب أفاكيان هي لحظة خسرناها فى النضال فى سبيل تحرير الإنسانيّة من فظائع هذا العالم الرأسمالي – الإمبريالي .

ما الجديد فى هذه الخلاصة الجديدة ؟

سؤال: أعتقد أنّ ما قلته للتوّ هام حقّا ، نقطة حقيقة إستفزازيّة و قويّة . و أريد أن نواصل مع هذا الخيط . فى هذا الحوار إلى حدّ الآن ، قد تحدّثت عن الخلاصة الجديدة للشيوعيّة التى تقدّم بها بوب أفاكيان و لمزيد التوغّل فى الموضوع : ماذا يعنى أنّ هناك خلاصة جديدة للشيوعية ؟ أو طريقة أخرى للتعبير عن هذا ، ما الجديد فى هذه الخلاصة الجديدة ؟

جواب : حسنا ، هذه مسألة كبيرة بداهة لن أوفيها حقّها فى حوار محدود كهذا . و قبل كلّ شيء أودّ أن أقترح على القرّاء مرّة أخرى التوّجه إلى موقع الأنترنت

www.revcom.us

حيث إذا ولجتم بوّابة بوب أفاكيان لن تجدوا هناك فحسب بعض الأعمال المفاتيح الحديثة لبوب أفاكيان و إنّما أيضا جرد كامل لأهمّ أعماله . وهو يجعل هذه الأعمال متوفّرة على نطاق واسع و ييسّر هذه السيرورة . وعلى موقع الأنترنت ذاته ، هناك بعض الشروح لما هي الخلاصة الجديدة ، هناك شرح قصير كما هناك بعض الشروحات الأطول . و أعتقد أنّ بوب أفاكيان و الحزب يبذلان جهودا كبيرة الناس ، تجاه كلّ من يهمّه الأمر ، جاعلين تلك الأعمال متوفّرة على نطاق واسع و مشجّعين الناس على دراستها . هناك أعمال مختلفة و أرى أنّه من المهمّ أن يقرأها حقّا الناس . ثمّة العديد من الكتب و المقالات و البحوث . و ثمّة عديد الخطابات و عديد الأفلام لخطاباته و بإمكانكم التوصّل إلى فهم أفضل ممّا قد يمكن لى أن أقدّمه هنا .

لكن سأقول إنّ بعض ما هو جديد حول الخلاصة الجديدة للشيوعيّة هو أوّلا و قبل كلّ شيء أنّها أكثر علميّة بكثير من أيّ شيء أتى قبلها . و يمكنكم رؤية هذا و قد تحدّثنا عن بعض هذا قبلا ، فى طرق مقاربته للحفر حقّا فى الواقع المادي كما هو عمليّا ، كاشفا الأنماط ومستعملا المناهج العلميّة للبحث و الإكتشاف الأعمق أكثر فأكثر ، مع إرادة المضيّ إلى بعض الأماكن غير المريحة ، و مشجّعا حقّا على التفكير النقدي ، مع إرادة النظر فى بعض أخطاء الماضي من أجل التعلّم منها و المضيّ قدما على أساس أفضل . و من الأشياء التى أنجزتها الخلاصة الجديدة هو أنّها لم تقلّص نفسها إلى التمييز بين الإيجابيّات وما كان صحيحا فى التجربة الماضية للثورات الإشتراكيّة و السلبيّات و الأخطاء المقترفة . لقد قامت بذلك غير أنّها قامت بأكثر من ذلك بكثير . ليست مجرّد نوع تجميع هذه الأشياء . ليست مجرّد **تحليل** أعمق و أكثر علميّة من الماضي ، إنّها **خلاصة** جديدة ، خلاصة تعتمد على تحليل أعمق لكيفيّة المضيّ بشكل أفضل نحو القيام بالثورة و بناء

مجتمع إشتراكي جديد على أساس أفضل و بطرق أفضل من أي زمن مضى . إنّها عمليّا تفسح مجالا جديدا بمعنى التمييز و إعادة صياغة تجربة الموجة السابقة من الثورة الإشتراكيّة ، بالأساس من القرن التاسع عشر و تطويرات ماركس الأوّليّة وصولا إلى الإنقلاب على الثورة الصينيّة فى سبعينات القرن الماضي . و مجدّدا ، هذا ما نعنيه ب " الموجة الأولى " و قد وُجد الكثير من التحليل العميق لما كان صائبا فى كلّ هذه التجارب المختلفة ، ما يساعد و ما لا يساعد على التقدّم بالأشياء إلى الأمام بإتجاه الشيوعيّة ، ما هو عمليّا و موضوعيّا فى مصلحة الغالبيّة الغالبة للإنسانيّة . لقد عمّقت الخلاصة الجديدة فهمنا للأمميّة مع مفهوم أنّ العالم بأسره أوّلا وهو القاعدة الأساسية و المسرح التى تلعب عليه هذه التناقضات المختلفة . وقد عمّق تحليل طبيعة النظام الرأسمالي – الإمبريالي بما فى ذلك أنّه تطوّر أكثر إلى إمبراطوريّة و قد عزّز أكثر قبضته على كامل الكوكب .

و قد قامت الخلاصة الجديدة بتحليل أعمق و أصحّ لما تعنيه تلبية حاجيات المجتمع ، و تلبية حاجيات الإنسانيّة – ما تحدّثت عنه سابقا من تجاوز مجرّد التعاطي الحصري مع الحاجيات الإقتصاديّة الأكثر أساسيّة . بكلمات أخرى ، تستغلّ الرأسماليّة و الإمبرياليّة الشغّالين من أجل الربح إلخ و هناك صراع من أجل تلبية المتطلّبات الأساسيّة للحياة ؛ لكن مع الخلاصة الجديدة هناك فهم أكبر لكون العالم الذى نحتاجه لأجل تلبية حاجيات الإنسانيّة يجب أن يشمل أكثر بكثير من ذلك. إنّه يقتضى الحاجيات الإقتصاديّة الأساسيّة وكذلك تلبية الحاجيات الثقافيّة والحاجيات العلميّة والفنّية للشعب بشكل واسع و بكلّ تنوّعها. و بداهة يحتاج إلى فعل حتّى أكثر من ذلك . إنّه يحتاج أن يشمل بشكل واسع مساحات من الإنسانيّة بكلّ تنوّعاتها وتلويناتها. لذا وُجد قدر من التطوير بمعنى فهم أفضل لكلّ من طبيعة المشكل و طبيعة الحلول الضروريّة، إذا أردتم وضع الأمر على هذا النحو .

و من جديد ، من آثار الخلاصة الجديدة المميّزة هو أنّها ، مقارنة مع التطوير النظري السابق لعلم الشيوعيّة ، أكثر علميّة وتناسقا علميّا فى منهجها و مقاربتها لكلّ شيء . إنّها تضع الكثير من التشديد على التفكير النقدي و على المواجهة الجريئة للأخطاء و النقائص بينما لا تنكر أو تلقى بعيدا بنجاحات التجسيدات السابقة للثورة الإشتراكية و مكاسبها . و هذا غاية فى الأهمّية . إنّه يعيدنا إلى ما كنّا تحدّثنا عنه بمعنى الحقيقة و فهم ما هي الحقيقة . ما هو صحيح هو ما يتناسب مع الواقع المادي . هذه هي الحقيقة . ليست فكرة ، ليست مجرّد ما يمكن أن تفكّروا فيه أو ما يمكن أن أفكّر فيه . هل أنّ الشيء يتناسب مع كيفيّة وجود الأشياء عمليّا فى الواقع المادي أم لا تتناسب ؟ ما الذى تبيّنه الأدلّة ؟ غالبا ما يكون عليكم أن تريدوا الحفر و الإستكشاف بعمق أكبر ، لكشف الأدلّة و بلوغ الأنماط . عموما ليس بوسعكم مجرّد طرح سؤال مثل ذلك فى دقيقتين . يجب أن تنووا النظر فى الأنماط و الأدلّة الملموسة التى توجد فعليّا فى الواقع . و عليكم كذلك أن تبحثوا عن الأدلّة طوال فترة من الزمن : تحتاجون تفحّص الأمثلة المتكرّرة و ليس فقط مثالا واحدا . لا ينبغى مجرّد المضي إلى تجربة جزئيّة أو محدودة جدّا . لا ينبغى مجرّد قول حسنا هذا حصل ذلك اليوم لذا بداهة هذا حقيقة أو بداهة هذا شيء له دلالته . حسنا لا أعلم . هل هو جزء من النمط المتكرّر أم هو مجرّد شيء فى كلّ مرّة ؟ أقصد ما هي الدلالة الفعليّة ؟ عليكم التعمّق أكثر لبلوغ دروس الحياة الأكبر و الأنماط الأكبر من الواقع . و من الأشياء التى قام بها أفاكيان التشجيع على هذا النوع من المنهج. فى الأساس يقول للناس أنظروا لا يهمّ إلى أي حدّ ترغبون فى الثورة أو ترغبون فى الشيوعية ، ليس بوسعكم مجرّد محاولة ليّ عنق الأشياء لتتماشى و إنتظاراتكم أو تبدو على النحو الذى تريدونها أن تبدو عليه . عليكم عمليّا أن تبحثوا عن الحقيقة فى الأشياء معتمدين على الأدلّة الملموسة ، حتّى إن تبيّنت الحقيقة غير مريحة أو غير مناسبة أو حتّى إن إنتهى الأمر إلى كشف أخطائكم ونقائصكم الخاصة . لئن كنتم حقّا ترغبون فى المضيّ فى هذا الإتّجاه ، عليكم أن تتمكّنوا من مواجهة ذلك .

و من الأشياء التى تميّز حقيقة العالِم الجيّد – و أضمّ بوب أفاكيان إلى هذا الصنف – هو هذا الفهم الذى أشرت إليه قبلا ، بأنّكم تتعلّمون على الأقلّ ذات القدر الذى تتعلّمونه من التحليل للأخطاء و النقائص و ذلك الذى تتعلّمونه من النجاحات . ومجدّدا ، من الأشياء التى قام بها بوب أفاكيان هو الحفر عميقا فى تجربة الموجة الأولى من الثورة الإشتراكية لفهم إنحراف الناس ، حتّى أفضل الناس نوايا ، و إقترفوا أخطاءا و صاغوا مفاهيما خاطئة أو مناهجا و مقاربات خاطئة . و بالبحث العميق فى ما قد حصل فعلا – بما فى ذلك بعض أخطاء المنهج و المقاربة – يغدو من الممكن جدّا فهم ما كانت الأسباب الكامنة لإعادة تركيز الرأسماليّة ، لماذا وقعت الإطاحة بالإشتراكيّة و وقعت إعادة تركيز الرأسماليّة فى الإتّحاد السوفياتي و لاحقا فى الصين . يغدو الأمر أقلّ غموضا و إضطرابا . يقول الناس أحيانا ، حسنا ، إن كانت الإشتراكية بهذه العظمة ، لماذا وقعت الإطاحة بها ، لماذا لم يرد الناس الإحتفاظ بها ؟ الآن نعلم أنّه وجدت أخطاء و بوسعنا التعلّم من هذه الأخطاء . ولكن نفهم كذلك أفضل الآن أنّ أحد المشاكل الكبرى للثورة الإشتراكيّة هو أنّكم تقومون بتلك الثورة فى

بلدان معيّنة وفى وقت معيّن لكن فى نفس الوقت لا تزال بقيّة العالم تخضع للرأسماليّة و الإمبرياليّة ؛ لذا لفترة على الأقلّ، ينطلق أي بلد إشتراكي صاعد وهو محاط بعالم إمبريالي و هذا يولّد الكثير من الضغط و يجعل من العسير موضوعيّا حتّى أكثر تطوير المجتمع الإشتراكي الجديد . هذا مشكل من المشاكل التى على الناس الخوض فيها .

و فى الواقع إرتكبت أخطاء فى الماضي عندما جرت محاولة الدفاع عن المجتمعات الإشتراكيّة بينما كذلك جرت محاولة المساهمة فى توسيع الثورة العالميّة و حينما جرت محاولة تطوير الحياة الإشتراكيّة الداخليّة للمجتمع بينما كان يجب الصراع مع كلّ تلك القوى الرأسمالية – الإمبرياليّة الضاغطة ، صراعا عدائيّا ، من الخارج . و هذه مشاكل كبرى ومعقّدة ينبغى الخوض فيها . و أجل ، وُجدت أخطاء فى المنهج متعلّقة بكيفيّة التعاطى مع بعض هذا فى الماضي . وعلى سبيل المثال ، وُجدت أخطاء فى إنشاء تحالفات أحيانا غير معقولة مع أنظمة أجنبيّة قمعيّة فى محاولة مشوّهة للدفاع عن المجتمعات الإشتراكية الجديدة و الهشّة بربط علاقات عالميّة أو الحثّ على جعل تناقضات عالميّة تشتدّ بين الإمبرياليّين المتنافسين . و أحيانا أيضا وُجدت بعض الأخطاء فى المنهج إقترفت عند التعاطى مع بعض الناس من الطبقة الوسطى الذين يمكن أن يضعوا رجلا فى المجتمع الجديد و أخرى نوعا ما فى المجتمع القديم : أحيانا فسح مجال كبير لهذه القوى لتمارس تأثيراتها الهدّامة و أحيانا لم يفسح لها إلاّ مجال صغير جدّا للتنفّس و وقعت محاصرتها بشكل قاسي .

لا أشعر أنّى أستطيع التبسّط فى كلّ هذا بعمق كبير الآن لكن النقطة هي أنّ قيادة الثورات الشيوعيّة و تطوير المجتمعات الإشتراكيّة على أساس صحيح تحدّى هائل ، مليئ بالتعقيد و بالتناقضات الشائكة العديدة الكبيرة وهي بمعنى شامل يجب أن تعالج ب" مجرّد لمسة صحيحة " و إلاّ فإنّ الأشياء يمكن أن تمضي بسهولة خارج المسار فى إتّجاهات سيّئة جدّا. برأيى، لو طُبّقت الخلاصة الجديدة بصفة منهجيّة على مثل هذه المشاكل ، ستوفّر مناهج و وسائل تطوير السيرورة الثوريّة – فى كلّ من قبل إفتكاك السلطة و بعدها – بشكل أفضل بكثير من أي زمن مضى . إنّها حقّا قد إخترقت أرضيّة جديدة بمعنى سيرورة المضي نحو إفتكاك السلطة و بمعنى تطوير إستراتيجيا الثورة فى بلد مثل الولايات المتّحدة و كذلك أنواع أخرى من البلدان . ما هي بعض المبادئ المفاتيح لبلوغ ذلك ؟ ماذا عن مسألة كيفيّة المضيّ عمليّا نحو إفتكاك السلطة عندما تنضج ظروف ذلك ؟ وإفتكاك السلطة فى ثورة فعليّة يعنى المضي ضد القوّة المسلّحة للدولة . كيف يمكن لنا عمليّا القيام بذلك دون التعرّض للسحق ؟ كيف نقوم بذلك بينما نشرك ملايين الناس و فى بلد مثل الولايات المتّحدة ؟ كيف نقوم بذلك بإمكانيّة واقعيّة للظفر ؟ لا يمكنكم فقط تمنّى أن يتمّ ذلك على الوجه الصحيح (!)... هذا أحد أكبر العراقيل ... عندما تبلغون تلك المرحلة من النضال ، و تنهضون ضد قوى عاتية للغاية ذات تقاليد راسخة و الكثير من الأسلحة . كيف تطوّرون العمل ، نظريّا و بمعنى التوجّه و المقاربة الإستراتيجيّين حتّى تكون للناس إمكانيّة الظفر عمليّا عندما يبلغون تلك المرحلة و ليس فقط التعرّض لخسائر كبرى ، و الإنتهاء إلى مجتمع أفضل يولد و يتطوّر .

ثمّ ، هناك مسألة كيف تغذّى هذا المجتمع الجديد بحيث يتحرّك عمليّا نحو تجاوز " الكلّ الأربعة " بشكل ملموس للغاية و بكلمات أخرى ، يمضى صوب الشيوعيّة . و فى نفس الوقت ، القيام بذلك على نحو تحدّثنا عنه قبلا – اللبّ الصلب مع الكثير من المرونة إستنادا إلى اللبّ الصلب . إن كنتم مرنين أكثر من اللازم ، ستتمّ الإطاحة بكم . كلّ هذه القوى المختلفة أساسا من الحرس الرأسمالي القديم ، و كذلك بعض القوى الجديدة الصاعدة النازعة نحو الرأسماليّة فى صفوف المجتمع الإشتراكي ذاته ، ستظلّ تعثر على الكثير من القاعدة الماديّة لإعادة تركيز الأنماط الرأسماليّة للإنتاج و القيم الرأسماليّة ، إذا كنتم مرنين أكثر من اللازم و لا تمنعون ذلك من الحدوث . و من الجهة الأخرى ، إن حاولتم التحكّم فى كلّ شيء بشكل ضيّق ، سيشعر الناس بصفة واسعة كما لو أنّه ليس بوسعهم التنفّس وستعطّل الأشياء و تسحق . و ستخنق التجديدات و لن يرغب الناس فى القيام بالكثير من المبادرات . سيعمّ الخوف و لن يوجد ما يكفى من التفتّح الذهني و سيشعر الناس بأنّ الأمور قمعيّة حتّى حينما لا تكون كذلك و ببساطة لن يكون الناس متحمّسين جدّا للقتال من أجل هذا المجتمع الجديد . لذا عليكم إيجاد الخلاصة الصحيحة .

و أعتقد أنّ أفاكيان يدشّن أرضا جديدة راديكاليّا فى العلاقة بين المظهرين . هناك التشبيه الذى إستخدمته أعلاه حول قيادة حصان ، و نوعا الأخطاء الممكن إقترافهما : يمكن أن تدعوا لجام الحصان مرتخيا للغاية و سيهرب الحصان إلى حيث يشاء و على الأرجح ستسقطون من على ظهره على ذلك النحو ؛ أو يمكن أن تشدّ اللجام شدّا قويّا و عندئذ لن يستطيع الحصان حتّى الركض ، و لن يتطوّر أي شيء إيجابي ، إن إتبعتم هذا التشبيه .

لذا يجد هذا التقدّم و تجد هذه الإختراقات فى الخلاصة الجديدة جذورها فى مقاربة علميّة صارمة لمسائل الفلسفة والمنهج مطبّقة لتلبية الحاجيات المعقّدة للإنسانيّة على أفضل وجه ممكن . و مرّة أخرى ، فى علاقة بمسألة الحقيقة ، هل ستفكّرون

فى الشروع فى الكذب على أنفسكم و إقناع أنفسكم بشيء ليس حقيقي فقط لأنّه قد يكون أكثر رفاهيّة أو مناسبة ؟ هل ستحاولون تبنّى مناهج علميّة لبلوغ صورة أدقّ لكيف هو الواقع حقّا ؟ هل ستبحثون عن الأهداف الإستراتيجيّة و كيفيّة التصرّف على أفضل وجه حتّى الآن و فى أيّة لحظة معطاة ، على نحو يتقدّم بكم بإتجاه تلك الأهداف العامة ؟

دستور الجمهوريّة الإشتراكية الجديدة – تطبيق ذو نظرة ثاقبة و ملموس للخلاصة الجديدة

و هناك أيضا الخطوات النظريّة المتقدّمة الهامة جدّا فى الخلاصة الجديدة فى ما يتّصل بكيفيّة الشروع فى بناء مجتمع جديد، على أساس صحيح و بالمناهج و المقاربات الصحيحة . هنا أيضا هناك عدّة طرق يمكن أن تخرجوا بها عن المسار خروجا فظيعا مع كلّ هذا ، لذا غاية فى الأهمّية الخوض حتّى الآن فى ما سيمثّل تلك المقاربات الصحيحة و ما يمثّل تلك المقاربات غير الصحيحة . هناك العديد و العديد من الأشياء ستتحرّكون بسرعة لإعادة هيكلتها و بعض ما سيستغرق المزيد من الوقت. و بطبيعة الحال ، ينبغى أن يكون لديكم إقتصاد مخطّط له و ينبغى أن تدفعوا طرقا لإعادة هيكلة الإقتصاد حتّى لا يوجّه من أجل الربح الفردي (مثلما هو الحال فى ظلّ الرأسماليّة) و بدلا من ذلك يوجّه إلى تلبية الحاجيات الماديّة للناس بشكل واسع فى المجتمع . لكن لا يمكن مقاربة هذا مقاربة ضيّقة أو مبسّطة أو بأهداف تقليصيّة ضيّقة . فهناك عديد التناقضات المعقّدة المعنيّة فى تحديدا كيفيّة القيام بذلك ، مثلما إكتشف الجميع فى الماضي . من تشرك و أين تضع الأولويّات و ماذا سيكون الخيط الناظم للحياة فى المجتمع و ما إلى ذلك . تسمح لكم مناهج الخلاصة الجديدة ليس بالتعرّف فقط على المظاهر الجوهريّة لما هو خاطئ فى الإقتصادات الرأسماليّة و مقارنتها بالمظاهر الجوهريّة للإقتصاد الإشتراكي المخطّط الذى يجب العمل على مأسسته تماما – و تبيّن الخلاصة الجديدة أيضا كيف القيام بذلك على نحو يجذب قطاعات أوسع فأوسع من الشعب ليشاركوا عن إرادة و وعي و يساهموا فى إعادة الهيكلة الإجتماعيّة تلك العظيمة .

و فقط لنضرب مثالا ، هناك بعض التفكير الراديكالي حقّا فى **دستور الجمهورية الإشتراكية الجديدة فى شمال أمريكا** حول كيفيّة تشكيل المجتمع المدني عقب إفتكاك السلطة . كيف تعيدون هيكلة ليس المؤسسات الإقتصاديّة و التخطيط و ما إلى ذلك فحسب بل أيضا كيف تركّزون حكم القانون و تطبّقونه ؟ و شيء راديكالي ، نسبة للتجربة الماضية ، هو أنّ إختراقات الخلاصة الجديدة أبستيمولوجيّا و فلسفيّا قادت بوب أفاكيان إلى المحاججة بأنّ مجتمعا إشتراكيّا جديدا **لا يتعيّن أن تكون له إيديولوجيا رسميّة .** و انّه على الحزب الشيوعي أن يبحث عن أن يقود **أوّلا و قبل كلّ شيء سياسيّا و إيديولوجيّا** ، بكلمات أخرى أوّلا و قبل كلّ شيء التوجّه و الإرشاد و الصراعالسياسي و الإيديولوجي – أكثر بهذه الطريقة من محاولة " التحكّم عن كثب " فى كلّ مؤسّسة معيّنة من مؤسسات المجتمع ، كما يبدو أنّه كان الأمر فى المجتمعات الإشتراكية الماضية . و هذا هام جدّا و هو مثال جيّد عن كيفيّة سعي الخلاصة الجديدة إلى إدماج بعض التجربة الإشتراكية الإيجابيّة الماضية بينما كذلك تحلّل وتقطع مع بعض التصلّب الماضي فى مقاربة قيادة المجتمع الجديد. و ستظلّ بعض المؤسّسات الحيويّة مثل القوى المسلّحة ، تحت قيادة الحزب لكن فى نفس الوقت ستخضع للدستور و سيكون تجاوزا لهذا الدستور و المبادئ الأساسيّة التى يجسّدها أن تتحرّك القوى المسلّحة ضد حقوق الشعب التى يعرضها الدستور . ستوجد مؤسّسات مدنيّة و سيبقى دور الحزب نوعا ما منفصلا عن ذلك . و تقدّم الخلاصة الجديدة الكثير من هذا القبيل الملموس جدّا و تفكير جديد جدّا بخصوص كيفيّة مقاربة بناء المجتمع الجديد و النظر إلى الأمام إلى كيفيّة هيكلة الأشياء : حكم القانون ودور الإنتخابات و مقارنة الإنتخابات فى المجتمع الراهن و فى المجتمع المستقبلي و الحديث عن دور الإنتخابات ينبغى أن يجري ضمن السيرورة الشاملة للمجتمع الجديد – هذه هي مسائل ملموسة للغاية يتمّ تفحّصها بعمق و يعاد تفحّصها ، على أساس الخلاصة الجديدة. كيف نحمى حقوق الناس بينما نحافظ على سير المجتمع فى الإتجاه العام الذى يحتاج أن يمضي فيه لتلبية الحاجيات الإنسانيّة، للتقدّم صوب الشيوعيّة . كيف تتعاطون مع مسألة المساهمات العالميّة للثورة وكيف يرتبط ذلك بالوضع الداخلي .

إذن هناك العديد و العديد من المسائل المعقّدة التى يساعدكم هذا الإطار النظري الجديد على الخوض فيها ، كنقطة إنطلاق جيّدة ، لمحاولة التعاطى الملموس جدّا مع تحدّيات بناء مجتمع جديد بطريقة تجعل معظم الناس يرغبون فى العيش فيه **و** تبقيه سائرا بإتجاه الهدف الشيوعي . إذن هنا عليّ أن أثير نقطة أخرى بصدد **دستور الجمهوريّة الإشتراكية الجديدة** لأنّى لا أعرف مدى إدراك الناس لما يمثّله هذا عمليّا ، و مدى راديكاليّته **!** بكلمات أخرى ، إنّه نوع من تقديم مرشد للإنطلاق فى " اليوم الموالي " . و أحيانا أعتقد أنّه سيكون أمرا عظيما أن نبلغ إفتكاك السلطة و تكون لدينا عمليّا ثورة

إشتراكيّة و نشرع عمليّا فى بناء مجتمع جديد . ثمّ غالبا ما أفكّر فى اليوم الموالي لإفتكاك السلطة – ما الذى **سنفعله ؟** إنّ تسيير مجتمع بأسره لأمر معقّد للغاية ، أليس كذلك ؟ [ضحك] لكن هذا **الدستور** ، إذا ما نظر فيه الناس ، حتّى مجرّد النظر إلى العناوين الكبرى و المواضيع التى يغطّيها ، عمليّا يوفّر إطارا مفصّلا ملموسا ... إنّه تطبيق ملموس للخلاصة الجديدة على ما سيبدو عليه المجتمع الجديد . إنّه يوفّر حقّا معنى لمن أين يمكن الإنطلاق و ما الذى تنطلقون فى العمل لتغييره و لماذا . وأعتقد أنّ هذا **الدستور** للخلاصة الجديدة للشيوعية يمكن أن يكون شيئا ملهما جدّا الآن بالذات ، اليوم ، بما أنّه يوفّر للناس المزيد من معنى ما سيكون عليه المجتمع الجديد عمليّا . أعتقد أنّ معظم الناس سيجدون عمليّا مكانهم بشيء من إنفتاح الذهن الحقيقي ، فى هذا النوع من المجتمع . أعتقد أنّ أغلبية الناس ، إن نظروا فيه حقّا ، سيقولون " لا أعرف كلّ شيء هنا ، لكن أعتقد أنّى أستطيع أن أعيش فى هذا النوع من المجتمع . أعتقد أنّه سيعالج قسطا كبيرا من التجاوزات الفظيعة للمجتمع الراهن بسرعة ، و ستوجد مساحة كافية لبعض الإختلافات و للعمل على الأشياء التى لم يقع تصوّرها بعدُ و لتحريك الأشياء بإتّجاه سيفيد الغالبيّة العظمى من الناس " . و هكذا هذا الدستور للجمهورية الإشتراكية الجديدة وثيقة ملهمة جدّا وهي بصفة مباشرة ثمرة و تطبيق مباشر للخلاصة الجديدة للشيوعيّة لبوب أفاكيان .

<u>الخلاصة الجديدة : التوجّه بصراحة نحو الحقيقة – و نبذ مفهوم " الحقيقة الطبقيّة "</u>

<u>سؤال :</u> أجل ، أشاطرك الرأي نهائيّا بخصوص نقطة أهمّية هذا **الدستور** و أعتقد حقّا أنّ الناس يجب أن يتعمّقوا فيه . و كنت أفكّر أيضا و أنت تتحدّثين ، بالعودة للحظة إلى الحوار الأخير بين بوب أفاكيان و كورنال واست ، أنّ هناك عمليّا الكثير ممّا صاغه بوب أفاكيان هناك بشأن ما يعنيه تطبيق الخلاصة الجديدة للشيوعيّة ، على كلّ من سيرورة القيام بالثورة و كذلك نافذة على ما سيبدو عليه المجتمع المستقبلي القائم على الخلاصة الجديدة . هناك ما كنتم أشرتم إليه آنفا ، بخصوص الطريقة التى يشدّد فيها بوب أفاكيان بإستمرار على المضيّ إلى الحقيقة خلال ذلك ؛ و الأمميّة التى كانت موضوعا كبيرا فى الحوار ، و التى هي أيضا مكوّن مفتاح من الخلاصة الجديدة . ثمّ كنت أفكّر أكثر فى هذه النقطة المتّصلة باللبّ الصلب مع الكثير من المرونة – فى كلّ من سيرورة القيام بالثورة و أيضا مواصلة الثورة فى ظلّ الإشتراكية و الإنتقال إلى الشيوعيّة – توجّه إمتلاك ذلك اللبّ الصلب لعلم الشيوعيّة ، و قيادة كافة سيرورة القيام بالثورة و مواصلة الثورة لكن كما قلت سابقا ، إستنادا لذلك اللبّ الصلب و إطلاق و معانقة الكثير من المرونة و أناس و أفكار تمضي فى إتّجاهات مختلفة كثيرة ، آتية من آفاق متباينة . لقد شعرت بأنّك حقّا حصلت على معنى كيف أنّ الحوار مع كورنال واست كان تطبيقا للبّ الصلب مع الكثير من المرونة و كان نافذة على المجتمع المستقبلي حيث ستتوفّر هذه الأنواع من الحوارات ، سيتوفّر هذا النوع من تبادل الأفكار ، مع لبّ صلب من الشيوعيّة الثوريّة و لكن أيضا معانقة و إطلاق و إثراء الأفكار من قبل أناس يأتون من آفاق متباينة ، بما فى ذلك الأفق الذى يأتى منه كورنال واست .

<u>جواب :</u> أجل ، هذا هام لأن من معالم العمل العام لبوب أفاكيان ، الخلاصة الجديدة للشيوعية ، التى تقدّم بها ، هو كامل مسألة القطيعة مع بعض المفاهيم الخاطئة جدّا التى أصيب بها تاريخ الحركة الشيوعيّة فى الماضي و لا تزال إلى الآن مصابة به عالميّا . مفاهيم مثل المسمّاة " الحقيقة الطبقيّة " . إنّه لشيء سلبي ذو دلالة قطع معه بوب أفاكيان قطعا تاما و رماه تماما بعيدا . إنّها فكرة غير علميّة إلى أبعد الحدود أنّه لمجرّد أنّ البروليتاريّين هم الأكثر إضطهادا فى المجتمع فى ظلّ الإمبرياليّة ... إنّها فكرة أنّ غالبيّة الناس المضطهَدين فى المجتمع – الأقلّيات المضطهَدة أو البروليتاريين أو ما إلى ذلك – لديهم نوعا من البيع الخاص على الحقيقة . و أنّ هذا يجب أن يعني بشكل ما أنّهم آليّا سيفهمون بصورة أفضل إلى أين يجب أن تمضي الأمور و ما يجب القيام به . هذا أمر سخيف لكنّه باعث على الإضطراب الذى غالبا ما أصاب الحركات الثوريّة ، الحركات الشيوعية ، تاريخيّا . **صحيح** أنّ المضطهَدين ، الأكثر إضطهادا فى المجتمع ... وأنّ الطبقة البروليتاريّة، **كطبقة عالميّة عامة** ، الطبقة التى ليست فى تعارض مع إمتلاك وسائل الإنتاج فى ظلّ الإمبرياليّة ، هي بوضوح ذات **المصالح الموضوعيّة** (سواء أدرك ذلك الناس كأفراد أم لم يدركوه) هم الأكثر تناسبا مع توجّه الشيوعيّة . و هذا شيء هام ينبغى فهمه – أنّ الطبقة الإجتماعيّة عبر العالم التى " ليس لها ما تخسره سوى قيودها " موضوعيّا ستكون لبّ السيرورة الثوريّة . كلّ ما عليكم فعله هو التفكير فى الإختلافات فى بلد مثل الولايات المتّحدة بين بعض الناس من الطبقة الوسطى ... و حتى بعض التقدّميّين منهم ... الذين يمكن صراحة أن يرغبوا فى عالم أفضل ، بإعتداءات و فظائع و ظلم أقلّ لكنّهم فى نفس الوقت يرغبون نوعا ما فى إبقاء رِجل فى الوضع الراهن لأجل القدرة على مواصلة الإستفادة من بعض الفوائد و " الفتات " الذى لا يزال هذا النظام قادرا على توفيرها **لهم** ، فى حياتهم اليوميّة ... قارنوا ذلك بالناس فى قاع المجتمع ذاته الذين تعدّ الحياة اليوميّة بالنسبة إليهم فظائعا ، و الذين ، موضوعيّا ، لا يملكون حقّا شيئا جديرا بالحفاظ عليه فى الوضع الراهن القائم . لذا ، عفويّا هؤلاء الناس فى قاع المجتمع يمكن أن يكونوا أكثر إستعدادا

للتحرّك بإتّجاه ثوريّ راديكالي نحو مجتمع جديد . لكن هذا لا يعنى أنّ لديهم آليّا سلطة أفضل على الحقيقة أو أنّهم يفهمون الأشياء بشكل أفضل لمجرّد موقعهم فى المجتمع ! و من الأشياء التى عادة ما يشدّد عليها بوب أفاكيان هو أنّ علينا أن نكون منفتحين و نرغب فى التعلّم من كلّ جوانب و كلّ مجالات الحياة وكلّ أصناف الناس المختلفين و المنحدرين من مواقع طبقيّة مختلفة و لهم نظرات عديدة مختلفة للأشياء . و كانت هذه المقاربة واضحة فى نوع التفاعل الذى حدث أثناء الحوار و هي علامة من علامات هذا المنهج و هذه المقاربة الشاملين .

و دعونى أضرب مثالا آخر ، مثالا **سلبيّا** للغاية قد يكون القليل من الناس معتادين عليه ، مثال ليزنكو ... من الإتحاد السوفياتي السابق حينما كان بلدا إشتراكيّا . إنّه من الصفحات الباعثة على الأسى من تاريخ الحركة الشيوعيّة . لا يمكن أن أتصوّر أنّ هذا يحدث مع الخلاصة الجديدة للشيوعيّة لبوب أفاكيان . كما تعلمون إن كنتم معتادين على هذه القصّة ، فى الأساس أيّام ستالين فى الإتحاد السوفياتي ، واجهوا مشكلا كبيرا جدّا ... واجهوا بعض التحدّيات المعقّدة و كانوا يحاولون تلبية حاجيات كبيرة جدّا ... وُجدت حاجة أكيدة لإنتاج المزيد من الغذاء و للترفيع السريع فى الإنتاج الفلاحي لأجل تغذية الشعب إذ وُجدت مجاعات و ما إلى ذلك . و وُجد هذا الشخص ليزنكو ، هذا العالِم – حسنا كان عالِم فى مجال الفلاحة – و على ما يبدو كان مواليا كثيرا للإشتراكية و الشيوعية . و بالتالى يمكنكم قول أنّه كان " داخلها " بمعنى رغبته الشخصيّة فى تواصل المجتمع الإشتراكي و تقدّمه . لكن علميّا ... كان هذا الشخص عالِما فظيعا لأنّه كان لديه فهم خاطئ تماما للتطوّر البيولوجي ، و كان يتبنّى عمليّا بعض المعتقدات ما قبل الداروينيّة فى الإرث المفترض للخصوصيّات المكتسبة – وهي نظرة قد إستُبعدت لخطئها منذ فترة حينها لقولها إنّه إن إكتسبت نبتة أو إكتسب حيوان بعض الخصوصيّات فى مجرى حياته ، يمكن لهذه الخصوصيّات نوعا ما أن تمرّ إلى نسله . و صار هذا المفهوم الخاطئ حينها فاقدا لأيّة ثقة فيه لعقود ، إلاّ أنّ ليزنكو ظلّ متشبّثا بمثل هذه المفاهيم الخاطئة . لكن لأنّ ليزنكو كان سياسيّا مواليا للإشتراكيّة ، فإنّ وجهات نظره الخاطئة لقيت أذانا صاغية . و عمليّا كان هناك بعض العلماء زمنها فى الإتحاد السوفياتي كان فهمهم أفضل و معالجتهم أصحّ بناءا على وقائع و مبادئ علميّة . لكن العديد منهم كانوا أكثر برجوازية أو برجوازيّة صغيرة ، بمعنى أصولهم الطبقيّة أو الأنماط الحديثة للحياة . ولم يكن البعض منهم موالين كثيرا للنظام الراديكالي الجديد ، هذا النظام الراديكالي الجديد المسمّى إشتراكية. ربّما كانوا يحبّون أنماط الحياة القديمة أكثر ، على الأقلّ بالنسبة لهم هم ، أو ربّما كانت رؤيتهم للأشياء مختلطة فى ظلّ المجتمع الجديد . على كلّ حال ، كانوا ينزعون إلى أن يكونوا أكثر نقدا بشأن النظام الجديد و بشأن قيادة ذلك النظام . لكن كانوا يملكون **علما أفضل !** لذا قالوا لا ، هذه ليست طرق تنمية الإنتاج الفلاحي – ما يقوله ليزنكو خاطئ لأنّه ليس هكذا تسير البيولوجيا التطوّريّة عمليّا و لن تُنمّو الإنتاج الفلاحي بتطبيق مبادئ علميّة خاطئة ! حسنا ، هنا نصل إلى أحد هذه " الحقائق المزعجة " فى بداية تاريخ المشروع الإشتراكي : بالرغم من أنّ ليزنكو كان يحاجج من أجل هذا العلم الخاطئ تماما ، فإن قادة المجتمع الجديد إستمعوا إليه و سمحوا له بتطبيق بعض السياسات الخاطئة على طول الخطّ و الكارثيّة على الفلاحة ، فقط لأنّه كان شخصا يرغب فى تشجيع الإشتراكية و الشيوعية. عوض التعويل على المبادئ و المناهج العلميّة الصحيحة التى كانت حينها متركّزة جيّدا ، سقط ستالين و آخرون فى قيادة الحزب الشيوعي ، مثل ليزنكو نفسه ، فى ممارسة **الأداتيّة** ، محاولين " جعل الحقيقة تتماشى مع النتيجة المرغوب فيها " ، بدلا من الإنطلاق من الحقيقة الفعليّة ، من الواقع كما هو فعلا ، و العمل على لاتكافئه و تناقضه لأجل تغيير الأشياء فى الإتجاه المرغوب . رفضت القيادة ما كان علماء آخرون يحاججون من أجله ، على الأقلّ جزئيّا فقط لأنّ بعضهم لم يكونوا متحمّسين جدّا للإشتراكية. حسنا ، ربّما لم يكونوا متحمّسين جدّا للثورة لكنّهم كانوا على **صواب** بخصوص فهمهم العلمي . و كان على ستالين و القادة الآخرين أن يستمعوا **إليهم** . كان ليزنكو مناصرا للثورة لكنّه كان مخطئا تماما فى فهمه العلمي ، على نحو جدّ مدمّر و هدّام . و واقع أنّ القيادة أخفقت فى تقييم ذلك – لأنّها كانت تتمسّك بمنهج و مقاربة غير علميّين لتقييم الحقيقة الفعليّة لشيء (بصرف النظر عن من أين يأتى) – تسبّب فى تراجعات جدّية فى الفلاحة و بصفة أعمّ تراجع فى العلم فى الإتحاد السوفياتي بالمعنى العام . و إلى يومنا هذا قصّة ليزنكو ، بشأن خطإ مزعج فى المنهج من قبل الشيوعيّين وتبعاته السلبيّة جدّا فى العالم الحقيقي، تحوّل بعض الناس إلى معاداة الشيوعيّة برمّتها لأنّه بداهة لا أحد يرغب فى الحياة فى مجتمع حيث يحدث هذا النوع من الأشياء كقاعدة .

لكن أنظروا ، ستكون الخلاصة الأفضل : لنتعلّم من هذه الأخطاء . لنتعلّم من هذه الدروس بعمق و تعلّما جيّدا . كان قادة المجتمع الجديد فى الإتّحاد السوفياتي يحاولون تصوّر كيفيّة تغذية الناس فى زمن جوع و مجاعات . كانت تلك نيّتهم ، و لم يكن هذا مشكل من السهل حلّه ، حتّى بمناهج جيّدة . لكن تبنّيهم لفلسفة و منهج جدّ سيّئين فى هذه المسألة العلميّة جعل الأمور أسوأ . أبدا لن تذهب الخلاصة الجديدة للشيوعية لبوب أفاكيان إلى ذلك . أتفهمون مقصدى ؟ لا أعلم إن كنت أشرح

المسألة شرحا جيّدا حقيقة لكنّى أعتقد أنّ هذا مثال حاد لأنّ الخلاصة الجديدة تعترف بأنّه ليس لديك بيع خاص على الحقيقة لأنّك ولدت فقيرا أو لأنّك ولدت كجزء من الأقلّية المضطَهَدة أولأنّك ولدت فى بلد من بلدان العالم الثالث أو لأنّك ولدت أنثى مضطهَدَة أو لأنّك مناصر للإشتراكية و الشيوعية . لا شيء من هذا يعطيك بيع خاص على الحقيقة . الحقيقة هي الحقيقة . إنها ما يتناسب مع الواقع الموضوعي . و بإمكان **كلّ شخص** العمل على إكتشاف الحقيقة ، لا يهمّ أين ولدت أو الخلفيّة التى تأتى منها .

و حينئذ يمسى السؤال ، هل تمضى حقّا من أجل الحقيقة ؟ هل تعتمد على الحقيقة القائمة على الأدلّة الفعليّة المحدّدة علميّا عندما تطوّر مخطّطات و سياسات ؟ إن كان الأمركذلك ، يمكن و يجب أن نتعلّم منك ، لا يهمّ من تكون . لقد شدّد بوب أفاكيان على الدوام على هذا ، على أنّه يمكننا تعلّم الحقائق الهامة من كافة أنواع الناس . أحيانا حتّى من أناس فى خندق الأعداء ، وهم فارضو النظام و المدافعين عنه . حتّى هؤلاء أحيانا ينتجون رؤى ثاقبة أو معرفة جديدة منها نتعلّم . عليكم فقط التأكّد من الأدلّة ... و أن تعالجوا نقديّا الدليل و البرهان و الأنماط الفعلية للواقع . و إن كان شيئا صحيحا ، عندئذ ، هذا جيّد ، يمكن أن تستعملوه ، يمكن أن تستعملوه كجزء من السيرورة الثوريّة . من الأكيد أنّكم لا تريدون أن تؤسّس الأشياء على فهم خاطئ ، فقط لأنّكم تأملون أنّ ذلك سيوفّر لك نوعا من الطريق المختصر أو يتناسب مع أفكارك المسبّقة عن كيف يفترض أن تكون الأشياء .

[....]

تهمة " عبادة الفرد " – جاهلة و سخيفة و فوق كلّ شيء غير معقولة

و تسترسل أرديا سكايبراك قائلة : هناك الكثير ممّا لم يقع فهمه ، خاصة إن لم تكن لديك مقاربة علميّة منهجيّة تماما للواقع عامة ، حول **العلاقة بين القيادة و المقادين فى حزب ثوري و حركة ثوريّة** . أنا آسفة ، لكن أضطرّ دائما إلى الضحك – حتّى و أنا أعلم أنّ الأمر جدّي و لا يمكن الإستخفاف به – لكن كلّما سمعت شخصا يتّهم بوب أفاكيان و الحزب الشيوعي الثوري بنوع من " عبادة الفرد " أو شيء مشابه ، أضطرّ إلى الضحك لأن هذا شيء من أكثر الأشياء سخفا ! هناك " قيادة عليا إستراتيجيّة " يقدّمها بوب أفاكيان لمجمل سيرورة تطوير حركة ثوريّة اليوم ، لتطوير المناهج و المقاربة للتمكّن من الإقتراب أكثر من نقطة حيث تصبح ثورة فعليّة ممكنة ، للشروع فى العمل على المظاهر المميّزة للمجتمع الإشتراكي الجديد – كلّ الأشياء التى تحدّثنا عنها آنفا ، بشأن الإختراقات فى هذا الإطار الجديد للثورة ، الذى يقع بطريقة ملموسة جدّا تطبيقه . وفى حزب شيوعي ثوري ، هناك سيرورة **جماعيّة** ، و هذا فى حدّ ذاته سيرورة معقّدة تتطلّب من أناس آخرين أن ينهضوا بدور هام ، على مستويات مختلفة . هناك بعض الناس الذين يضطلعون بأدوار قياديّة هامة للغاية فى حدّ ذاتها . تجربتى مع الناس القياديّين فى الحزب الشيوعي الثوري هي أنّ هناك حزمة كاملة من الشخصيّات القويّة جدّا المختلفة جدّا الذين هم أبعد ما يكونوا عن الأتباع العبيد لعبادة فرد ! [ضحك] هذا ليس ما يحدث . هناك خطّ و هناك توجّه يقع التركيز عليه بطريقة مستمرّة بما فى ذلك عبر السيرورة الجماعيّة . و الواقع هو أنّه واضح تمام الوضوح أنّ بوب أفاكيان يتقدّم بأميال على كلّ شخص آخر ، فى كلّ من تطوير النظريّة و تطبيق العلم فى الممارسة العمليّة لأجل تطوير ملموس للحركة الثوريّة. لكن هناك أيضا بعض الأشخاصالآخرين الذين يلعبون أدوارا نقديّة و يساهمون بصورة دالة فى مجمل السيرورة و يقومون بمبادرات و هم جزء من سيرورة التحليل و التلخيص . هناك أخذ و ردّ بين القيادة و المقادين و فى جوّ صحّي يحدث هذا على عدّة مستويات ، وصولا إلى الناس الجدد القادمين إلى الحزب و إلى الناس خارج الحزب لكن الذين يمكن أن يقوموا مع ذلك ببعض المساهمات النقديّة وهو أمر يجب الإقرار به و التشجيع عليه و التقدّم به ، لا خنقه ، و الذى بدوره يمكن أن يغذّى سيرورة مزيد تطوير أساس التقدّم بالإستراتيجيا العامة للثورة .

لست أدرى إن كنت أشرح نفسي جيّدا هنا لكنّها مسألة مقاربة إستراتيجية كاملة مقابل مجرّد تكتيك ، للثورة . ليست المسألة معالجة على نحو موضة وجبة غذاء . ليست مسألة القيام بالقليل هنا و بالقليل هناك ، مقاومة هذا الظلم أو ذاك الظلم ، و ربّما تبنّى هذا و نقد بعض هذا أو بعض ذاك أو مهما كان . ينبغى أن يكون **الكلّ مجتمعا فى إتّجاه واحد** ، حتّى و إن كان متشكّلا من الكثير من الأجزاء المختلفة المتفاعلة المعقّدة . يجب أن تكون هناك مقاربة شاملة ... يجب أن توجد قيادة يمكن أن توفّر نظرة و توجّه واسعين ، قيادة و توجّه و إرشاد منهجيّين عامين لكلّ هذه الفترة التاريخيّة ، و التى يمكن كذلك أن توفّر قيادة لكيفيّة إنجاز كلّ المكوّنات المختلفة المعنيّة على أفضل وجه فى بناء حركة من أجل الثورة

بالطريقة الصحيحة . و أشعر بقوّة بأنّ الخلاصة الجديدة للشيوعية التى طوّرها بوب أفاكيان قادرة على القيام تحديدا بهذا - بكلا الجزئين من هذا.

لكن تطبيق الخلاصة الجديدة لمعالجة مشاكل الثورة اليوم لا يعنى أنّ الناس يجب أن يحاولوا أن يكرّسوا **بسلبيّة** الإرشاد و القيادة التى يأملون ببساطة أن يقدّما لهم على طبق من قبل القيادات العليا و ذات التجربة الأكبر . فى الواقع ، إنّه لمشكل كبير عندما يتبنّى الثوريّون المفترضون هذا النوع من الموقف السلبي **! من الجيّد جدّا أن نكون منضبطين ، لكن ليس من الجيّد أبدا أن نكون سلبيّين .** ليست السلبيّة بالتأكيد شيئا سيشجّع عليه أبدا بوب أفاكيان فى صفوف أنصار خلاصته الجديدة، كما يجب أن يكون واضحا تمام الوضوح لأيّ فرد كان يلقى نظرة على أعماله . فى الواقع ، كلّ من منهج و مقاربة الخلاصة الجديدة للشيوعية لبوب أفاكيان يشدّدان على أنّ الناس فى **كلّ مستويات** الحزب الشيوعي كما الناس فى كلّ المستويات ، المشاركين فى الحركة الواسعة من أجل الثورة ، ينبغى أن ينهضوا بأدوار نشيطة جدّا و يخرجوا إلى المجتمع ، مثل فرق العلماء ، متفاعلين بنشاط مع الواقع كما هو فعلا ، مبقين فى أذهانهم و منطلقين من الأهداف الإستراتيجية البعيدة المدى ، بينما يجدون شتّى الطرق المختلفة و المبدعة (المنسجمة مع الأهداف الإستراتيجيّة) للتقدّم الملموس بالحركة من أجل الثورة اليوم – مراكمين القوى و منظّمين الناس لقتال السلطة و العمل على تغيير تفكير قطاعات من الناس ، كلّ هذا بينما يجلبون للناس على نطاق واسع : لماذا هناك حاجة ماسة لثورة فعليّة لتخطّى الفظائع الناجمة عن النظام الراهن ؛ ولماذا هناك فعلا أساس مادي وإمكانيّات واقعيّة حقيقيّة للثورة فى بلد مثل الولايات المتحدة ؛ كيف يمكن بناء مجتمع أفضل بكثير على أساس إشتراكي مختلف تماما حينما يقع التخلّص من النظام الرأسمالي الراهن . الفكرة هي جلب المزيد و المزيد من الناس من جميع مجالات الحياة ليتفاعلوا جدّيا مع كلّ هذا . و عليه إيجاد ظروف و إحداث تغييرات جديدة فى الأرضيّة و تغيير الناس و إحداث تغييرات فى الظروف الموضوعيّة يمكن بدورها أن توفّر للناس بعض الأسس الجديدة لمزيد التقدّم بما فى ذلك نظريّا . لا شكّ لديّ فى أنّ مثل هذه السيرورة المعقّدة تتطلّب قيادة ، بما فى ذلك من المستويات الأعلى و الأكثر تجربة و تطوّرا ؛ إلاّ أنّها تتطلّب **أيضا** و يجب أن تتغذّى بإستمرار و تثرى بقدر كبير من الإبداع و المبادرة الواعية من جانب كلّ فرد ، فى كلّ مستوى من مستويات الحزب و الحركة الأوسع من أجل الثورة . و بوب أفاكيان نفسه يشدّد بإستمرار على أهمّية هذا ، أهمّية **مظهري** هذا. ينبغى أن تقع قيادة الأشياء و قيادتها قيادة جيّدة ؛ و على ذلك الأساس يجب إطلاق قدر كبير من الإبداع و المبادرة . و هذا زيادة على ذلك ، تعبير آخر عن مبدئه المفتاح ل " اللبّ الصلب مع الكثير من المرونة إستنادا للبّ الصلب ".

لذا هناك المراوحة المستمرّة الجارية بين مختلف الفرق أو المستويات المتداخلة بين القيادة و المقادين . ومجدّدا ، سيكون من السخيف تسمية هذا " عبادة للفرد " – إنّه عمليّا عكس عبادة الفرد تماما . طبعا ، سيكون الحال على الدوام فى الحياة أنّ بعض الأفراد يمكن أن **يفضّلوا** أن يكونوا سلبيّين – على الأرجح عرفنا جميعا أناسا من هذا القبيل . لكن فى إطار حزب أو حركة من أجل الثورة ، مثل هؤلاء الناس يجب حقّا الصراع معهم لكي لا يكونوا سلبيّين . لأنّكم لن تنجزوا أبدا ثورة تستحقّ الإنجاز طالما لم يشارك فيها كلّ فرد بطرق مختلفة لكن بروح صحيحة و بشكل موحّد و منضبط . قد روّج موقع الأنترنت المذكور أعلاه و لا يزال يروّج لنداء " التنظّم من أجل ثورة فعليّة ". وكما تعلمون ، يجب تنظيم الناس. لا يمكن فقط تقديم بعض الأفكار اللامعة هنا و هناك و الترقّب للقيام بالثورة [ضحك] . من أجل أن تكون القيادة منضبطة و منظّمة ومتراصة الصفوف ينبغى على القيادة فى الواقع أن تتّبع و تُحترم - لكن ليس بصفة سلبيّة ، ليس بشكل عبودي . يجب أن يفكّر الناس تفكيرا نقديّا ... إذا لم يجلس أحد بطريقة صحيحة معهم ، عليهم أن يطرحوا أسئلة ؛ إذا كانت لديهم وجهات نظر مختلفة للأشياء ، عليهم أن يثيروها ، يجب أن يعبّروا عن ما يفكّرون أنّه غير صحيح و لماذا و ما إلى ذلك . لكن ينبغى أن توجد مقاربة منضبطة لإنجاز العمل بإتّجاه ثوري ، بغاية التقدّم بالأشياء و توفير قاعدة أغنى لتلخيص الأمور و لتعميق القيادة و الإرشاد المقدّمين من المستوى الأعلى .

القيادة : هل تخنق المبادرة أم تطلق لها العنان ؟

سؤال: أعتقد أنّ جزءا من ما تشيرون إليه هو أيضا هذه المسألة . هناك مفهوم منتشر فى المجتمع عن أنّ القيادة تخنق المبادرة . لكن هل تخنق المبادرة أم هي عمليّا تطلق العنان للناس و للمبادرات ؟

جواب : لا أدنى ظلّ للشكّ لدي أنّ فى أيّ مجال ، بما فى ذلك فى العلوم الطبيعيّة، و لكن أيضا فى علم الشيوعيّة ، تبحث القيادة الجيّدة دائما على إطلاق العنان للمبادرات غيرأنّ هذا يجب أن يكون بشكل منضبط و منظّم . فكّروا فى الأمر . إن

كنتم تنجزون مشروعا فى علوم الطبيعة وكنتم تحاولون جعل الناس تخوض فى مشكل معيّن أو جملة معيّنة من المشاكل و تحاولون جعل الناس يعملون معا جماعيّا على المشروع ، لن ينجح الأمر نجاحا جيّدا إن كان كلّ فرد يشتغل بشكل عشوائي فى إتّجاه خاص قديم من إختياره الخاص و ينطلق فى تطبيق جملة مختلفة تماما من فرضيّات العمل و الأطر و القوالب النظريّة للمشكل منذ البداية ، فى نوع من الفوضويّة . بالتأكيد أنّ أفضل المشاريع الجماعيّة للعلوم الطبيعيّة التى شاركت فيها أبدا كانت **تخضع لقيادة** ، و قد أطلقت الإبداع و المبادرة الفرديّة على ذلك **الأساس** . لقد أطلقت نهائيّا المبادرة و الإبداع الفرديّين و كافة أصناف المساهمات الفرديّة ، لكن **على أساس** قيادة علميّة جيّدة و من البداية و كذلك بإستمرار . لقد تعلّمت الكثير من ذلك النوع من التفاعل بين القيادة و المقادين عندما تفهم و تطبّق بشكل صحيح .

عموما ليس قادة الفرق العلميّة فى العلوم الطبيعيّة خجولين لتقديمهم القيادة ! [ضحك] مثل هذه القيادة عادة ما توفّر فى شكل أشياء ك : تشخيص المشاكل المفاتيح للمعالجة و المشاكل التى يجب التركيز عليها فى أي زمن معطى ؛ تحديد المبادئ و المناهج الجوهريّة المرشدة إعتمادا على مراكمة معارف سابقة و التجربة الأكثر تقدّما فى مجال معيّن أو مجال فرعي لعلوم الطبيعة ؛ صياغة مجموعة من الفرضيّات و الأطر النظريّة الأساسيّة للخروج بها إلى العالم ، و بها يتمّ البحث و التدليل عليها و السعي إلى تغيير الواقع . بإختصار ، بشكل أو آخر ، **المشاريع العلميّة الجيّدة تقع قيادتها** . و أعتقد أن أغلب علماء الطبيعة يفهمون ذلك على مستوى معيّن ، بصرف النظر عن عدد الناس الذين يمكن أن يشاركوا فى المشروع أو كمّية المال أو موارد أخرى يمكن أن تكون تحت تصرّفكم ، لن تذهبوا إلى أي مكان أو تحقّقوا ايّ نموّ حقيقي فى التقدّم بالفهم العلمي أو فى معالجة المسائل العلميّة المعقّدة أو المشاكل إن إنطلقتم فى العمل على الأشياء بطريقة فوضويّة ، فى غياب أساس علمي راسخ و هيكلة منظّمة تنطلقون **منها** ، بما فى ذلك تمكينكم على أفضل وجه من مواجهة و إكتشاف الأشياء أو المفاهيم الجديدة كلّيا التى كانت غير معروفة تماما قبلا أو ليست بعد مفهومة . دون هذه القاعدة فى أساس و هيكلة منظّمين ، بأفضل أرضيّة أساسيّة ممكنة قائمة على أكثر النظريّات تطوّرا المتوفّرة زمنها ، لن تقدروا على وضع حتّى الأسئلة الصحيحة أو أن تحلّلوا بطريقة صحيحة و منهجيّة ما تواجهونه مع المضي فى المشروع . و بالتالى بالتأكيد لن يكون لديكم أساس جيّد لكلّ من مزيد المساهمة فى مراكمة الفهم العلمي الجديد أو تحويل الواقع المادي فى إتجاهات معيّنة مرغوب فيها (بمعالجة الأمراض ، تصوّر كيفيّة حماية النظام البيئي أو أي شيء آخر) إذا كان هذا أيضا هدفكم . أليس كذلك ؟ حسنا ، كلّ هذا نهائيّا هو حال العلوم الطبيعيّة بيد أنّ ذات المبادئ تنطبق أيضا إن كنتم تحاولون تطبيق العلم على فهم المجتمع و تغييره ، بما فى ذلك تطبيق المناهج العلميّة على السيرورة المعقّدة للقيام بالثورة الإجتماعيّة . و كذلك ، تحتاج هذه السيرورة لأن **تُقاد** ، و بإمكان الإبداع و المبادرة الفرديّين أن يكونا على أفضل وجه **على أساس**القيادة العلميّةالسليمة . و هذا المسار و التفاعل الإيجابي جدّا بين القيادة و المقادين هام بالخصوص عدم نسيانه و المساهمة بنشاط فيه إن كنتم عمليّا تسعون إلى **تغيير** الأشياء فى العالم ، من اجل مصلحة الكثير من الناس و لستم تسعون فقط إلى إشباع رغباتكم أو مجرّد مصالحكم و ميولاتكم الخاصة .

ومن جديد على القيادة الجيّدة أن تسعى بإستمرار وعن وعي إلى أن تطلق العنان للمبادرة و لا تستطيعون القيام بثورة إجتماعيّة دون إطلاق قدر هائل من المساهمة الواعية و المبادرة الواعية لجزء متنامى و أعداد متنوّعة و متنامية من الناس من مختلف الأصناف . إلاّ أنّ المشكل هو أنّ الطريق ذا مسارين ! عليكم أن تتولّوا بعض المسؤوليّة عن هذه السيرورة بأنفسكم . و كما تعلمون ، حينما تنظرون فى أعمال بوب أفاكيان ، ترون أنّه يدعو بإستمرار الناس – يدعوهم و يصارعهم – ليلتحقوا بالسيرورة ، ليتفاعلوا مع الأشياء و إلى عدم البقاء سلبيّين . لكن بعض الناس يقاومون ذلك ، حتّى بعض الناس الحسنى النيّة يقاومون ذلك أحيانا . إذا قال أحد " لا أريد أن يتصدّع رأسى و أنا أحاول الخوض فى مسائل معقّدة ، فقط قولوا لى ما تريدوننى أن أفعله و سأفعله " – هذا شيء سيّء . يجب أن تصارعوا معه . لا يمكن القيام بالثورة على هذا النحو ! يجب أن تقولوا " لا ، هذا ليس صائبا !" عليك أن تقوم ببعض العمل بنفسك . عليك أن تفكّر فى ما هو صائب . عليك أن تحاول تقييم ذلك تقييما نقديّا بينما ، نعم ، فى نفس الوقت ، يتعيّن أن تعمل لإخراج الأشياء إلى المجتمع بصفة منظّمة و منضبطة ، **على أساس** إرشاد القيادة التى تُقدّم ، و حينها كذلك عليك أن تتأكّد من أنّك تساهم فى التحليل المنهجي و ترجع الصدى بشأن ما تعترضه ، ما كنت تقوم به و ما كنت تتعلّمه كي يستطيع كلّ هذا أن يغذّي السيرورة الجماعيّة ككلّ و يغنيها. هذه مقاربة علميّة للممارسة الثوريّة الجارية .

<u>سؤال</u>: أعتقد أن هذا متّصل أيضا بمسألة دور القادة الفرديّين البارزين و خاصة دور بوب أفاكيان لأنّه لمجرّد العودة إلى ما كنت قلته قبل لحظة ، أنت تشيرين إلى نقطة أنّ بوب أفاكيان على بعد أميال إلى الأمام نسبة إلى أي شخص آخر فى كلّ من تطوير النظريّة و كذلك فى تطبيقها ، الممارسة العمليّة للنظريّة . لذا كنت أتساءل إن كنت تستطيعين الحديث أكثر

شيئا ما عن نوع العلاقة الكامنة هنا أو التى يجب أن تكون عندما يكون لدينا شخصا كبوب أفاكيان الذى قد تقدّم عمليّا بالفهم و كيف أنّ ذلك يساهم عمليّا فى إطلاق تلك المبادرة كما تقولين ، بشكل منظّم و منضبط .

جواب : حسنا ، بالنسبة إلي هي مسألة مادية علميّة أساسيّة فهم أنّ كلّ فرد لن يملك ذات القدرات ، لن يكون لكلّ فرد نفس مستوى الفهم ، و هذا للتذكير فقط بأمر بديهي . و أعتقد أنّ كلّ شخص يملك بعض الإستقامة ، بعض المبادئ و النزاهة و يقوم عمليّا ببعض الدراسة عن كثب لأعمال الكثيرة التى طوّرها بوب أفاكيان طوال عدّة عقود سينذهل لواقع أنّ ... سواء قبلت بذلك أم لم تقبل ، إن كنت شخصا نزيها و شريفا له مبادئ يجب أن تكون قادرا على التعرّف بسرعة على أنّ هذه الأعمال من صنف و نطاق كبير أبعد ممّا يسود فى المجتمع عامة ، أبعد ممّا صار يطلق عليه القيادة فى ما يسمّى بالحركات السياسيّة أو حتّى الحركات الثوريّة ، فى تاريخ المدّة الأخيرة . إنّ بوب أفاكيان واحد من أولئك الأشخاص الذين يظهرون مرّة فى فترة زمنيّة طويلة ، مع تغيّر العالم ، مع تغيّر المجتمع ... فى إطار هذه التغيّرات و التطوّرات الموضوعيّة ، أحيانا يبرز أشخاص قد طوّروا بصفة خاصة قدرات و ملكات و بعض الطرق الجديدة للتفكير و بعض المقاربات الرائدة لقيادة و تغيير الأشياء فى بعض الإتّجاهات الجديدة . وهذا صحيح فى كلّ مجال . و من الأكيد أنّ هذا صحيح فى العلوم الطبيعيّة، و فى أشياء مثل الرياضة و الموسيقى أو عديد المجالات الأخرى من الفنّ و الثقافة . فقط فكّروا فى ذلك للحظة و أنا متأكّدة أنّكم ستجدون أمثلة من شتّى المجالات . و لعدد من الأسباب المختلفة ، تتجمّع أحيانا عوامل وتأثيرات بطرق غير متوقّعة ، هناك ببساطة أشخاص يبرزون بشكل دوري يتمتّعون بميزات خاصة وقدرات و ملكات خاصة فى وقت معيّن ، ونوعا ما يصعدون فوق الجميع فى مجالهم . و الجريمة صراحة هي أن لا ينوى أناس آخرون فى المجتمع الإعتراف بذلك ، أو حتّى التأكّد الجدّي و إلقاء نظرة جيّدة لرؤية إن كان الأمر كذلك فعلا . لقد إستغرق وقت طويل قبل أن يتمّ الإعتراف بالرؤية الثاقبة الرائدة لشخص مثل جون كولتراين و تقديره حق قدره فى مجال موسيقى الجاز على سبيل المثال . أوّلا ، صمّ الناس آذانهم و نعم كانت مقطوعاته الفردية طويلة جدّا ! [ضحك] جدّيا مع ذلك ، خاصة عندما يكرّس شخص كامل حياته لمحاولة إيجاد عالم أفضل لكافة الإنسانيّة ، ينبغى أن تفكّروا فى أنّ هذا يستحقّ على الأقلّ أن يستمع له الناس بآذان صاغية – و عمليّا يقرأوا و يدرسوا ما تقدّم به – و ليس مجرّد الإنخراط فى إستبعاد سهل دون حتّى البحث الجدّي فى ما الذى وقع التقدّم به . و يثيرنى إلى ما لا نهاية له أن معظم الناس اليوم الذين ينخرطون فى " الإستبعاد السهل دون التفاعل الجدّي " مع بوب أفاكيان و مجمل أعماله ، أناس فى حدّ ذاتهم ليس لديهم شيء ملموس يقدّمونه بمعنى أي نوع من البرامج و الحلول الجدّية لمشاكل العالم المعقّدة . يجب أن لا نكفّ عن طرح سؤال : " ما هو برنامج**ك**؟ ما هي إستراتيجيّت**ك** ؟ ما هوحلّ**ك** ؟ لمشكل الفظائع المتكرّرة الناجمة عن هذا النظام ؟ و إن لم يكن لديك الكثير ممّا تقوله حول أي من ذلك ، إن لم يكن لديك الكثير من المادة الجدّية لتقدّمها بشأن المخطّطات و البرامج الإستراتيجيّة لتغيير منهجي ، عندئذ ربّما عليك أن تكون نزيها و أن تصمت لفترة و تقوم ببعض العمل بنفسك لعلى الأقلّ إكتشاف بأكثر شموليّة و التفاعل مع مضامين العمل الذى أنجزه طوال عدّة عقود شخص بالفعل يقترح رؤية و مخطّطا مستقبليّا له قيمته و متعدّد الأوجه و مختلف راديكاليّا و منسجم و مستند علميّا إلى الواقع .

ليس عليك أن توافق لكن من غير المعقول برأيى عدم الخوض جدّيا فى هذه الأعمال . إلاّ طبعا إن لم تكونوا تكترثون . وهو أمر أظنّ أنّه جزء كبير من المشكل فى المجتمع الراهن المنكفئ على نفسه : العديد و العديد من الناس يكترثون أكثر برعاية آراء و وجهات نظر شخصيّة يمكن أن يشعروا بأنّهم مرتاحين حيالها ، من إكتشاف مناهج و مقاربات و إستراتيجيّات و برامج يمكن عمليّا أن تمكّن الملايين ... البلايين ... من الناس من تحرير أنفسهم من الظروف الفظيعة للإستغلال و الإضطهاد الذين يسحقان حياتهم برمّتها . هذا ما نتحدّث عنه ، تحرير الناس . ما الذى تتحدّث عنه **أنت** ؟

و أعتقد أنّ أي شخص ينظر بجدّية فى أعمال بوب أفاكيان و يكون فى الأساس نزيها ، ينتهى إلى قول :" حسنا ، لم أتصوّر ببساطة تعقيد الأمر المعني و كافة التناقضات الشائكة التى يقع الخوض فيها و كلّ القطائع مع بعض الأخطاء الماضية فى المنهج و المقاربات التى قاد بوب أفاكيان إحداثها ولم أكن حقّا معتادا على الطرق التى يحاجج بها من أجل إطار جديد تماما، على جبهات مختلفة ، بشأن سيرورة كيفيّة بناء حركة ثوريّة ، أي نوع من الثورة يجب القيام به ، و كيف نحصل على إمكانيّة الظفر ، كيف يتمّ تطوير المجتمع الجديد ... لم أدرك أنّه كان يعمل على كلّ هذا بكلّ هذا العمق و الفحوى الكبيرين ..." وثمة الكثير ممّا هو جديد و الكثير ممّا هو غنيّ و معقّد بحيث أنّ كلّ شخص نزيه يتطلّع إلى وضع الأفكار المسبّقة جانبا و يكتشف حقّا أعماله بفكر منفتح سيعترف على الأرجح بسرعة بذلك و ربما قد يدفعه الفضول إلى مزيد إكتشاف الأشياء .

لكن عندها ستثار أسئلة ، ماذا عن بقيّة الناس ؟ هناك بوب افاكيان و كلّ ما يجعل منه فذّا ، لكن ما الذى يقوم به جميع الآخرين ؟ حسنا ، أوّلا ، " جميع الآخرين " ليس الشيء نفسه . هناك مستويات مختلفة من القادة الشيوعيين الثوريّين ، أناس بقوى و نقائص متباينة ، بقدرات متباينة ، وهم يقومون بمساهمات متنوّعة فى الثورة ؛ و هناك أيضا مستويات مختلفة و قدرات مختلفة لدى المساهمين فى الحركة الواسعة من أجل الثورة ؛ و هناك طبعا نوعا من الناس الجدد ، أناس ينحدرون من مروحة عريضة من الخلفيّات المتباينة ، ينخرطون فى هذا لأوّل مرّة . غير أنّ ما أودّ التشديد عليه هنا هو أنّ **لكلّ شخص** دور ينهض به فى الثورة ، **لكلّ شخص شيء يمكن أن يساهم به فى السيرورة** . و هذا شيء يروّج له دائما بوب أفاكيان و يشجّع عليه . و من المهمّ فهم أنّ هذه حركة ثوريّة **ليست فقط** للمثقّفين ، للذين يمكن أن يكون لديهم تدريب على التعاطى مع الكتابات النظريّة المجرّدة المعقّدة ؛ و أنّ هذه الحركة الثوريّة كذلك **ليست فقط** للناس القاعديّين الذين هم الأكثر إستغلالا و إضطهادا فى قاع المجتمع (على **أنّها** بالتأكيد بشكل خاص حركة من أجلهم) . هذه حركة ثوريّة هي حقّا لأي شخص يشعر بأن العالم بأكمله ، بما فى ذلك مجتمع الولايات المتحدة هذا ، يطفح بصفة مستمرّة بفظائع و ظلم و إعتداءات غير مقبولة مطلقا ، و من يريد أن **يضع حدّا** لهذه الأشياء و يعمل من أجل عالم أفضل و أكثر عدالة . عالم حيث يمكنكم عمليّا **التقدّم بإتّجاه تحرير كافة الإنسانيّة** – وليس مجرّد تحرير مجموعتكم الخاصة ، أو مجرّد " إثنيتكم " الخاصة ، لكي يتمكّن أناسكم أو إثنيّتكم من الحصول على فرصة التحكّم فى الناس الآخرين – عوض العمل بالملموس من أجل التحرير الحقيقي ل**كافة** الإنسانيّة . و هناك مكان لكلّ فرد يعتقد و يشعر بمثل هذا للمشاركة فى هذه الحركة و هناك مكان لكلّ فرد للتعلّم و التطوّر أكثر مع مشاركتهم . و أعتقد أنّه غاية فى الأهمّية بالنسبة للناس أن يدركوا أنّهم بنشاط **يُدعون إلى** أن يكونوا جزءا من هذه السيرورة ، بما فى ذلك مباشرة من قبل بوب أفاكيان ذاته ، و إلى معرفة أنّ الثورة ، و السيرورة الثوريّة ذاتها ، فى النهاية لا يمكن أن تمضي بعيدا دونهم . هذا معطى بسيطا .

لذا ، برأيى ، يتعيّن على الناس أن ينجزوا المزيد من التفكير الواعي حول **لا فقط مسؤوليّات القيادة و إنّما أيضا حول مسؤوليّات المقادين** . مسؤوليّات المقادين تجاه القيادة و كذلك مسؤوليّات القيادة تجاه المقادين . و لا أظنّ أنّ عددا كافيا من الناس فى الحركة الثوريّة يولون تفكيرا واعيا كافيا لهذا . لا يتعلّق الأمر بمجرّد جعل الناس " يفعلون الكثير من الأشياء " و مجرّد المساهمة فى التحرّكات المتنوّعة أو المبادرات المتنوّعة ، مهما كان كلّ ذلك مهمّا . من جديد ، لا يمكن للمقاربة أن تكون مقاربة مجرّد محاولة جعل الناس " يفعلون الكثير من الأشياء " . و إنّما جعل الناس على كلّ المستويات ، كلّ نوع من الأشخاص الذين يرغبون فى أن يكونوا جزءا من هذا و يمكن أن يكونوا جزءا من هذا ، يجلبوا أفكارهم و تجاربهم و أسئلتهم و مبادراتهم و يساعدوا فى مزيد تشخيص و مزيد تطوير الطرق التى بها هم و آخرون من أمثالهم يمسون قادرين على أن يكونوا جزءا ناشطا من كلّ هذا – مساهمين فى إيجاد مكانهم فى السيرورة الثوريّة ، و مساهمن فيها و عاملين على تطوير أنفسهم و كذلك غيرهم من أجل المساعدة على رفع مستوى الجميع بصفة مستمرّة . و إليكم شيئا آخر للتفكير به : ما نوع الحركة الثوريّة ستكون إن كان الناس الذين يلتحقون بها فى نوع من المستوى الأولي، الأساسي عند نقطة معيّنة ، لكن مع مرور السنوات يبدون عالقين فى مكانهم ، كما لو أنّهم لم يطوّروا أكثر بشكل له دلالته الفهم النظري و القدرات العمليّة و المناهج العلميّة أو القدرات على تولّى مزيد المسؤوليّات القياديّة الهامة . سيكون هذا موضوع عناية خاصة ، و شيء يحتاج أن تعالجه القيادة بغية تغيير هذا الوضع ، أليس كذلك ؟

هذا من ناحية و من الناحية الأخرى ، كما تعلمون ، تنظرون إلى مثال شخص كواينى واب (كلايد يونغ) الذى إنحدر من جماهير قاعديّة من السود و الذى أمضى بعض الوقت فى السجن فى سنوات عمره الأولى . يمكن للناس أن يتعرّفوا على حياته و مساهماته بفضل موقع الأنترنت المذكور أعلاه . و النقطة التى أريد أن أثيرها هنا هي أنّه تعلّم و درس و بينما كان فى السجن صار ثوريّا .درس بعمق أعمال بوب أفاكيان و إتّبع قيادته ، و أضحى هو نفسه من أعلى قيادات الحزب الشيوعي الثوري . هذا هو نوع التحوّل الملهم الذى يمكن و بالفعل يحصل خاصة فى ظلّ هذا النوع من القيادة . عديد السجناء الآن يقومون عمليّا بالدراسة الجدّية و يدرس العديد منهم بجدّية السيرورة الثوريّة و هم مصدر ثمين هائل . عندما كنت أألّف كتاب **" التطوّر "** ، وُجد الكثير من رجع الصدى الجيّد الذى جاء من بعض الناس المسجونين و الذين أتوقّع أنّهم جدّ متحمّسين ... لأنّهم أتوقّع فهموا أنّ هذا النوع من التعلّم لم يكن مجرّد تعلّم القليل ، حتّى القليل الهام جدّا ، من الوقائع و المناهج العلميّة – بعضهم بدا أنّه قد إستوعب حقّا كافة تلك المسائل الخاصة بالمنهج و المبادئ العلمية التى تكرّر التركيز عليها فى ذلك الكتاب و المتصلة وثيق الإتّصال ليس فقط بالفهم المادي للواقع كما هو فعلا (فى كلّ تناقضه و عدم تكافئه الديناميكيّين) لكن أيضا صلة كبيرة بفهم ذلك ، **ضمن هذه التناقضات بالذات** (سواء كنتم تتحدّقون عن النظام البيولوجي المتطوّر أو النظام الإجتماعي الذى سيتغيّر من خلال التدخّلات الواعية للبشر) يكمن **ذات الأساس**

لتغيّر ذلك الواقع ، أو لتغييره . لذلك بعض الناس بمن فيهم الذين يعيشون فى ظلّ ظروف السجن القاسية يبدو أنّهم إستوعبوا لماذا كلّ هذا مهمّ ، بصورة عميقة .

و مجدّدا ، سواء إنحدر الناس من ظروف غاية فى الصعوبة فى الحياة أو يعيشون ظروف إضطهاد قاسي فى المدن أو هم سجناء ، أم تحصّلوا على إمتياز التعليم الوهم أو تحصّلوا على نزر قليل من التعليم ، هناك مكان للجميع و هناك حاجة لمشاركة الجميع . أي شخص يقول " كفاية ! لن أسمح بالمزيد من هذا – جرائم الشرطة و إغتصاب النساء و الحروب التى لا تنتهى و تحطيم الكوكب ، و هذه المطاردة للناس عبر الحدود – لم أعد أقبل بعالم مثل هذا، لن أوافق على أنّ هذا هو السبيل الوحيد ، أو أفضل طريقة ، يكون عليها العالم ، كلّ من يشعر صراحة على هذا النحو ، وهو جدّي ونزيه بشأن إرادة التعلّم و الدراسة و النقاش و المساهمة الفعليّة فى النضال الثوري ، سيجد مكانا فى الحركة من أجل الثورة و يجب عليه من البداية تعلّم ما يعنيه النهوض بمهمّة القيادة .

و إذا أردتم تعلّم القيادة فى الحركة الثوريّة ، إليكم نصيحة : أدرسوا كيف يقود بوب أفاكيان . أدرسوا ما الذى يمثّله فى كتبه و كتاباته و فى خطاباته و أشرطته ، فى أشياء مثل الحوار الذى أجراه مع كورنال واست . أدرسوا ما يقوم به : كيف يتحدّث إلى مختلف شرائح الناس ؛ و ما الذى يركّز عليه و كيف يعالج المشكل فى المجتمع ؛ و كيف يقدّم الحلول ؛ و كيف لا يرضى أو يتماشى مع تخلّف الناس أو عدم فهمهم ، بل بالأحرى يجسّد ما أشار إليه مالكولم أكس : يقول للناس **ما يحتاجون إلى سماعه .** حتّى إن لم يريدوا بالضرورة سماعه ، يقول لهم الحقيقة و ما يحتاجون إلى سماعه . أدرسوا صراعات بوب أفاكيان ، بشكل متكرّر و على أرض الواقع ، مع الحضور ، مع مختلف أنواع الحضور ، لإيصالهم إلى موقع أفضل ، إلى مستوى أرقى من الفهم . ثمّ أمضوا قُدما و أعملوا على القيام بذلك بأنفسكم ، فى عملكم الثوري ، فى نقاشاتكم مع العائلة و الأصدقاء . تعلّموا من المناهج و كونوا جزءا من السيرورة الثوريّة على ذلك النحو . و عموما ، أبقوا فى تفكيركم العلاقة الهامة بين القيادة و المقادين . هذا شيء لكلّ شخص يعمل فيه الفكر ، كلّ شخص يرغب فى أن يكون جزءا من الحركة الثوريّة .

[...]

التمرّدات الكبرى فى العالم و الحاجة الكبرى إلى المقاربة العلميّة للخلاصة الجديدة

سؤال: ملقين نظرة على الصعيد العالمي فى السنوات القليلة الماضية و ثمّ مركّزين النظرعلى العقدين الماضيين ، نلفى الكثير من الأماكن فى العالم حيث حدثت تمرّدات كبرى و حتّى نضالات ثوريّة – أو ملقين نظرة على السنوات القليلة الأخيرة ، لم توجد كثيرا من النضالات الثوريّة و إنّما وجدت أشياء مثل الإنتفاضة الأولى فى مصر حيث إضطرّ رأس الحكم ، مبارك ، إلى التنحّى ، و نضالات أخرى كانت جزءا من المراحل الأولى ممّا يسمّى ب " الربيع العربي " . ما أحاول إثارته هو تصوّروا الإختلاف ، بالذات فى ذلك الإطار ، إن وُجد عمليّا لبّ من المناضلين من أجل الخلاصة الجديدة، و كانت الخلاصة الجديدة حقّا قوّة على النطاق العالمي .

جواب : أجل ، أعتقد أنّ مصر مثال جيّد و بوب أفاكيان أصدر بيانا هاما و جيّدا جدّا حول مصر سيستحقّ العودة إليه و قراءته . يثير الإعجاب أن الشعب وقف للقتال ضد الإضطهاد ... و الناس ... و منهم خاصة الكثير من الشباب و طلبة المعاهد فى مصر كانوا يرغبون حقّا فى القتال ضد النظام الإضطهادي . و العديد منهم يرغبون فى عالم أفضل و ليس لأنفسهم فحسب كأشخاص بل للمجتمع ككلّ و كانوا يرغبون فى النضال ضد الإعتداءات . ولدينا عديد الحالات المشابهة برزت فى العالم حيث أظهر الناس شجاعة كبيرة و وضعوا أنفسهم على المحكّ و قدّموا التضحيات و تعرّضوا للسجن و للقتل – لسنا نتحدّث عن الناس الذين لم يخاطروا بالكثير . بيد أنّه إن لم يكن لديكم فهم عميق بما فيه الكفاية ليس **لمصدر المشكل** فحسب (بمعنى الرأسمالية – الإمبرياليّة و كيفيّة تداخلها مع المشاكل فى بلد معيّن و فى نظام معيّن) بل أيضا للإتجاه الذى يجب على الأشياء أن تسير فيه ، إستراتيجيّا للتمكّن من العمل بإتجاه نوع جديد من النظام سيكون فعلا تحرّريا و يمكن أن يوجد نوعا جديدا من النظام ، مجتمعا إشتراكيّا جديدا ليحلّ محلّ المجتمع الإضطهادي الذى تسعون لتخطّيه – إذا لم يكن لديكم ذاك النوع من الفهم ، عندئذ لن تمضوا بعيدا . ستقدّمون الكثير من التضحيات و سترون الكثير من الناس المتحلّين بالشجاعة يتقدّمون و يقاتلون بشراسة حقّا . لكن حينها ، حتّى و إن عرفوا بعض النجاحات على المدى القصير ، فإنّه سيقع الإنقلاب عليهم . هذا ما حدث فى مصر أين تدخّل الجيش بيد حديديّة ثقيلة . لذا إن لم تكن لديكم مثل ذلك الفهم العلمي الأعمق و الأكثر إستراتيجيّة لكلّ من المشكل و الحلّ ، إن أمكن القول ، لن تنتهوا فى الأساس إلى

المضي بعيدا ، تنزعون إلى أن يقع سحقكم و إرجاعكم إلى الوراء أو يقع إيقافكم . نرى هذا يحدث المرّة تلو المرّة ، لذا علينا أن ندرك طرق كسر هذه الدائرة .

لدى الناس كلّ أنواع الخلط . لا يدرك الناس حتّى أنّه ليست هناك بلدان إشتراكية فعلية فى عالم اليوم . يعتقدون أنّ الصين إشتراكيّة أو ربّما كوبا شيوعيّة . ليستا شيوعيّتين . لقد أبقتا على الإسم لكن لا شيء شيوعي فى نظاميهما . أو يعتقد الناس أن شخصا مثل تشافيز فى فنزويلا كان ممثّلا لصنف جديدعظيم من الثورة . لا ليس كذلك . لم يقطع أبدا مع العلاقات الإمبريالية . لقد وُجد بعض الناس الجيّدين حقّا الذين ناضلوا من أجل و عمليّا يحلمون بعوالم أفضل غير أنّه إن لم يجروا تحليلا ماديّا ، بطريقة منهجيّة و صارمة، لن يفهموا حقّا فهما عميقا بما فيه الكفاية الشيء الذى يقفون ضدّه وكيفيّة إختراقه. مهما تكن نواياكم ، كأفراد أوكمجموعات من الناس ، ستخرجون عن المسار أو سيقع الإلتفاف عليكم أو ستسحقون . و هذا ما يجب علينا تجنّبه . و إلى اليوم لا يزال بعض الناس مضطربين بشأن كوبا . كوبا لم تكن أبدا و حقّا ثورة إشتراكية أصيلة و سرعان ما أصبحت مرتهنة للإتحاد السوفياتي الذى كان هو ذاته زمنها رأسماليّا إمبرياليّا ، فى نهاية خمسينات القرن العشرين . وجدت عناصر ثورة ... وُجدت الجسارة و وُجدت التضحيات ، وُجدت بعض الرؤى و بعض الأحلام لدي الكثير من الكوبيّين بعالم جديد – لكنّهم لم يتوصّلوا إلى تحقيق ذلك .

خلال الحرب مع فرنسا و تاليا مع الولايات المتحدة ، قدّم الفتناميّون تضحيات جسام ... مات **ملايين** الفتناميّين للتخلّص من إحتلال الإمبريالية و ضحّى الملايين و قاتلوا بشراسة و ماتوا محاولين تحرير بلدهم من هذا النوع من الهيمنة . و العديد منهم كانوا ينتظرون أشياء حتّى أكثر من ذلك ، أبعد من مجرّد التحرير الوطني . كانت لديهم فكرة أنّهم سيوجدون مجتمعا أفضل غير أنّهم أبدا لم تتوفّر لهم فرصة الإنطلاق فى بناء مجتمع إشتراكي جديد ذلك أنّ الناس القياديّين لم يمتلكوا الأفق الصحيح و المناهج الصحيحة و لم يكونوا ينطلقون حقّا من الأهداف الأسمى و كذلك لم يفهم العدد الكبير من الذين كانت تتمّ قيادتهم أنفسهم بما فيه الكفاية ، لم يمتلكوا تلك الأدوات العلميّة ليتمكّنوا عمليّا من تشخيص واضح لما كان يجرى و للتمكّن من التقدّم بقيادة جديدة و أفضل . لذا وُجد قدر كبير من القتال و التضحية من جانب الشعب لكن تاليا لم تمض الأمور إلى مكان جديد ، إلى مكان أفضل .

هناك دروس مريرة جدّا علينا التعلّم منها . وهذا جزء ممّا أقصده حينما أقول إن كنتم علماء جيّدين ، **تتعلّمون من الأخطاء**، من السقطات و من الإنحرافات . **يجب** أن تتعلّموا منها . ليس بوسعكم مجرّد تجاوز ذلك . ليس بوسعكم قول " حسنا ، كانت تلك محاولة جيّدة ، لنتجاوز ، لننظر ما الذى يمكن أن يأتي به النهوض التالي " . لا . يجب حقّا العمل على فهم **لماذا** تخرج الأشياء عن المسار إن كنتم ترغبون فى إدراك كيف تمضون بالأشياء إلى الأمام فى إتّجاه جيّد من أجل الإنسانيّة . وهذا كثير ممّا إشتغل و يشتغل عليه بوب أفاكيان . هذا ما يشتغل عليه طوال الوقت .

<u>سؤال</u> : فى إطار ما تتحدّثون عنه ، ماذا سيعنى لو كان لهذه الخلاصة الجديدة ، ليس فى هذا المجتمع فحسب بل على النطاق العالمي ، تأثير واسع حقّا و أعداد أكبر فأكبر من الناس يتفاعلون معها ، لكن فى نفس الوقت ، فى علاقة بذلك ، يوجد عمليّا لبّ من الناس الذين يتبنّون هذه الخلاصة الجديدة و يصبحون مقاتلين متحمّسين من أجلها ؟

<u>جواب</u> : ستصبح الخلاصة الجديدة للشيوعية ما يطلق عليه الناس أحيانا **" قطبا جذّابا "** فى هذا المجتمع و فى العالم . ستصبح **إطارا مرجعيّا** . سيتفحّصها الناس عبر العالم و يتعرّفون عليها و على ذلك الأساس يحاولون تطوير السيرورة الثوريّة فى أنحائهم الخاصة من العالم كجزء من الحركة العالميّة . و من الأمثلة الأكثر مرارة حيث إفتقد هذا هو ما حصل فى الشرق الأوسط ، لعقود الآن . فتلك البلدان فى الشرق الأوسط قد وقع نهبها و الهيمنة عليها لأجيال من قبل الإمبرياليّين الأجانب الذين مباشرة أو عبر الأنظمة الرجعيّة التى أرسوها و دعّموها ، قد شوّهوا تطوّر وتسبّبوا فى خلق مشاكل إجتماعيّة هائلة و بالتأكيد حالوا دون مضي التطوّر فى الإتّجاه الجيّد و تلبية حاجيات الشعب . لذلك يوجد قدر هائل من الغضب و الإستياء بشأن كلّ هذا فى الشرق الأوسط اليوم و طبعا هناك قدر هائل من الغضب و الإستياء بشأن واقع أنّ إجابة الإمبرياليّين الوحيدة إزاء المشاكل المستعصية الحلّ التى خلقوها هم ذاتهم فى الشرق الأوسط هي قصف الناس بالقنابل ، مدينة بعد مدينة ، و بلدا بعد بلد. هذه هي الطريقة الوحيدة التى يعرفونها فى التعاطي مع الأشياء : لديهم مشاكل، أقصفوهم بالقنابل ! و قد تسبّبوا فى عذابات و دمار لا حدّ لهما عبر الشرق الأوسط .

و قد دعّم الإمبرياليّون أيضا الدولة الإسرائيليّة ، دولة إسرائيل القمعيّة التى كانت فى الأساس تكرّس سياسات الإبادة الجماعية بوحشيّة تجاه الشعب الفلسطيني فى المنطقة و لأجيال الآن . دولة إسرائيل يدعمها الإمبرياليّون الأمريكان

و غيرهم من الإمبرياليّين ومن غير المقبول ، من غير المقبول تماما ، أن يستمرّ هذا . و إنّها لمفارقة مريرة ، مثلما أشار بوب أفاكيان ، أنّ الدولة اليهوديّة هي التى تقف وراء هذه الفظائع . فمثلما وضع ذلك ،**" بعد محرقة الهولوكوست ، أسوء ما حدث لليهود هو دولة إسرائيل . "** و هذا صحيح بشكل مطلق .لأنّه عندما تفكّرون فى الإبادة الجماعيّة لستّة ملايين يهودي قتلوا على يد هتلر و النازيّين فى محرقة الهولوكست فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، من المرير جدّا مواجهة واقع أنّ دولة إسرائيل الصهيونيّة التى أنشأت عقب الحرب العالميّة الثانية بإعادة رسم الخريطة ، وطرد الشعب الفلسطيني من أجزاء كبيرة من فلسطين و الإستيلاء على أرضه ، و أنّ هذه اللاشرعيّة المركّزة و الدولة الصهيونيّة بالوحشية التى لا توصف تواصل إلى يومنا هذا قيادة اليهود ، من كلّ الشعوب – أناس يجب أن يعلموا شيئا عن ما يعنيه التعرّض إلى إبادة جماعيّة – أن يقترفوا هم أنفسهم فظاعات إبادة جماعيّة ضد الشعب الفلسطيني !

من المهمّ الإقرار بأنّه مثلما عرض ذلك بوب أفاكيان فى الحوار مع كورنال واست ، هناك طريقتين لتلخيص التجربة التاريخيّة للمحرقة . واحدة هي ، الطريقة الصحيحة ، أن نقول : " لا يجب تكرّر هذا مرّة أخرى أبدا " . و الطريقة الأخرى هي قول " لأنّ شعبنا تعرّض لأشياء فظيعة ، كلّ ما نقوم به الآن مبرّر، لذا ببساطة سنستولى على هذه الأرض كوطن لنا، و سنطرد و نخضع الفلسطينيّين الذين يعيشون فيها وأيّ أناس آخرين يتجرّأون على معارضتنا ، سنفعل أشياءا لفائدتنا فحسب ، لا تهمّ إنعكاسات ذلك على الآخرين " .

من المهمّ عدم محو الإختلاف بين اليهوديّة و الصهيونيّة . اليهوديّة ديانة و ثقافة قديمة ، لكن الصهيونيّة حركة سياسيّة و إيديولوجيا سياسيّة – و اليوم هي حركة سياسيّة ، إيديولوجيا فاشيّة تماما . إنّ دولة إسرائيل الصهيونيّة ، التى لم تكن توجد حتّى قبل الحرب العالميّة الثانية ، ركّزت نفسها كدولة يهوديّة ، كملجأ مفترض لليهود المضطهَدين ، وهي اليوم تلقى دعما من العديد ، و ربّما حتّى من أغلب اليهود ، فى كلّ من الشرق الأوسط و حول العالم . لكن من المهمّ تذكّر أنّ اليهود ليس جميعهم صهاينة. وفى الواقع ، تاريخيّا ،عديد اليهود فى عديد أنحاء العالم ، بما فى ذلك فى الولايات المتحدة ، كانوا ماركسيّين راديكاليّين و شيوعيّين ثوريّين . رأيى هوأنّه هناك تماما بعض الناس فى الحزب الشيوعي الثوري اليوم خلفيّتهم العائليّة يهوديّة بيد أنّهم إختاروا أن يصبحوا ثوريّين متحمّسين ملتزمين بالعمل من أجل تحرير **كافة** الإنسانيّة ؛ يمقتون عن حقّ دولة إسرائيل و لا صلة لهم بها عدا فضح جرائمها و التنديد بها و معارضتها . و لسوء الحظّ ، ليس هناك اليوم يهود كفاية يشعرون بالشيء نفسه . لكن هناك البعض . و يحتاج عددهم أن يرتفع حقّا ! لذا كنت فرحة جدّا بأن رأيت فى المدّة الأخيرة أن بعض اليهود التقدّميين هنا و هناك فى النهاية قد تجمّعوا و قطعوا خطوة إلى الأمام فى الفضح العلني للسياسات الإجراميّة لدولة إسرائيل ، معلنين لكلّ من يدوّ السماع: " ليس بإسمنا ! " ونحتاج رؤية كمّ كبير من ذلك، نحتاج رؤية كمّ كبير آخر من اليهود الأكثر تقدّميّة يخطون خطوات إلى الأمام ليقولوا لدولة إسرائيل و للإمبرياليين الداعمين لها فى الولايات المتحدة و فى غيرها من الأماكن ، " كفّوا عن تكريس سياسات إبادة جماعيّة تجاه شعب آخر بإسمنا ، بإسم اليهود ، بإسم المحرقة و التضحيات التى حدثت خلال المحرقة . كفّوا عن ذلك ! " نحتاج إلى رؤية المزيد من ذلك النوع من الموقف .

لكن أنظروا إلى كلّ هذا الوضع فى الشرق الأوسط . هناك الحروب الإمبرياليّة التى لا تنتهى و جيوش الإحتلال . هناك التدمير غير المعقول . و هناك كلّ هذا التشويه على يد اللصوص الإمبرياليين الذى لم يتوقّف طوال عقود . و ما الذى يصعد فى علاقة بكلّ ذلك ؟ هؤلاء الأصوليين الإسلاميين المجانين الذين يصولون و يجولون فى محاولة منهم لمأسسة العنف و التخلّف و القواعد و القوانين الإقطاعيّة ، و لتحقيق هذا بإقتراف أعمال من العنف الذى لا يصدّق – ونعم ، عنف وحشي و عنف مقرف و لا شيء يبرّره . و من الصحيح مع ذلك أنّه حتّى و إن كان كلّ هذا العنف الوحشي يصوّر فى بعض أشرطة الفيديو وهو موضوعيّا مرعب ، فإنّ هذه الفظائع التى يقترفها الأصوليّون الإسلاميّون المتشدّدون لا تقترب إلى مدى و نطاق العنف الوحشي و الفظائع التى يقترفها النظام الإمبريالي ، بما فى ذلك إمبريالية الولايات المتحدة و عبر العالم ، طوال مئات السنين و تماما إلى اليوم . إنّ الجرائم ضد الإنسانيّة و الفظائع العنيفة المقترفة من قبل الولايات المتحدة و الإمبرياليّين الإمبرياليّين طوال السنوات كانت على **نطاق غير مسبوق تاريخيّا** . هذا واقع موثّق . لذا لا يجب أن ينسى الناس ذلك . فى الواقع ، كلّ من لا يدرك ذلك لا يدرك أنّ هذا يمثّل نقطة للنظر فى العنف الراهن و الفظائع الموثّقة جيّدا التى إقترفها الإمبرياليّون طوال أجيال عدّة . و هذا شيء أبرزه بوب أفاكيان فى مسار الحوار الذى يمكن للناس أن يتفحّصوه بأنفسهم . إنّه مداه الهائل بأكمله . دعونا لا ننسى من هم اللصوص الأكبر و من هم المجرمون الأكبر و المموّل الكبير للعنف الوحشي حول العالم ، و هم بالذات هنا فى الولايات المتّحدة و فى بلدان إمبرياليّة أخرى ، قادة هذه البلدان . و علينا أن نعي ذلك جيّدا .

لكن وبعد قول ذلك ، بداهة من المقرف لو كانت الإجابة و المقاومة المنظّمة حقّا الوحيدة لنهب هؤلاء الإمبرياليّين تنتهي إلى أن تبقى بيد هؤلاء الأصوليّين الإسلاميّين المتزمّتين الذين يريدون أن يمأسسوا النظرات الدينيّة المتخلّفة و أن يفرضوا القوانين القمعيّة و الإضطهادية القاسية على كافة المجتمع ، بما فى ذلك تقليص النساء إلى أدنى شكل من أشكال الملكيّة . و لا أحتاج المضي أكثر فى هذا . أعتقد انّه بديهي تماما أنّ نظرتهم للمجتمع ليست نظرة يُتطلّع إليها ، و هذا أقلّ ما يقال فيها ، و هم يسعون إلى فرضها بتعنيف الناس بالطرق الأكثر وحشيّة . و من الأشياء التى شدّد عليها بوب أفاكيان بصفة متكرّرة و أنا اشاطره الرأي فيها ، أنّهما **لا يمكن أن يكونا الخيارين الوحيدين** : مسايرة الإمبرياليّين و ما تسمّى بديمقراطيّتهم، ديمقراطيّتهم البرجوازيّة ، و التى هي بحدّ ذاتها مبنيّة على عنف و وحشيّة هائلة و لا تتوقّف ، أو مسايرة " البديل " الذى يطرحه الأصوليّون الإسلاميّون المجانين ... أي نوع من الإختيار سيكون ذلك ؟ علينا أن نقدر على القيام بما هو أفضل من ذلك **!** لقد وقع العديد من الناس فى الإضطراب لأنّ على السطح ، توفّر الديمقراطية البرجوازية للإمبرياليين فى بلد مثل الولايات المتحدة بعض الحرّيات خاصة لبعض الفئات الأكثر إمتيازات من ضمن السكّان بيد أنّه لا ينبغى أن نسمح لأنفسنا بأن ننسى أنّها تقوم بذلك على حساب الشعوب فى العالم المضطهَدين و على حساب الناس المضطهَدين فى هذا البلد . و بعض الفوائد التى يمكن أن يتمتّع بها الناس بفضل الديمقراطيّة البرجوازيّة مبنيّة على دماء و عظام (تماما) أناس فى هذه البلاد و حول العالم . هذا من جهة ومن الجهة الأخرى ، هناك هؤلاء الأصوليّين الإسلاميّين الذين يريدون العودة إلى نوع من الخلافة الدينيّة الإضطهاديّة وفرض هذا النمط من الحكم على كافة المجتمع . هذان البديلان الرجعيّان لا يمكن أن يمثّلا الخيارات الوحيدة للشعوب حول العالم . و لا يجب أن يكون ذلك كذلك . هناك أساس للقتال ضد نهب الرأسمالية – الإمبريالية العالمية على قاعدة مستنيرة أكبر ، على قاعدة ثوريّة أكثر حقيقة ، قاعدة تبحث عن توحيد قطاعات عريضة جدّا من الإنسانيّة فى قتال للتخلّص من النظام الرأسمالي – الإمبريالي و عمليا لإيجاد نوع جديد تماما من المجتمع سيفيد غالبيّة الإنسانيّة و سيمضى قدما و ليس خلفا ، على قاعدة مستنيرة أكثر بكثير .

فهارس كتب شادي الشماوي

30 كتابا
متوفّرا للتنزيل من مكتبة الحوار المتمدّن

(" الماوية : نظرية و ممارسة " - من العدد 1 إلى العدد 30)

شكر :

و من الشكر جزيله إلى كلّ من ساهم و يساهم بشكل أو آخر فى نشر أعمالنا و نقدها نقدا بنّاء و تقديم المقترحات ... خدمة للثورة البروليتارية العالمية و لقضيّتنا و هدفنا الأسمى ، الشيوعية على المستوى العالمي .

فهرس الكتاب الأوّل :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 1 –

علم الثورة البروليتاريّة العالميّة : الماركسيّة – اللينينيّة - الماويّة

III/ الفصل الثالث : وثائق أحزاب شيوعية ماوية :

بصدد الماركسية – اللينينية – الماوية .
الماركسية – اللينينية – الماوية .
الماركسية – اللينينية – الماوية : الماوية مرحلة جديدة فى تطوّرعلم الثورة .
حول الماوية .
ليست الماركسية – اللينينية – الماوية والماركسية – اللينينية – فكر ماو تسى تونغ الشيئ نفسه .

ملاحظتان لا بدّ منهما :

1- الترجمة غير رسمية .

2- الفصل الأول معتمد على ترجمة قديمة أعدّها رفاق جرى العمل على ضبطها قدر الإمكان.

فهرس الكتاب الثاني :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 2 –

عالم آخر، أفضل ضروري و ممكن ، عالم شيوعي ... فلنناضل من أجله !!!

- مقدمة

- الفصل الأول : عالم آخر ، أفضل ضروري

1- عبودية القرن الواحد والعشرين .

2- بيع النساء : تجارة البشر العالمية.

3- الإمبريالية و الأيدز فى أفريقيا.

4- كوكبنا يصرخ من أجل الثورة .

- الفصل الثانى : عالم آخر، *أفضل ممكن:* عالم شيوعي.

1- الشيوعية تصوروها بألوان حقيقية .

2- تعتقدون أن الشيوعية فكرة جيدة لكنها غير قابلة للتطبيق؟ قوموا بهذا الإختبار القصير و أعيدوا التفكير .

3- ما هي الشيوعية ؟ ما هو تاريخها الحقيقي؟ ما هي علاقتها بعالم اليوم ؟

4- الشيوعية ليست إيديولوجيا "أوروبية" و إنما هي إيديولوجيا البروليتاريا العالمية.

5- مقياس من مقاييس تقدم المجتمع : من تجارب دكتاتورية البروليتاريا بصدد تحرير المرأة .

- الفصل الثالث: الإشتراكية أفضل من الرأسمالية و الشيوعية ستكون أفضل حتى !

مقدمة الفصل

1- الإشتراكية و الشيوعية.

2- الثورة التى هزت العالم بأسره هزا.

3- تجربة أولى فى بناء الإشتراكية .

4- الثورة الصينية تنجز إختراقا آخر .

5- القطع مع النموذج السوفياتي.

6- الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى صراع بين الطريق الإشتراكي و الطريق الرأسمالي.

7- هزيمة الصين الإشتراكية و الدروس المستخلصة للمستقبل.

8- البناء على أساس الموجة الأولى من الثورات الإشتراكية .

خاتمة :

- هدف الماركسية هو الشيوعية.

ملاحظة : المقدّمة العامة و الخاتمة العامّة وملحق الفصل الأوّل بقلم المترجم. و نصوص الفصلين الأوّل و الثاني مقالات وردت فى "الثورة" لسان حال الحزب الشيوعي الثوري،

الولايات المتحدة الأمريكية أمّا الفصل الثالث فهو محاضرة لريموند لوتا نشرت فى "الثورة " و ترجمها إلى الفرنسية و نشرها رفاق الكندا على حلقات فى " الأرسنال أكسبريس ".

فهرس الكتاب الثالث :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 3 –

لندرس الثورة الماويّة فى النيبال و نتعلّم منها

(من أهمّ وثائق فترة 1995- 2001)

فهرس الكتاب الرابع :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 4 –

الثورة الماويّة فى الصين : حقائق و مكاسب و دروس

2 - مقتطفات من وثيقة صيغت فى الذكرى الخمسين للثورة الصينية .

3 - حقيقة الثورة الثقافية .

4 - حقيقة الحرس الأحمر.

5 - حقيقة التيبت : من الدالاي لاما إلى الثورة.

6- خرافات حول الماوية .

3 - الفصل الثاني : شهادات حية :

1- " كنا نحلم بأن يكون العالم أفضل مما هو عليه اليوم ".

2 - نشأة فى الصين الثورية.

3 **-** " الثورة الثقافية المجهولة - الحياة و التغيير فى قرية صينية."

4- الفصل الثالث : من الصين الإشتراكية إلى الصين الرأسمالية :

1- من صين ماو الإشتراكية إلى صين دنك الرأسمالية: برنامج دنك الذى طبّق إثر إنقلاب 1976 يميط اللثام حتى أكثر عن الخطّ التحريفي الذى ناضل ضدّه الشيوعيون الماويون.

2- كابوس سوق دنك الحرة.

3- الوجه الحقيقي لل"معجزة الصينية ".

4- إنهاء عمل "الأطباء ذوى الأقدام الحافية " و الأزمة الصحية فى الريف الصين .

5- نهاية دنك سياو بينغ عدو الشعب.

5- الفصل الرابع : من تحرير المرأة إلى إستعبادها :

1- كسر سلاسل التقاليد جميعها .

2- كيف حررت العناية الجماعية بالأطفال النساء فى الصين الماوية.

3- النساء فى الصين : السوق الحرة الرأسمالية القاتلة.

4- النساء فى الصين : عبودية السوق الحرة .

5- النساء فى الصين : منبوذات السوق الحرة .

6- الفصل الخامس : من مكاسب الثورة الماوية فى الصين :

1- المكاسب الإقتصادية و الإجتماعية فى ظل ماو.

2- المعجزات الإقتصادية للصين الماوية، حين كانت السلطة بيدي الشعب.

3- كيف قضت الثورة الماوية على الإدمان على المخدرات فى الصين.

4- كيف حررت العناية الجماعية بالأطفال النساء فى الصين الماوية.

5- كسر سلاسل التقاليد جميعها.

6- معطيات و أرقام من كتاب "25 سنة من الصين الجديدة ".

7- الفصل السادس : إلى الأمام على الطريق الذى خطّه ماو تسى تونغ

8 – خاتمة

المراجع : بإستثناء-1- نصّ "مقتطفات من وثيقة صيغت..." و " إلى الأمام...."وهي نصوص للحركة الأممية الثورية صدرت فى "عالم نربحه" و-2- "خرافات حول الماوية " للرفيق أريك سميث من كندا ، و "معطيات و أرقام من كتاب " 25 سنة من الصين الجديدة"، و-3- المقدّمة العامة و مقدّمة "حقيقة ماو تسى تونغ والثورة الشيوعية فى الصين" و مقال "من صين ماو الإشتراكية إلى صين دنك الرأسمالية..." للمترجم ،

فإن بقية الوثائق مرجعها "الثورة" جريدة الحزب الشيوعي الثوري، الولايات المتحدة الأمريكية.

فهرس الكتاب الخامس :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 5 –

الثورة الماويّة فى النيبال و صراع الخطّين صلب الحركة الأمميّة الثوريّة

1- **" ثورة النيبال : نصر عظيم أم خطر عظيم ! "** ،

الحزب الشيوعي الإيراني (الماركسي – اللينيني- الماوي).

2- وثائق الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية :

مقال "الثورة "عدد160 : بصدد التطورات فى النيبال و رهانات الحركة الشيوعية :

- بعض الخلفية التاريخية.
- الوضع الراهن.
- التحوّل إلى التحريفية ، جذوره وإنعكاساته.
- الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) يردّ على الحزب الشيوعي الثوري ،الولايات المتحدة الأمريكية عمليا و نظريا.
- سويسرا جنوب آسيا أم قاعدة إرتكاز للثورة؟
- مساومة مع التحريفية فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى قطيعة راديكالية .
- رهانات هذا الصراع و الحاجة الآن إلى تقديمه إلى العالم.

رسائل الحزب الشيوعي الثوري ،الولايات المتحدة:

-1: **فى رسالة جانفى 2009**، بعد عرض مقتضب جدا لما سبق من مراسلات و صراع منذ 2005 ، تعلم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الثوري الولايات المتحدة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي النيبالي الموحّد (الماوي) عزمها نشر الرسائل علنيا إذا لم تتصل بردّ شافي أو بسبب مقنع فى حدود منتصف فيفري2009.

-2 : **رسالة أكتوبر 2005** إلى الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) :

- الديمقراطية : الشكل و المضمون.
- الديمقراطية الشكلية فى ظلّ الإشتراكية.
- الجمهورية الشعبية أم أشكال إنتقالية؟
- التكتيك و الإستراتيجيا.
- إقتراح يبعث على التساؤل.
- حول "المجتمع الدولي".
- النيبال و النظام الإمبريالي العالمي.
- الديمقراطية و الفئة الوسطى.

ملاحق رسالة أكتوبر 2005 :

- ملحق 1: "التطوير الخلاق للماركسية-اللينينية-الماوية ، ليس للتحريفية".

- ملحق 2 : "مزيدا من التفكير حول : الدولة الإشتراكية بما هي دولة من نوع جديد".

-3 : **رسالة 19 مارس 2008** إلى أحزاب و منظمات الحركة الأممية الثورية :

- تكتيكات مربكة تطبيقا لخطّ إيديولوجي و سياسي خاطئ.

- ما الهدف : "إعادة هيكلة الدولة " أم "تحطيمها"؟

- الديمقراطية البرجوازية و الديمقراطية الجديدة.

- الديمقراطية البرجوازية "النسبية " أم نظام الديمقراطية الجديدة ؟

- الأرض لمن يفلحها.

- حول الدستور و الحكم الطبقي.

- الممارسة الثورية.

- من يخدع من ؟

- تسليح الجماهير بالحقيقة أم نسج الإرتباك عمدا؟

- توغلياتي و توريز.

- إعادة كتابة تاريخ الحزب.

- مزيد التنكّر للحقائق التاريخية.

- البعد العالمي.

- "مزج الإثنين فى واحد " أم "إزدواج الواحد" ؟

- الدفاع عن الإنتقائية.

- جوهر المسألة - الخطّ الإيديولوجي و السياسي.

- ما هو نوع التلخيص الإيديولوجي الذى نحتاج إليه؟

رسالة نوفمبر 2008 إلى الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) و إلى كافة أحزاب و منظمات الحركة الأممية الثورية:

- المشكلة هي خطّ الحزب

- الديمقراطكية الجديدة والإشتراكية حجرين أساسيين فى الطريق نحو الشيوعية.

- معجزة الإنتخابات؟

-" دون جيش شعبي لن يكون هناك شيئ للشعب "

- جزء من إعادة بعث الشيوعية الثورية أم جزء من قبرها ؟

- تلخيص جديد أم ديمقراطية برجوازية قديمة ممجوجة ؟

- "محرّرو الإنسانية" أم مشيّدو سويسرا جديدة ؟

- صراع خطّين أم صراع " الخطوط الثلاثة" ؟

- خلاصة القول : لنقاتل من أجل إنقاذ الثورة !

<u>3- رسالة الحزب الشيوعى النيبالي (الماوي) إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية:</u>

1 جويلية 2006

-الإطار التاريخي.

- التجربة التاريخية و جهودنا.

- الدولة ، الديمقراطية و دكتاتورية البروليتاريا.

- الجمهورية الديمقراطية - شكل إنتقالي .

- الإستراتيجيا و التكتيك.

- الجمهورية الديمقراطية الجديدة للنيبال و الجيش .

- نقاط ملخصة.

- خاتمة

<u>4-" لنقاتل من أجل إنقاذ الثورة فى النيبال"، الشيوعيون الثوريون الألمان :.</u>

1- دور النظرية و الأخطاء الإستراتيجية التاريخية.

2- الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) و النظرة المادية للمجتمع و التاريخ.

3- الهجوم الإستراتيجي ، "حلّ سياسي" و المنهج العلمي الشيوعي.

4- مسألة الإستراتيجيا ،إتفاق السلام الشامل وإفتكاك السلطة عبر البلاد بأسرها.

5- الواقع وواقع المزج القاتل بين الإختزالية و البراجماتية.

الخاتمة.

<u>5- رسالة مفتوحة إلى الحزب الشيوعى النيبالى الموحّد (الماوى) من الحزب الشيوعى الهندي (الماوى) :</u>

1- تحديد طبيعة الدولة فى النيبال و آفاق إنهاء الثورة.

2- بصدد الحكومة الإئتلافية.

3- بصدد قواعد الإرتكاز و نزع سلاح جيش التحرير الشعبي.

4- بصدد ديمقراطية القرن الواحد و العشرين.

5- بصدد طريق الثورة فى البلدان شبه المستعمرة شبه الإقطاعية : نظرية المزج.

6- بصدد مرحلة الثورة فى النيبال.

7- بصدد فهم الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) للتوسعية الهندية.

8- بصدد الفيدرالية السوفياتية لجنوب آسيا.

9- بصدد طريق برانشندا.

10- بصدد الأممية البروليتارية.

11- لن يتمكّن خط ثوري من إعادة تركيز نفسه و إنجاز الثورة النيبالية إلاّ عبر خوض صراع صارم ضد الخطّ الإنتهازي اليميني الذى تتبعه قيادة الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي).

<u>6- ملاحق</u> :

1- <u>حول طرد الحزب الشيوعي النيبالي (ماشال) من الحركة الأممية الثورية.</u>

2- <u>بعض الوثائق النيبالية المتصلة بالإنتخابات و نتائجها فى النيبال:</u>

3- <u>تصريحات ماويين آخرين حول النيبال:</u>

فهرس الكتاب السادس :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 6 –

جمهوريّة إيران الإسلاميّة : مذابح للشيوعيّين و قمع و إستغلال و تجويع للشعب

بدلا من المقدّمة :

فهرس الكتاب السابع :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 7 –

مدخل لفهم حرب الشعب الماويّة فى الهند

من تمرّد نكسلباري إلى الحزب الشيوعي الهندي (الماوي).

4 - ليس بوسع أي كان أن يغتال أفكار "آزاد" !

ليس بوسع أي كان أن يوقف تقدّم الثورة !

5- رسالة من الحزب الشيوعي الهندي (الماوي) إلى الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي)

فهرس الكتاب الثامن :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 8 –

تحرير المرأة من منظور علم الثورة البروليتاريّة العالميّة :

الماركسيّة –اللينينيّة –الماويّة

المقدّمة العامة للمترجم:

الفصل الأوّل: تحرير المرأة من منظور علم الثورة البروليتارية العالمية ، الماركسية – اللينينية – الماوية.

1- لنكسر القيود ، لنطلق غضب النساء كقوة جبارة من أجل الثورة !

2- الإمبريالية و الرجعية تضطهدان المرأة و تستعبدانها و الشيوعية تكسر قيودها و تحررها.

3- حركة نسائية من أجل عالم آخر بلا رجعية و لا إمبريالية .

الفصل الثاني : تشانغ تشنغ : الطموحات الثورية لقائدة شيوعية.

الفصل الثالث: مشاركة النساء فى حرب الشعب فى النيبال

1- مشاركة المرأة فى حرب الشعب فى النيبال.

2- مسألة جعل النساء فى مراكز قيادية فى حرب الشعب.

3- مشاركة المرأة فى الجيش الشعبي .

الفصل الرابع: الإعداد للثورة الشيوعية مستحيل دون النضال ضد إضطهاد المرأة ! و تحرير المرأة مستحيل دون بلوغ المجتمع الشيوعي!

- مقدمة

1- واقع يستدعى الثورة.

2- الإعداد للثورة الشيوعية مستحيل دون النضال ضد إضطهاد المرأة ! و تحرير المرأة مستحيل دون بلوغ المجتمع الشيوعي!

3- مساهمات فى تغيير الواقع ثوريا.

الفصل الخامس : الثورة البروليتارية و تحرير النساء

1- الثورة البروليتارية و تحرير النساء ...

2- بيان : من أجل تحرير النساء و تحرير الإنسانية جمعاء.

فهرس الكتاب التاسع :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 9 –

المعرفة الأساسيّة لخطّ الحزب الشيوعيّ الثوريّ ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة

(من أهمّ وثائق الحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية)

2- الثورة التى نحتاج و القيادة التى لدينا.

3- الشيوعية : بداية مرحلة جديدة .

4- القانون الأساسي للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية.

5- من أجل تحرير النساء و تحرير الإنسانية جمعاء.

6- ملاحق :

أ- رسالة مفتوحة إلى الشيوعيين الثوريين و كلّ شخص يفكّر جدّيا فى الثورة بصدد دور بوب آفاكيان و اهمّيته.

ب- ما هي الخلاصة الجديدة لبوب آفاكيان؟

ت- حول القادة و القيادة.

ث- لمزيد فهم خطّ الحزب الشيوعي الثوري ،الولايات المتحدة الأمريكية : من أهمّ المواقع على النات.

فهرس الكتاب العاشر:

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 10 –

الثورة البروليتارية فى أشباه المستعمرات والمستعمرات الجديدة

و فى

البلدان الإمبريالية – تركيا و الولايات المتحدة الأمريكية

مقدّمة العدد العاشر

الجزء الأول :

الثورة البروليتارية فى أشباه المستعمرات– الحزب الشيوعي الماوى (تركيا و شمال كردستان)

1- الوثيقة الأولى : " النموذج" التركي و تناقضاته.

2- الوثيقة الثانية : لن ننسى الرفيق إبراهيم كايباكايا.

3- الوثيقة الثالثة : الماوية تحيى و تناضل ، تكسب و تواصل الكسب.

4- الوثيقة الرابعة : المؤتمر الأوّل للحزب الشيوعي الماوي (تركيا و شمال كردستان)

5- الوثيقة الخامسة : غيفارا، دوبريه و التحريفية المسلّحة.

الجزء الثانى :

الثورة فى البلدان الإمبريالية – الحزب الشيوعي الثورى ،الولايات المتحدة الأمريكية

1- الوثيقة الأولى : بصدد إستراتيجيا الثورة.

2- الوثيقة الثانية : دستور الجمهورية الإشتراكية الجديدة فى شمال أمريكا (مشروع مقترح).

ملحق :

دور الديمقراطية و موقعها التاريخي .

فهرس الكتاب 11 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 11 –

الماويّة تدحض الخوجيّة ومنذ 1979

1- بإحترام و حماس ثوريين عميقين، نحيّي القائد الخالد للبروليتاريا الصينية، الرفيق ماو تسى تونغ، فى الذكرى الثالثة لوفاته! – الحزب الشيوعى التركى / الماركسى-اللينينى، جويلية 1979.

2- دفاعا عن فكر ماو تسى تونغ؛ وثيقة تبنّاها مؤتمر إستثنائى للحزب الشيوعى بسيلان إنعقد فى جويلية 1979 .

(و إضافة إستثنائية: " **دحض أنور خوجا** " ؛ **ن. ساموغاتاسان، الأمين العام للحزب الشيوعي بسيلان - 1980**.)

3- "***تقييم عمل ماو تسى تونغ"؛*** **للحزب الشيوعي الثوري الشيلي**- جويلية 1979.

4-" فى الردّ على الهجوم الدغمائى - التحريفى على فكر ماو تسى تونغ " بقلم ج. وورنار؛ ماي 1979.

فهرس الكتاب 12 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 18 –

مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسى تونغ

مقدّمة لشادي الشماوي ناسخ الكتاب و معدّه للنشر على الأنترنت

المحتويات :

3- الإشتراكية و الشيوعية.

4- المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب.

5- الحرب و السلم.

6- الإمبريالية و جميع الرجعيين نمور من ورق.

7- كونوا جريئين على الكفاح و على إنتزاع النصر.

8- الحرب الشعبية.

9- الجيش الشعبي.

10- قيادة لجان الحزب.

11- الخطّ الجماهيري.

12- العمل السياسي.

13- العلاقات بين الضبّاط و الجنود.

14- العلاقات بين الجيش و الشعب.

15- الديمقراطية فى الميادين الثلاثة الأساسية.

16- التعليم و التدريب.

17- خدمة الشعب.

18- الوطنية و الأممية.

19- البطولة الثورية.

20- بناء بلادنا بالعمل المجد و الإقتصاد فى النفقة.

21- الإعتماد على النفس و النضال الشاق.

22- أساليب التفكير و أساليب العمل.

23- التحقيقي و الدراسة.

24- تصحيح الأفكار الخاطئة.

25- الوحدة و التضامن.

26- النظام.

27- النقد و النقد الذاتي.

ملحق أعدّه شادي الشماوي:

مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسى تونغ بصدد الثورة الثقافية

===

فهرس الكتاب 13 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 13 –

الماويّة تنقسم إلى إثنين

و القرار 2 الصادر عن الإجتماع الخاص بالأحزاب والمنظمات الماركسية – اللينينية – الماوية المنتمية إلى الحركة الأممية الثورية من أجل ندوة عالمية للأحزاب و المنظمات الماركسية – اللينينية – الماوية فى العالم . (غرّة ماي 2012.)

و ب- رسالة إلى الأحزاب و المنظمات المنتمية إلى الحركة الأممية الثورية ،

الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية – غرّة ماي 2012.

الفصل الثانى : " نظرتان متعارضتان لنظام الدولة الإشتراكية " :

أ-" نظام الدولة الإشتراكية "، لآجيث ، الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي- اللينيني) نكسلباري.

و ب- " النقاش الراهن حول نظام الدولة الإشتراكية "، ردّ من الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية / 2006.

الفصل الثالث : " موقفان متعارضان من " الخلاصة الجديدة " لبوب آفاكيان " :

أ- " موقفنا من الخطّ الجديدة للحزب الشيوعي الثوري و بيانه و قانونه الأساسي"، الحزب الشيوعي (الماوي) الأفغاني ، أكتوبر 2010.

و ب - " ردّ أولي على مقال" دراد نوت" بشأن " الخلاصة الجديدة لبوب آفاكيان"، سوزندا آجيت روبا سنغى ، رئيس الحزب الشيوعي السيلاني (الماوي) ، 18 أفريل 2012.

الفصل الرابع : تعمّق النقاش حول الخلاصة الجديدة لبوب آفاكيان (1): ردّ من أفغانستان.

ردّ على رسالة غرّة ماي للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية .

(الحزب الشيوعي (الماوي) الأفغاني)

الفصل الخامس : تعمّق النقاش حول الخلاصة الجديدة لبوب آفاكيان (2): ردّ من المكسيك.

الخلاصة الجديدة للشيوعية و بقايا الماضى .

المنظمة الشيوعية الثورية ، المكسيك – ماي 2012

الفصل السادس : خلافات عميقة بين الحزبين الماويين الأفغاني و الإيراني :

أ- الحزب الشيوعي الإيرانى (الماركسي – اللينيني – الماوى) سقط فى تيه طريق " ما بعد الماركسية – اللينينية – الماوية ".

ب- نظرة على الإختلافات بين الحزب الشيوعي الإيراني (الماركسي – اللينيني – الماوي) و الحزب الشيوعي (الماوي) الأفغاني .

فهرس الكتاب 14 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 14 –

برنامج الحزب الشيوعى الإيرانى (الماركسى - اللينينى – الماوى) (2000)

مقدّمة مترجم برنامج الحزب الشيوعى الإيرانى (الماركسى– اللينينى – الماوى)

=============================

I /الثورة العالمية و البرنامج الأقصى

مقدّمة :

الماركسية – اللينينية – الماوية :

الماركسية :

اللينينية :

ثورة أكتوبر

الماوية :

الثورة الصينية

مواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا :

السياسة و الثقافة و الإقتصاد فى المجتمع الإشتراكى

الشيوعية العالمية والمرحلة الإنتقالية :

الدولة البروليتارية : الديمقراطية و الدكتاتورية :

الدولة و الحزب :

الدولة و الإيديولوجيا :

الدولة و الدين :

الدولة و الثقافة :

الدولة و الدعاية :

الحرّية و القمع و المقاربة المتصلة بالمعارضة :

الإقتصاد الإشتراكى :

العلاقة بين البلدان الإشتراكية و الثورة العالمية :

تناقضات النظام العالمي و صورة العالم الراهن :

II / الثورة فى إيران و البرنامج الأدنى

لمحة عن إيران المعاصرة

الهيمنة الإمبريالية :

الرأسمالية البيروقراطية :

شبه الإقطاعية :

ثلاثة جبال و علاقات إنتاج مهيمنة على المجتمع :

الدولة شبه المستعمرة فى إيران :

الجمهورية الإسلامية و ثورة 1979 :

الطبقات و موقعها فى سيرورة الثورة فى إيران

طبقات البرجوازية – الملاكين العقاريين :

البرجوازية الوسطى (أو البرجوازية الوطنية) :

البرجوازية الصغيرة المدينية :

المثقّفون :

الفلاحون :

الفلاحون الأغنياء :

الفلاّحون المتوسّطون :

الفلاحون الفقراء و الذين لا يملكون أرضا (أشباه البروليتاريا فى الريف) :

شبه البروليتاريا المدينية :

الطبقة العاملة :

بعض التناقضات الإجتماعية المفاتيح

النساء :

القوميات المضطهَدَة :

الشباب :

طبيعة الثورة و آفاقها

فى المجال السياسى :

فى المجال الإقتصادى :

فى المجال الثقافى :

الخطوات الفورية و إرساء إتجاه التغيير

بشأن العمّال :

بشأن الفلاحين :

بشأن النساء :

بشأن القوميات المضطهَدة :

بشأن التعليم :

بشأن الدين و النشاطات الدينية :

عن بعض أمراض المجتمع

البطالة :

الإدمان على المخدّرات :

البغاء :

المدن المنتفخة و اللامساواة بين الجهات :

السكن :

الوقاية الصحّية و الرعاية الطبيّة :

الجريمة و العقاب :

العلاقات العالمية :

طريق إفتكاك السلطة فى إيران

لنتقدّم و نتجرّأ على القتال من أجل عالم جديد!

فهرس الكتاب 15 / 2014 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 15 –

- الإجتماع الخاص و رسالة الحزب الشيوعي الثوري .

- أخلاقيات الجدال الأفاكيانية .

- المراحل التعسّفية للأفاكيانية .

- عرض مشوّه لماو .

- تشويه الأممية .

- المهمّة الوطنية فى الأمم المضطهَدة .

- المسألة الوطنية فى البلدان الإمبريالية .

- نقد طفولي لتكتيك الجبهة المتحدة .

- تقويض الإقتصاد السياسي الماركسي .

- الوضع العالمي .

- الديمقراطية الإشتراكية .

- الحقيقة و المصالح الطبقية و المنهج العلمي .

- نقد عقلاني للدين .

- بعض مظاهر الأفاكيانية " المابعدية " .

- الصراع صلب الحركة الأممية الثورية .

- أخبث و أخطر .

- الهوامش.

2- حول " القوّة المحرّكة للفوضى " و ديناميكية التغيير .

نقاش حاد و جدال ملحّ : النضال من أجل عالم مغاير راديكاليّا و النضال من أجل مقاربة علمية للواقع.

<u>لريموند لوتا</u>

I - إختراق حيوي : " القوّة المحرّكة للفوضى " كديناميكية حاسمة للرأسمالية :

أ- خلفية :

ب- حفريّات فى الإقتصاد السياسي :

II - رفض معالجة طبيعة المراكمة الرأسمالية – أو لماذا " الرأسمالي تجسيد لرأس المال " :

مزيدا عن المنافسة :

III - القوّة المحرّكة للفوضى و العالم الذى يخلقه رأس المال و يدمّره :

أ- الأزمة البيئية :

فهرس الكتاب 16 / 2014 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 16 –

الأساسيّ من خطابات بوب أفاكيان و كتاباته

==

فهرس الكتاب 17 / 2014 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 17 –

قيادات شيوعيّة ، رموز ماويّة

مقدّمة :

الفصل الأوّل : تشانغ تشنغ : الطموحات الثورية لقائدة شيوعيّة

1- مقدّمة

2- ثائرة على العادات

3- يانان : طالبة لدى ماو و رفيقة دربه

4- الإصلاح الزراعي و البحث الإجتماعي

5- التجرّأ على الذهاب ضد التيّار

6- الهجوم على البناء الفوقي ...و حرّاسه

7- ثورة فى أوبيرا بيكين

8- قائدة للثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

9- إفتكاك السلطة

10- الطريق المتعرّج للثورة

11- القطع مع الأفكار القديمة

12- صراع الخطين يتخطّى مرحلة جديدة

13- المعركة الكبرى الأخيرة

14- موت ماو و الإنقلاب الرأسمالي

15- المحاكمة الأشهر فى القرن العشرين : " أنا مسرورة لأنّنى أدفع دين الرئيس ماو **!** " .

16- زوجة ماو و رفيقة دربه طوال 39 سنة

17- قُتلت حتى يثبت العكس

18- لنتجرّا على أن كون مثل تشانغ تشنغ

الفصل الثاني : تحيّة حمراء لشانغ تشن – تشياو أحد أبرز قادة الثورة الثقافيّة البروليتارية الكبرى الماويين

1- التجرّأ على صعود الجبال من أجل تحرير الإنسانية (جريدة " **الثورة** ")

2- عاصفة جانفي بشنغاي (جريدة " **الثورة** ")

3- بصدد الدكتاتورية الشاملة على البرجوازية (تشانغ تشن- تشياو)

4- على رأس الجماهير و فى أقبية سجون العدوّ : مدافع لا يلين عن الشيوعية.(أخبار "**عالم نربحه** ".)

الفصل الثالث : إبراهيم كايباكايا قائد بروليتاري شيوعى ماوي

1- لن ننسى الرفيق إبراهيم كايباكايا

2- موقف حازم إلى جانب حقّ الأمّة الكردية التى تعاني من الإضطهاد القومي الوحشي فى تركيا ، فى تقرير مصيرها

3- خطّ كايباكايا هوطليعتنا – مقتطف من الماوية تحيى و تناضل ، تكسب و تواصل الكسب

4- بصدد الكمالية (مقتطف)

5- المسألة القومية فى تركيا

الفصل الرابع : شارو مازومدار أحد رموز الماوية و قائد إنطلاقة حرب الشعب فى الهند

1- خوض الصراع ضد التحريفية المعاصرة

2- لننجز الثورة الديمقراطية الشعبية بالنضال ضد التحريفية

3- ما هو مصدر التمرّد الثوري العفوي فى الهند؟

4- لنستغلّ الفرصة

5- مهامنا فى الوضع الراهن

6- لنقاتل التحريفية

7- المهمّة المركزيّة اليوم هي النضال من أجل بناء حزب ثوري حقيقي عبر النضال بلا مساومة ضد التحريفية

8- حان وقت بناء حزب ثوري

9- الثورة الديمقراطية الشعبية الهندية

10- الجبهة المتحدة و الحزب الثوري

11- " لنقاطع الإنتخابات" ! المغزى العالمي لهذا الشعار

12- لننبذ الوسطية و نفضحها و نسحقها

الفصل الخامس : تحيّة حمراء للرفيق سانموغتسان الشيوعي إلى النهاية

1- حول وفاة الرفيق سنموغتسان / لجنة الحركة الأممية الثورية

2- الرفيق شان : شيوعي إلى النهاية / الحزب الشيوعي السيلاني (الماوي)

3- مساهمة ماو تسى تونغ فى تطوير الماركسية – اللينينية / سنموغتشان

4- دفاعا عن فكر ماو تسى تونغ / سنموغتسان

5- دحض أنور خوجا / سنموغتسان

=======================================

فهرس الكتاب 18 / 2015 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 18 –

من ردود أنصار الخلاصة الجديدة للشيوعيّة على مقال " ضد الأفاكيانيّة " لآجيث

مقدّمة

1- حول " القوّة المحرّكة للفوضى " و ديناميكية التغيير

نقاش حاد و جدال ملحّ : النضال من أجل عالم مغاير راديكاليّا و النضال من أجل مقاربة علمية للواقع

I - إختراق حيوي : " القوّة المحرّكة للفوضى " كديناميكية حاسمة للرأسمالية :

أ- خلفية :

ب- حفريّات فى الإقتصاد السياسي :

II - رفض معالجة طبيعة المراكمة الرأسمالية – أو لماذا " الرأسمالي تجسيد لرأس المال " :

مزيدا عن المنافسة :

III - القوّة المحرّكة للفوضى و العالم الذى يخلقه رأس المال و يدمّره :

أ- الأزمة البيئية :

ب- التمدين والأحياء القصديرية :

ت- الأزمة العالمية ل2008-2009 :

IV - الرهانات : نظام لا يمكن إصلاحه ... هناك حاجة إلى الثورة :

- الهوامش :

2- الحزب الشيوعي النيبالي – الماوي (الجديد) و مفترق الطرق الذى تواجهه الحركة الشيوعية العالمية :

مقدّمة

الجزء الأوّل : الوضع اليوم و إدعاءات الحزب الشيوعي النيبالي – الماوي

الجزء الثاني : الحركة الشيوعية العالمية و الحزب الجديد

المنعرج اليميني فى النيبال : مناسبة للغبطة لدى بعض المراكز

ملاحظات مقتضبة ختاميّة عن الحزب الشيوعي النيبالي – الماوي و الصراع صلب الحركة الأممية الثورية ، و الخلاصة الجديدة للشيوعية :

ملحق من إقتراح المترجم

الثورة النيبالية و ضرورة القطيعة الإيديولوجية و السياسية مع التحريفية .

كلمة للمترجم :

مفترق طرق حاسم : رسالة مناصر للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحزب الشيوعي النيبالي – الماوي المعاد تنظيمه .

3- الشيوعية أم القومية ؟

مقدّمة

1- موقفان متعارضان ، هدفان مختلفان و متعارضان جوهريا :

2- مواصلة تطوير علم الشيوعية أم التمسك بأخطاء الماضى و تمجيدها ؟

3- النظام الرأسمالي – الإمبريالي نظام عالمي :

4- فى البلدان المضطهَدَة : القتال من أجل بلد رأسمالي مستقلّ أم من أجل ثورة تتبع الطريق الإشتراكي كجزء من الإنتقال إلى الشيوعية العالميّة ؟

5- إدماج بلدان فى النظام الرأسمالي – الإمبريالي جعل الثورة الإشتراكية ممكنة فى البلدان الأقل تطوّرا رأسمالياّ :

6- البروليتاريا : طبقة أمميّة فى الأساس أم " بصفة خاصة قوميّة شكلا و مميّزات " ؟

7- الأساس الفلسفي للأممية البروليتارية :

8- عدم قدرة القوميّة الضيّقة على تصوّر السيرورة العالميّة و تفاعلها الجدلي مع التناقضات الداخليّة للبلدان :

9- ما الذى تعلمنا إيّاه التجربة التاريخية الحقيقيّة للثورة البلشفيّة ؟

10 – هل أنّ حملة الحروب الإمبريالية محدّدة أساسا بخصوصيّات كلّ بلد ؟

11- القوميّة و الإقتصادويّة بإسم " الخصوصيّات " أم تغيير الظروف إلى أقصى درجة ممكنة للقيام بالثورة ؟

12- الأممية – العالم بأسره فى المصاف الأوّل :

13- فى البلدان الإمبريالية " نداء العزّة القوميّة " أم تطبيق الإنهزاميّة الثوريّة ؟

14- الإيديولوجيا الشيوعية فى البلدان المضطهَدَة يجب أن تكون أيضا الشيوعية و ليس القومية :

15- التغيير التاريخي – العالمي من النظام الرأسمالي – الإمبريالي إلى النظام الشيوعي العالمي :

16- الشيوعية أم القوميّة ؟

الهوامش :

4- آجيث – صورة لبقايا الماضى

I - تمهيد : طليعة المستقبل أم بقايا الماضي

II - الثورة الشيوعية و الشيوعية كعلم و مهمّة البروليتاريا ولماذا الحقيقة هي الحقيقة :

- رفض آجيث للشيوعية كعلم
- الماديّة التاريخية : نقطة محوريّة فى الماركسية
- المنهج العلمي فى كلّ من العلوم الطبيعية و الإجتماعية
- آجيث يرفض المنهج العلمي فى العلوم الإجتماعية
- آجيث وكارل بوبر

III - الموقع الطبقي و الوعي الشيوعي :

- " مجرّد المشاعر الطبقية " و الوعي الشيوعي
- دفاع آجيث عن تجسيد البروليتاريا
- مساهمة لينين الحيوية فى الوعي الشيوعي
- البروليتاريا وكنس التاريخ
- القومية أم الأممية ؟
- التبعات السلبيّة للتجسيد فى الثورات الإشتراكية السابقة

IV - هل للحقيقة طابع طبقي ؟

- " الحقيقة الطبقية " كنزعة ثانوية فى الثورة الثقافية
- آجيث و التحزّب الطبقي

V - إستهانة آجيث بالنظريّة :

- نظرة ضيّقة للممارسة و الواقع الإجتماعي
- " الممارسة المباشرة " لماركس و إنجلز لم تكن مصدر تطوّر الماركسية
- يجب على التحزّب أن يقوم على العلم
- الدروس المكلفة ل" الحقيقة السياسيّة "

VI - بعض النقاط عن الفلسفة و العلم :

- مكانة الفلسفة فى الماركسية

- آجيث يفصل بين الفلسفة و العلم

- مقاربة آجيث شبه الدينيّة للمبادئ الأساسية للماركسية

- الحقيقة المطلقة و الحقيقة النسبيّة و تقدّم المعرفة

- إلى أي مدى يمكن أن نكون متأكّدين من معرفتنا ؟

VII - الثورة الشيوعية ضرورية و ممكنة لكنّها ليست حتميّة ... ويجب إنجازها بوعي :

- ماركس و أفاكيان بصدد " الترابط المنطقي " فى التاريخ الإنساني

- الديناميكية الحقيقية للتاريخ و النظرات الخاطئة صلب الحركة الشيوعية

- الحرّية و الضرورة و تغيير الضرورة

- فهم آجيث الخاطئ للحرّية و الضرورة

- قفزة لكن ليس إلى حرّية **مطلقة**

- لا جبريّة فى الثورة

- كيف نفهم القوانين التاريخية ؟

VIII - آجيث يجد نفسه بصحبة ما بعد الحداثة و الدين :

- تقييم أفاكيان الجدلي للتنوير

- هجوم آجيث على التنوير و تشويهه لوجهات نظر أفاكيان

- عن موقف ماركس تجاه الحكم البريطاني فى الهند

- معارضة آجيث ل " الوعي العلمي "

- العلم و المعرفة التقليدية

- آجيث يسقط فى أحضان ما بعد الحداثة

- تعويض الحقيقة ب " رواية شخصية "

- نقد غير علمي للرأسمالية

- معانقة آجيث لمدرسة فرانكفورت

- آجيث و التقليد الكانطي

IX – آجيث يدافع دفاعا بشعا و معذّبا عن الدين و سلاسل التقاليد :

- وضع حجاب على إضطهاد النساء

- التذيّل للقومية و تجميل الأصولية

فهرس الكتاب 19 / 2015 :

الماوية : نظرية و ممارسة – 19 –

نصوص عن الإنتفاضات فى بلدان عربيّة من منظور الخلاصة الجديدة للشيوعيّة

1- بيان بوب أفاكيان :

مصر 2011 : ببسالة إنتفض الملايين ... لكن المستقبل لم يكتب بعدُ.

2- نصّ محاضرن ريمون لوتا (بباريس و لندن في جوان 2011) :

الإنتفاضات في الشرق الأوسط و شمال أفريقيا أو لماذا ينبغي أن يتحوّل التمرّد إلى ثورة ضد الإمبريالية و الإضطهاد برمته .

الفصل الثاني : مقالات تحليلية من جريدة " الثورة " :

1- يمكن لملايين الناس أن يخطئوا : الإنقلاب في مصر ليس ثورة شعبية .

2- إضطرابات في مصر : أسطورة " سلطة الشعب " والثورة الحقيقية اللازمة.

3- أحداث ليبيا من منظور تاريخي ... و معمّر القذّافي من منظور طبقي ... و مسألة القيادة من منظور شيوعي .

4- سقوط نظام القذّافي في ليبيا ... و دور الولايات المتحدة و الناتو في ذلك .

5- أجندا الولايات المتحدة في سوريا – إمبريالية و ليست إنسانية .

6 - خطاب أوباما بشأن سوريا : أكاذيب لتبرير حرب لا أخلاقية .

الفصل الثالث : إلى الرفاق في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - الحزب الشيوعي الإيراني (الماركسي – اللينيني – الماوي):

الفصل الرابع : مصر و تونس و الإنتفاضات العربية : كيف وصلت إلى طريق مسدود و كيف الخروج منه - مقال من مجلّة " تمايزات " :

ملحق 1 : من المقالات الهامة الأخرى .

ملحق2 : مقال إسرائيل ، غزّة ، العراق و الإمبريالية : المشكل الحقيقي والمصالح الحقيقيّة للشعوب

ملحق 3 : فهارس كتب شادي الشماوي.

==

فهرس الكتاب 20 / 2015 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 20 –

نضال الحزب الشيوعيّ الصينيّ ضد التحريفيّة السوفياتية 1956 - 1963 :

تحليل و وثائق تاريخية

==

فهرس الكتاب 21 / 2015 :

المـاويّة : نظريّة و ممارسة – 21 –

مقدّمات عشرين كتابا عن " الماويّة : نظريّة و ممارسة "

و فى ثنايا هذا العدد 21 من " **الماوية : نظريّة و ممارسة** " ، فضلا عن المقدّمات التى ألفّنا للأعداد السابقة لهذه المجلّة ، بعض الخواتم من تأليفنا و أيضا ملاحق أردناها مكمّلة و متمّمة لمضامين الكتاب برمّته . و هذه الملاحق هي على التوالي :

الملحق 1 : قراءة في شريط – العدو على الأبواب – ستالينغراد (Enemy at the gates)

الملحق 2 : فهارس كتب شادي الشماوي

الملحق 3 : روابط تحميل العشرين كتابا من مكتبة الحوار المتمدّن

الملحق 4 : كتابات شادى الشماوي و تواريخ نشرها بموقعه الفرعي فى الحوار المتمدّن

(لتنزيل الكتاب بأكمله نسخة بى دة أف ، عليكم بمكتبة الحوار المتمدّن)

http://www.4shared.com/file/p--2OUQsce/__-______-__.html

====================================

فهرس الكتاب 22 / 2015 :

الماوية : نظرية و ممارسة – 22 –

المساهمات الخالدة لماو تسى تونغ

تأليف بوب أفاكيان

فهرس الكتاب :

==========

تفاصيل الفصول السبعة (إضافة من المترجم) :

الفصل الأوّل : الثورة فى البلدان المستعمرة :

- مقدّمة
- ماركس و إنجلز
- حروب التحرّر الوطني فى أوروبا فى فترة صعود الرأسمالية
- الإمبريالية تغير الثورة فى المستعمرات
- روسيا : جسر بين الشرق و الغرب
- لينين و ستالين يحلّلان التطوّرات
- ماو حول الثورة الصينية
- الإرتكاز بصلابة على التحليل الطبقي
- تشكّل الجبهة المتحدة
- النضال ضد الإستسلام
- الإستقلال و المبادرة فى الجبهة المتحدة
- الثورة الديمقراطية الجديدة
- القيادة البروليتارية
- الحرب الأهلية ضد الكيومنتانغ
- النضال من أجل الإنتصار الثوري
- المساهمات الفلسفية
- تطوّر السيرورة
- رفع راية الأممية البروليتارية

فهرس الكتاب 23 / 2016 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 23 –

لا تعرفون ما تعتقدون أنّكم " تعرفون " ...

الثورة الشيوعيّة و الطريق الحقيقيّ للتحرير : تاريخها و مستقبلنا

ريموند لوتا

عدد خاص من جريدة " الثورة " (عدد 323) ، 24 نوفمبر 2013

www.revcom.us

http://revcom.us/a/323/you-dont-know-what-you-think-you-know-en.html

محتويات الكتاب 23 :

- لا غرابة فى كونهم يشوّهون الشيوعية

لبوب أفاكيان

الحوار مع ريموند لوتا

الفصل الأوّل : المقدّمة

- أكاذيب الفكر التقليدي

- نحتاج إلى ثورة و عالم جديد تماما

الفصل الثاني : بزوغ الفجر – كمونة باريس

- إستخلاص ماركس الدرس الأساسي من الكمونة : نحتاج إلى سلطة دولة جديدة

الفصل الثالث : 1917 – الثورة تندلع عبر روسيا

- لينين و الدور الحيوي للقيادة الشيوعية

- نوع جديد من السلطة

- تغييرات راديكالية فى وضع النساء

- التغييرات الراديكالية : الأقلّيات القومية

- الفنون

- جوزاف ستالين

- **بناء إقتصاد إشتراكي**

- **الصراع فى الريف**

- **تغيير الظروف و تغيير التفكير**

- **منعرج : سحق الثورة فى ألمانيا و وصول النازيين إلى السلطة**

- **الأخطاء و النكسات**

- **مسألة توجّه**

- **نوعان من التناقضات**

- **علاقة حيويّة : التقدّم بالثورة العالمية و الدفاع عن الدولة الإشتراكية**

الفصل الرابع : ربع الإنسانيّة يتسلّق مرتفعات تحرير جديدة

- **ولادة ثورة**

- **الصين عشيّة الثورة**

- **إستنهاض الجماهير لتغيير المجتمع بأكمله**

- **مسألة لم تحسم : إلى أين يتجه المجتمع ؟**

- **القفزة الكبرى إلى الأمام**

- **طريق تطوّر سليم و عقلاني**

- **الحقيقة حول المجاعة**

الثورة الثقافيّة : أعمق تقدّم فى السير نحو تحرير الإنسان إلى الآن

- **خطر الإنقلاب على الثورة**

- **إطلاق العنان للشباب للشروع فى الثورة الثقافيّة**

- **الطبيعة المتناقضة للإشتراكية**

- **" كانت ثورة حقيقيّة "**

- **النقاش الجماهيري و التعبئة الجماهيرية و النقد الجماهيري**

- الأشياء الإشتراكيّة الجديدة

- " طبيعة الإنسان " و التغيير الإجتماعي

- إرسال المثقّفين إلى الريف

- أين الخطأ فى " التاريخ من خلال المذكّرات " ؟

- المعركة الكبرى الأخيرة لماو تسى تونغ

الفصل الخامس : نحو مرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

- بوب أفاكيان يتقدّم بالخلاصة الجديدة للشيوعية

- التعلّم من الثورة الثقافيّة و المضيّ أبعد منها

- العالم يحتاج إلى الخلاصة الجديدة للثورة الشيوعية

الهوامش :

-- --

الملاحق

بحثان حول الإبستيمولوجيا :

- " لكن كيف نعرف من الذى يقول الحقيقة بشأن الشيوعية ؟ "

- ردّ قارئ لجريدة " الثورة " على " أين الخطأ فى " التاريخ من خلال المذكّرات " ؟

التاريخ الحقيقي للثورة الشيوعية

==

ملاحق إضافية من إقتراح المترجم :

الملحق 1 : لهوغو تشافيز إستراتيجيا نفطية ... لكن هل يمكن لهذا أن يقود إلى التحرير ؟

الملحق 2 : كوريا الشماليّة ليست بلدا إشتراكيّا
الملحق 3 : الإستعمار من جديد بإسم التطبيع وراء إعادة إرساء العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة و كوبا

الملحق الرابع : فهارس كتب شادي الشماوي

=====================================

فهرس الكتاب 24 / 2016 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة - 24-

الصراع الطبقيّ و مواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا :

الثورة الثقافيّة البرولتاريّة الكبرى قمّة ما بلغته الإنسانيّة فى تقدّمها صوب الشيوعيّة

بمناسبة الذكرى الخمسين للثورة الثقافيّة البروليتارية الكبرى التى ألهمت و لا تزال تُلهم عبر العالم قاطبة ملايين الشيوعيين الثوريين و الجماهير الشعبيّة التوّاقين لتحرير الإنسانيّة و تشييد عالم آخر ضروري و ممكن ، عالم شيوعي ، و مساهمة منّا فى مزيد

التعريف بهذه الثورة و رفع رايتها الحمراء ، أتممنا صياغة فصول أضفناها إلى أخرى سبق نشرها لتأليف هذا الكتاب الذى ننشر اليوم.

==================================

فهرس الكتاب 25 / 2016 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 25 –

1- على الطريق الثورى مع رئيس الحزب بوب أفاكيان

لينى وولف ، جريدة " **العامل الثورى** " عدد 1224 ؛ 28 ديسمبر 2003

2 - تأمّل فى الجرأة الفكريّة

لينى وولف ، جريدة " **الثورة** " عدد 189 ، 17 جانفي 2010

3 – رحلة مع بوب أفاكيان : قائد ثوري مصمّم و إنسان يتّقد حماسا لعقود

كارل ديكس ، الناطق الرسمي بإسم الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية

جريدة " **العامل الثورى** " عدد 1240 ، 16 ماي 2004

4 - التعلّم من بوب أفاكيان : فهم العالم من أجل تغييره

ريموند لوتا ، جريدة " **العامل الثورى** " عدد 1248 ، 8 أوت 2004

5 - بعض الأفكار عن أهمّية بوب أفاكيان فى بناء حركة ثوريّة

سنسارا تايلور ، جريدة " **الثورة** " ، 29 ديسمبر 2008

6- بوب أفاكيان فى كلّ مكان - لا للمقاربة الدينية ، نعم للمقاربة العلمية فقط

بوب أفاكيان ، رئيس الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية

" الثورة " عدد 328 ، بتاريخ 2 فيفري 2014

إضافات إلى الجزء الأوّل من الكتاب

(1)

Prisoners write about Bob Avakian

What People Are Saying about Bob Avakian and *BAsics*

Comments and Reviews

(2)

سيرة مخترصة لبوب أفاكيان

المزيد بصدد بوب أفاكيان

عن موقع

Revolution Newspaper | revcom.us

===================================

(3)

حول القادة و القيادة

=====================================

الجزء الثانى : عن أهمّية الخلاصة الجديدة للشيوعية

1- ما هى الخلاصة الجديدة لبوب أفاكيان؟

ليني وولف ، جريدة " الثورة " عدد 129 ، 18 ماى 2008

2- إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

مقتطفات من كتاب : **" العلم و الثورة – حول أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة للشيوعية و قيادة بوب أفاكيان " لأرديا سكايبراك - 2015**

3- الخلاصة الجديدة للشيوعية : التوّجه و المنهج و المقاربة الجوهريّين و العناصر الأساسيّة

بوب أفاكيان ، رئيس الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكية - صائفة 2015

جريدة " **الثورة** " عدد 395 ، 13 جويلية 2015

3- إضافات إلى الجزء الثانى من الكتاب

(1)

ستّة قرارات صادرة عن اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة

(1 جانفي 2016 ، نشرت فى جريدة " الثورة " عدد 423 ، 25 جانفي 2016)

(2)

حان وقت التنظّم من أجل ثورة فعلية

رسالة من اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكية

(جريدة " **الثورة** " عدد 440 ، 23 ماي 2016)

(3)

مبادئ نوادى الثورة

(جريدة " **الثورة** " عدد 444 ، 20 جوان 2016)

(4)

كيف يمكننا الإنتصار – كيف يمكننا فعلا القيام بالثورة

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية

جريدة " **الثورة** " عدد 457 ، 19 سبتمبر 2016

==

ملاحق الكتاب 25

(1)

إلى الشيوعيّين الثوريّين فى العالم و أفغانستان : قطيعتنا مع الحزب الشيوعي (الماوي) الأفغاني

مجموعة الشيوعيّين الثوريّين - أفغانستان – سبتمبر 2015

(2)

حاجة ملحّة : رفع راية الخلاصة الجديدة للشيوعية لبوب أفاكيان ،

بيان للمجموعة الشيوعيّة الثوريّة بكولمبيا ، غرّة ماي 2016

(4) فهارس كتب شادي الشماوي

======================================

======================================
================

فهرس الكتاب 26 / 2017

الماويّة : نظريّة و ممارسة -26-

المعرفة الأساسيّة للحزب الشيوعيّ الصينيّ (الماويّ – 1974)

الحزب طليعة البروليتاريا

النضال من أجل الحفاظ على الطابع البروليتارى للحزب

II - الفكر القائد للحزب

الماركسية ، اللينينيّة ، فكر ماو تسى تونغ يمثّلون الحقيقة الأصحّ و الأكثر علميّة و ثوريّة

الماركسية ، اللينينية ، فكر ماو تسى تونغ يمثّلون مرشد عمل حزبنا

النضال من أجل الدفاع عن الفكر القيادى للحزب

III- البرنامج الأساسى و الهدف النهائى للحزب

الشيوعية هى مثل البرليتاريا الأعلى النبيل

لتحقيق الشيوعية من الضرورى المرور عبر دكتاتورية البرليتاريا

ينبغى أن نناضل طوال حياتنا من أجل تحقيق الشيوعية

IV- الخط الأساسى للحزب

الخط الأساسى هو قوام حياة الحزب

ينبغى الاعتراف تماما بالطابع المتواصل للصراع الطبقي و الصراع بين الخطين

يجب التحلّى بالرّوح الثوريّة للذهاب ضد التيّار

يجب تسوية العلاقة بين "الحبل الرئيسي " و "عقد الشبكة " بطريقة صحيحة

V- مبادئ الحزب الثلاثة حول الأشياء التى يجب القيام بها و الأشياء الثلاثة التى يجب عدم القيام بها

ممارسة الماركسية و نبذ التحريفية

العمل من أجل الوحدة و نبذ الانشقاق

التحلى بالصراحة و الاستقامة و عدم حبك المؤامرات و الدسائس

"الأشياء الثلاثة التى يجب القيام بها و الأشياء الثلاثة التى يجب عدم القيام بها " هى المبادئ الأساسية التى يجب على أعضاء الحزب احترامها

VI - القيادة الموحّدة للحزب

يجب أن يقود الحزب كلّ شيء ، هذا مبدأ أساسي في الماركسية – اللينينيّة

القيادة الموحّدة للحزب هي بالأساس قيادة إيديولوجيا و خطّ سياسي

المسك الجيّد بالمسائل الهامة و تعزيز القيادة الموحّدة للحزب

يجب على أعضاء الحزب الشيوعي أن يخضعوا عن وعي للقيادة الموحّدة للحزب وأن يحافظوا عليها

VII - المركزية الديمقراطية في الحزب

المركزية الديمقراطية هي المبدأ التنظيمي للحزب

المسك بالعلاقة بين القيادة الجماعية و المسؤولية الشخصيّة بطريقة صحيحة

تطوير الديمقراطية داخل الحزب و الحفاظ على الوحدة الممركزة

VIII- الإنضباط في صفوف الحزب

الإنضباط ضمان لتطبيق الخطّ

الإحترام الواعي للإنضباط الحزبي

التطبيق الصحيح للإنضباط الحزبي

IX- أساليب عمل الحزب الثلاث العظمى

أساليب العمل الثلاث العظمى عادة جيدة في حزبنا

أسلوب دمج النظرية بالممارسة

أسلوب الحفاظ على علاقات وثيقة مع الجماهير

أسلوب عمل ممارسة النقد و النقد الذاتي

X – تكوين خلف قضيّة الثورة البروليتاريّة

تكوين خلف قضيّة الثورة مهمّة إستراتيجيّة هامة

تكوين خلف القضيّة الثوريّة و إختيارهم فى خضمّ النضال

ليعمل الحزب كلّه لإنجاز عمل تكوين خلف للثورة على أفضل وجه

XI – مهام منظّمات الحزب القاعدية

أهمّية الدلالة التى يكتسيها تعزيز بناء منظّمات الحزب القاعدية

المهام القتالية لمنظمات الحزب القاعدية

يجب على منظّمات الحزب القياديّة أن تضمن بناءها الخاص

XII - الدور الطليعي و النموذجى لأعضاء الحزب

الدور الطليعى و النموذجى لأعضاء الحزب فى غاية الأهمية

للنهوض بالدور الطليعى و النموذجى يجب أن نتّبع " المتطّلبات الخمس "

عن وعى نعيد تشكيل نظرتنا للعالم بهدف الإنخراط فى الحزب إيديولوجيا

XIII- ظروف الإنخراط فى الحزب و إجراءاته

شروط الإنخراط فى الحزب

إجراءات الإنخراط بالحزب

المعالجة الصحيحة لمسألة الإنخراط فى الحزب

الإعتناء بجدّية بعمل إنتداب المنخرطين الجدد

XIV- رفع راية الأممية البروليتارية

الأممية البروليتارية مبدأ جوهرى فى الماركسية – اللينينية

النضالات الثورية لشعوب مختلف البلدان تساند بعضها البعض

العمل بكل ما أوتينا من جهد لتقديم مساهمة أكبر من أجل الانسانية

الهوامش بالأنجليزية

==

===

فهرس الكتاب 27 / 2017

الماويّة : نظريّة و ممارسة - 27 -

متابعات عالميّة و عربيّة – نظرة شيوعيّة ثوريّة (2016-2013)

2- الكلفة الإنسانيّة للتغيّر المناخي

3 ـ لماذا ينقرض النحل – و ما يعنيه ذلك للكوكب و للإنسانية

4 ـ إتفاق باريس حول المناخ : ليس فقط لا قيمة له بل هو ضار جدّيا

المحور الثانى : إضطهاد النساء و النضال من أجل تحطيم النظام الإمبريالى و الأصولية الدينية البطريكيين

1 ـ" يا نساء العالم إتّحدن من أجل تحطيم! "

2 ـ قتل فركهوندا جريمة فظيعة (أفغانستان)

3 ـ 8 مارس اليوم العالمي للمرأة : تنظيم النساء ضد الإضطهاد و الإستغلال الجندريين

4 ـ بناء النضال من أجل تحريرالنساء : المجد لـ8 مارس–اليوم العالمي للمرأة

5 ـ إضطهاد النساء فى أفغانستان و النظام الذى ركّزه الغرب

المحور الثالث : الإمبرياليّة و الهجرة و الموقف الشيوعى الثوري

1- هل يجب أن نجرّم المهاجرين أم يجب أن نساندهم ؟

2 ـ المجرمون و النظام الإجرامي وراء موت اللاجئين فى النمسا

3 ـ أزمة المهاجرين العالمية : ليس مرتكبو جرائم الحرق العمد للأملاك و المنازل

4 - أوروبا : نحو حلّ عسكري ل " أزمة الهجرة "

5 - الحضارة الغربيّة : " الموت للمهاجرين ! "

6 - عالم من المهاجرين و الإمبريالية و الحدود : غير مقبول و غير ضروري

7 - عدد كبير من الموتى فى البحر الأبيض المتوسّط : " لم يحدث شيء "

8 - أفغانستان : عقود ثلاثة من الهجرة الجماعية

9 - إلى متى يتواصل القبول بالمجازر فى البحر ؟

10 - منظّمة أطبّاء بلا حدود تتّخذ موقفا ضد السياسة الخبيثة للإتحاد الأوروبي تجاه مواجهة العدد التاريخي المتصاعد من المهاجرين إلى عالم لا يرحّب بهم

المحور الرابع : الإنتخابات الأمريكيّة و صعود الفاشيّة وضرورة ثورة شيوعية حقيقيّة وإمكانيّتها

الإنتخابات الأمريكية 1 : مزيد الإضطهاد والجرائم ضد الإنسانيّة فى الأفق... وضرورة ثورة شيوعية حقيقيّة وإمكانيّتها

1- المرشّحون للرئاسة يصرّحون بنيّتهم إقتراف جرائم حرب

2- الولايات المتّحدة الأمريكيّة : حول صعود دونالد ترامب ... و ضرورة ثورة حقيقيّة وإمكانيّتها

3- مقاربة علميّة جدّية لما يقف وراء صعود ترامب

بعض مؤلّفات بوب أفاكيان حول كيف وصلنا إلى هذا الوضع – و إمكانية شيء أفضل بكثير

4- ردّا على ترامب : الإجهاض ليس جريمة !

5- سؤالان إلى لويس فراخان و " أمّة الإسلام "

6- لنتعمّق فى أطروحات برنى سندارس

الإنتخابات الأمريكية 2 : ترامب و كلينتون وجهان لسياسة برجوازية إمبريالية واحدة

1- سيكون إنتخاب الديمقراطيين دعما لجرائم الحرب

2- لا – ليست إمبراطوريتنا !

ردّ ثوري على خطاب هيلاري كلينتون ضد ترامب

3- لماذا لا يجب علينا أن نصفّق لحكّامنا... و لماذا من الأفضل أن يخسروا حروبهم

الإنتخابات الأمريكية 3 : نقد الشيوعيين الثوريين لمواقف الخضر و نعوم تشومسكي

1- إلى الخضر : فى ظلّ هذا النظام لا تغيّر الإنتخابات أبدا أي شيء

نحتاج إلى الإطاحة بهذا النظام و ليس إلى التصويت له

نحتاج إلى ثورة فعلية !

2- لسنا فى حاجة إلى " التصويت للأقلّ شرّا " أو إلى " التصويت لطرف ثالث "

نحن فى حاجة إلى الإطاحة بالنظام برمّته فى أقرب وقت ممكن !

الإنتخابات الأمريكية 4 : موقف الحزب الشيوعي الثوري من إنتخاب فاشيّ لعين رئيسا للولايات المتحدّة

1- وقع إنتخاب فاشيّ لعين رئيسا للولايات المتحدّة –

لا يجب أن توجد أيّة أوهام بأنّ الأمر سيكون على ما يرام . لن يكون كذلك

2- لماذا لن أصوّت فى هذه الإنتخابات و لماذا يجب أن لا تصوّتوا أنتم أيضا ... و لماذا أدافع عن حقّ السود و غيرهم من المضطهَدين فى الإنتخاب !

3- لماذا لم تكن هيلاري كلينتون قط و ليست و لا يمكنها أن تكون مدافعة عن النساء

الإنتخابات الأمريكيّة 5 : بإسم الإنسانيّة ، نرفض القبول بأمريكا فاشيّة

1- بإسم الإنسانيّة ، نرفض القبول بأمريكا فاشيّة

إنهضوا ... إلتحقوا بالشوارع ... إتّحدوا مع الناس فى كلّ مكان لبناء مقاومة بكلّ السبل الممكنة

لا تقفوا : لا تساوموا ...لا تقبلوا بالتسويات ، لا تتواطؤوا

2- كيف يسير هذا النظام الرأسمالي – الإمبريالي و لماذا يجب الإطاحة به

3- أسئلة تطرح عادة بشأن الثورة والشيوعية (فى الولايات المتّحدة الأمريكية)

الإنتخابات الأمريكية 6 : ما هى نواة فريق إدراة دونالد ترامب الفاشي ؟ و ما هى إستراتيجيّته ؟

1- مع تشكيل ترامب لفريقه الفاشيّ ، يجب ان تتعزّز المقاومة !

2- مايك بانس : مسيحي فاشيّ ضربات قلبه ليست بعيدة عن رئاسة الولايات المتحدة

3- إعادة تكليف بانون الفاشي كأكبر القادة الإستراتيجيّين لدي ترامب

4- مستشار الأمن القومي لدى ترامب : الجنرال مايك فلين – " فى حرب مع الإسلام "

5- للإشراف على وكالة المخابرات المركزيّة إختار ترامب : مايك بمبيو – داعية للتعذيب و تمزيق حكم القانون

6- المدّعى العام لترامب جاف سيشينز : فارض تفوّق البيض و التطرّف البطرياركي

7- دونالد ترامب لن " يستعيد مواطن الشغل الأمريكيّة " ...بل بإسم مواطن الشغل الأمريكيّة سيرتكب فظائعا جديدة

8- ما يعنيه فوز ترامب للنساء : خطر لا يضاهى و الحاجة إلى قدر كبير من المقاومة الجماهيريّة

9- فوز ترامب – كارثة على البيئة تتطلّب مقاومة جماهيريّة

10- ترامب يهاجم الممثّلين ويقدّم فكرة عن مقاربته للفنّ والمعارضة : لن يسمح بأي نقد

11- إلى الذين لا زالوا ينظرون إلى برنى سندارس ...

12- يقول أوباما وكلينتون " لنتجاوز الأمر " لكنّ عشرات الآلاف يتمرّدون فى الشوارع

13- دفوس السكرتيرة الجديدة لل" تعليم " : الإقتطاع من التعليم العمومي و فرض المسيحيّة الفاشيّة

المحور الخامس : نظام عالمي إمبرياليّ قابل للإنفجار

1 - إستفتاء فى فنيزويلا : مكيدة الولايات المتحدة و حدود مشروع هوغوتشافيز و تناقضاته

2 - كوريا الشمالية - الولايات المتحدة : من يمثّل تهديدا نوويّا حقيقيّا ؟ و ما هي خلفية النزاع ؟

3 - الولايات المتحدة تهدّد كوريا الشمالية : ماذا وراء النزاع ؟

4 - إيران : الذكرى 32 لإنتفاضة آمول – " لقد أثبت التاريخ من هم عملاء الإمبريالية "

5- عشر سنوات من قيادة الحزب الشيوعي الهندي(الماوي) لحرب الشعب الماوية فى الهند وولادة سلطة حمراء جنينية

6 - الإستعمار من جديد بإسم التطبيع وراء إعادة إرساء العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة و كوبا

7- الفائز فى الإنتخابات البرلمانية التركيّة : الأوهام الديمقراطيّة

8 - الإتفاق النووي بين الولايات المتّحدة و إيران :

حركة كبرى لقوى رجعيّة ... لا شيء جيّد بالنسبة للإنسانيّة

9 - الإتفاق النووي بين الولايات المتحدة و إيران : " الولايات المتحدة تحتاج مساعدة إيران فى الشرق الأوسط "

10 - اليونان : " الخلاصة الجديدة ترتئى إمكانيّة : القطيعةُ مع القبضة الرأسماليّة الخانقة و نحتُ مستقبل مختلف ! "

11 - إنهيار سوق الأوراق المالية فى الصين : هكذا هي الرأسمالية

12 - هجوم إرهابي فى باريس ، عالم من الفظائع و الحاجة إلى طريق آخر

13 - خروج بريطانيا من الإتحاد الأوروبي (بريكسيت) صدمة للنظام الإمبريالي العالمي

14- قتل بالسيف فى بنغلاداش : حملة الأصوليين الإسلاميين لإستعباد النساء و فرض الطغيان الديني

15 - الجهاد الأصولي الإسلامي ليس جذريّا لثلاثة أسباب – وهو نهائيّا ليس إجابة حقيقيّة على الإضطهاد

16 - بستّ طُرق يحاولون خداعكم فى ما يتّصل بالثورة الثقافية فى الصين و سبب وجيه جدّا لحاجتكم إلى التعمّق فى البحث عن الحقيقة و بلوغها

الجزء الثانى : متابعات عربيّة

فهرس الكتاب 28 / 2017

الماويّة : نظريّة و ممارسة - 28 -

ماتت الشيوعية الزائفة ...

عاشت الشيوعية الحقيقية !

تأليف بوب أفاكيان

محتويات العدد 28 من " **الماويّة : نظريّة و ممارسة** " ، فضلا عن مقدّمة المترجم :

ماتت الشيوعية الزائفة ... عاشت الشيوعية الحقيقية !

الديمقراطية :

أكثر من أيّ زمن مضى بوسعنا و يجب علينا إنجاز أفضل من ذلك

ملحق " الديمقراطية :

أكثر من أيّ زمن مضى بوسعنا و يجب علينا إنجاز أفضل من ذلك "

حول الديمقراطة البروليتارية

(اللجنة المركزية لإعادة تنظيم الحزب الشيوعي الهندي (الماركسيّ – اللينينيّ))

ملحق الكتاب

فهارس كتب شادى الشماوى

فهرس الكتاب 29 / 2017

الماويّة : نظريّة و ممارسة - 29 -

دفاعا عن الشيوعية الثوريّة و تطويرها

ضد مايكل هاردت ، أنطونيو نغرى، ألان باديو، سلافوج تزتزاك و برنار دى مالو

محتويات هذا الكتاب 29 ، أو العدد 29 من " **الماويّة : نظريّة و ممارسة** " إضافة إلى المقدّمة :

- أجر مضمون إجتماعيّا

V – الديمقراطية و الفوضويّة و الشيوعيّة

- الديمقراطية و الحكم الطبقي

- إضمحلال الدولة ... في ظلّ الرأسماليّة !

3- الفصل الثالث : ألان باديو و دكتاتورية البروليتاريا أو لماذا يساوى نبذ " إطار الدولة - الحزب " نبذا للثورة

I- لماذا تصلح الدولة الإشتراكية وكيف ستضمحلّ و لماذا ينتهي ألان باديو إلى جانب الدولة البرجوازية

1- ملاحظة سريعة عن الفلسفة

2- ألان باديو لاطبقية الدولة و الشكلانية

II- الحزب في المجتمع الإشتراكي : " غير ملائم " أم وسيلة للتحرير ؟

1- مرّة أخرى عن روسو و التمثيليّة

2- " الخضوع البيروقراطي اللاطبقي " أم مرّة أخرى ، هل الخطّ هو الحاسم ؟

3- القيادة الشيوعية المؤسساتيّة و تناقض القادة – المقادين و رأي الخلاصة الجديدة بهذا الصدد

4- الفصل الرابع : القدح في الشيوعية و التزلّف للإمبريالية - تزييف سلافوج تزتزاك للحقائق و جلبه العار لنفسه

I- تحدّيات حقيقيّة و بدائل حقيقيّة و مسؤوليّات حقيقيّة

II- يرفض الخوض في الخلاصة الجديدة للشيوعية لبوب أفاكيان بينما يهاجمها هجوما غير مسؤول

III – مناهضة مسعورة للشيوعيّة تلبس قناع التفكير الجديد

IV – موقف تزتزاك المعادي لمناهضة الإمبرياليّة

V - خاتمة : تصفية حساب و دعوة إلى نقاش جريئ و صريح

- ملحق : سلافوج تزتزاك أحمق متعجرف يتسبّب في ضرر كبير

5- الفصل الخامس : فهم الماويّة فهما علميّا و الدفاع عنها بصلابة و تطويرها ، بهدف بلوغ مرحلة جديدة من الشيوعية : أفكار جداليّة حول مقال برنار دى مالو " ما هي الماويّة ؟ "

مفهوم دى مالو للماويّة :

نهاية مرحلة و بداية مرحلة جديدة :

الديمقراطيّة الراديكاليّة أم الشيوعيّة العلميّة :

المساهمات الخالدة لماو تسي تونغ :

الصراع من أجل الدفاع عن ماو تسي تونغ و إرساء أرضيّة مزيد التقدّم :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 30 -

الماركسيّة و النسويّة

تجميع و نشر

شهرزاد موجاب

إضافة إلى مقدّمة للمترجم :

-++-

====================================